الكاتب الفلسطيني

العدد "٣" حزيران « يونيو » ١٩٧٨



الكاتب الفلسطيني

العدد ٣ حزيران «يونيو» ١٩٧٨

تصدر مرة كل شهرين
عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

المواد التي تنشر تعبر عن
وجهات نظر اصحابها

●

الاشتراكات السنوية

٣٠ ل ٠ ل ٠ في لبنان وسوريا
٦٠ ل ٠ ل ٠ في بقية الاقطار العربية
١٠٠ ل ٠ ل في اقطار العالم
١٥٠ ل ٠ ل ٠ للمؤسسات

المحتويات

مقالات ودراسات سياسية

اتصالات ودراسات أدبية وفنية

الشعر

القصة

كتب

تقارير

بعد ان اصبحت كل الامور.. واضحة!

— ١ —

لم يعد ما يجري في لبنان خافيا . وذلك ان ما كان يخطط سرا ، وينفذ من خلال المناورات ، بات اليوم يطرح علنا ، وينفذ ، أو يطلب تنفيذه من خلال اللقاءات والاجتماعات الرسمية .

والمطلوب واضح ، لأنه لم يطرح في اللقاءات السرية فقط ، بل طرح ايضا في التصريحات العلنية والصحف . ويتلخص بالتالي :

(١) وقف العمليات العسكرية من الجنوب نهائيا ، واعلان ذلك ، والالتزام به.

(٢) سحب قوات الثورة الفلسطينية من الجنوب عموما ، ومن المنطقة الممتدة بين الزهراني والليطاني خصوصا ، ونقل قوات من الجيش اللبناني الى هذه المنطقة ، أو مد سيطرة قوات الردع اليها .

(٣) سحب قوات الثورة الفلسطينية من المدن ، ويبدأ الانسحاب من صور والنبطية ، ثم من صيدا وبيروت الخ .

(٤) السيطرة على وضع الثورة الفلسطينية من خلال توحيد قوات الثورة في جيش تحرير فلسطيني ، تنطبق عليه القوانين التي تنطبق على جيش التحرير الفلسطيني في الدول العربية الاخرى (سورية ، الاردن ، مصر) . واعتبار هذا الوجود هو الوجود الفلسطيني المسلح ، ولا مجال لمسلحين او لاسلحة خارجه .

وتشير المعلومات السرية والتصريحات العلنية الى ان منظمة التحرير ستأخذ في مقابل ذلك حق ممارسة النشاط السياسي والاعلامي ...

ان هذا بالطبع يعني الغاء اتفاق القاهرة الذي لم يبق من لا يشن هجمات عليه ، ويطالب بالغائه ، حتى شارل حلو الذي تم توقيعه في عهده ، وماجد حماده ((ابن البقاع البار)) ... ولقد جاءت الوثيقة النيابية لتؤكد الموقف النيابي شبه الاجماعي بالغائه ...

واذا كان ما يجري لم يعد خافيا ، فلأن المرحلة الجديدة ، بعد الاجتياح الصهيوني للجنوب ، باتت تتطلب نقلة جديدة في لبنان . وهذه النقلة تتلخص في تحويل

الوجود الفلسطيني من وجود مرتبط بجماهير ، وبمنظمات وبافكار ثورية ومطامح ثورية الى وجود رسمي نظامي ، مرتبط بالمخطط الرسمي العربي ، لا يخرج عنه .

وقناعتنا ان قوات الاحتلال الصهيونية لم تقم بالانسحابات الجزئية ، الا بناء على ضمانات تم الاتفاق عليها ، بتنفيذ ما اشرنا اليه . والقوات الصهيونية ، كما يقول المطلعون ، لن تنجز اي انسحاب آخر ، قبل ان تضمن بدء التنفيذ .

فماذا ستكون نتائج هذا كله اذا تم ؟ ..

ستكون النتائج كالتالي :

اولا : انهاء الوجود الحالي للمقاومة الفلسطينية ، مما يعني :

أ ــ ضرب الافكار والنشاطات والمنظمات ، ومن ثم الاشخاص ، التي تساهم ، والذين يسهمون في المحافظة على الثورة ، وتوفير مقومات نموها وتطويرها .

ب ــ تحويل هيكلها الى هيكل رسمي رجعي نظامي ، يساهم في قمع الشعب الفلسطيني ، واخضاعه لسياسات الانظمة .

ثانيا : توفير الاجواء الملائمة لانظمة التسوية والتصفية من اجل مواصلة نشاطاتهم الاستسلامية ، المتمثلة في الخضوع لشروط السياسة الاميركية ــ الصهيونية .

ولذلك فنحن ننبه الى خطورة ما يجري ، ونشدد على ان السماح لهذه السياسة بتحقيق اهدافها ، يعني تصفية الثورة . لأن اي وجود سياسي او اعلامي لا تحميه الجماهير ، ولا تصونه القوى المنظمة والمسلحة ، سيتحول الى اوكار لمخابرات انظمة القمع والتصفية . وتجربة الاردن لا يجوز ان تتكرر .

واذا كان هناك من يتوهم ، في قيادة المقاومة ، ان قبول مثل هذه الصفقة والمساهمة في تنفيذها ، سوف يسمح له ان يكون طرفا في ((لعبة التسوية الدولية)) فانه واهم . لان خط التشويه واضح ويتلخص بالتالي : أ ــ ضرب الثورة الفلسطينية وتفتيت ارادة الشعب الفلسطيني . ب ــ ضمان قوة العدو الصهيوني من خلال تزويده بالاسلحة المتطورة والمساعدات الاقتصادية وضمان امنه وحدوده . جـ ــ

توفير اوضاع عربية مرتبطة بالسياسة الاميركية ، لا تتيح الفرصة لاي تحرك جاد يهدد امن العدو ، والسيطرة على البلاد العربية بما يضمن بقاءها مرتبطة ، بالمخطط الامبريالي .

وهذه السياسة في الاساس هي السياسة الاميركية ــ الصهيونية ، التي تقوم الانظمة والقوى الرجعية العربية بتنفيذها . وهي سياسة موضوعة لحماية العدو الصهيوني ، ولضرب قوى الثورة العربية عموما ، واقامة انظمة رجعية عربية فاشستية تتصدى لحركة الثورة العربية . وسيتحول كل من يرتبط بهذه السياسة الى جزء من المخطط الامبريالي ــ الصهيوني ــ الرجعي .

ان نجاح هذه السياسة لا يعني تصفية الثورة الفلسطينية فحسب بل اخضاع لبنان كله لسياسة ((الجبهة اللبنانية)) ولمخططاتها المرتبطة بمخططات العدو الصهيوني .

وما يجري في لبنان ليس معزولا عما يجري من محاولات داخل المقاومة ، تستهدف سيطرة القوى الرجعية ، المرتبطة بالانظمة والقوى الرجعية العربية على المقاومة كلها .

واذا كانت هذه المحاولات ليست جديدة ، فانها اليوم اكثر فعالية ونشاطا من اي وقت مضى . وهي تتدرع اليوم بالمكتسبات التي حققتها خلال السنوات الماضية، ومنذ حرب تشرين على الاخص ، والتي جعلتها قادرة على فرض هيمنة شبه كاملة على مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية واجهزتها .

وتستهدف هذه القوى الان :

(١) فرض السيطرة الكاملة على كل مؤسسات المقاومة .

(٢) اعادة ترتيب وضع القوات والاجهزة والمكاتب بما يكفل تسلم الاتباع ودعاة التسوية كل مراكز النشاطات .

(٣) تحويل القوى المعادية للتسوية الى قوى خاضعة تابعة ، لا قدرة لها على الفعل ، وتصفية من يحاول ممارسة اي تحرك منها .

ويرى ((اليمين الفلسطيني)) انه بذلك يضمن لنفسه التفرد بالقيادة ، ويكيف نفسه مع المخطط العربي والدولي ، الهادف الى تسوية القضية ، ويحتل مكانه الطبيعي في موقعه الطبيعي ...

الا أن ((احلامها)) هذه لن تحميها من الذين تسعى للعمل بالاتفاق معهم من الرجعيين العرب . وما ذلك الا لان الانظمة الرجعية العربية لا تريد طرفا فلسطينيا يجلس معها ندا على موائد المفاوضات . ويعود ذلك الى السببين التاليين :

(١) ان العدو الصهيوني ، والامبريالية الاميركية ، يريدان تسوية مع الانظمة القائمة ، ومع الواقع القائم ولا يريدان تغييرات جوهرية في الخارطة السياسية، ولذلك فهما مع اي حوار، او تفاوض، مع الانظمة المذكورة ، ولكنهما ليسا مع قفز اي طرف فلسطيني الى المائدة ، حتى الان ، حتى لو كان رجعيا .

(٢) ان الانظمة العربية تعرف ان اية تسوية يقفز اليها طرف فلسطيني تزداد تعقيدا ، ولذلك فان هذه الانظمة كلها تريد ان يبقى الطرف الفلسطيني الند بعيدا ، على ان يكون هناك غطاء فلسطيني للعملية كلها من العملاء الفلسطينيين الصغار .

ثم ان لكل من الانظمة العربية الرجعية اطماعه في ان تكون الارض الفلسطينية تحت سيطرته ، وان تكون منظمة التحرير الفلسطينية تابعة له .

ولهذا فاننا نستطيع ان نقول ان الانظمة العربية الرجعية ، شانها شان العدو الصهيوني والامبريالية الاميركية ، تريد تصفية المقاومة كلها ، لا الطرف الوطني الديمقراطي فيها فحسب . وهي ، اذا كانت ، تعمل الآن لضرب قوى الثورة ، فان ذلك سيعني في لبنان ، كما عنى في الاردن من قبل تصفية المقاومة ومنظمة التحرير ، وابقاء مكاتب خاضعة لاجهزة المخابرات ، كما حدث في الاردن .

وهذا ما ترفض بعض القيادات الفلسطينية ان تراه ، وان تصدقه ، مع ان الوقائع اثبتته من قبل ، وتثبته اليوم ، لان هذه القيادات تركن الى القوى الرجعية العربية اكثر مما تركن الى جماهيرها . ولانها تريد التسوية ، وهي تعتقد ان التسوية يصنعها الرجعيون العرب ، ولا تصنعها قوى الثورة العربية .

وهكذا هم كالسائر الى حتفه بظلفه ...

ــ ٣ ــ

ويأتي هذا كله ايضا ضمن سياق الهجمة الامبريالية الرجعية ــ الصهيونية الشرسة التي تعم ارجاء الوطن العربي ، والتي تجسدت بالتالي :

(١) الهجوم الاميركي الواسع النطاق للسيطرة على الوطن العربي ، والذي تجسد بالمؤامرات والتحركات السياسية التي نفذت منذ سنة ١٩٧٠ حتى الآن .

(٢) النشاطات والهجمات الصهيونية التي نفذت منذ حرب الاستنزاف حتى الآن ، والتي شملت كل الجبهات (مصر ، الاردن ، سورية ، لبنان) .

(٣) النشاطات والهجمات التي نفذتها القوى الرجعية العربية في كل المجالات ، وفي مختلف انحاء الوطن العربي .

ولقد شهد الوطن العربي كله تراجعات لمصلحة الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية تمثلت بالتالي :

أ ــ وقف النشاط القتالي على كل الجبهات العربية : وضرب الثورة الفلسطينية في كل المواقع .

ب ــ ضرب القوى الوطنية والديمقراطية العربية ومحاصرتها ، ومحاولة تفتيتها او تفريغها في كل انحاء الوطن العربي ، واقامة انظمة رجعية مرتبطة ، تبيع مكاسب الجماهير ، وتضرب المنجزات الوطنية .

ج ــ فتح الابواب امام التسلل السياسي والاقتصادي الاميركي ، وتحويل السياسة العربية والاقتصاد العربي لخدمة السياسة الاميركية .

ولعل ما يدور الآن في مصر صورة مما يجري في اجزاء مختلفة من الوطن العربي ، ونموذج لما يراد له ان يجري . وهو يتلخص بالاستسلام الكامل لمخططات العدو الصهيوني — الاميركي ، وبقمع قوى الجماهير الشعبية ، وسحق ارادتها ، وبيع منجزاتها الوطنية بأرخص الاثمان .

لقد كشفت القوى الرجعية العربية عن وجهها تماما ، وانتقلت الى الارتباط السافر بالمخطط الامبريالي الاميركي والعداء السافر للشعب . ولذلك فانها الآن تخلع حتى « اقنعة » الديمقراطية المزيفة ، وتلجأ الى البطش غير المحدود . انها تنتقل كلها الى مرحلة الصراع الواقي والحروب الاهلية .

وهي في ذلك لا تعمل داخل اقطارها فحسب ، بل تعمل على الصعيدين العربي والدولي . انها عربيا تنقل المعركة الى كل مكان ترى ضرورة نقلها اليه . وهي هنا تنقل المعركة بوسائل مختلفة ، من التآمر والتخريب الى نقل القوات العسكرية . وهي على الصعيد الدولي تشارك في معارك حماية الراسمالية العالمية ، والقوى الرجعية المحلية ، كما يحدث في افريقيا .

— ٤ —

وأمام هذا كله لا بد من وقفة صادقة وواعية : فلسطينيا وعربيا . ان هذه الوقفة ضرورية ، ومن الضروري آن تتم بسرعة . فالزمن يمر والقوى الرجعية تحرز تقدما في كل المواقع .

على الصعيد الفلسطيني : يجب ان تحبط المخططات الرجعية — الصهيونية — الامبريالية ، وفي لبنان خاصة . وهذا يتطلب :

(١) تعبئة كل القوى الوطنية الفلسطينية في جبهة وطنية موحدة لاحباط المخطط بمقاومة اية محاولة لاعادة ترتيب الوجود الفلسطيني بما يكفل سيطرة القوى الانعزالية ، وبما يضمن بقاء الثورة واستمرارها .

(٢) اعاده النظر في العلاقات الجبهوية بما يكفل تكوين جبهه متماسكة قوية تستطيع مواجهة مؤآمرات التصفية .

(٣) تنظيم الجماهير الفلسطينية للمشاركة الفعلية في المعركة ، ولزيادة فعاليه الثورة وقوتها .

(٤) اتخاذ كل الاجراءات الوقائية للمحافظة على الوجود المسلح وضمان قوته وفعاليته .

دون سيطرة القوى الرجعية العربية عليه .

(٥) النضال للمحافظة على استقلال الموقف الوطني الفلسطيني بالحيلولة

(٦) النضال لاعادة ترتيب وضع منظمة التحرير بما يكفل تحقيق هذه الاهداف .

(٧) بلورة برنامج سياسي يتصادم مع التسوية ، ويوحد جماهير الشعب الفلسطيني ضد المخططات الاميركية — الصهيونية — الرجعية ، ويوحد معركة تحرير فلسطين بمعركة الجماهير العربية ضد الامبريالية

والصهيونية والرجعية .

على الصعيد اللبناني : يجب ان تحدد الثورة الفلسطينية برنامجها الملتزم ببرنامج وطني ديمقراطي، يقوم على اساس وحدة لبنان وعروبته واقامة سلطة الشعب الديمقراطية فيه . وهذا يعني ان حليف المقاومة الفلسطينية في لبنان هو القوى الوطنية والتقدمية اللبنانية . وآن موقفها من اية قوة اخرى يجب ان يتحدد على هذا الاساس .

وهذا يستلزم بلوره برنامج مشترك في لبنان للحركة الوطنية والمقاومة قائم على اساس مواصلة النضال لتحرير فلسطين ومواصلة النضال لضمان وحدة لبنان وعروبته ، وهزيمة القوى الرجعية فيه .

وعلى الصعيد العربي : آن وحدة القوى الثورية والقومية والديمقراطية ضرورة ملحة . وهذه الوحدة لا غنى عنها لمواجهة المخطط الامبريالي — الصهيوني — الرجعي .

ويجب ان يكون من الاهدا فالاساسية لهذه الوحدة :

١ — حماية الثورة الفلسطينية وضمان استمرارها بفتح كل الجبهات امامها ، وباسقاط العوائق والحواجز ، وبالمشاركة الفعلية في الحشد والتعبئة والقتال وتوفير كل مستلزمات ذلك .

٢ — توحيد القوى الشعبية لمواجهة السيطرة الاميركية مباشرة وغير مباشرة ، وكل اشكال السيطرة الاجنبية .

٣ — حشد القوى في كل قطر ، وعلى الصعيد القومي في جبهات وطنية محلية ، وجبهة قومية متحدة ، لمحاربة القوى والانظمة الرجعية وهزيمتها واقامة سلطة الشعب الديمقراطية ، والسير على طريق الوحدة العربية وبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

ان معركة تحرير فلسطين هي جزء من معركة الجماهير العربية ضد الامبريالية الاميركية والغزو الصهيوني والقوى والانظمة الرجعية العربية ، ولا يمكن أن تخاض الا ضمن هذا الاطار ...

ان « الكاتب الفلسطيني » تدعو كل القوى القومية والديمقراطية والثورية الى الوحدة لمواجهة معسكر الاعداء ، ممثلا بالعدو الصهيوني والامبريالية الاميركية والقوى والانظمة الرجعية العربية . وتطالب الجميع باليقظة وبالارتفاع الى مستوى المعركة ، وبنبذ الحساسيات والعنعنات المختلفة الاشكال ، لان ضيق الافق ، يقود الى التشرذم ، ومن ثم الى الهزيمة ...

ان كل القوى المشار اليها اعلاه مطالبة بتحمل المسؤولية والمشاركة الفعالية في النضال ، ومطالبة أن تتحد رغم كل الخلافات السياسية والايديولوجية . لانها إن لم تفعل ذلك قادت الشعب والوطن الى الكوارث، ونحن نريدها ان تسير قدما الى النصر الاكيد .

ناجي علوش

تقدير موقف

يجريه

ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية

« المهام المطروحة على الثورة الفلسطينية وقوى الثورة العربية ، في ضوء المرحلة التي استجدت بعد العدوان الصهيوني على الجنوب ، والتطورات اللاحقة » ٠
بهذا السؤال توجهت « الكاتب الفلسطيني » الى ثلاثة من أبرز قادة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ٠

فالاجابة على هذا السؤال من شانها توفير الوضوح الفكري ، ومنح خطانا المزيد من الثقة والثبات ، وانارة طريق نضالنا ، باتاحتها فهما دقيقا لكل من معسكر الثورة ، ومعسكر الاعداء ، وطبيعة المرحلة ، والاهداف التكتيكية ، اضافة الى المخاطر والمؤامرات المحدقة بنا ٠



نايف حواتمة

الامين العام
للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

غزو جنوب لبنان حلقة بارزة ، في سلسلة حلقات الهجمة الامبريالية ـ الصهيونية الرجعية ، لتطويع وتركيع الثورة ، وتوجيه ضربات جديدة لحركة التحرر الوطني الديمقراطي العربية ، وتعريض جبهة الصمود العربية لامتحان عسير ، ولاهتزاز حاد بنظر الجماهير العربية ٠ وكل هذا من أجل فرض الاستسلام على الوطن العربي بالشروط الاميركية الاسرائيلية ، وفرض التصفية للقضية والحقوق الوطنية المستقلة لشعبنا ، في اطار الخطة الاميركية للهيمنة على الوطن العربي ومقدراته ، والخطة الاسرائيلية الصهيونية للتوسع ، والضم الزاحف ، ومصادرة حقوق شعب فلسطين ٠

ان غزو جنوب لبنان ، استهدف ، بشكل مباشر ، ابادة قوات الثورة ، كما جاء في قرار الكنيست الصهيوني ، في الحد الاقصى ٠ ومنع تمركزها بالجنوب ، طبقا للاتفاقات الفلسطينية ـ اللبنانية ، ومحاصرة الوجود المسلح الفلسطيني ، بالحد الادنى ، حتى تصبح الثورة مجرد بيانات سياسية واعلامية ٠ وقد تلقفت الجبهة الانعزالية اللبنانية ، وقوى اليمين والرجعية في المنطقة ، الاشتراطات والآمال الاسرائيلية الصهيونية ـ الامبريالية ، كبرنامج خاص لها ، مؤدية بذلك الدور الالتزامي المطلوب ضمن الخطة الاستعمارية الصهيونية العامة ٠ وكل هذا وضع الثورة و**منظمة التحرير** في مواجهة ظروف وعوامل جديدة ، وعليها معالجتها بطرق جديدة قبل فوات الاوان ٠

ان الكل يعلم بأن الغزو جاء بعد ست سنوات من محاولة توظيف الانظمة العربية للعب دور تصفية الثورة ، وبالحد الادنى تقزيمها لضمان انخراط **منظمة التحرير** في اطار التسوية الاستسلامية الاميركية الصهيونية ، ولكن محاولات الانظمة العربية الدموية والسياسية والحضارية المادية والادوات المحلية اللبنانية اصطدمت بمقاومة

دفاعية ضارية وملحمية على يد شعبنا والثورة ، فأفشلت هذه المقاومة الباسلة خطط التصفية والتقزيم على يد القوى والانظمة العربية اليمينية والرجعية ، مما دفع اسرائيل أن تتقدم للعب هذا الدور القذر ، كما صرح بذلك **كيسينجر** ، الذي قال ، « ان خطة غزو جنوب لبنان موضوعة منذ ست سنوات ، وموافق عليها ومباركة من الادارة الاميركية ، ولكن التنفيذ تأخر حتى ظهر فشل القوى والانظمة العربية المناطة بها هذه المهمة » · وكلنا يعلم ، أيضا أن الغزو تم بعلم مسبق لادارة **كارتر** والسلطة المصرية ، وقد فضحت مجلة **نيوزويك** ، وقائع الاتصال على الخط الساخن بين وزير حرب العدو ووزير الخارجية المصرية عشية الاحتلال ·

ان غزو جنوب لبنان ، كشف ، للمرة الالف ، أوهام بعض الاوساط في الثورة **ومنظمة التحرير** ، وخاصة اليمين الفلسطيني ، في الرهان على مد جسور الارتباط بالمحور المصري – السعودي ، وبقاء النافذة مفتوحة على الرياح الامريكية ·

وأكد من جديد قوانين الصراع الاساسية في المنطقة ، وتحددت على أرض المعركة الجبهة الحليفة والصديقة ، لبنانيا ، وعربيا ، وعالميا · والجبهة المعادية التي التفت حول اشتراطات المعتدين واستخدمت العدوان لمحاصرة الثورة والتشكيك بكل الوان وقوى الصمود العربية ، لدفع الامور ، أكثر وأكثر في التدهور نحو اليمين والرجعية ، والتسليم بالشروط الامبريالية – الاسرائيلية ، ولكن صلابة قوات الثورة في حرب الايام الثمانية وتضامن جبهة حركة التحرر العربية وقوى الصمود الوطنية والقومية والجبهة العالمية الصديقة ، اكد أن خطط جبهة الاعداء ، لا ولن تمر عندما تصطدم بجدار سميك من قوى المقاومة الفلسطينية والعربية والعالمية الصديقة ·

دروس العدوان والمهمات الراهنة

ان الدروس المستخلصة من حلقة غزو الجنوب في الخطة الامبريالية – الصهيونية – الرجعية ، تضع على جدول أعمال الثورة **ومنظمة التحرير** مهمات عاجلة يجب حلها بروح المسؤولية الوطنية ، بعيدا عن الانحراف نحو اليمين والاستئثار والتفرد بشؤون الثورة والمنظمة ، سياسيا وتنظيميا وعسكريا ·

ان في مقدمة هذه المهام :

١ – تصحيح العلاقات الداخلية بين فصائل الثورة ، وفي اطار منظمة التحرير ، وفي الساحة الفلسطينية ، فالعلاقات القائمة ، بعيدة كليا عن أية روح ديمقراطية ، وتتفشى فيها خطط الاستئثار والتفرد السياسي والتنظيمي ، على صعيد معالجة كل المشكلات الناشئة عن وجود قوات الاحتلال في جنوب لبنان ، ووجود قوات الطوارىء

الدولية ، وضغوطات القوى الانعزالية واليمينية الرجعية ، اللبنانية والعربية · فالقرارات تجاه كل قضية تتخذ بشكل فردي ، ضاربة بعرض الحائط القرارات التي تتخذ بالاغلبية أو الاجماع ، ودائما ليقلب على صعيد الممارسة ، الموقف الاستئثاري المنفرد الى موقف عام يلحق أفدح الاضرار بالثورة وقضية شعبنا ، ويتم وضع موقف الاجماع أو الاغلبية في الظل ، وفي الثلاجة ·

ان هذه السياسة اللاديمقراطية ، الممارسة سنة بعد سنة ، اصبحت تهدد كل مصير الثورة وقضية شعبنا في الاوضاع المستجدة ، بعد غزو الجنوب ، ومن هنا الضرورة المصيرية المباشرة لتصحيح العلاقات الداخلية في الساحة الفلسطينية على قاعدة ديمقراطية ، صحية نقيض الدكتاتورية الاستئثارية الخفية ، القائمة ، وتلتزم الاقلية بقرار الاجماع أو الاغلبية في معالجة القضايا المطروحة على جدول أعمال الثورة **ومنظمة التحرير** ، المبدئية واليومية ·

٢ – **الوصول الى خط سياسي مشترك** ، على قاعدة البرنامج الوطني المرحلي **ووثيقة طرابلس الوحدوية** ، في تحديد الحلقة المركزية الراهنة في الصراع ، ضد الحلول الاستسلامية والتصفوية الاميركية – الاسرائيلية الصهيونية – اليمينية الرجعية العربية والتي يلعب المحور المصري – السعودي دور الاداة التنفيذية فيه ، على الصعيد القطري والقومي ·

خطان سياسيان

فالساحة الفلسطينية تشهد خطين سياسيين ، خط الاصرار على الالتزام الجاد بمواثيق وقرارات **المجلس الوطني** والهيئات الجماعية **في منظمة التحرير** ، وخط الخروج ، والانحراف عنها ، بمد جسور الارتباط بالمحور المصري – السعودي ، ومن امثلتها البارزة ، تهريب مشاركة ممثل **منظمة التحرير** لاجتماع **جامعة الدول العربية** ، أثناء غزو الجنوب ، هذا الاجتماع الذي شطب من جدول أعماله أي حرف عن الغزو الاسرائيلي ، وشغل نفسه ببحث قضايا البحر الاحمر والقرن الافريقي ، والتفتيش عن الخطر الشيوعي المزعوم ، بينما تجاهل الخطر الاسرائيلي الذي أضاف الى احتلال كل فلسطين وسيناء والجولان ، احتلال جنوب لبنان · **والمخفي من جسور الارتباط أعظم بكثير** ·

ان جميع قرارات المجالس الوطنية والهيئات الجماعية في الثورة **ومنظمة التحرير** نقيض هذا الخط ، الذي يفرض نفسه على الساحة الفلسطينية ، بالتحايل على القرارات الجماعية ، والتنكر لها ·

ان مجموع قضيتنا الوطنية أصبحت في المزاد العلني ، على يد السلطة المصرية والرجعيات العربية ، وفقا للشروط الاميركية الصهيونية ، وآخرها ، قفز السادات عن كل دعاواه عن حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية ، وتنازله أمام شروط العدو في الموافقة على **مشروع بيغن** لمدة خمس سنوات ، ثم العودة الى مشروع تقسيم واقتسام الارض الفلسطينية بين الكيان الصهيوني ، وضم والحاق ما يتبقى من الضفة الغربية للاردن ، وقطاع غزة للادارة المصرية وتبديد هوية الشعب الفلسطيني بين الجنسيات المتعددة (الاسرائيلية والعربية) ٠

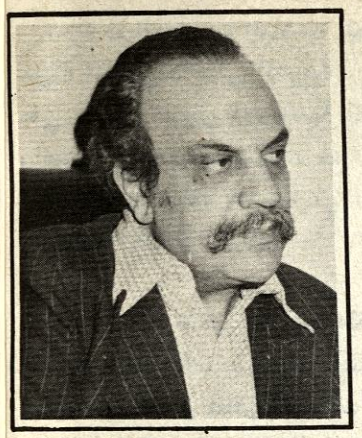
ان استمرار بعض الاطراف في مد جسور الارتباط مع المحور المصري ـ السعودي ، مثل مأساة ساسية ، خارجة ، تماما عن القرارات الجماعية ٠ والان ، بعد زيارة السادات للقدس المحتلة ، وصمت قوى اليمين والرجعية العربية على جنوب لبنان أصبح الاستمرار في هذا الخط مهزلة كاملة ٠ واصرارا من أصحابه على تشتيت الساحة الفلسطينية ، ورفض وحدتها على أساس الموقف السياسي الوطني ، الذي تم تكريسه بعشرات الوثائق ، والقرارات ، والبيانات المشتركة ٠

٣ ـ **ضرورة وضع حد للاستئثار المنفرد** في الطاقات المادية والعسكرية للثورة **ومنظمة التحرير** ، والتي تقدم لكل الثورة من قوى التحرر والصمود العربية والعالمية الصديقة ، ويتم حجزها وتكديسها لدى بعض فصائل الثورة ، بينما تتضور جوعا أسلحة العديد من فصائل الثورة ، كالذخيرة ، وغيرها من الاعتدة العسكرية ، لتعزيز قدرات كل قوى الثورة بوجه العدوان والمتآمرين ٠ وما حدث أثناء غزو جنوب لبنان نموذج مرير وصارخ على ذلك ، يتحمل أصحاب الاستئثار والتفرد في الساحة الفلسطينية المسؤولية الكبيرة فيه ، وتتحمل الدول العربية ، التي تساند الثورة ضد العدوان ، مهما كانت حدود المساندة ، مسؤولية أساسية في دفع الامور الى هذا الطريق الخاطىء والمأساوي ٠

٤ ـ الظروف المستجدة بعد غزو الجنوب ، تفرض على جميع قوى الثورة **التوجه لمد حركة التصحيح الى داخل العلاقات بين قوى الثورة وكل القوى الوطنية داخل الارض المحتلة** ، من أجل اعادة **بناء الجبهة الوطنية** ، التي تم تخريبها على يد بعض الاوساط في الثورة **ومنظمة التحرير** ، لتنهض هذه الجبهة ، من جديد ، بمهامها الطليعية في قيادة وتطوير نضال شعبنا وانتفاضاته داخل الارض المحتلة ، وتطوير كافة أشكال الكفاح المسلح والجماهيري والنقابي ، ضد الاحتلال والمشاريع الاميركية ـ الاسرائيلية ـ الانهزامية العربية ، تحت رايات شعبنا الشهيرة (**لا للاحتلال ، لا للضم** والالحاق الرجعي الاردني والمصري ، نعم للتحرر وحق تقرير المصير **والدولة المستقلة، بلا قيد ولا شرط**) ٠

٥ ـ الضرورة المباشرة **لتطوير العلاقات مع الحركة الوطنية اللبنانية وكل فصائل حركة التحرر الوطني العربية** ، بعيدا عن العلاقات الديماغوجية ، وخلق قوى هامشية على حساب القوى الاساسية الوطنية الديمقراطية والتقدمية في الساحة اللبنانية والعربية ٠ وبناء العلاقات مع هذه القوى بروح ديمقراطية حقيقية ، وعلى قاعدة التضامن مع النقد الموضوعي ، المتبادل ، الواضح ، والمحدد ، الملموس وبصراحة ، واستقامة كاملة ٠

٦ ـ ان تأخذ الثورة **ومنظمة التحرير** دورها جديا **في المبادرة لتطوير جبهة الصمود العربية** ، بمشاركة جميع الاطراف التي حضرت **قمة طرابلس** ، والعمل للانتقال بهذه الجبهة من اطار التحالف السياسي التكتيكي الى جبهة استراتيجية تقدمية فعلية متكاملة الطاقات عسكريا ، وماديا ، وسياسيا ، وتنظيميا ، من أجل الانتصار على خطط الاستسلام والتصفية الاميركية ـ الاسرائيلية الصهيونية ـ الانهزامية العربية هذه هي المهام المطروحة على جدول اعمال الثورة الفلسطينية وقوى الثورة العربية ، في هذه المرحلة ، وهذه هي الحلقة المركزية في المهمات الراهنة ، التي يجب أن تصب فيها جميع طاقات وامكانات قوى الثورة العربية ، حتى يصبح ممكنا الحاق الهزيمة بخطط الاعداء ، وبناء علاقات استراتيجية ثابتة داخل صفوف الثورة الفلسطينية ، وحركة التحرر الوطني الديمقراطي العربية ، مستندة الى علاقات استراتيجية مبدئية ثابتة مع جبهة قوى التحرر والتقدم العالمية ، وخاصة البلدان الاشتراكية ، ضد العدو المشترك ، الامبريالي ـ الصهيوني ـ الانهزامي العربي ٠



انعام رعد

عضو المجلس المركزي
للحركة الوطنية اللبنانية

ما هي أبرز ملامح تعقيدات الوضع العربي الراهن ، وملابساته ، ودقته ، التي في ضوئها تتحدد مهام النضال ومستقبله ؟

أولى هذه التعقيدات والملابسات أن الوضع العربي ، لاول مرة ، تعاطى مع ما وصفه **اثرتون** « بفرصة كبيرة للسلام » ، وهي القبول باسرائيل « بحدود آمنة » وبكيان له « مشروعية » دول المنطقة ، وبكل المواصفات والنتائج ، **يقول اثرتون** ان ذلك لم يكن ممكنا لولا حرب حزيران ١٩٦٧ ، ولولا القرار ٢٤٢ ، المنبثق عنها ، والذي اتاح فرصة جدية للسلام ، حسب تعبير السفير الاميركي المتجول في الشرق الاوسط .

ويقول **اسماعيل فهمي** في « **المستقبل** » (٢٥ شباط ١٩٧٨) « ... فلاول مرة يتحدث العالم العربي ، بما في ذلك الفلسطينيون ، عن استعدادهم لتقبل اسرائيل كي تعيش في حدود مؤمنة » .

ولقد سعى **السادات** الى الارض المحتلة ، معتبرا انه اجتاز الجدار النفسي ، الذي يشكل ٧٠ بالمئة من المشكلة ، وظن انه بات على قاب قوسين من السلام ، ولم يكن ممكنا ان يكون تنازل عربي واستسلام أكثر من خطوة **السادات** ، ومع ذلك تبرهن ان الحاجز النفسي لم يكن ٧٠ بالمئة من المشكلة ، وان الكيان الصهيوني ليس دولة عادية ، بل هو كيان استيطان استعماري ، كيان هجرة استيطانية ، لا يقبل بفك مستوطنة واحدة ، ويصر على مفهومه للسلام ، الذي هو مفهوم السيطرة والسيادة على الآخرين .

لقد سقط مفهوم « لا لوعد بلفور » ، الذي استمر يلف نضالنا القومي منذ المؤتمر العربي الكبير في ١٩١٩ ، وحل مكانه مفهوم التعاطي مع الكيان الصهيوني ! اولى التعقيدات ، اذن ، في الوضع العربي ، هذا الوهم المتعاطي مع سراب الحلول الاستسلامية ، المتعاطي مع اسرائيل كما يتصورها في الحلم ، لا كما هي في الواقع

والحقيقة ، والمتغافل عن الواقع والحقيقة ، لانها لا يمكن أن تعطي معادلة غير معادلة الحرب القومية الشعبية الطويلة الامد .

ثاني هذه التعقيدات **أن الحرب مع العدو الاستيطاني الاستعماري ، هي ، أساسا وقبل كل شيء ، حرب الشعب ، لانها حرب الارض** . ولا يمكن أن تختزل حرب مصيرية من هذا المعيار لتصبح حرب الحاكم ، يحارب عن الشعب ، والحاكم ينهزم عن الشعب ، والحاكم يستسلم عن الشعب ، طبيعة الاستيطان الاستعماري وتحالفه الامبريالي تقضي أن تكون المواجهة من الشعب ، كل الشعب . فالاستيطان الاستعماري ليس جيشا يتقدم او يتراجع ، مع اهمية الجيش لحماية تقدمه وثباته ، ولكنه اولا ، جماعات من البشر تقيم المستوطنات ، تريد الارض بلا شعب ، اذ الشعب هو المعادلة النقيض : الشعب المتمسك بأرضه ، المدافع عنها ، المعبأ في سبيل الحرب القومية ، الشعب المقاتل ، الشعب السيد ، لا الشعب المهان ، والمضطهد ، والمذعور .

وليس صدفة ان الاستسلام والقمع يسيران كتفا الى كتف . فها هو السادات يبدأ بالقمع رديفا للاستسلام . في الجنوب اللبناني عبرة كبرى ، حيث القتال الشعبي حقق ما لم يكن متوقعا من الرسميين من نتائج . وهذا نموذج مصغر عما يمكن ان يتطور لما هو أشمل من مواجهة للعدو الصهيوني .

ثالث هذه التعقيدات ، انه على مدى الحروب مع العدو ، منذ ١٩٤٨ ، تحول اليهود من « **الديسبورا** » الى انشاء كيان لهم في فلسطين ، بينما بنتيجة النكبات والمؤامرات تحول الفلسطينيون الى « **الديسبورا** » ، الى المنفى ، وتحديدا الى المنفى العربي . صحيح أن الثورة ولدت في المنفى ، في خيام اللجوء والتشريد ، ولكن الذي حدث أن فلسطين احتلت وقامت ، مؤقتا ، على انقاض كيانها السياسي « اسرائيل الكبرى » ، الممتدة من الجولان الى سيناء . وهذا هو التحدي الكبير ، الديسبورا الصهيوني استطاع ان يتحول الى اسرائيل ، بكل دفع المنظمة الصهيونية ، والمطلوب الان تحويل الديسبورا الفلسطينية الى عملية تحرير فلسطين المعقدة والصعبة .... ولكن التي ليست ولن تكون مستحيلة .

هنا يبرز عامل جديد ، واهم : ماذا عن محيط الديسبورا ؟ استطاعت الصهيونية أن تعبىء اليهود وأن تهود العالم ، في الوقت نفسه ، فهل استطعنا ، الى جانب تعبئة الفلسطينيين ، وهو ما قد حصل في ظل الثورة ، أن نفلسطن المحيط القومي ؟ هذا هو السؤال الكبير . فبقدر ما تصبح قضية فلسطين هي قضية محيطنا القومي بقدر ما يبدأ العد العكسي . وبقدر ما تبقى الكيانية والاقليمية والكائنية والمنافع المحلية هي الاساس ، يبقى الحصار على الفلسطينيين وعلى القضية معا . وهذا هو التعقيد الكبير . ولنذكر

نه في ثورات فلسطين المتلاحقة منذ الثلاثينات كان السوريون واللبنانيون ، باعداد غير قليلة ، يتطوعون للقتال في فلسطين وجاءت الحركة الوطنية اللبنانية تبعث هذا التراث التلاحمي في السبعينات بتلاحم البنادق الوطنية اللبنانية مع البنادق الفلسطينية **في الخندق القومي الواحد** .

ورابع التعقيدات هي عملية افراغ الشعارات من مضامينها : وابرز هذه الشعارات ، شعار التضامن العربي ، الذي تجري الدعوة له من موقع مصالحة فوقية مع **السادات** ومبادرته ، ويتحرك الوكيل السعودي لهذا الدور من **«التضامن العربي»** بواسطة السودان وغيرها من الانظمة . التضامن الذي هو قوة الجبهة العربية يصبح في هذه الحال مجال اضعاف وارباك وحرف عن معنى الجبهة العربية ، الذي هو اصلا تضامن ضد العدو لا تضامن مع من صالحه وصافحه تضامن عربي لا تضامن امبريالي !

وخامس التعقيدات المتصلة بموضوع التضامن هي موضوعة **الوحدة المتراجعة** في هذا الزمن ، مع انها هي المطلوبة على لائحة الاولويات . فهذا العدو نبت في ارضنا في زمن تجزئتنا ، بل بفعل تجزئتنا . وليس من داع لتكرار اهمية العلاقة السببية بين **اتفاقية سيكس ـ بيكو ووعد بلفور** ، بين تجزئة محيط فلسطين القومي وتهويد فلسطين ، بعد سلخها عن محيطها القومي واليوم العدو يدلي بالتصريح تلو التصريح على لسان رئيس اركانه السابق ورئيس اركانه السابق **غور** ، ورئيس اركانه الحالي **ايتان** ، عن خطورة الجبهة الشرقية ، بعد أن استقر له الوضع على جبهة مصر السادات . ولكن خطورة الجبهة الشرقية ، في رأينا هي خطورة تفككها والتناقضات السائدة على أرضها ، ومن هنا خطورتها على نفسها ، لا العدو . وفي تقديرنا أنه ما لم تقم وحدة بغداد ودمشق وينهض عمقنا القومي للمواجهة الجدية مع العدو ، فستبقى حربنا ضده مكشوفة ومعرضة في كل لحظة للخطر الشديد .

وسادس هذه التعقيدات **ان ثروات العرب ، التي تتراكم ارصدة ومنابع ، جزء كبير منها معطل بفعل قرار سياسي من النظام القابض عليها** ، والمدعي مسؤوليته عن أمن الامبريالية « والعالم الحر » لا عن مصير القضية وفلسطين . !

لقد فصلت الرجعية العربية بين النفط وفلسطين ، بحجة ان النفط سلعة تجارية لا سياسية ، ولكنها ربطته بأمن الخليج ضد « المخربين » وبأمن المنطقة والعالم ، هذا ضد التقدم واليسار .

وسابع هذه التعقيدات ، واهمها في رأينا ، من حيث النموذج ، والذي يمكن ان يتطور ، هو انه في حرب فلسطنة محيط فلسطين القومي استطاع الصهاينة تهويد جزء من شعبنا ، مهما كان حجمه ، والتحالف معه ، وهذا كان حصيلة عملية انسلاخ قماوية عن المجتمع القومي ، تمت بفعل الثقافة الاجنبية وعصر الانحطاط الطائفي ، وعدم حل مشكلة الاقليات على قاعدة مفهوم قومي تقدمي علماني ، مما ادى الى نجاح المخططات الامبريالية والصهيونية في الشروع ، بعد اقامة اسرائيل الاولى على على اشلاء حقنا القومي في اقامة اسرائيل الثانية على اشلاء وحدتنا الاجتماعية . من هنا كان الصراع بالضرورة ، قوميا اجتماعيا ، مستوعبا لمثل هذه البثور في وجه قضيتنا ، قادرا على معالجتها بمضمون تقدمي علماني اجتماعي .

ازاء استعراض الاعراض ، نستطيع استشراف ملامح المسيرة ، ومستقبل النضال .

فمهام الثورة أن تبقى في خندق النضال ، ممسكة ببندقيتها ، لان لا سلام مع الاغتصاب الا سلام السراب . وأن تبقى متمسكة بوحدتها ، فليس مثل فتيل الانقسام والبعثرة لتفجير الثورة ، وانهاك الشعب ، وضياع القضية . وان تبقى متمسكة باهدافها الاستراتيجية لان العدو استراتيجي ومصيري ، وليس عابرا ولا قابل لتسويات

ومن ضمن هذا المنطلق فعلى الثورة أن تعي ان حل معادلتها مع محيطها القومي وبخاصة مع جماهير هذا المحيط ، هو الذي يوفر لها البقاء ، فالانتصار . أو يسبب لها الحصار فالاندثار . هنا المعادلة . وقد تحملت الحركة الوطنية اللبنانية ، باحزابها القومية والتقدمية والوطنية ، عبء مسؤولية كبرى في هذه المرحلة التاريخية ، في هذا الاتجاه . ولكن الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية مدعوتان الى أن تكونا المحرك لقيام محور قومي في مدى محيطنا الطبيعي **قادرا** ان يحقق هذا العمق الاستراتيجي للصراع المصيري ، ضد الاحتلال الصهيوني القابع في فلسطين ، وفي محيطها .

ومن ضمن هذا المنطلق ، لابد **من دعم قيام الجبهة العربية التقدمية** ، المعادية للامبريالية والصهيونية ، سواء على المستوى الرسمي أو المستوى الجماهيري .

ولقد كان لمبادرات **قمة طرابلس** ، ثم مؤتمر **الشعب العربي** ، فضل التحرك في هذا الاتجاه ، شرط ان نعمل لتطوير هذا الاتجاه ، وتجذيره ، وتصليب مواقعه . ولا بد ان نعمل على تطوير موقف الصمود ضد السادات ، أي موقع التصدي لمسيرة الحلول الاستسلامية ، والى حشد وتعبئة الامكانات كلها ، على خط استراتيجي

تحرري ، وقادر على تجسيد رفضه ، عمليا ، في ساح الصراع ٠

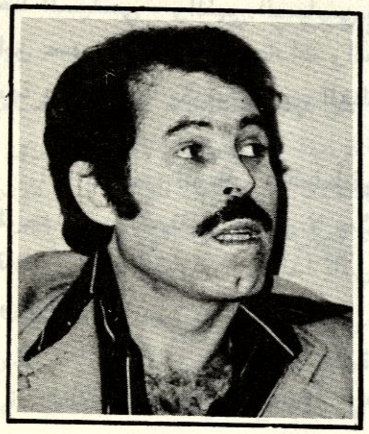
ولا بد من أن تتحول الديسبوار الفلسطينية الى الخميرة الثورية ، التي تستطيع أن تمتد عدواها الى الجماهر في أمتنا كلها ، في سبيل مجتمع الكفاح المسلح ، المتجه نحو فلسطين ٠

ولا بد أن تكون معادلة هذا التعاطي قائمة على وعـي عميق للعلاقة العضوية والجدلية بين التوجه الى فلسطين وبين انتصار القوى الوطنية والتقدمية والقومية في عمق مجتمعنا القومي ٠ فلا يمكن للثورة الفلسطينية أن تحل محل هذا الاتجاه بل أن تتحالف معه ٠ وان عملية التحول بالمجتمع ، من المجتمع العشائري الطائفي القبلي الاقطاعي ، الى المجتمع القومي المقاتل ، عملية تحول كبرى يقترن النضال في سبيلها حتى بالنضال في سبيل فلسطين ، كموقع متقدم من النضال القومي ٠

ولا بد من مواجهة الجبهة الامبريالية الصهيونية الرجعية بجبهة عربية تقدمية ، لها تحالفاتها العالمية الواضحة مع المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر القومي في العالم ٠

ولا بد من بلورة هذا كله بمعادلة تقول : نعم لحرب الشعب الطويلة الامد ، وكل معادلتها الصعبة ، والتي تبدأ ، اولا وقبل كل شيء ، بنقل الصراع من الانحصار الديسبورا الفلسطينية الى اشعار المجتمع القومي كله بان مستقبله هو عينه مستقبل الديسبورا الفلسطينية ان لم يبدأ عملية الاتجاه نحو حرب التحرير ، بكل مستلزماتها وموجباتها ٠

هذه النقلة التاريخية ، بين وجود الديسبوار الفسلطينية على هامش المجتمع ،في الخيمة ، وبين حلولها كهاجس ومصير في وجدان مجتمعنا القومي ، هي بداية الانطلاق نحو مواجهة التحدي الكبير ، وهذه من ابرز واخطر مهام النضال القومي للمرحلة المقبلة ٠



طلعت يعقوب

امين عام
جبهة التحرير الفلسطينية

هناك هدف رئيسي ، ومركزي ، أمام جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وفي مقدمتها الثورة الفلسطينية ٠ وهذا الهدف ، هو انقاذ الثورة الفلسطينية ، والخروج بها من مأزقها ٠

لقد بات الوضع صعبا جدا بعد العدوان الصهيوني على الجنوب ٠ ولكن هذا الوضع لم يصبح هكذا نتيجة لاحتلال العدو الصهيوني لأرض الجنوب فقط ، بل أن زيارة السادات اعبت دورا خطيرا ، سواء في تأزيم وتعقيد الوضع على الساحة اللبنانية ، أو في تشجيع العدو الصهيوني على القيام بعدوانه على الجنوب ٠

فالعدوان على الجنوب ، لم يهدف منه احتلال بعض اراضي القطر العربي اللبناني فقط ، وانما هدف منه القضاء على الذراع العسكري المسلح للثورة الفلسطينية بعد أن عجز الانعزاليون ، طيلة ثلاث سنوات ، عن تحقيق هذه المهمة ٠

ثم ، ليست زيارة السادات ،والهجوم الصهيوني على جنوب لبنان ،هما فقط العنصران اللذان أوصلا المقاومة الفلسطينية ، الى المنطقة الحرجة التي تواجهها الان ٠ فالعقلية اليمينية في حركة المقاومة لعبت دورا خطيرا في ايصالنا الى وضعنا الراهن ٠

حققنا انتصارات سياسية ، وعسكرية منذ ايلول وحتى الان ، هذا صحيح ، ولكن الصحيح ايضا ، هو ان الثورة تراجعت كثيرا بعد ايلول ٠ فالقتال السياسي والعسكري ضد النظام الاردني العميل اوقف ، أو ضرب ٠ والعلاقة مع الرجعيات العربية طيبة جدا ، والوحدة الوطنية الحقيقية لم تتحق ، وتنظيم جماهيرنا غير وارد ، وتوضيح

تحرري ، وقادر على تجسيد رفضه ، عمليا ، في ساح الصراع ·

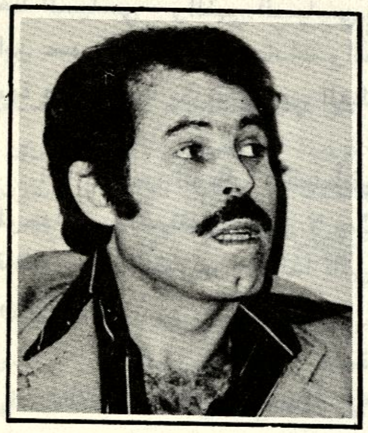
ولا بد من أن تتحول الديسبوار الفلسطينية الى الخميرة الثورية ، التي تستطيع أن تمتد عدواها الى الجماهر في أمتنا كلها ، في سبيل مجتمع الكفاح المسلح ، المتجه نحو فلسطين ·

ولا بد أن تكون معادلة هذا التعاطي قائمة على وعـي عميق للعلاقة العضوية والجدلية بين التوجه الى فلسطين وبين انتصار القوى الوطنية والتقدمية والقومية في عمق مجتمعنا القومي · فلا يمكن للثورة الفلسطينية أن تحل محل هذا الاتجاه بل أن تتحالف معه · وان عملية التحول بالمجتمع ، من المجتمع العشائري الطائفي القبلي الاقطاعي ، الى المجتمع القومي المقاتل ، عملية تحول كبرى يقترن النضال في سبيلها حتى بالنضال في سبيل فلسطين ، كموقع متقدم من النضال القومي ·

ولا بد من مواجهة الجبهة الامبريالية الصهيونية الرجعية بجبهة عربية تقدمية ، لها تحالفاتها العالمية الواضحة مع المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر القومي في العالم ·

ولا بد من بلورة هذا كله بمعادلة تقول : نعم لحرب الشعب الطويلة الامد ، وكل معادلتها الصعبة ، والتي تبدأ ، اولا وقبل كل شيء ، بنقل الصراع من الانحصار الديسبورا الفلسطينية الى اشعار المجتمع القومي كله بان مستقبله هو عينه مستقبل الديسبورا الفلسطينية ان لم يبدأ عملية الاتجاه نحو حرب التحرير ، بكل مستلزماتها وموجباتها ·

هذه النقلة التاريخية ، بين وجود الديسبوار الفلسطينية على هامش المجتمع ،في الخيمة ، وبين حلولها كهاجس ومصير فـي وجدان مجتمعنا القومي ، هي بداية الانطلاق نحو مواجهة التحدي الكبير ، وهذه من أبرز واخطر مهام النضال القومي للرحلة المقبلة ·



طلعت يعقوب

امين عام
جبهة التحرير الفلسطينية

هناك هدف رئيسي ، ومركزي ، أمام جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وفي مقدمتها الثورة الفلسطينية · وهذا الهدف ، هو انقاذ الثورة الفلسطينية ، والخروج بها من مأزقها ·

لقد بات الوضع صعبا جدا بعد العدوان الصهيوني على الجنوب · ولكن هذا الوضع لم يصبح هكذا نتيجة لاحتلال العدو الصهيوني لأرض الجنوب فقط ، بل أن زيارة السادات لعبت دورا خطيرا ، سواء في تأزيم وتعقيد الوضع على الساحة اللبنانية ، أو في تشجيع العدو الصهيوني على القيام بعدوانه على الجنوب ·

فالعدوان على الجنوب ، لم يهدف منه احتلال بعض اراضي القطر العربي اللبناني فقط ، وانما هدف منه القضاء على الذراع العسكري المسلح للثورة الفلسطينية بعد أن عجز الانعزاليون ، طيلة ثلاث سنوات ، عن تحقيق هذه المهمة ·

ثم ، ليست زيارة السادات ،والهجوم الصهيوني على جنوب لبنان ،هما فقط العنصران اللذان أوصلا المقاومة الفلسطينية ، الى المنطقة الحرجة التي تواجهها الان · فالعقلية اليمينية في حركة المقاومة لعبت دورا خطيرا في ايصالنا الى وضعنا الراهن ·

حققنا انتصارات سياسية ، وعسكرية منذ ايلول وحتى الان ، هذا صحيح ، ولكن الصحيح ايضا ، هو ان الثورة تراجعت كثيرا بعد ايلول · فالقتال السياسي والعسكري ضد النظام الاردني العميل اوقف ، أو ضرب · والعلاقة مع الرجعيات العربية طيبة جدا ، والوحدة الوطنية الحقيقية لم تتحق ، وتنظيم جماهيرنا غير وارد ، وتوضيح

الخط السياسي ، والنهج السياسي **لمنظمة التحرير الفلسطينية** مشوش ، ومرتبك ، وعن سابق عمد وقصد · والاتحادات والمنظمات الشعبية في حالة سيئة جدا ، والذين يهمنون عليها هم أبعد ما يكونون ، في الغالب ، عن الجماهير والثورة ·

أما **المجلس الوطني الفلسطيني** ، برلمان الشعب الفلسطيني ، ففيه من المخاتير والوجهاء ، والمستقلين الذين لا يمثلون أحدا سوى أنفسهم ، أكثر بكثير من ممثلي المقاتلين ، من الثوريين · ولذا تأتي القرارات مائعة ، وفي غير مصلحة شعبنا ، وثورتنا ·

هناك هجمة شرسة ضدنا · هذا صحيح ·

ولكن لكي نواجه هذه الهجمة ، ونردها ، ونتقدم ، علينا أن نغير أوضاعنا ، سياسيا ، وتنظيميا ، وعسكريا ·

فاذا صح العزم ، وصدقت النوايا ، وشرعنا ، فعلا ، في تحديد منهجنا السياسي فلا بد أن ينعكس هذا على كل أوضاعنا الاخرى ، ومؤسساتنا ، وعلاقاتنا المحلية والدولية ، ولا بد أن نكون قد بدأنا بالهجوم فعلا ، بالتصدي للهجمة (الخارجية) الشرسة ·

لقد وفعنا ، مع غيرنا من القوى والمنظمات ، شعار القتال لتحرير الجنوب · ونحن نعرف أن هذا الشعار ليس مجرد شعار عادي · اذ تحت راية القتال السياسي والعسكري ، يمكننا ان نحقق عملية الفرز في الساحة الفلسطينية ، اللبنانية ، العربية وحين رفعنا هذا الشعار ، واكدنا على أننا سنقاتل تحت راية الحركة الوطنية اللبنانية ، كنا نعرف الدور التاريخي ، الوطني والقومي الذي ستلعبه الحركة الوطنية اللبنانية ·

اذ انه من حق الوطنيين اللبنانيين أن يقاتلوا لتحرير ارضهم ، من حقهم ان يمتشقوا السلاح · واذ نقاتل معهم ، فاننا نقاتل مع الشرعية فعلا ، وبهذا ، ومن هنا ، نحول وجود العدو الصهيوني في الجنوب ، الى مصيدة فعلا ، واثناء المعركة ، اثناء القتال فاننا نستطيع أن نحشد القوى الوطنية ، والتقدمية العربية ، وننتقل بحركة التحرر العربية من حالة الدفاع ، الى حالة الهجوم ، وقد كان الجو العام ، وما زال مناسبا جدا لهذا التحول · فانتفاضة جماهيرنا في فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني وفي الاردن ، رغم القمع الهاشمي ، تؤكد ان الجماهير على استعداد للكفاح ، اذا رأت الطلائع الثورية تتقدم ، وتقاتل ·

بالقتال ، كنا سننقل المعركة مع الانعزاليين الى الجنوب ·

وكنا سنضع القوات الدولية أمام وضع محدد هو فقط الاشراف على انسحاب القوات الصهيونية الغازية ، لا ان نعطي هذه القوات فرصة التوضع في المدن والقرى ، وعلى الجسور ، لتحاصر قواتنا ، وتضربها ، وتشتبك معنا ، وتتحول الى قوات تحرس الحدود للعدو الصهيوني ، وتغطي عمليات بناء الانعزاليين لقواتهم ، في الجنوب ·

ولكن هذا التوجه ، الذي نشترك فيه مع كثير من رفاقنا في المقاومة الفلسطينية ، ومع رفاقنا في الحركة الوطنية ، عرقل وعن سابق قصد ، وهذا ما يؤكد أن بعض الاطراف في المقاومة تراهن على حل (ما) للقضية، او بالاصح على أنها ستحصل على حصة اذا ما تحقق حل (ما) ·

اي حل هذا الذي ينتظرون ، والسادات أوغل بعيدا ، ووصل حد الخيانة ،

لا (حصة) لنا ولا حل لصالحنا · وعلينا ان نخرج بالمراهنين من حالة الرهان التي يقبعون فيها ، والتي أدخلت أو سهلت ادخال المقاومة في مازقها الراهن ·

ان اخراج المقاومة الفلسطينية من مازقها ، يعني أن الساحة اللبنانية ستتحول الى بؤرة ثورية ، لان الحركة الوطنية اللبنانية ، الحليف الاستراتيجي لنا ، ستخرج ايضا من مازقها ، أو من الوضع الذي تعاني منه حاليا · يعني ان القوى والاحزاب ، والمنظمات ، الوطنية ، والتقدمية العربية ، ستسير معنا ، وستخرج عن صمتها ، وترددها ، يعني أن حركة التحرر العربية ستنتقل الى حالة الهجوم ·

ولكننا نؤكد أن الوضع الداخلي للمقاومة هو الاساس في الخروج من الازمة ، من المازق ·

من هنا ، فنحن في حالة حوار مع رفاقنا في السلاح ، في منظمات المقاومة الفلسطينية ، لاننا نرى أن بعض الاطراف اليمينية تريد ، بدلا من الانتقال من حالة الرهان على السادات الى مواقع الكفاح ، تريد أن تضرب ، وتصفي القوى الوطنية والتقدمية الفلسطينية ، مرة بحجة العودة الى السرية ، ومرة بحجة تحقيق الوحدة الفلسطينية ، عن طريق القوة ، ومرة كما نسمع هذه الايام – عن طريق (الدمج) القسري للقوات العسكرية في **جيش التحرير الفلسطيني** ، وما شابه من هذه الدعوات المشبوهة التي ستقود الى تفجير الساحة ، وتدمير ثورتنا ، بدلا من الخروج بها من مازقها ·

اننا نرى باختصار ، أن المهام المطروحة على الثورة الفلسطينية وقوى الثورة العربية هي التالية :

اولا : حسم النهج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وتحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية ، كي تنتقل الثورة الفلسطينية ، الى حالة الهجوم السياسي والعسكري ، وتلعب الدور المطلوب منا وطنيا ، وقوميا .

ثانيا : ان تعمق قوى الثورة العربية من تحالفها ، وان تشدد من هجومها لمجابهة خيانة السادات . ولتطوير الرد الجماهيري على المستوى القومي ، في مواجهة التاضمن العربي ، الرسمي ، الذي يعمل هذه الايام بضراوة من أجل انقاذ السادات ونظامه ، (ومبادرته) الخيانية .

ثالثا : تعميق التحالف مع القوى التقدمية في العالم ، وخاصة المعسكر الاشتراكي ، وفي مقدمته الاتحاد السوفياتي الصديق ، لان هذه الصداقة شرط اساسي لتحقيق الانتصار على معسكر الاعداء .

اننا لا نضع برنامجا سياسيا ، وتنظيميا وعسكريا للثورة الفلسطينية ، وحركة التحرر العربية ، ولكننا نفكر بصوت مسموع مع رفاقنا في الكفاح ، املين ان ننجز بالحوار الديمقراطي ، وبالارادة الثورية الشجاعة والجسورة ، وحدتنا الوطنية ، لانها اعز مطلب لجماهيرنا ، ولانها الاساس قبل كل شيء في الخروج من مازقنا الراهن .

مسيرة الحركة القومية العربية في العقد الاخير

د . اميل توما

اختلفت تطورات الحركات القومية في الاقطار المستعمرة ، وذلك بسبب تباين مستويات نموها وظروفها العينية ، ومع هذا فكلها ، في هذه الفترة أو تلك مرت ، بوجه عام ، بمنعطفات هامة ، وحتى حاسمة، ارتبطت بأحداث تاريخية كبرى .

وهكذا ، مثلا ، كانت الثورة البرجوازية الفرنسية الكبرى ، في القرن الثامن عشر، منعطفا هاما ، وحتى حاسما ، في تاريخ الحركات القومية الاوروبية ... ومثلها كانت موجة الثورات الاجتماعية — القومية ، التي اجتاحت اوروبا في عام ١٨٤٨ .

اما في القرن العشرين فالحركات القومية ، عامة ، مرت ، بهذا القدر أو ذاك ، بمنعطفات ارتبطت بثورتي روسيا في ١٩٠٥ و ١٩١٧ ، وبانتصار حلف الشعوب الكبير على محور النازية ، الذي قام الاتحاد السوفييتي بالدور الحاسم فيه .

ولا يمكن أن نساوي بين هذه الاحداث، لان اثارها على الحركات القومية تباينت ، من حيث الشمول والعمق .. فثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى ، في عام ١٩١٧ ، فجرت حركات قومية واسعة النطاق ، وتجاوبت أصداؤها في الشرق والغرب ، في حين كانت الموجة القومية التي اعقبت ثورة ١٩٠٥ محدودة المدى ، تركت اثرها في عدد من الاقطار المستعمرة وشبه الاقطاعية ، مثل تركيا .

ولا شك في أن الانتصار التاريخي على النازية وظهور الاتحاد السوفييتي عملاقا على مسرح السياسة الدولية ، بعد أكثر من ربع قرن من محاولة الامبريالية القضاء عليه أو محاصرته ، كان منعطفا حاسما في مسيرة الحركات القومية في العالم ، وبداية انهيار النظام الامبريالي في القارات المستعمرة .

والحركة القومية العربية بتياراتها القطرية وبمجراها المشترك مرت بدورها ، بوجه عام ، بالمنعطفين الاخيرين : المنعطف الذي ارتبط بثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى .. وبالانتصار على النازية .. وهي لا تزال تعيش في المرحلة التي دشنها الانتصار على النازية .

وهذا ما لاحظته الاحزاب الشيوعية والعمالية (١) في الاقطار العربية ، خلال اجتماعها في اوائل نيسان عام ١٩٧٦ ، وسجلته في وثيقتها ، الصادرة في ٥ نيسان ١٩٧٦ .

فقد جاء في هذه الوثيقة : « دخلت حركة التحرر القومي العربية منذ الحرب

اننا نرى باختصار ، أن المهام المطروحة على الثورة الفلسطينية وقوى الثورة العربية هي التالية :

اولا : **حسم النهج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية** ، وتحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية ، كي تنتقل الثورة الفلسطينية ، الى حالة الهجوم السياسي والعسكري ، وتلعب الدور المطلوب منا وطنيا ، وقوميا .

ثانيا : ان تعمق قوى الثورة العربية من تحالفها ، وان تشدد من هجومها لمجابهة خيانة السادات . ولتطوير الرد الجماهيري على المستوى القومي ، في مواجهة التاضمن العربي ، الرسمي ، الذي يعمل هذه الايام بضراوة من أجل انقاذ السادات ونظامه ، (ومبادرته) الخيانية .

ثالثا : تعميق التحالف مع القوى التقدمية في العالم ، وخاصة المعسكر الاشتراكي ، وفي مقدمته الاتحاد السوفياتي الصديق ، لان هذه الصداقة شرط اساسي لتحقيق الانتصار على معسكر الاعداء .

اننا لا نضع برنامجا سياسيا ، وتنظيميا وعسكريا للثورة الفلسطينية ، وحركة التحرر العربية ، ولكننا نفكر بصوت مسموع مع رفاقنا في الكفاح ، املين ان ننجز بالحوار الديمقراطي ، وبالارادة الثورية الشجاعة والجسورة ، وحدتنا الوطنية ، لانها اعز مطلب لجماهيرنا ، ولانها الاساس قبل كل شيء في الخروج من مازقنا الراهن .

مسيرة الحركة القومية العربية في العقد الاخير

د. اميل توما

اختلفت تطورات الحركات القومية في الاقطار المستعمرة ، وذلك بسبب تباين مستويات نموها وظروفها العينية ، ومع هذا فكلها ، في هذه الفترة أو تلك مرت ، بوجه عام ، بمنعطفات هامة ، وحتى حاسمة، ارتبطت بأحداث تاريخية كبرى .

وهكذا ، مثلا ، كانت الثورة البرجوازية الفرنسية الكبرى ، في القرن الثامن عشر، منعطفا هاما ، وحتى حاسما ، في تاريخ الحركات القومية الاوروبية ... ومثلها كانت موجة الثورات الاجتماعية - القومية ، التي اجتاحت اوروبا في عام ١٨٤٨ .

اما في القرن العشرين فالحركات القومية ، عامة ، مرت ، بهذا القدر أو ذاك ، بمنعطفات ارتبطت بثورتي روسيا في ١٩٠٥ و ١٩١٧ ، وبانتصار حلف الشعوب الكبير على محور النازية ، الذي قام الاتحاد السوفييتي بالدور الحاسم فيه .

ولا يمكن أن نساوي بين هذه الاحداث، لان اثارها على الحركات القومية تباينت ، من حيث الشمول والعمق .. فثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى ، في عام ١٩١٧ ، فجرت حركات قومية واسعة النطاق ، وتجاوبت أصداؤها في الشرق والغرب ، في حين كانت الموجة القومية التي اعقبت ثورة ١٩٠٥ محدودة المدى ، تركت اثرها في عدد من الاقطار المستعمرة وشبه الاقطاعية ، مثل تركيا .

ولا شك في أن الانتصار التاريخي على النازية وظهور الاتحاد السوفييتي عملاقا على مسرح السياسة الدولية ، بعد أكثر من ربع قرن من محاولة الامبريالية القضاء عليه أو محاصرته ، كان منعطفا حاسما في مسيرة الحركات القومية في العالم ، وبداية انهيار النظام الامبريالي في القارات المستعمرة .

والحركة القومية العربية بتياراتها القطرية وبمجراها المشترك مرت بدورها ، بوجه عام ، بالمنعطفين الاخيرين : المنعطف الذي ارتبط بثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى .. وبالانتصار على النازية .. وهي لا تزال تعيش في المرحلة التي دشنها الانتصار على النازية .

وهذا ما لاحظته الاحزاب الشيوعية والعمالية (١) في الاقطار العربية ، خلال اجتماعها في اوائل نيسان عام ١٩٧٦ ، ومسجلته في وثيقتها ، الصادرة في ٥ نيسان ١٩٧٦ .

فقد جاء في هذه الوثيقة : « **دخلت حركة التحرر القومي العربية منذ الحرب**

العالمية الثانية طورا جديدا في تطورهـا استمر حتى ايامنا هذه .

وهذا يعني أن الحركة القومية العربية ، في الاوضاع المريحة التي نشأت بعد تلك الحرب واتسمت بتغيير مستمر في توازن القوى الدولية في مصلحة الاشتراكية والتحرر ، استطاعت ان تحقق منجزات تاريخية كبرى ، ففي اكثر اقطارها طردت الامبريالية ، عسكريا وسياسيا وحتى اقتصاديا ، وفي كافة اقطارها حققت استقلالها السياسي .

وقد تجاوزت ، بتأثيرها ، حدودها الجغرافية . وفي هذا الصدد قررت الاحزاب الشيوعية والعمالية في وثيقتها التي صدرت في اعقاب الاجتماع التشاوري العالمي : « **ان حركة التحرر العربية تقوم بدور بارز في النضال ضد الامبريالية العالمية ، وهي تمارس تأثيرا ايجابيا على كل الحركة ضد الامبريالية والكولونيالية الجديدة في الشرق الادنى وفي افريقيا . ويشكل نضال الشعوب العربية ضد الامبريالية وضد العدوان الاسرائيلي جزءا لا يتجزأ من الصراع العام بين قوى الحرية والاشتراكية في العالمباسره من جهة ، والامبريالية العالمية من جهة اخرى** » (٢) .

والسؤال الذي يطرح اليوم على ضوء ما يجري على الساحة العربية من سلبيات ، **الى اين وصلت حركة التحرر القومي العربية، وما هي التغييرات التي طرات على قواهـا الاجتماعية ، وما هي وجهتها العامة في المستقبل ؟**

وفي سبيل الوصول الى اجوبة على هذه الاسئلة ، سنحاول تحليل التطورات التي وقعت في العالم العربي ، خلال العقد الاخير ، ابتداء من عام ١٩٦٧ . ففي ذلك العام وقعت حرب حزيران العدوانية التي كانت اعنف محاولة قامت بها الرجعية المنطقية والعالمية ، ممثلة في حكام (اسرائيل) والقوى الامبريالية التي ساندتهم ، بعد الحرب العالمية الثانية ، لاعادة عجلة التاريخ الى الوراء واجهاض حركة التحرر القومي العربية .

ففي تلك اللحظة كانت الاقطار العربية، وقد حققت انجازات كبرى في كفاحها من اجل التحرر القومي ، « تواجه بصورة عامة انجاز مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية » (٣) ، وبعضها مثل مصر والجزائر وسوريا والعراق ، كانت قد وصلت الى مرحلة اعلى في عملية تنفيذ تلك المهمات .

وهذا برز في نجاحها في تصفية مواقع الامبريالية السياسية واضعاف ما تبقى من مواقعها الاقتصادية ، وفي توطيد الصداقة مع الاتحاد السوفييتي وسائر الاقطار الاشتراكية ، وفي قيامها بتحولات اقتصادية - اجتماعية جذرية ، تجسمت في الاصلاح الزراعي وتأميم البنوك وشركات التامين والصناعات الكبيرة والمتوسطة ، وفي بنائها القطاع العام ، وفي انتهاجها ، بفضل هذه الاجراءات والخطوات مجتمعة ، طريق التطور غير الرأسمالي .

ورافق هذه العملية الثورية تصعيد في الصراع الطبقي الاجتماعي . وأسياد الارض الذين فقدوا مواقعهم السياسية وتقلصت قدراتهم الاقتصادية ، والبرجوازيون الكبار الذين خسروا مصانعهم ومراكز الحسم الاقتصادي لم يستسلموا امام هذه التحولات بل شددوا مقاومتهم هذا التطور ، بهدف وقفه والعودة الى النظام البرجوازي الكلاسيكي ..

ومن الطبيعي انهم في هذه الحالة اتجهوا نحو التفاهم مع الامبريالية ، على اعتبار انها حليفهم في حربهم على الجماهير الشعبية وانجازاتها .

وهذا ما لاحظته الاحزاب الشيوعية والعمالية في وثيقتها التي اصدرتها بعد اجتماعها التشاوري ، في موسكو في تشرين الثاني عام ١٩٦٠ .. انذاك قررت :

« ان الشعوب التي ظفرت باستقلالها السياسي تفتش عن حل للقضايا الاجتماعية التي تبرزها الحياة ، ولقضايا توطيد الاستقلال القومي . ومختلف الطبقات والاحزاب تقترح حلولا مختلفة . ان اختيار سبيل التطور الواجب اتباعه هو شأن الشعوب الداخلي . ولكن بقدر ما تتفاقم التناقضات الاجتماعية ، تبدي البرجوازية القومية ميلا متعاظما الى التصالح مع الرجعية الداخلية والامبريالية . اما الجماهير الشعبية فهي تقتنع بأن خير سبيل لتصفية التخلف المزمن وتحسين شروط حياتها هو سبيل التطور غير الرأسمالي » .

وهنا علينا ان نقرر بعض الامور الجوهرية :

● ان البرجوازية الصغيرة ، التي مثلت تطلعات الجماهير الشعبية نحو افاق الحياة الافضل **لم تتخلص من افكارها المسبقة تجاه طليعة تلك الجماهير - الاحزاب الشيوعية** واحتفظت برواسب العداء ازاء الشيوعية ايديولوجية وتنظيما . ولهذا واصلت ، بهذا القدر أو ذاك ، اما ملاحقة الشيوعيين واضطهادهم واما تقييد نشاطهم المستقل أو شله .

● وانطلاقا من تصوراتها المثالية ورفضها الاشتراكية العلمية في اكثر الاحيان. استبعدت الجماهير الشعبية عن النشاط السياسي ونفذت الاجراءات الانقلابية في البناء الاجتماعي - الاقتصادي بمراسيم ادارية ، بدون مشاركة القوى الطبقية الاساسية - العمال والفلاحين الفقراء - وحين ادركت ضرورة اشراك العمال والفلاحين في العمل السياسي ، قررت ذلك كما كان الحال في مصر ، باطر اصطناعية افرغت فيها المشاركة من مضمونها الطبقي . ولهذا غاب عن المسرح السياسي - الاجتماعي التنظيم العمالي - الفلاحي المستقل وبقي في الصدارة العمل البيروقراطي الجامد .

● ولم تدرك القوى الطبقية في الحكم ان مسألة اختيار طريق التطور - رأسماليا كان أو غير رأسمالي - لا تنتهي بانتهاج طريق التطور غير الرأسمالي بل حين ينمو هذا التطور الى الاشتراكية وتسد الطرق ، تماما ، أمام عودة الرأسمالية الى دست الحكم.

● وفي الوقت ذاته ، وهذا ما كان معروفا منذ وقت طويل ، **لم تتخلص البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطية من طبيعتها المزدوجة التي تنعكس بتذبذبها بين اليمين واليسار** .. وهذا ما لاحظته الاحزاب الشيوعية في العالم العربي منذ البداية ، وعادت واكدته في وثيقتها في نيسان ١٩٧٥ حين قررت :

« ان هذه القوى بمجموعها ، وفي مختلف البلدان العربية ، هي من حيث طبيعتها الطبقية ، تحمل في ايديولوجيتها وممارساتها وجهين متناقضين وجها ثوريا ، واخر محافظا ، وجها ديمقراطيا ، واخر بيروقراطيا ، وفي ظروف معينة ديكتاتوريا . كما تتجاذبها تأثيرات متناقضة ، احيانا من جانب الطبقة العاملة واحزابها ، واحيانا من جانب البرجوازية المتوسطة وحتى الكبيرة » .

● وفي الوقت ذاته قام التضامن العربي بدوره في التطورات في العالم العربي . لقد نما التضامن العربي والتحرك نحو الوحدة العربية في ظروف مكافحة الامبريالية ونضال الجماهير الشعبية من أجل حرياتها السياسية والاجتماعية .. **واصبحت حركة الوحدة العربية بعد الحرب العالمية الثانية عاملا ديناميا** ، يؤثر ايجابا في اكثر الاحيان وسلبا في بعضها . ولهذا انتقل الصراع الجوهري بين الشعوب العربية والامبريالية الى ميدان العلاقات بين الدول العربية **التي خلقت وعاء شاملا في الجامعة العربية** . وانقسمت الدول العربية الى جبهتين : جبهة الدول التي تحارب الامبريالية وجبهة الدول التي تتعاون معها . وكان من الطبيعي ان يتخذ هذا الصراع اشكالا مختلفة : ايديولوجية وعملية ، وان يقترن عضويا ، بأوضاع الاقطار العربية المعينة ..

بمعنى اخر اتخذ الصراع الطبقي القطـري بعدا عربيا عاما ٠

وتجسد هذا الامر في محاولة الرجعية العربية (ممثلة في المملكة السعودية) والامبريالية ، القضاء على الثورة الوطنية الديمقراطية في اليمن (الشمالي) ، ومقابل ذلك في نجدة مصر لتلك الثورة وارسال بعض قواتها المسلحة في سبيل توطيد الجمهورية اليمنية ، التي قامت على أساس تصفية نظام القرون الوسطى ، الذي ساد تلك البلاد في عهد الامامة « الحميدية » ٠

ومما لا شك فيه ان النجدة المصرية ، بغض النظر عن بعض الهنات التي ارتكبتها القوات المصرية المسلحة ، كانت مبادرة ثورية لانقاذ النظام الجمهوري في اليمن ، من الثورة المضادة ٠

وهكذا تميزت سنة ١٩٦٧ بتعميق التحولات الجذرية في عدد من الاقطار العربية وبتشديد الصراع الطبقي قطريا وقوميا (اي عربيا عاما) ٠

● وفي عشية هذه اللحظة التاريخية، استعادت الحركة القومية العربية الفلسطينية قواها وتبلورت تنظيميا في « **منظمة التحرير الفلسطينية** » ، التي نشأت في عام ١٩٦٤ ، وفي منظمات ثورية كان ابرزها « **فتح** » ٠٠ اثار هذا التطور حقد حكام اسرائيل والامبريالية ، لانه طرح من جديد القضية الفلسطينية على بساط البحث ، بعد أن كان حكام اسرائيل والامبرياليون والرجعيون العرب يؤكدون أن هذه القضية انتهت ولم تعد لها ذيول سوى مسالة اللاجئين ٠

أهداف حرب حزيران عام ١٩٦٧ وأثرها على الحركة القومية العربية

على هذه الخلفية وعلى ضوء هذه التطورات يمكن تقويم حرب حزيران العدوانية في عام ١٩٦٧

ذكرنا ان هذه الحرب كانت اعنف محاولة جرت ، بعد الحرب العالمية الثانية ، لاعادة عجلة التاريخ الى الوراء واجهاض حركة التحرر القومي ٠٠ فاهدافها كانت كما يلي :

● **الاطاحة بالنظامين التقدميين في مصر وسوريا** ، وبذلك انزال ضربة قاتلة في مجموع حركة التحرر القومي العربية ٠

● وهذا سيؤدي الى **حماية مواقع الامبريالية** الباقية في العالم العربي ، ويساعد الامبرياليين على استعادة مواقعهم ، التي اجلتهم عنها حركة التحرر القومي العربية ٠

● **فصم أو اضعاف التعاون والصداقة بين الدول العربية المتحررة والاتحاد السوفييتي** ، الذي اصبح عاملا حاسما في عملية التحولات الاجتماعية العميقة ، بمساندته تلك الاقطار عسكريا وسياسيا واقتصاديا ٠٠ فقد اتضح خلال السنوات الاخيرة أن تزويد الاتحاد السوفييتي تلك الاقطار بالسلاح وبالمعونات الاقتصادية ، لبناء قاعدتها الصناعية وتطوير زراعتها ، يسهم اسهاما حاسما في صمودها امام الضغوط الامبريالية والرجعية ، ويسرع في وتيرة التصنيع وتوسيع قاعدة القطاع العام وبذلك يوطد مسيرة التطور غير الرأسمالي ٠

● تحقيق اغراض الصهيونية في **تبديد حقوق الشعب العربي الفلسطيني وتصفية القضية الفلسطينية وتنفيذ برنامج التوسع الاقليمي** ، على حساب الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية عامة ٠

وعلى الرغم من أن حكام اسرائيل نجحوا بسبب استعدادهم العسكري الكثيف ودعم الامبريالية عامة ، والامبريالية الامريكية خاصة ، في الحاق الهزيمة العسكرية القاسية بالدول العربية الثلاث مصر وسوريا والاردن ، الا انهم **لم ينجحوا في تحقيق اهدافهم الجوهرية والمقررة** وذلك لاسباب ثلاثة :

١ – **تمسك الشعبين العربيين في مصر وسوريا بنظاميهما التقدميين** ٠٠ وهذا ظهر

بشكل خاص في التفاف الشعب العربي في مصر وسائر الشعوب العربية ، حول **الرئيس جمال عبد الناصر ونظامه المعادي للامبريالية** ٠ لقد كانت المظاهرات النضالية الشاملة التي اجتاحت مصر والاقطار العربية في ٩ و ١٠ حزيران ١٩٦٧ حدثا تاريخيا **بالغ الاهمية ، لانها احبطت مخطط الامبريالية** وحكام اسرائيل والرجعية العربية لاسقاط **الرئيس عبد الناصر** ووقف المسيرة الثورية التي اقترنت باجراءاته وسياسته ٠

٢ – **رفض الحركة القومية العربية الفلسطينية الاستسلام** امام الهزيمة العسكرية التي أصابت الدول العربية الثلاث ، وتصديها للعدوان الاسرائيلي ، ومنازلته على الرغم من عدم تكافؤ قوى العسكرية الاسرائيلية والفلسطينية ٠٠ وهذا كان معنى **معركة « الكرامة »** (مخيم لاجئين في شرق الاردن) في مطلع عام ١٩٦٨ ٠

٣ – **مساعدة الاتحاد السوفييتي وسائر الدول الاشتراكية والقوى الثورية في العالم** بجميع تياراتها ، الشعوب العربية من أجل **حقوقها القومية** ، ومحاولتها تجاوز هزيمتها العسكرية الماحقة ٠

وتجسدت مساعدة الاتحاد السوفييتي **في كافة الميادين** : السياسية والعسكرية والاقتصادية ٠

فعلى الصعيد السياسي بادر الاتحاد السوفييتي الى دعوة **الجمعية العامة للامم المتحدة** الى اجتماع طارىء ، لادانة العدوان الاسرائيلي – الامريكي ٠

وعلى الصعيد العسكري قام بالدور **المقرر في اعادة بناء القوات المسلحة** في مصر وسوريا بحيث تكون قادرة على الدفاع عن منجزات النظامين ٠

وعلى الصعيد الاقتصادي عقد اتفاقات عينية لمواصلة بناء وتوسيع القطاع العام ٠

وكل هذا كان ممكنا ، لان التوازن الدولي لم يكن في مصلحة الامبريالية والرجعية في النطاق العالمي ، بل في مصلحة الاشتراكية والتحرر القومي ٠

ونستطيع أن نقرر هنا أن التوازن في مصلحة قوى التقدم في وسعه ان يطوق ويقلص تداعي التوازن السلبي في بعض المناطق ٠٠ بمعنى اخر ان التوازن في منطقة الشرق الاوسط بعد حرب حزيران ١٩٦٧ لم يكن في مصلحة قوى الاشتراكية والتحرر القومي ولكنه لم يغير التوازن الدولي بحيث يصبح في مصلحة الامبريالية والرجعية ٠

ولهذا شهدت حركة التحرر القومي العربية نجاحات كبرى بعد هزيمة الدول العربية في حرب حزيران ١٩٦٧ ٠

وهكذا في تشرين الاول عام ١٩٦٧، بعد بضعة اشهر على حرب حزيران ، انتصرت الثورة الوطنية في الجنوب العربي ، ونجحت الحركة القومية في اجلاء الامبريالية البريطانية ، بعد اكثر من ١٣٠ سنة من الاحتلال عن عدن والامارات الملحقة بها ، واقامت **الجمهورية اليمنية الديمقراطية** ٠

وفي ٢٥ ايار ١٩٦٩ اسقطت **جبهة وطنية سودانية** ، بالتعاون مع عناصر وطنية في الجيش ، حكم ديكتاتورية ابراهيم عبود * المتعاونة مع الامبريالية وأوصلت الى الحكم ائتلافا ديمقراطيا جمع بين القوى الوطنية ومن بينها **الحزب الشيوعي السوداني** ٠

وفي مطلع ايلول (الفاتح من سبتمبر) ١٩٦٩ أطاحت **حركة الضباط الوطنيين** بالنظام الملكي الرجعي في ليبيا ، وانشأت نظاما جمهوريا معاديا للامبريالية ، **اتسم بتوجه اصلاحي وبتطلع نحو تغييرات اجتماعية راديكالية** ٠

وبفضل هذه الانجازات الوطنية الهامة نشأت الظروف من اجل اقامة شكل من اشكال الوحدة العربية ، تبلورت ملامحه في نهاية عام ١٩٧٠ باتفاق بين مصر وسوريا وليبيا – ومبدئيا السودان – على تأليف اتحاد فيدرالي بين تلك الدول ٠

* كان حكم ابراهيم عبود قد اسقطته جبهة وطنية سودانية عريضة ، في ثورة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٤ ٠ أما النظام الذي اسقط في أيار (مايو) ١٩٦٩ فكان نظاما ائتلافيا بين حزبي « الوطن الديمقراطي » و« الامة » ٠ وكان اسماعيل الازهري هو رئيس الجمهورية أنذاك ٠

(الكاتب الفلسطيني)

ولكن هذه التطورات الايجابية اقترنت بتطورات سلبية ، وجرت في ظروف سريان القوانين الموضوعية وأهمها الصراع الطبقي ـ الاجتماعي الذي حدد اصطفاف القوى الطبقية ازاء اختيار طريق التطور ، الذي كما ألمحنا ، كان بين اتجاهين ـ الاتجاه الرأسمالي والاتجاه غير الرأسمالي ·

وفي وسعنا ن نلخص ملامح الوضع في العالم العربي بما يأتي :

● في مناخ التضامن العربي الذي فرضته الشعوب العربية بعد هزيمة حرب حزيران ، **استطاعت الانظمة العربية الرجعية،** وبالتحديد المملكة السعودية ودول النفط العربية الاخرى ذات القدرات المالية الضخمة، **ان تفرض على مصر تراجعا معينا في المعركة العربية العامة** بين الانظمة المعادية للامبريالية والانظمة المتعاونة معها · وهذا تجسم في الاتفاق في **مؤتمر الخرطوم** ، في اب ١٩٦٧ بانسحاب مصر من اليمن ، الامر الذي خلق اوضاعا افضل للثورة المضادة التي كانت تدعمها السعودية ·

● وفي الوقت ذاته **رفعت القوى البرجوازية** ـ الرجعية في الأقطار العربية المعادية للامبريالية ـ والمقصود هنا مصر في الدرجة الاولى ـ **شعار « قومية » المعركة ضد الاحتلال الاسرائيلي ، ودعت الى وقف التحولات الاجتماعية العميقة** ، على اعتبار ان الوضع الناشىء يستدعي تجنيد كافة القوى القومية والوطنية ·

● وهذا أدى الى تشديد التمايز بين القوى الطبقية وغير ، الى حد ما ، مواقف شرائح من الفئات الاجتماعية التي احتلت مواقع السلطة في عدد من الاقطار العربية المتحررة · ولكن الحصيلة العامة كانت ايجابية في مصر وسوريا والعراق والجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية (الجنوبية) ·

وفي مصر ، حيث احتدم النقاش بين اليمين واليسار حول النهج المستقبلي ،وحيث حاول اليمين تؤيده القوى الرجعية والامبريالية اجهاض التحولات الاجتماعية الجذرية بحجة الوحدة الوطنية ، عمقت السلطة الاصلاحات الاجتماعية ، بتخفيض الملكية الزراعية الى الحد الادنى ـ من مئة فدان إلى خمسين فدانا ، وواصلت توسيع القطاع العام ، وكثفت مقاومة المؤامرات الامبريالية المتساوقة مع حكام اسرائيل (٤)

وفي سوريا استمر ، على الرغم من الصراع الداخلي في **حزب البعث** ، الاتجاه التقدمي في السياستين الداخلية والخارجية، الذي بدأ بعد حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ · فانذاك تشكلت حكومة بعثية ضمت ، لاول مرة ، ممثلا عن الحزب الشيوعي ، ووطدت القطاع العام ، وأسرعت في تنفيذ الاصلاح الزراعي ومقاومة الرجعية · · وظهر هذا الاستمرار في السياسة التقدمية بعد حركة التصحيح التي قام بها جناح حزب البعث بقيادة حافظ الاسد في تشرين الثاني من عام ١٩٧٠· « ووسع هذا الحكم التعاون مع الشيوعيين ، الذين تمثلوا في الوزارة بعضوين من مسؤوليهم ، واتسعت قاعدة الحكم باشراك الاحزاب التقدمية الاخرى فيه ، وقامت الجبهة الوطنية التقدمية ، وتألف مجلس تشريعي » ·· واستمر التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفييتي وتصنيع البلاد ودعم القطاع العام (٥) ·

وينتسب الى هذه الفترة التحول المهام الذي جرى في العراق حيث وصل الى السلطة جناح يساري من حزب البعث في تموز (يوليو) عام ١٩٦٨ ، بدأ في تحقيق انجازات على الصعيدين الداخلي والخارجي مما خلق الظروف لاقامة الجبهة الوطنية التقدمية في تموز عام ١٩٧٣ (٦) ·

ولم يختلف الوضع في الجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية ونفذت السلطة في القطرين اصلاحات اجتماعية بعيدة المدى في الميدانين الزراعي والصناعي ·· وفي الجزائر كان الاصلاح الزراعي كما وصفته القوى التقدمية ثورة في الريف لانه غير التوازن الطبقي في القطاع الزراعي الواسع وأنزل ضربة بأسياد الارض والرجعية الداخلية ·

الفترة ما بين الحربين ـ حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب تشرين الاول ـ ١٩٧٣ ·

تميزت هذه الفترة بتشديد الهجوم الامبريالي الرجعي على الانظمة العربية التقدمية · وفي هذا الهجوم قام حكام اسرائيل بدور جوهري ·

واتخذ هجومهم صورا مختلفة ، وانطلق من تكريس احتلال الاراضي العربية ، على اعتبار ان ذلك ، بذاته ، يشكل ضغوطا على الحكومات العربية ، في وسعها ان تفجر صراعات اجتماعية تحرج السلطة التقدمية ، في هذا القطر او ذاك ·

وبتشجيع الامبريالية الامريكية انتهج اولئك الحكام ازاء مصر أسلوب تصعيد الاعتداء العسكري إلى درجة « **غارات العمق** »، التي استهدفت ترويع السكان وإثارتهم على النظام واسقاط حكم الرئيس **جمال عبد الناصر** · واذا كان هذا الهجوم قد فشل ، فذلك بفضل صمود الشعب المصري ومساندة الاتحاد السوفييتي ، الذي زود مصر بتجهيزات الدفاع العصرية التي جعلت « غارات العمق » باهظة الثمن بالارواح والمعدات ·

وفي هذه الفترة حمت المحافل الاسرائيلية الحاكمة بالتهديد العسكري بدعم من الاسطول السادس الامريكي حكام الاردن ، حين شنوا حرب الابادة على الشعب الفلسطيني ومنظماته الثورية ، في **ايلول الاسود** عام ١٩٧٠ · انذاك حركت تلك المحافل قواتها لتمنع النجدات العربية لوقف المجزرة الوحشية التي تعرضت لها جماهير اللاجئين الفلسطينيين نزلاء المخيمات ·

وكان الهجوم الاسرائيلي البربري يتعاقب على مخيمات اللاجئين في لبنان ، بحجة ضرب « منظمات الارهاب » ، ولكن الهدف الحقيقي تصفية حركة الشعب العربي الفلسطيني القومية ·· وتبديد حقوقه المشروعة ··

وفي كثير من الحالات كان الهجوم يهدف الى مساعدة الرجعية المتعاونة مع الامبريالية ، بترجيح كفتها على القوى الوطنية والتقدمية في لبنان · وفي بعض الاحيان كان توقيت العدوان وصورته يظهران تدخلا فظا في الصراع الدائر في لبنان ·

ولا جدال في ان الاستيطان الكولونيالي في المناطق العربية المحتلة ـ الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء ومرتفعات الجولان ـ ومحاولة تغيير معالمها ، جغرافيا وسكانيا ، كان يمثل أشد صور العدوان الفظ ، خصوصا وانه اقترن باجراءات قمع شرسة ، نفذتها سلطات الاحتلال في تجربة يائسة لضرب الحركة القومية التحررية وتنصيب دمى على الشعب العربي الفلسطيني في اراضيه المحتلة ـ الضفة والقطاع ·

لقد ذكرنا أن الدول العربية المتحررة استمرت ، بوجه عام ، في طريقها التقدمي ، المعادي للامبريالية وللاحتلال الاسرائيلي ، ولكن هذه الفترة شهدت احداثا ايجابية وسلبية ، واظهرت طبيعة البرجوازية الصغيرة المزدوجة من ناحية ، وتغييرات في توازن القوى على المسرح العربي العام من ناحية اخرى ·

وأبرز الاحداث التي كان لها اثرها ، انذاك ، ولا تزال تقوم بقسطها في مجمل التطورات في العالم العربي تتلخص فيما يلي :

● اصيبت الثورة في السودان ، التي اقامت حكومة جبهة وطنية تقدمية في ايار ١٩٦٩ ، بنكسة خطيرة ، استنفرت حركة تصحيح ثورية بقيادة وطنيين في قيادة الجيش ، في ١٩ تموز ١٩٧١ · ولكن هذه الحركة التي تجاوبت معها الجماهير اغرقتها ثورة مضادة بالدم ، وذلك بمساعدة النظامين في مصر وليبيا ·· وفي هذه اللحظة ظهر التوجه الطبقي البرجوازي الذي اتجهته السلطة في مصر (٧) انطلاقا من معاداتها للشيوعية والقوى الشعبية الديمقراطية ·

والحقيقة ان السلطة في مصر كانت ، منذ وفاة الرئيس جمال عبد الناصر ، قد انتقلت الى أيدي الجناح الوسط من البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية المتوسطة ، بقيادة الرئيس انور السادات .. وهذا الجناح نجح ، في أيار ١٩٧١ ، اي بعد حوالي نصف سنة على تسلمه السلطة ، في تصفية العناصر التي ارتبطت بنهج عبد الناصر ، من امثال علي صبري وصحبه . ففي ذلك الشهر اتهمهم السادات بمحاولة الانقلاب على حكمه ، وبمحاكمة مشبوهة زجهم في السجن ، ثم قام بعد ذلك باطلاق سراح عناصر يمينية ، معروفة بعدائها لسبيل الاصلاحات الاجتماعية العميقة ، ومن بينها عناصر أدينت بالتعاون مع الامبريالية الامريكية .

ولهذا كان التدخل في السوادن ، الى جانب الثورة المضادة ، مظهرا اخر من مظاهر الميل نحو اليمين في مصر .

ولكن هذا الميل كان يجري في اطار صراع شديد بين أجنحة القوى الاجتماعية التي تحتل مواقع الحكم .. وانعكس ذلك في رجحان كفة الجناح التقدمي ، ولو الى حين ، في عقد معاهدة الصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفييتي ومصر ، في نهاية ايار ١٩٧١ * . وقد اعربت مقدمة هذه المعاهدةعن الاقتناع العميق والثابت بأن تنمية الصداقة والتعاون المتعدد الجوانب بين الطرفين يتفق مع مصالح الشعبين ويخدم قضية توطيد السلام العالمي . كما أكدت ان الفريقين يستلهمان ، في نهجهما ، مثل مقاومة الامبريالية والكولونيالية والحرية والاستقلال وتقدم الشعوب الاجتماعي والاخلاص لمبادىء الامم المتحدة .

وبرهنت الاحداث على ان هذا النجاح كان مؤقتا ، لان الرئيس السادات بدأ يلقي ظلالا من الشكوك على سياسة الاتحاد السوفييتي ومساندته مصر ، في نهاية العام ذاته .. واستمر ابتعاده عن روح هذه المعاهدة حتى وصل ، في منتصف عام ١٩٧٢، الى درجة الطلب من الاتحاد السوفييتي سحب خبرائه العسكريين ، الذين قاموا بدور هام جدا ببناء القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة حرب حزيران ١٩٦٧ ، وباحباط غارات العمق والدفاع عن تربة مصر .

وفي هذه الفترة ، أي بعد اعتقال علي صبري وصحبه ، استقبل السادات وزير خارجية الولايات المتحدة انذاك ، وليم روجرز ، ورأت المحافل التقدمية في ارتباط الامرين خطوة نحو التقارب مع الامبريالية الامريكية ، التي كانت تساند اسرائيل مساندة تامة ، عسكريا واقتصاديا وسياسيا .

ومع هذا فالاتجاه العام في العالم العربي كان اتجاها ثوريا . ففي سنوات السبعين بادرت الحركة القومية العربية باكتساح معاقل الامبريالية الاقتصادية في الاقطار العربية ، وامتدادا من الجزائر حتى العراق قامت الحكومات المتحررة بتأميم شركات النفط ، اما كليا او بنسب عالية ، بحيث قصمت ظهر امبراطورية الاحتكارات النفطية الامريكية ـ البريطانية ـ الفرنسية ، التي لعبت أدوارا خطيرة في تنظيم الانقلابات الرجعية في عدد من الاقطار العربية .

في هذه الفترة نجحت « اوبيك » منظمة الاقطار المصدرة للنفط ، في تحطيم قبضة الشركات الاحتكارية ، وزادت اسعار النفط الخام ، بشكل يتفق مع اسعار السلع الصناعية وقيمة النقد مما أدى الى بداية تغيير العلاقة غير المتكافئة بين الدول النامية وبينها الدول العربية ، والدول الامبريالية الرأسمالية التي كانت تحصد الارباح الاسطورية في الماضي ، بسبب هيمنتها على مصادر المواد الخام في الاقطار التي كانت تستعمرها في الماضي .

والواقع ان تغيير التوازن الدولي في غير مصلحة الامبريالية شل قدرة الشركات الاحتكارية ، والحكومات التي تساندها على افشال هذا التطور الثوري . وفي كثير من الاحيان ، كانت مساعدة الاتحاد السوفييتي عاملا حاسما في حماية هذا الانجاز الوطني

* كان اقدام السادات على توقيع هذه المعاهدة بسبب رغبته في تضليل السوفيات والقوى التقدمية المصرية والعربية ، وهذا ما أكدته الاحداث اللاحقة في مصر .

(الكاتب الفلسطيني)

الكبير . وهذا برز في العراق ، حيث ساعد الاتحاد السوفييتي على قيام الحكومة باستخراج النفط في الرميلة ودعمها حين أممت شركة نفط العراق التي كانت تسيطر على الجزء الاكبر في صناعة النفط .

ولهذا كان طبيعيا ان تتوطد الصداقة السوفييتية العراقية وتتخذ شكل معاهدة صداقة وتعاون ، تم التوقيع عليها في نيسان عام ١٩٧٢ . وقد أكدت مقدمة هذه المعاهدة على اتفاق الطرفين على ان تعاونهما يتفق مع مصالحهما القومية ويخدم قضية السلام في العالم والمنطقة العربية كما يتفق مع حريات الشعوب وأمنها وسيادتها . كذلك اعلنت المقدمة ان الطرفين يعقدان معاهدة تلهمهما مثل مكافحة الامبريالية والكولونيالية والصهيونية والرجعية من أجل حرية الشعوب وتقدمها الاجتماعي .

والحقيقة ان هذه الفترة شهدت اتساع علاقات التعاون بين الاتحاد السوفييتي وسوريا والجزائر واليمن الديمقراطية وغيرها .

ومن ملامح هذه الفترة ، وبفضل نجاح « اوبيك » في تغيير المعادلة في العلاقات بين الدول الرأسمالية الكبرى والدول النامية ، ازدادت القدرة المالية للأقطار العربية النفطية ذات الانظمة الرجعية المتعاونة مع الامبريالية ، واهمها المملكة العربية السعودية وأصبحت في وضع أقوى ،لتمارس ضغوطها على الاقطار العربية المتحررة ، عن طريق مدها بالمساعدات المالية، واقراضها مبالغ كبيرة لمواجهة صعوباتها .

ومما لا شك فيه أن الاقطار العربية المتحررة ، في مواجهتها الامبريالية والاحتلال الاسرائيلي ، كانت مضطرة الى تخصيص مبالغ ضخمة ، لتقوية طاقاتها الدفاعية، ولهذا كانت تعاني صعوبات اقتصادية جمة ، على الرغم من المساعدات الحاسمة التي اغدقتها عليها الدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي .

وقد تراكمت هذه الصعوبات ، نتيجة نمو البرجوازية البيروقراطية في القطاع العام وفي الادارة الحكومية من ناحية ، وعدم استعداد السلطة للاسراع في وتيرة السير على طريق التطور غير الرأسمالي بتعميق التحولات الاجتماعية الجذرية .

حرب تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩٧٣ ونتائجها واعقابها

في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣ عقدت الاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية اجتماعا ، بحثت فيه الاوضاع في العالم العربي ، في اطار التطورات التي طرأت على المسرح الدولي ، وقررت ، كما جاء في بيانها الختامي :

« ان الانعطاف الجاري في العالم اليوم نحو انتصار مبادىء التعايش السلمي وتعاظم النضال ضد الامبريالية ، هما مظهران جليان لبوادر التغيير في ميزان القوى على الصعيد العالمي لصالح قوى السلام والتقدم الاجتماعي والتحرر الوطني والديمقراطية والاشتراكية ، وقد تم ذلك نتيجة تعاظم قوة المعسكر الاشتراكي ، وطليعته الاتحاد السوفياتي ، وانجازاته الاقتصادية والعلمية الثقافية وتأثيراته الايديولوجية ، ونتيجة تعاظم بأس حركة التحرر القومي العالمي وحركة الطبقة العاملة » (٨) .

كذلك قررت الاحزاب الشيوعية (٩) في الاقطار العربية رفض محاولة الرجعية المساواة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وأبرزت أهمية انبثاق الجبهات الوطنية في سورية والعراق في مجمل الحركة القومية العربية عامة ، وحذرت من شعار مقاومة الشيوعية ، ومن الاتجاهات والميول اليمينية ، التي تخدم الطبقة الاستغلالية الضيقة .

ولاحظت ان هذه الميول اليمينية تظهر في مصر حيث جرت وتجري تراجعات في ميادين السياسة الخارجية والعربية والداخلية

وابرز مظاهرها ، تصعيد عملية التقارب مع السعودية ، والميول الاستسلامية ، وتشجيع القطاع العام * واضطهاد القوى التقدمية والماركسية .. واخيرا ، وليس اخرا ، العمل بمختلف الاشكال لاضعاف عرى الصداقة والتحالف مع الاتحاد السوفييتي » .

وعلى هذا الضوء وضعت هذه الاحزاب مهام انية امام حركة التحرر القومي العربية، اهمها صد الهجمة الامبريالية ، الصهيونية الرجعية العربية ، وتعزيز الصداقة السوفييتية العربية ، ودعم النضال التحرري العربي في شبه الجزيرة العربية ، وافشال المؤامرات على الاصلاحات الاجتماعية ، وتنسيق نضال الاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية ، وتوطيد علاقاتها مع الحركة الشيوعية العالمية

والمهم هنا ان الاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية رأت ان ظروف الانفراج الدولي تخلق مناخا افضل لتشديد النضال التحرري على كافة الجبهات ، ومنها الجبهة في منطقة الشرق الاوسط .

وهذا ما برهنته فعلا حرب تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩٧٣ .

لا نقاش حول مسؤولية حكام اسرائيل والامبرياليين في نشوب هذه الحرب . فرفضهم الانسحاب من المناطق العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، وتصعيدهم اعمال العدوان على الاقطار العربية ، وقبيل الحرب ، كان تركيز الهجوم على سوريا ، واستمرارهم في الاستيطان الكولونيالي في الضفة وقطاع غزة وسيناء والجولان ، وتخريبهم مبادرات التسوية ، وتنكرهم لحقوق الشعب العربي الفلسطيني .. كل هذه العوامل فجرت التناقض بين حركة التحرر القومي العربية والامبريالية وحكام اسرائيل ..

وفي هذا الاطار كانت الحرب فيتشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩٧٣ حربا تحريرية ، من وجهة نظر الشعوب العربية والرأي العام التقدمي في العالم ، وكانت انعطافا هاما في النضال الوطني .

واقترنت بهذه الحرب مدلولات عديدة عربية ومنطقية وعالمية ..

اما من الناحية العربية ، فقد رفعت التضامن العربي الى مرحلة استطاعت خلالها الشعوب العربية ، بتحركها العام وزخمها الثوري ، ان تفرض على حكام دول النفط العربية الرجعيين في السعودية والكويت والبحرين استخدام سلاح النفط في المعركة(١٠).

وفي الناحية المنطقية ، برهنت الحرب على ان توازن القوى العسكري يتغير باستمرار ، وان تفوق اسرائيل التام ، الذي ظهر في حرب حزيران ١٩٦٧ وما بعدها ، يتزعزع بشدة ، بتقليص الثغرة التقنية بين الدول العربية واسرائيل . لم تنته الحرب بانتصار عربي ، ولكنها اثبتت ان الجيوش العربية تتعلم فنون القتال ، وتحذق استخدام احدث الاسلحة ، واكثرها تعقيدا ، وتستطيع ان تحارب وتصمد .

وفي الناحية العالمية ، تأكدت الشعوب العربية ان التأييد السوفييتي هو صخرتها الراسخة . فالاتحاد السوفييتي هو الذي زود الجيوش العربية باحدث الاسلحة وبالخبرة ، وهو الذي دعم حقوق الشعوب العربية سياسيا على الصعيد الدولي ، في حين ظهرت الامبريالية الامريكية من جديد عارية ، تساند حكام اسرائيل بسياستهم العدوانية التوسعية .

ولكن هذه الحرب التي انتهت في لحظة كان حكام اسرائيل والامبرياليون يودون استمرارها . وكان ذلك بفضل ضغط الاتحاد السوفييتي وسائر الدول الاشتراكية وقوى التقدم على الولايات المتحدة . وقد كشفت نتائج هذه الحرب عن امرين ، اثبتهما بيان الاحزاب الشيوعية في الاردن وسوريا والعراق ولبنان ، الذي صدر بعد اجتماع ممثليهم ، في تشرين الثاني ١٩٧٣ :

الاول : ان نتائج الحرب الايجابية كان من الممكن ، ان تكون اكبر لو عبئت الجماهير

* لاشك ان الكاتب يقصد القطاع الخاص . (الكاتب الفلسطيني)

سياسيا وتنظيميا وعسكريا ، بصورة افضل واطلقت مبادراتها وحرياتها الديمقراطية ، وفيما لو جرى تنسيق افضل بين الدول العربية التقدمية ، وتمسك بالتعاون والتحالف مع الاتحاد السوفييتي ، بدل افساح المجال لانهاء مهمة الخبراء السوفييت ولبعض التراجعات في المواقف ازاء المساعدة السوفييتية ، وخاصة العسكرية ، ولبعض الترددات ازاء الامبريالية والرجعية العربية ، والتراجعات في المجالات الاقتصادية لصالح القطاع الخاص » .

والثاني ، وهو مرتبط بالاول عضويا ، يجب الحذر من نشاط الامبريالية الامريكية ، التي تحاول تبديد نتائج حرب اكتوبر وممكناتها الايجابية اذ هذا « ما تقوم به الدبلوماسية الامريكية في الوقت الراهن بنشاطها المحموم ، وما يقوم به كيسينجر بوجه خاص ، بالتوافق مع الرجعية والقوى اليمينية العربية لتمرير (حل) امريكي ، يتناقض مع مصالح حركة التحرر الوطني العربية » .

وكان التحذير في وقته ، فحكام مصر ، وفي مقدمتهم الرئيس انور السادات ، تجاهلوا دور الاتحاد السوفييتي الهام في نتائج حرب اكتوبر .. وفي الوقت ذاته بداوا عملية التقارب مع الامبريالية الامريكية ، التي اقامت جسرا جويا لتزويد اسرائيل بكميات ضخمة من السلاح .. ولم يمض شهر على حرب اكتوبر ١٩٧٣ حتى استانفوا العلاقات الدبلوماسية وتبادلوا السفراء مع امريكا .

ولكن هذا التحذير لم يوقف العملية الموضوعية في مصر ، فالسلطة سارت ، بوتيرة متسارعة ، في طريق اضعاف العلاقات مع الاتحاد السوفييتي والتقارب مع الامبريالية الامريكية ، اسوة بالسعودية ، والتخلي عن القوى المعادية للامبريالية .

والواقع ان هذه العملية ، التي بدات قبل حرب تشرين الاول تكثفت بعدها ، لان الحرب عمقت الصراع الطبقي ـ الاجتماعي داخل مصر .. ان هذا الصراع لم يوقف ابدا ، حتى في اوجه ، الاجراءات الاصلاحية الاجتماعية البعيدة المدى ـ مثل الاصلاح الزراعي والتأميم ـ وحتى سنوات السبعين الاولى لم يرجع كفة البرجوازية واصحاب الاراضي المتوسطة ..

وفي سنوات السبعين كانت مصر قد وصلت الى تقاطع طرق ، فصعوباتها الاقتصادية ، التي زادتها اوضاع الحرب حدة ، كان يجب أن تحل .. والحل الطبيعي والناجح ، والذي يتفق مع مصالح العمال والفلاحين وسائر الفئات الشعبية ، كان يتمثل بمزيد من التحولات الاقتصادية والسياسية الايجابية ، اي تعميق الاصلاح الزراعي وسد الطريق امام نمو الراسمالية في الريف على حساب الفلاحين الفقراء ، وتوسيع القطاع العام ، وتحسين ادارته بوقف نمو البرجوازية البيروقراطية فيه ، والحد من زحف البرجوازية القومية عليه ، وتمكين العمال والفلاحين وسائر الفئات الشعبية من التنظيم الحقيقي ، لا المصطنع ، لسد الطريق امام تآمر الامبريالية والرجعية الداخلية على نظام الحكم .

ولكن السلطة ، انطلاقا من طبيعتها الطبقية المتذبذبة وفي ظروف نمو الراسمالية في الريف .. والبرجوازية القومية والبيروقراطية في المدينة، والخوف من صعود الطبقة العاملة والفلاحين الى موقع الصدارة نتيجة التحولات الاجتماعية ذات الافق الاشتراكي ، اندفعت في طريق الردة ولوحت « بحل » آخر ـ حل العودة الى التطور الراسمالي .. ولهذا بدأ الهجوم على القطاع العام .. وبدأ الحكم يسخر جهازه «لتشجيع» البرجوازية القومية وفتح ابواب البلاد على مصاريعها (انفتاحها) على الراسمال الغربي والعربي ..

ولهذا فاضعاف الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ، حتى الغاء معاهدة الصداقة والتعاون معه .. والتقارب من الامبريالية

الامريكية والمراهنة عليها اقتصاديا وسياسيا، الى حد القول انها تملك ٩٩ في المئة من اوراق تسوية أزمة الشرق الاوسط ، كانا تجسيما للسياسة الداخلية ، سياسة الردة عن طريق التطور غير الراسمالي ·

بمعنى اخر ، ان **المرحلة الحالية من الصراع الطبقي – الاجتماعي في مصر ترجح كفة البرجوازية القومية والرجعية** ، الراغبة في التعاون مع الامبريالية ·· ولكنها مرحلة عابرة ، لان هذا الطريق لن يحل اية مشكلة من مشاكل مصر الاقتصادية او الاجتماعية ، بل سيعمق صعوباتها ويدفعها الى طريق الازمة ·· وهذه كانت خبرة مصر قبل ان تتحول عن طريق الراسمالية في سنوات الستين الاولى ·· وهذا هو الواقع فعلا ·· **ولهذا يشتد الصراع الطبقي – السياسي :** الصراع من أجل العودة عن طريق الراسمالية وعن طريق التعاون مع الامبريالية ·· ومن المؤكد ان اعادة تنظيم « **الحزب الشيوعي المصري** » واقتحامه ميدان الكفاح السياسي يعرب عن طاقة الجماهير الشعبية على خلق هيئة اركان طليعية لقيادة نضالها · وفي الوقت ذاته كان تاليف منبر « **التجمع الوطني الوحدوي** » واشتراكه في الانتخابات النيابية ، التي جرت في نهاية تشرين الاول في عام ١٩٧٦ ، مظهرا قويا لكفاح الجماهير الشعبية من اجل حماية منجزاتها وصد الهجوم عليها ·· وهذا بالاضافة الى اضرابات العمال ومظاهرات الطلاب وتحركات الفلاحين الفقراء في الريف ·

وقد اتضح ان الردة في مصر ، وكان مظهرها الاخير المثير **اتفاق الفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية** في سيناء ، في آب ١٩٧٦ ، الذي تم تحت وصاية الولايات المتحدة السياسية والعسكرية (١١) ، أثرت في الساحة العربية تاثيرا سلبيا ، فقد أضعفت التضامن العربي وفتتت ، مؤقتا الجبهة بين مصر وسوريا ، التي قامت بالدور الحاسم في منجزات حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، واسهمت في خلق الظروف لانفجار الحرب الاهلية في لبنان ، واستمرارها اكثر من عشرين شهرا ·

وظهر ان الحرب الاهلية كانت، جوهريا هجمة امبريالية رجعية على الحركة القومية العربية الفلسطينية ، ممثلة في منظمة التحرير الفلسطينية وعلى القوى الوطنية التقدمية اللبنانية · وفي هذا الصدد كانت محاولة شارك فيها حكام اسرائيل لتصفية منظمة التحرير ونسخ ايلول الاسود الاردني في لبنان ·

وكان من ذيول اتساع الحرب الاهلية التي اتسمت ، ايضا ، بطابع الصراع الطبقي الاجتماعي في لبنان ، أن شددت الصراع الطبقي الاجتماعي في سوريا ، وفي فترة **متقدمة من الحرب الاهلية رجحت قوى اليمين في دوائر السلطة ، الامر الذي انعكس في تدخل سوريا العسكري الى جانب القوى الانعزالية الرجعية المتعاونة مع الامبريالية ·**

وفي هذه الفترة تاكد ان مصر ، التي كانت في عهد عبد الناصر مركز الثقل في الحركة القومية العربية وطليعة العالم العربي في مكافحة الامبريالية والتحولات الاجتماعية ، فقدت موقعها القيادي ، واصيبت بعزلة شديدة ، بحيث لم تستطع ممارسة اي نفوذ في محاولات التسويات التي كانت تجري لانهاء الحرب الاهلية في لبنان ·

ولم تتمكن من العودة الى المسرح العربي الا بعد ان اعلنت تاييدها لمنظمة التحرير الفلسطينية **وشجبت القوى الانعزالية الرجعية التي أيدتها ، عمليا في البداية جنبا الى جنب السعودية ·**

واخفاق المؤامرة على منظمة التحرير الفلسطينية وعلى **القوى الوطنية التقدمية في لبنان بفضل صمود جبهتها وتاييد الشعوب العربية وقوى التقدم في العالم ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي ، وخوف الرجعية العربية من تحركات القوى الشعبية في العالم العربي ، هما العاملان الجوهريان اللذان دفعا الى عقد** مؤتمري الرياض والقاهرة ،

واتخاذ القرارات التي اوقفت الحرب الاهلية في لبنان ·

ولكن هذا لا يعني ان الامبريالية والرجعية استسلمتا ، فالتامر على الحركة القومية العربية ، وعلى احدى كتائبها الطليعية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، **لا يزال كثيفا ، وكان مظهر تعاون اليمين معه تصريح الرئيس المصري** انور السادات **بشان فرض** الاردن على منظمة التحرير **بدعوته الى علاقة دستورية بين الدولة الفلسطينية التي ستقوم والمملكة الاردنية ·**

الحركة القومية العربية اليوم

ولكن الردة في مصر ·· وقيام محاور رجعية في العالم العربي من مثل محور السعودية – مصر – الكويت ، وبروز ميول يمينية في سوريا لا تغير في الاتجاه العام في العالم ·· فهذا الاتجاه لا يزال اتجاها معاديا للامبريالية ويوطد الصداقة مع الاتحاد السوفيتي وينفذ التحولات الاجتماعية الجذرية ·

وهذا ما اكدته الاحزاب الشيوعية والعمالية في الاقطار العربية ، في البيان الذي أصدرته بعد اجتماع ممثليها في بغداد في أواسط كانون الاول ١٩٧٦ ·· فبعد أن ابرزت التغيير الهام في ميزان القوى الدولية في مصلحة السلام والحرية والتقدم الاجتماعي والاشتراكية ، وتوقفت عند النجاحات الكبيرة في تخفيف التوتر الدولي ، قررت ان الحركة القومية العربية ، وهي جزء لا يتجزأ من العملية الثورية العالمية ، حققت وتحقق تغييرات ايجابية ، واحرزت نتائج هامة في تحقيق التحولات التقدمية الاجتماعية والاقتصادية ، وفي تدعيم الاستقلال الوطني ونشات في بعضها جبهات تقدمية ، يجري ، ضمن اطارها ، وبشكل من الاشكال ، تعاون بين القوى التقدمية الوطنية والاحزاب الشيوعية ، وزادت شعبية الافكار الاشتراكية العلمية ، وخبرة بناء المجتمع الجديد في البلدان الاشتراكية · وتطورت الصداقة والتعاون السوفيتي – العربي ، وخطت شوطا ابعد وضاقت امكانات السير على طريق معاداة الشيوعية ·

والسؤال كيف يمكن رؤية التطورات في المستقبل ؟ ·· وما هي القوى الاجتماعية التي ستنفذ مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ·

توازن القوى الاجتماعية والثورة القومية الديمقراطية في العالم العربي

ارتبط نشوء الحركات القومية بمرحلة الانتقال من النظام الاقطاعي ، نظام الاقتصاد الزراعي ، الى النظام الراسمالي ، نظام الاقتصاد الصناعي · ونمو الراسمالية ، في رحم المجتمعات الاقطاعية ولد الطبقة الراسمالية التي قادت عملية تحطيم نظام التفتت الاقليمي الاقطاعي واقامة الدولة القومية – الراسمالية – الموحدة ·

والانتقال من الاقطاعية والراسمالية – وتم في البداية في اوروبا الغربية – كان تحولا جذريا وتقدميا في مسيرة الانسانية الطويلة نحو المجتمع الافضل – مجتمع الاشتراكية في ايامنا ·

ولم تحقق الطبقة الراسمالية هذا الانجاز الثوري بقواها الذاتية ، بل حققته لانها استطاعت ان تحظى بمساندة الجماهير الناقمة على الاقطاعية ، والتواقة الى مجتمع الديمقراطية والمساواة ··· وهذه

الجماهير من عمال وفلاحين فقراء ومثقفين معدمين ، التي كانت قوى الصدام الحاسمة او طعام المدافع ، في معركة تدمير الاقطاعية ، لم تنجح في تحقيق امانيها في القضاء على الاستغلال ، لان الراسمالية النامية هي التي نجحت في فرض قيادة رجالها ، خلال عملية التحول الثوري واقامت النظام الاجتماعي على شاكلتها ·

وفشلت القوى الطليعية جدا في الانتقال بالثورة على الاقطاعية من المرحلة الراسمالية الى المرحلة الاعلى ، لان توازن القوى الطبقية السياسية لم يكن في مصلحتها ، ولم تكن الاوضاع الموضوعية ناضجة لذلك وهكذا اخفقت مثلا ، ابان الثورة الراسمالية الكلاسيكية في فرنسا ، وفي نهاية القرن الثامن عشر ، طليعة الطبقة العاملة النامية التي عرفت بدعاة التسوية Levellers في محاولة تحقيق المساواة الاقتصادية والسياسية الحقيقية ، ونجحت السلطة الراسمالية في قمعها وتبديدها ·

وسرعان ما فقدت الطبقة الراسمالية ، التي كانت قابلة ايجابية في عملية الانتقال الثوري ، طابعها التقدمي بفعل القوانين الموضوعية واصبحت طبقة رجعية وذلك لسببين جوهريين مترابطين :

١ – لطبيعتها الاساسية ، القائمة على استغلال العمال والجماهير الشعبية وتكديس القدر الاكبر من الارباح ، بغض النظر عن تدهور اوضاع العاملين الى الحد الماسوي ·

٢ – ولتحولها الى احتكارات ، على الصعيد الدولي ، ، فبذلك وصلت الراسمالية الى الامبريالية ، اعلى مراحلها ، ودشنت عملية الاستيلاء على الاقطار المتخلفة – المستعمرات ، واتمام توزيع تلك المستعمرات فيما بينها ، بين الدول الراسمالية – الامبريالية الكبرى – بريطانيا وفرنسا والبرتغال وهولندا والمانيا ··

وتحقق الامر الثاني ، اي الاستيلاء على الاقطار المتخلفة في اسيا وافريقيا ، بشكل خاص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بسبب التطور غير المتعادل ، الذي مكن الدول الراسمالية الكبرى – وقد وصلت الى مرحلة الاحتكار – من استخدامها طاقاتها الاقتصادية والعسكرية ، لاحتلال المستعمرات واستغلال ثرواتها الطبيعية وطاقاتها الانسانية ، وتحويلها الى اسواق لسلعها ، وتجميد نموها الاقتصادي وتطورها السياسي ·

لم تختف الحركات القومية من اوروبا فالانتقال من الاقطاعية الى الراسمالية ، وبعد ذلك الى الامبريالية ، ابقى قوميات مكبوتة ، مثل ايرلندا في بريطانيا ، وبولونيا وفنلندا في روسيا القيصرية ، وقوميات اخرى في الامبراطورية النمساوية – الهنغارية ·

وفي هذه الفترة نمت الحركات القومية في كل قطر احتلته دول امبريالية – راسمالية · وكافح الشعب العربي المصرى ، مثلا ، لاجلاء الامبرياليين عن اراضيه والفوز باستقلاله كما كافح الشعب الايرلندي من اجل حريته ، نفس الامبرياليين البريطانيين ·

ومع ان انتقال الراسمالية الى مرحلتها الاعلى الامبريالية ، اقترن بنشوء حركات الطبقة العاملة وتنظيماتها السياسية – الاحزاب الاشتراكية ، ومع ان هذه القوى الثورية ساندت الكفاح من اجل التقدم والحرية ، الا انها ، في البداية ، اكتفت بمساندة الحركات القومية في اوروبا ·· وفي بعض الاحيان كانت قطاعات من هذه القوى الثورية لا ترى اهمية مساندة الحركات القومية وتاييد نضالها من اجل حرياتها ، اعتقادا منها ان الثورة الاشتراكية ، عند انتصارها ، تسوي كافة القضايا ·

في عام ١٨٩٦ صادق مؤتمر الاممية الثانية (١٢) ، الذي عقد في لندن على قرار يعلن « تاييده لحق جميع الامم في حرية تقرير مصيرها ، ويعرب عن عطفه نحو عمال كل قطر يقاسي ، انياء نير الاستبداد العسكري او القومي ، او غيرهما ،ويدعو عمال جميع هذه الاقطار الى الانضمام الى صفوف العمال الواعين في العالم اجمع ، للنضال معهم في سبيل تحطيم الراسمالية العالمية ، وتحقيق اهداف الاشتراكية الديمقراطية الاممية » ·

ولكن قادة هذه الاممية ، وقد انحازوا باكثريتهم نحو اليمين ، لم يخلصوا لهذا القرار ،ولم يساندوا كفاح الشعوب المستعمرة وعندما وقعت الواقعة ونشبت الحرب بايعوا حكوماتهم الامبريالية · وازاء هذا وقف الجناح اليساري ، بقيادة زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي في روسيا القيصرية ، لينين ، الى جانب هذا القرار ، ودافع عنه ، وطور مفهومه ، واكده ، حين صاغ حق تقرير المصير في برنامج الحزب ، وطبقه فعلا حين انتصرت الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا القيصرية ، في عام ١٩١٧ ·

لقد ايقظت الحرب العالمية الاولى قطاعات واسعة من شعوب المستعمرات ، ودفعتها الى لجة السياسة الدولية ، وكان هذا تطورا على غاية من الاهمية ، الا ان العامل الحاسم في تطور الحركة القومية كان الثورة الاشتراكية الكبرى ، التي طرحت حق تقرير المصير على الصعيد الدولي وفرضت على الدول الامبريالية القبول به ، وتحقيقه في اوروبا في اكثر الاحيان ·

هذا من الناحية الواحدة ، اما من الناحية الثانية ، فتطبيق حق تقرير المصير على مستعمرات روسيا القيصرية ونشوء جمهوريات اشتراكية سوفيتية الفت ، فيما بعد ، الاتحاد السوفياتي ، احدث اثرا بالغ الخطورة لكونه قدم مثلا حيا على ممارسة حق تقرير المصير ، واستنفر جماهير واسعة في المستعمرات ، التي ارادت الدول الامبريالية ان تعزلها عن الحياة السياسية الدولية ، وتواصل احتلالها ، واستغلال مواردها الطبيعية والانسانية ·

وكان من الطبيعي أن تقف السلطة السوفيتية ، وليدة الثورة الاشتراكية ، التي حطمت سلسلة النظام الامبريالي – الراسمالي ودشنت مرحلة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، على رأس الحركة الثورية العالمية – حركة التحرر القومي والاجتماعي ·

وفي الوقت نفسه وجدت الشعوب المكافحة من اجل تحررها القومي سندا قويا ومثابرا

في الاتحاد السوفييتي ، الذي ، منذ اللحظة الاولى ، **بـدا ممارسته الدولية برفض مشاريع الامبرياليين ، ومنها ـ مثلا ـ** أنظمة الانتداب ، **التي فرضتها الدول الامبريالية على بعض الاقطار (١٣) لتغطية احتلالها وسيطرتها عليها** ·

ووضع كل هذا التطور التاريخي على بساط البحث امرين فاصلين :

أ ـ نشوء ممكنات لنمو الثورة القومية التحررية الى ثورة اشتراكية ، نتيجة **التغيير في توازن القوى الدولية ، الذي دشنته السلطة السوفييتية** ··

ب ـ انتشار الافكار الاشتراكية ومبادىء التنظيم الشيوعي بين الكادحين في المستعمرات ، **مما ادى الى نشوء الاحزاب الشيوعية وازدياد اهميتها بنمو الطبقة العاملة ، وارتفاع مكانتها في الحياة السياسية في أكثر المستعمرات ·· وتكمن في هذا النمو الطاقة الثورية المثابرة في الحركات القومية ·· فالتاريخ وضع على هذه الطبقة مهمة تحرير المجتمع قوميا واجتماعيا** ·

رؤية الحركة القومية الصحيحة :

في تقرير بصدد برنامج الحزب طرحه في مؤتمر الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي الثامن (١٤) ناقش **لينين** أولئك ، اليساريين **المغالين ، الذين طالبوا بتضييق حق تقرير المصير ليشمل الكادحين فقط ، وقال : « لا ينبغي لبرنامجنا أن يتضمن نصا عن حق الكادحين في تقرير المصير ، لان ذلك غير صحيح · ينبغي له أن ينص على ما هو كائن. فما زالت الامم تقف على درجات مختلفة في طريقها من القرون الوسطى الى الديمقراطية البرجوازية ومن الديمقراطية البرجوازية الى الديمقراطية البروليتارية ، فان صيغة برنامجنا هذه صحيحة كل الصحة »** ·

وانطلقت هذه الرؤية الصحيحة لحق تقرير المصير من قاعدة مشاركة كافة جماهير الامم في النضال من اجل هذا الحق ··

ومن هنا ، كانت الحركات القومية التحررية حركات عامة ، تشترك فيها أوسع قطاعات الشعب · وهذا التعميم ينطبق على الحركات القومية في العالم العربي ·

ولكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن هنا : **كيف تطورت الحركات القومية في العالم العربي ؟ وما هي التغييرات التي طرأت عليها ؟**

وعلينا ان نقرر ، منذ البداية ، أن هذه الحركات مرت على مراحل متعاقبة طرأت عليها ، خلالها ، تغييرات في بنيتها الشعبية وفي تركيب قيادتها ، ذلك بفعل عاملين مترابطين عضويا : عامل خارجي وعامل **داخلي** ·

اما العامل الخارجي ، فتمثل في سياسة الدول الامبريالية التي كانت تحتل الاقطار العربية وقدراتها على قمع الكفاح القومي ، وهذا ، بدوره ، اعتمد على توازن القوى الدولية ·· وهكذا ، مثلا ، تقلصت قدرات القمع الامبريالي بعد الحرب العالمية الثانية، وتصاعد **جبروت الاتحاد السوفياتي** ، وازدياد دوره الثوري في تأييد الحركات القومية والنضال التحررى ، على جميع المستويات السياسية والاقتصادية ، المعنوية والمادية ·

اما العامل الداخلي ، فتمثل في النمو الصناعي ـ ولو كان بطيئا ـ وفي ازدياد اعداد الطبقة العاملة ، واتساع العلاقات الرأسمالية في الريف ·· **فهذا** غير بنية المجتمع ، وتوازن القوى الطبقية ، وطبيعة

القيادات في الحركات القومية · ومن اهم مظاهر النمو نشوء الاحزاب الشيوعية في عدد من الاقطار العربية ودورها في عملية التحرر القومي ، وفي مجموع التنظيم السياسي الوطني ·

ومع أن هذا يصح على كافة الاقطار العربية ، الا ان التطور غير المتعادل ، الذي اكدناه دائما ، رسم طريق الحركات القومية العربية الملموسة ، وطبعها بطابع الاقليم الذي تحركت فيه ··

ومن الممكن أن نلاحظ أن بعض الاقطار العربية تتقارب في مستوى تطورها الحالي ، على الرغم من اختلاف درجات حركاتها القومية في الماضي · وهذا ينطبق ، مثلا ، على تلك الاقطار ، التي اختارت طريق التطور غير الرأسمالي ·

وفي وسعنا اثبات أن الحركات القومية في الاقطار العربية مرت في مرحلتين أساسيتين : **مرحلة ما قبل الاستقلال السياسي ·· ومرحلة ما بعد الاستقلال السياسي ··**

وفي كلا المرحلتين لم تقف الحركات القومية في مكان واحد ، بل تطورت وطرأت عليها تغييرات هامة ·

الحركات القومية العربية قبل الاستقلال :

نشأت الحركات القومية منذ احتلال القوات الامبريالية الاقطار العربية ·· **ولهذا** تفاوتت الحركات ، **من حيث توقيتها وطابعها** وملامحها الملموسة ·· **في** الجزائر ، التي احتلتها فرنسا **في** ١٨٣٠ ، كانت القبائل عصب المقاومة **في** البداية ·· **وفي** مصر ، التي احتلتها **بريطانيا في** ١٨٨٢ ، كان **الفلاحون هم** قوى الصدام ، وان لم يكونوا قادة الحركة القومية · **ومع هذا ففي وسعنا** ان نلاحظ ان **في** نهاية الحرب العالمية الثانية **كانت مميزات الحركات القومية في العالم العربي أو في اقطاره المتقدمة تتماثل الى حد كبير ، من حيث طبيعة قواها الثورية وطبيعة قيادتها · فالفلاحون كانوا يؤلفون الاكثرية الساحقة من السكان ، ويؤلفون طعام مدافع الكفاح الوطني ، وفي الوقت ذاته كان يقف في قيادة الحركات القومية : المتنورون من ابناء اسياد الارض ، والتجار ، واصحاب المهن الحرة ، الذين بدورهم انحدروا في اغلب الحالات من عائلات اسياد الارض والعقاريين والتجار** ·

قلنا في البداية ان الحركات القومية ارتبطت بنمو الرأسمالية ، وكانت الرأسمالية قيادتها ، وهذا صحيح في اوروبا وفي بعض الاقطار الاخرى·· ولكن الحركات القومية في المستعمرات نمت في ، أغلب الحالات ، وهذا يصدق على الاقطار العربية ، من قبل ان تنمو الرأسمالية بتطوير الصناعة ، الى الحد الذي يمكنها من التبلور وتسلم القيادة في تلك الفترة المبكرة ·· وهذا لا يعني ان الرأسمالية كانت غائبة كليا ، بل يعني انها كانت في مصر وسوريا ، مثلا محدودة وغير نامية ،وفي غيرهما من الاقطار العربية كانت لا تزال جنينة او حتى معدومة ـ كما في اليمن مثلا ·

والحقيقة ان الصناعة في مصر كانت متطورة اكثر من أي قطر آخر ، ومع تطورها نمت الطبقة العاملة عدديا ونوعيا ، وأسهمت بشكل مستقل ، بثورة ١٩١٩ ، حين هبت مصر ، بفئاتها الشعبية وكافة قواها، تكافح الامبريالية البريطانية من أجل الاستقلال ·

وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الاولى ، وبفعل ثورة اوكتوبر الاشتراكية الكبرى ، اجتاحت في كثير من المستعمرات موجة من النهوض القومي ·· وخلال هذه الموجة ، التي وصلت شواطىء اقطار عديدة من العالم العربي ، نشبت ثورات قومية : **الثورة العراقية لعام ١٩٢٠ ، الى جانب الثورة المصرية لعام ١٩١٩ ، وثورة الريف (بقيادة عبد الكريم الخطابي) في المغرب ، والثورة السورية لعام ١٩٢٥** ·

ولا جدال في ان هذه الثورات القومية ، التي كانت قوى الصدام فيها الفئات الشعبية

من الفلاحين ، في الاساس ، والعمال ، ادت الى فرز قوى في القيادة ·· واشتد انحياز اسياد الارض الكبار والتجار الى مواقف التعاون مع الامبريالية ·

وعلينا ان نتوقف هنا لنفسر مكانة اسياد الارض ·· ونحن نستخدم هذا الاصطلاح ، لانه ادق علميا من الاصطلاح الشائع **« الاقطاعيين »** ·· فليست هناك علاقات اقطاعية ، بين اسياد واقنان ، في العالم العربي ·· ولا يغير من ذلك ان أسياد الارض الكبار ، في مصر وسوريا والعراق وغيرها ، كانوا يتصرفون كأمراء الاقطاع الكلاسيكيين·

والمهم هنا أن أسياد الارض الكبار ارتبطوا ، انطلاقا من مصالحهم الطبقية ، بالامبريالية ، وهذا يصدق على كافة الاقطار العربية التي احتلتها القوات الامبريالية ·· ولكن ، في حالات معينة ، انسلخ عن هذه الطبقة متنورون اشتركوا في الحركات القومية ، وكانوا في قيادتها ، ولكن هؤلاء وقفوا في الجناح المهادن للامبريالية ، وانحازوا الى التعاون مع السلطة الامبريالية الحاكمة ، لوقف المد الشعبي الثوري ·· واشتد التعاون بين الطرفين حين اقترنت في مصر ، الثورة القومية التحررية بمعارك طبقية ، وربط الفلاحون بين الأمرين ، بين النضال القومي والنضال الاجتماعي (١٥)

وفي سوريا تم الفرز في قيادة الحركة القومية ، حين تهادن **فيصل** ، الذي نصبه المؤتمر السوري ملكا على سوريا في عام ١٩١٨ ، مع الامبريالية ، وقاوم بالقوة الجماهير الشعبية في دمشق ، التي أرادت أن تتسلح ، وتتصدى للقوات الفرنسية الزاحفة ، لاحتلالها ، واتمام احتلال سوريا ·

آنذاك نشأت قيادة قومية تؤلف فئات الرأسمالية ، وبينها رأسمالية صناعية جنينية ، عنصرا من عناصرها ، قادة الحركة القومية المعادية للامبريالية ، في حين كانت الفئات من أسياد الارض الكبار ، التي تعاونت مع فيصل الهاشمي ، التنظيم السياسي ، الذي تهادن مع الامبريالية الفرنسية ، ونفذ مخطط الانتداب على سوريا الذي ، منحته ، **عصبة الامم لفرنسا** ·

ومثل هذا الفرز تم في العراق ، بعد **ثورة ١٩٢٠ ، حين نصبت بريطانيا فيصل** ملكا على ذلك القطر ، في ظل انتدابها · فعندها ، أيضا ، التفت حوله طبقة أسياد الارض ، ومن بينهم زعماء العشائر ، وساعدتهم السلطة على توسيع ملكياتهم ، وتوطيد نفوذهم على **الفلاحين** ·

والواقع ان عملية التمايز والفرز استمرت في المرحلة بين **الحربين العالميتين** ولم تتوقف، حتى بعد الاستقلال لان توازن القوى الطبقية كان يتغير دائما ، ومعه مواقف الطبقات انطلاقا من مصالحها ·

ولاحظ لينين عملية التمايز والفرز في ظروف سيطرة الامبريالية في المستعمرات والنضال القومي · فذكر في تقريره في مؤتمر الاممية الشيوعية الثالثة (١٦) الذي عقد في تموز ١٩٢٠ ، ان الاتفاق تم ، بعد النقاش ، على تسمية الحركات في المستعمرات حركات « القومية الثورية » ، بدلا من الحركات « الديمقراطية البرجوازية » على الرغم من « ان كل حركة قومية لا يمكن الا ان تكون حركة ديمقراطية برجوازية ، لان الجمهور الاكبر من السكان في الاقطار المتأخرة يتألف من الفلاحين الذين يمثلون العلاقات الرأسمالية ـ البرجوازية » ·

وانطلق **لينين** ، وكان يرى الاوضاع في ابعادها الحقيقية ويقدر التوازن الطبقي تقديرا علميا واقعيا ، من فهمه طبيعة مرحلة التطور في المستعمرات ورؤيته مرحلة التحرر القومي عملية برجوازية ديمقراطية من حيث مهماتها وملامحها الاقتصادية الاجتماعية · لذلك قال : **« ومن الوهم ان الاحزاب البروليتارية (ـ وكانت لا تزال جنينية في ذلك الوقت في بعض الاقطار ، ولم تقم في كثير من سائر الاقطار المستعمرة ـ) تستطيع ان تطبق في هذه الاقطار المتأخرة الخطة الشيوعية والسياسة الشيوعية »** ··

ومع هذا لاحظ ، كما ذكرنا ، التمايز والفرز ، ونبه الشيوعيين الى أخذ هذا الامر في نضالهم الثوري ، فقال في تقريره هذا ، يفسر استخدام اصطلاح **« القومية الثورية »** : **« اذا ما تحدثنا عن الحركة الديمقراطية البرجوازية يندثر كل فرق بين الحركة الاصلاحية والحركة الثورية »** ، واكد أن الفرق واضح في المستعمرات ، حيث تبذل البرجوازية الامبريالية كل جهودها لتغرس الحركة الاصلاحية بين الشعوب المظلومة ، وحيث تم في بعض المستعمرات تقارب بين الامبريالية وبرجوازية المستعمرات ، التي ، مع تأييدها الحركات القومية ، تميل الى الاتفاق مع الامبريالية ، وتقاوم الحركات الثورية ·

وهذا التعميم ينطبق على الحركات القومية في العالم العربي · حيث ايدت البرجوازية القومية النامية ، على الرغم من كافة العراقيل التي وضعت أمامها ، الحركات القومية ، ووقفت في قيادتها في كثير من الاقطار ، ولكنها كانت تتذبذب في النضال وتتعاون مع الامبريالية لوقف صعود الحركة الثورية بقيادة العمال والفئات الثورية من الفلاحين ، والفئات الشعبية الاخرى ، ومن بينها الطلاب ·

واتسمت الفترة بين الحربين العالميتين ، وهي الفترة التي طبعت الحركات القومية العربية ، بطابعها العميق ، ومهدت للاستقلال السياسي ، بمعالم **موضوعية وذاتية** :

اما في ميدان **المعالم الموضوعية** ، فكان الامر الجوهري **نمو الراسمالية** على وجه العموم والراسمالية في الصناعة الى حد ما · ومع هذا النمو نمت **الطبقة العاملة** · وفي مصر على سبيل المثال ، نشأ في هذه الفترة ، قطاع رأسمالي ، تجسم ، حسب الاحصاء قبل الحرب العالمية الثانية ، (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ، في ٥ ، ١٢٤ الف ورشة حرفية ومؤسسة صناعية ، بلغ عدد عمالها الاجمالي وحرفييها ٦٦٠ الف شخص بينهم ٣٠٨ الاف من عمال صناعيين عصريين ★

وهذا التطور ، في وتائر اقل ، طرأ على سوريا ولبنان والعراق وفلسطين (١٧)

ومن الضروري ان نلاحظ عند هذا الحد ان التجارة اتسعت وتوطدت مواقع البرجوازية التجارية (الكومبرادورية) ، التي مالت بضغط مصالحها الطبقية نحو التعاون مع الامبريالية ومعارضة حركة التحرر القومي ، حركة القومية الثورية · وفي الوقت ذاته تبلورت ، اكثر من الماضي **العلاقات الرأسمالية في الريف** ، وذلك لان الانتاج الزراعي ارتبط مع السوق الرأسمالية العالمية ·

ومن العوامل التي اثرت على التطور الاقتصادي ، حاجة الدول الامبريالية في الاقطار العربية المستعمرة ، الى القيام بنشاط اقتصادي لتوطيد مواقعها أولا ، ولاستغلال موارد البلاد الطبيعية والاستيلاء على مواردها الخام ثانيا ·

ومن هذا النشاط توسيع شبكة المواصلات ـ السكك الحديدية والطرق ـ واستخراج النفط والمواد الخام الاخرى ، مما ادى الى نمو الطبقة العاملة ، بوتائر فاقت في بعض الاقطار ، مثل **العراق والسودان** ، نمو الرأسمالية ـ البرجوازية القومية ·

ثم ان كافة الدول الامبريالية كانت في حاجة الى اقامة **جهاز اداري** ، ولهذا شجعت التعليم ، لاعداد كادر اداري ، ولم تستطع ازاء دينامية الحركة الاجتماعية ، وقف انتشار التعليم الثانوي والجامعي ··· فتطلعات الجماهير كانت قوية ، ولم يكن من الممكن قمعها ، أو حصرها في قمقم المخططات الامبريالية ·

وهذا كله خلق التربة للتغييرات الهامة في الحركات القومية في العالم العربي ·· وكان أهم تغيير ازدياد ثقل الراسمالية الصناعية في القيادة القومية الفعلية من ناحية ، وازدياد ثقل الطبقة العاملة والفئات الشعبية المتقدمة (الفئات المتوسطة والطلاب) في مجموع الحركة القومية النشيطة في الميدان ، من ناحية اخرى ·

★ مولود عطا الله · "نضال العرب من أجل استقلالهم الاقتصادي" · موسكو ص ٥٠

وقام بدور هام في الحركات القومية في الاقطار العربية ، الاكثر تطورا ، نشوء الاحزاب الشيوعية (١٨) · فكفاحها رفع مستوى وعي الجماهير ، التي الفت قوى الصدام مع السلطات الامبريالية ، وأيقظها بطرحه **برنامج التحرر القومي الثوري** ، على محاولات القيادات الاصلاحية التهادن مع الامبريالية ، والمساومة معها لقاء تامين بعض مصالحها الطبقية ·

ونقصد ببرنامج التحرر القومي الثوري ذلك البرنامج الذي يشحن الحركات القومية بمضمون اجتماعي ، ويجعل مطالب العمال والفلاحين جزء من مهمات الثورة القومية التحررية ·· وهذا المعلم تعمق فيما بعد ·
وأردنا بالمعالم الذاتية أن نقرر امرين : الاول مواقف القادة القوميين ونشاطهم السياسي – النضالي ·· والثاني سياسة الاحزاب الشيوعية ··

فقد تباينت مواقف القادة ، التي لمتتفق دائما مع انتمائهم الطبقي · وهكذا مثلا قام **سعد زغلول** ، قائد الحركة القومية في مصر في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، وبعد ثورة ١٩١٩ ، بقمع الحركة الشيوعية حركة الطبقة العاملة ، في حين وقف في قيادة الثورة المسلحة في سوريا ، عام ١٩٢٥ ، **سلطان الاطرش** · أما الاول فانتمى الى الطبقة الرأسمالية ، واما الثاني فكان من اسياد الارض الكبار ·

ونريد بهذا ان نؤكد ان العنصر الذاتي قام بدوره في تحديد خصائص الحركة القومية المعينة ، على الرغم من ان العوامل الموضوعية كانت الحاسمة ·

هذا أولا ، أما ثانيا ، فسياسة **الاحزاب الشيوعية** في الاقطار العربية ، في الفترة الاولى ، في سنوات العشرين واوائل سنوات الثلاثين ، أتسمت بالانحراف اليساري الذي تجسم ، في اغلب الحالات ، في الكفر بالقوى القومية الرأسمالية ، وفي الدعوة الى **الثورة البروليتارية** » ، والنضال من أجل نظام الديكتاتورية البروليتارية ، ديكتاتورية التحالف بين العمال والفلاحين (١٩) ·

واصلحت **الاممية (الثالثة) هذا الاتجاه في مؤتمرها السابع** ، الذي عقد في موسكو في تموز (يوليو) ١٩٣٥ ·

لقد انعقد هذا المؤتمر في ظروف تكثيف عدوانية الامبريالية الوحشية الجديدة ، التي مثلتها **المانيا النازية وايطاليا الفاشية** واليابان العسكرية (٢٠)على الصعيدين المحلي والدولي · اما على الصعيد المحلي فتجسم هذا الامر بالهجوم الشامل على الطبقة العاملة وتنظيماتها النقابية والسياسية · وبشكل خاص على احزابها الشيوعية · في حين تجسد على الصعيد الدولي بتحركات وحروب توسعية ·

وعلى ضوء دراسة الأوضاع والتعمق في حقائق النضال القومي في المستعمرات ، دعت الاممية (الشيوعية) الثالثة الى أقامة **جبهات وطنية موحدة لمقاومة الامبريالية** ، على اعتبار ان البرجوازية القومية وسائر فئات البرجوازية الصغيرة تقاوم الامبريالية لتناقض مصالحها مع مصالح الاحتكارات الاجنبية ·

وطرح المؤتمر السابع ، عينيا **برنامج الجبهة المعادية للامبريالية** أمام الاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية ، مؤكدا ضرورة قيام هذه الجبهة على الصعيد العربي العام · وبذلك اكد على اهمية التضامن العربي بين الحركات القومية العربية ، على دور فكرة الوحدة العربية في معركة مقاومة الامبريالية · وجاء في قرار **المؤتمر السابع** : « **من الضروري توحيد النضال المعادي للامبريالية في جميع الاقطار العربية** » فذلك شرط حيوي لانتصار معركة التحرر القومي ·

وظهر صدق هذا الخط السياسي بعد مؤتمر الاممية الشيوعية السابع ، حين نجحت الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان في عام ١٩٣٦ ، في التلاحم مع كافة القوى العاملة في الحركة القومية ، بما فيها البرجوازية القومية ، التي كانت تقف آنذاك في قيادة الموجة الثورية من الكفاح القومي الذي أتخذ شكل اضراب عام ، استمر خمسين يوما ، واكبته اضرابات في مدن سوريا ولبنان الرئيسية ·

وتوافق الكفاح القومي في سوريا ولبنان مع انتصار **الجبهة الشعبية في فرنسا** (٢١) مما ساعد على ان تحقق الحركة القومية في القطرين نجاحا هاما تجسم في اعتراف فرنسا باستقلال الشعبين العربيين استقلالا محددا الا انه ، في تلك الفترة ، كان نصرا جديا · وخلال المفاوضات بين فرنسا وقيادتي الحركتين في سوريا ولبنان قام الشيوعيون السوريون واللبنانيون ، بصلاتهم الوثيقة بالشيوعيين الفرنسيين ، بدور غير قليل ·

لم يغير الخط اليساري في سياسة الشيوعيين في المستعمرات ، ومنها الاقطار العربية ، الموقف **اللينيني** بل اكده · **فلينين** حذر من الاعتقاد بان الطبقة العاملة الصغيرة وبحزبها الشيوعي ، تستطيع أن تطبق في الاقطار المتأخرة الخطة الشيوعية ·· ودعا الى تأييد البرجوازية القومية او الحركة البرجوازية الديمقراطية ، ما دامت ثورية ، والتمييز بين جناحها الثوري وجناحها الاصلاحي ·· وهذا ما كان على الشيوعيين ان ينتبهوا اليه دائما ·

ونتيجة التغييرات في البنية الاجتماعية في الاقطار العربية ، بفعل النمو الاقتصادي ، اتسعت صفوف البرجوازية والفئات الاجتماعية الوسطى اولا ، واندفعت الى العمل السياسي ثانيا ·

وبتأثيرات الديماغوجية الفاشية والنازية وتظاهر المانيا وايطاليا بمعاداة الدول الامبريالية القديمة : بريطانيا وفرنسا ، وهي الدول التي كانت تحتل الاقطار العربية وتستعمرها ، انحرفت محافل واسعة من البرجوازية الصغيرة والفئات الوسطى الى اليمين وتلقحت بأفكار فاشية – قومية ، ولم تدرك ان النازية والفاشية ، ومعهما العسكرية اليابانية ، تمثل أشد الوان الامبريالية عنفا ووحشية ·

ومن هنا كانت مجريات **الحرب العالمية الثانية حدثا تاريخيا** ، وكانت نتائجها تحولا في مسيرة التطور الانساني ومصائر الشعوب ·

فخلال الحرب قام الحلف العالمي لمقاومة الفاشية الذي وقف في قلبه الاتحاد السوفييتي وانكشفت وحشية **المحور النازي – الفاشي – العسكري** ، كما ظهرت ناصعة طبيعة النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي · وفي الوقت ذاته تعرفت الشعوب ، التي كانت الدول الامبريالية تضللها ، بدعاياتها المغرضة ، على حقيقة النظام السوفييتي ومواقفه من القضايا الدولية ، وظهرعمق تأييد الدول الاشتراكية الاولى لحركات التحرر القومي ·

وهكذا بدأت عملية تفاعل ثوري في الحركات القومية ، ساعد عليها نشاط الاحزاب الشيوعية ، التي تمتعت ، في عدد من المستعمرات ومنها بعض الاقطار العربية بحرية العمل العلني ، لاول مرة في تاريخها فقبل ذلك كانت تتعرض لاقسى انواع القمع، والملاحقة ، والارهاب الامبريالي ·

واتضحت بعض ملامح التفاعل في انتقال محافل واسعة من البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية المتوسطة من مواقع اليمين الى مواقع اليسار ، بمعناه العام ·
وكان ابرز مثل على ذلك انحسار نفوذ **الحزب السوري القومي** ، الذي استوحى مبادئه من الفاشية وكانت لقادته علاقات عمالة مع ايطاليا والمانيا ·· وتأسيس **حزب البعث العربي الاشتراكي** ، في سنوات الاربعين ·

ثم ان الحرب الشاملة اجبرت الدول الامبريالية وخصوصا بريطانيا وفرنسا ، في سبيل دعم المجهود الحربي وتنميته الى ابعد الحدود ، لمواجهة المانيا النازية ، على فتح المجال امام الصناعة في الاقطار العربية مما اسرع في وتائر التصنيع في مصر وسوريا وغيرهما · كما ان بريطانيا ،

وهي التي بقيت في الميدان ،في المشرق العربي بعد سقوط فرنسا في بداية الحرب ، انشات المنشات العسكرية التي اسهمت بدورها في التصنيع المحدود طبعا ٠

وبطبيعة الحال ازداد عدد الطبقة العاملة في الاقطار العربية المتقدمة ، زيادة كبيرة ٠ وهكذا ، ما ان انتهت الحرب حتى كان التوازن الطبقي قد تغير ، واصبح في وسع الطبقة المنظمة على الصعيدين النقابي والسياسي ، في النقابات وفي الاحزاب الشيوعية ، ان تمارس نفوذا اوسع على الحركات القومية ، وتشحنها اولا بثورية سياسية ، وثانيا بمضمون اجتماعي ٠

اما الثورية السياسية ، فانعكست في الدعوة الى الاستقلال التام ، ورفض معاهدات العبودية ، التي كانت تلوح بها الدول الامبريالية ، كشرط لقبولها الاستقلال ٠

واما المضمون الاجتماعي ، فتلخص في المطالبة بحقوق العمال والفلاحين ، وجعل الاستقلال رافعة الاصلاحات الاجتماعية ، وجعل تلبية المطالب الشعبية احد معاني التحرر من الامبريالية ٠

تحدثنا عن مرحلتين في مسيرة الحركات القومية في العالم العربي – مرحلة ما قبل الاستقلال ومرحلة ما بعده ٠٠ ولكن لا بد من تقسيم مرحلة ما قبل الاستقلال الى فترتين زمنيتين (٢٢) **الاولى فترة ما بين الحربين العالميتين ، والثانية فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ٠**

لقد كانت هزيمة الدول الامبريالية الاكثر وحشية وعنفا – المانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية – تحولا تاريخيا بعيد المدى في تطور الانسانية العام ٠٠ فتلك الهزيمة اضعفت النظام الامبريالي العالمي ، الذي كان يطوق الدولة الاشتراكية الوحيدة الاتحاد السوفييتي ، ودشن التغيير في توازن القوى الدولية ٠

وكان دور الاتحاد السوفييتي ، الحاسم والمقرر في هذه الهزيمة ، العامل الفاصل في خلق الظروف الدولية والمحلية لاستفادة الحركات القومية من هذه الحقيقة الموضوعية ٠ ويتضح هذا الامر اذا قارنا بين نتائج الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ٠ ففي الحربين العالميتين ، بغض النظر عن الفارق النوعي بينهما ، احتدم التنافس بين الدول الامبريالية على المستعمرات ومواردها الطبيعية ، ولكن في حين ان الحرب العالمية الاولى ، انتهت بهزيمة حلف من الدول الامبريالية الكولونيالية – المانيا وامبراطورية النمسا المجر وتركيا – ومهدت السبيل الى بقاء النظام الامبريالي والى تقاسم المستعمرات الباقية بين حلف الدول الامبريالية المنتصرة – **بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة** – فجرت هزيمة محور الدول الامبريالية الاكثر وحشية في الحرب العالمية الثانية – **المانيا وايطاليا واليابان** – موجه من الكفاح القومي الثوري، الذي زعزع النظام الامبريالي العالمي ، ودشن عملية تحرر المستعمرات ، على النطاق العالمي ، بل ان هذه العملية بدأت في بعض المستعمرات خلال الحرب : **في فيتنام واندونيسيا وبورما والصين وغيرها** ٠

وفي هذا الصدد ، علينا ان نلاحظ انه خلال الحرب العالمية الاولى ، في عام ١٩١٧، انتصرت الثورة الاشتراكية في روسيا القيصرية ، ونشات السلطة السوفييتية ، وبذلك قطعت سلسلة النظام الامبريالي في موقع هام ، ودشنت عهد الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، ولكن الامبريالية والراسمالية استطاعت ان تحصر المد الثوري الى حد كبير ، وتمكنت من احباط ثورات اشتراكية في اوروبا ٠

وفي نفس الوقت ترددت قيادات حركات قومية (٢٣) في التجاوب مع نداءات السلطة السوفييتية ، انطلاقا من توجهها الطبقي ، وبسبب نجاح الامبريالية في قمع التحرك القومي ، وتطويق الدولة الاشتراكية الاولى ٠ والمعروف ان **سعد زغلول** ، قائد الحركة القومية في مصر في الفترة الثورية في عام ١٩١٩ ، رفض عرض لينين لمساعدة الشعب المصري في نضاله من أجل الاستقلال*

* واقعة ارسال لينين برقية في هذا الصدد الى سعد زغلول أمر لم يتاكد بعد ، اذ لم يعثر ، اطلاقا ، على نص هذه البرقية في اي من اوراق لينين او سعد زغلول ٠ (**الكاتب الفلسطيني**) ٠

ومن الممكن ان نستخلص ان الامبريالية في العالم العربي استطاعت ان تفرض الردة، التي نجحت في تحقيقها في اوروبا بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى ، على قيادات الحركات القومية وفي الوقت ذاته اقامت سدا بين الاتحاد السوفييتي والجماهير ٠

اما بعد الحرب العالمية الثانية فلم يعد من الممكن تطويق الاتحاد السوفييتي ، او منعه من ممارسة سياسته على الصعيد الدولي ، وفي اطار **منظمة الامم المتحدة** التي قامت ، والاتحاد السوفييتي ركن من اركانها الاساسية ٠ وهذا ما احست به الحركات القومية التحررية ، بغض النظر عن مواقف قياداتها ، التي انتمت في – اغلب الاحيان – الى أسياد الارض والبرجوازية الصناعية وحتى التجارية (٢٤) ٠ فالحكومة السوفييتية لم تقرر موقفها من قضية من قضايا المستعمرات على ضوء العلاقات بين القيادات القومية والسلطات او الهيئات السوفييتية ، بل على أساس مبادىء السياسة الخارجية السوفييتية القائمة على ايديولوجية الماركسية – اللينينية ، الاشتراكية العلمية ، التي تقر ، في هذا الميدان ، حق الشعوب في تقرير مصيرها ، واقامة دولها المستقلة ، واختيار طريقها في التطور ٠

وهكذا أيد الاتحاد السوفييتي قضايا التحرر القومي العربية ابتداء من قضيتي سوريا ولبنان ، وكانتا أول قضيتين طرحتا على مجلس الامن ، حتى اليمن الجنوبي ، ولعلها اخر قضية وصلت الى الامم المتحدة في اواخر الستينات ٠

وحتى حين انحرفت قيادات الحركات القومية العربية ، او غالت قيادات حكومية متعاونة مع الامبريالية في التحريض على الاتحاد السوفييتي ، لم يتزحزح الاتحاد السوفييتي عن مواقفه المبدئية ٠

والمهم هنا هو ان ممارسة الاتحاد السوفييتي الثورية ازاء الحركات القومية ، وتاكيده على الاستقلال الحقيقي السياسي والاقتصادي ، توافقت مع كفاح الاحزاب الشيوعية في الاقطار العربية ، التي – كما قلنا – كانت تبرز الصلة بين الكفاح الاستقلالي ومضمونه الاجتماعي ، الامر الذي احرج القيادات القومية التقليدية (من اسياد الارض والبرجوازية) ، وثقف الجماهير على النهج التقدمي في الحركات القومية ٠

ومما كان له اثر كبير على الحركات القومية في العالم العربي قيام **الجامعة العربية** ، التي جمعت الاقطار العربية المستقلة سياسيا (٢٥) ، وتحولت الى وعاء لتعاون الدول العربية الناشئة ٠

طبعا لا نريد ان نعالج **الجامعة العربية** فموضوعها لا يدخل في اطار هذه الدراسة ، ونذكرها هنا لسببين :

الاول : انها ، بغض النظر عن ملابسات نشوئها والقوى الطبقية التي اشرفت على ولادتها ، عبرت عن تطلعات الشعوب العربية الى الوحدة العربية ، بوصفها فكرة وحركة اقترنت في اذهان الجماهير بمكافحة الامبريالية وبالاصلاحات الاجتماعية ، وما يقود اليه ذلك من رفع مستواها الحياتي والثقافي ٠

الثاني : انها جسمت مرحلة التطور السياسي في العالم العربي المشرقي ، وتالفت قياداتها من القوى السياسية – الاجتماعية التي وصلت الى السلطة في مختلف الدول العربية الاعضاء

والواقع أن التطور غير المتعادل في المشرق العربي بين الاقطار التي الفت الجامعة – وكان واضحا اذا قارنا بين مصر والسعودية او سوريا واليمن – لم يؤثر على بناء الجامعة او يولد فيها التناقضات ٠٠ فالقوى الطبقية الحاكمة كانت متقاربة اجتماعيا وفكريا ، الى حد كبير ٠ أما العامل الذي عصف بها ، في الفترة المبكرة ، فكان انقسام قيادات دول الجامعة بين التعاون مع الامبريالية الامريكية او التعاون مع الامبريالية البريطانية ٠

وهذا الصراع كشف ضعف الجامعة ، ودفعها الى هوة الازمة واظهر ان قيادات الحركات القومية في الاقطار العربية تمر في مرحلة من مراحل النكسة ، بعد ان حققت في سوريا ولبنان ، مثلا ، انتصارا كبيرا في الفوز بالاستقلال ، واجلاء القوات الاجنبية عن اراضيهما ·

وفسر **الحزب الشيوعي اللبناني** هذا الامر ، فقرر : الا ان استقلال لبنان السياسي لم يسفر عن قيام الدولة القادرة على تغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية ، التي تكونت وتطورت في ظل السيطرة الكولونيالية ، لان البرجوازية المرتبطة بالانتاج القومي ، التي لعبت دورا رئيسيا في معركة الحصول على الاستقلال السياسي ، لم تستطع الاحتفاظ بالسيطرة التامة على الحكم نتيجة لضعفها الاقتصادي وروابطها التاريخية بالبرجوازية الوسيطة ، فلم تستطع مقاومة نفوذها ، واكتفت بالسعي المتوافق مع نهجها مما ادى الى تسلم تحالف البرجوازية والاقطاع (والمقصود هنا كبار اسياد الارض ـ ت٠ح) مقاليد السلطة بقيادة البرجوازية الوسيطة الوثيقة الارتباط تاريخيا بالراسمال والاحتكارات الاجنبية ، الامر الذي حال دون تصفية مواقع الراسمال الاجنبي ، وبناء اقتصاد وطني مستقل متجانس ، يتوجه اساسا لخدمة اوسع الطبقات والفئات الكادحة * ··

واختلفت ظروف الاقطار العربية ،وكان تذبذب قيادات الحركات القومية العربية ، او نكوصها عن الكفاح المثابر ، يعود لاسباب شبيهة الى حد ما بالاسباب التي ميزت الوضع في لبنان ·· ففي سوريا ، حيث لم تكن البرجوازية الوسيطة بقوة الفئة المماثلة في لبنان وحيث البرجوازية الصناعية اقوى من مثيلاتها في كافة الاقطار العربية باستثناء مصر ، كانت الردة لسببين : **الاول** ان اسياد الارض الكبار الفوا جزءا هاما من قطاع البرجوازية الصناعية ، وكانوا اكثر ميلا للتفاهم مع الامبريالية ، **الثاني** : ان نمو الحركة الشعبية ، بقيادة الشيوعيين ، أخاف هذه القيادة ، فكانت اكثر استعدادا للتلاقي مع الامبريالية ، التي كانت قد شنت الحرب الباردة ، وكثفت تلويحها بخطر الشيوعية في الاقطار العربية ·· كما ان الامبريالية منت البرجوازية القومية بالارباح ان هي تعاونت معها ·

وهذا ينطبق ، الى حد كبير ، على مصر ، حيث برز العامل الثاني بروزا كبيرا بعد انتفاضة شباط ١٩٤٦ · انذاك تالفت **لجنة طلاب وعمال** ، وقادت الجماهير الغفيرة في نضالها الثوري لاجلاء الاحتلال البريطاني وتحقيق الاستقلال ·· واستطاعت الرجعية الملكية أن تقضي على هذه الانتفاضة الجبارة، التي اتخذت شكل اضرابات شاملة ومظاهرات شعبية ، بالحديد والنار · ومع ان هذه الانتفاضة احبطت اتفاق **صدقي ـ بيفن** (٢٦) على تقييد مصر ، بمعاهدة امبريالية تبقي الاحتلال والنفوذ السياسي والاقتصادي ، الا انها لم تنجح في تحقيق اهدافها التحررية ، وذلك لان القيادة القومية ـ وتمركزت في **حزب الوفد** انذاك ـ وكانت تتالف من البرجوازية ، بفئاتها ومنها تلك التي جمعت بين ملكيات الارض الكبيرة والصناعة ، تخوفت من طابع الانتفاضة ، ولم تحرك ساكنا حين اغرقت الرجعية المصرية الانتفاضة بالارهاب والقمع ·

في العراق حيث تميز التطور بضعف البرجوازية القومية ـ الصناعية في الاساس ـ وقوة الطبقة العاملة ، بفضل تطور صناعة النفط ، لم تثابر القيادة القومية الايجابية (٢٧) التي وصلت الى الحكم في اعقاب وثبة كانون الثاني ١٩٤٨ (٢٨) وبذلك مهدت الطريق امام عودة الرجعية الى الحكم ·

واظهرت هاتان الانتفاضتان التغيير الهام الذي جرى في توازن القوى الطبقية ، واكدتا صعود الطبقة العاملة والفئات الشعبية على المسرح السياسي · ومن الممكن تقرير أن هذا التغيير في توازن القوى الطبقية في الاقطار العربية المتقدمة خلق ظروفا جديدة مهدت السبيل لظاهر غير تقليدية : اهمها

---
* نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه ، الجزء الاول ، ص ٥٩ ·

دخول الجيش (٢٩) الى ميدان الصراع على السلطة · ولعل ذلك يعود الى ان البرجوازية القومية (بما فيها اسياد الارض الكبار الذين تلاحموا مع البرجوازية الصناعية والبرجوازية العقارية) لم تتمكن من مواصلة الحكم بالاساليب القديمة ·· والطبقة العاملة ، على الرغم من نموها لم تكن قد وصلت ، بعد ، الى درجة تتحول معها الى طبقة السلطة ·

واعرب دخول قيادات الجيوش العربية المسرح السياسي عن صعود شرائح من البرجوازية القومية ، هي البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى ، الى مركز الصدارة في جهاز الحكم ·· وهذه هي القوى الطبقية التي واصلت معارك التحرر القومي ، وحققت الاستقلال والتغييرات الاجتماعية ·

وهذا ما اتضح بعد ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ وثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ·· فالثورة الاولى حققت جلاء القوات البريطانية ، نهائيا ، عن مصر ومنطقة قناة السويس ، وقضت على مواقع الامبريالية السياسية والاقتصادية ·· والثورة الثانية انجزت **استقلال العراق الحقيقي** ، واخرجته من طوق الامبريالية ، الذي تمثل في **حلف بغداد** ، وبدأت عملية التطورات الايجابية ·· والمشترك بين الثورتين انهما اطاحتا بالنظامين الملكيين ، وانزلتا ضربة فاضية باسياد الارض الكبار ، الذين كانوا يؤلفون جزءا هاما من القيادة القومية التقليدية ومن الحكم ، ويصونون ما يمكن ان نصفه « **بالاقطاع السياسي** » ·

ولا يمكن عزل هذا التطور عن الاحداث التي وقعت في العالم العربي ، خلال الموجة الثورية ، التي فجرتها الانتصارات على النازية والفاشية والعسكرية اليابانية ، وعمقها ارتفاع مكانة الاتحاد السوفييتي دوليا وممارسته السياسة المعادية للامبريالية والرجعية ·

فهذه الموجة من النضال القومي التحرري تعاقب عليها المد والجزر ، ولكنها ، بوجه عام ، لم تتوقف ، أي كان المد هو الطابع الجوهري والجزر معلما طارئا ·

وهكذا ، مثلا ، بعد فوز سوريا بالاستقلال في عام ١٩٤٥ ، هادنت القيادة القومية الامبريالية والرجعية المحلية ·· وتلاقت مع كافة القوى الرجعية في العالم العربي ، التي استغلت قرار **تقسيم فلسطين** ، في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، لتشن حملة ارهاب وحشية على الشيوعيين والنقابيين والديمقراطيين ، ولتبدأ بتحريض ارعن على الاتحاد السوفييتي ·

وفي هذه الفترة ، بالضبط ، شهدت سوريا أزمة حكم ، وتارجحت بين انقلاب عسكري واخر ، حتى عام ١٩٥٤ ، حين استطاعت **جبهة وطنية** ، تعاونت فيها القوى القومية ـ البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ـ مع الشيوعيين ، قلب ديكتاتورية **الشيشكلي** العسكرية ، واقامة نظام وطني ديمقراطي معاد للامبريالية ، يوطد الصداقة مع الاتحاد السوفييتي وسائر قوى التحرر القومي والتقدم الاجتماعي ·

واذا اردنا ان نعتبر ان موجة التحرر القومي ، التي انطلقت في عام ١٩٤٥ ، عام النصر على النازية ، أصيبت بنكسة في عام ١٩٤٨ ، حين استغلت القيادات القومية قضية فلسطين لتبطش بالحركة الشعبية ، نستطيع ان نعتبر أن سنوات الخمسين الاولى شهدت صعودا جذريا في حركة التحرر القومي ، في كافة الاقطار العربية ·

ومما يؤكد ذلك ان سنوات الخمسين سجلت انتصارات الحركات القومية في **ليبيا وتونس والمغرب الاقصى** ، التي استقلت سياسيا ·· كما سجلت تكثيف الثورة القومية التحررية في **الجزائر** ·

وهكذا كان العقد الخمسون عقد انتصارات الحركات القومية في العالم العربي، بشطريه المشرقي والمغربي ·

ومن الطبيعي ان التطور غير المتعادل ، الذي لم نتجاهله بل لاحظنا دوره في تباين معالم حركات التحرر القومي ، طبع الدول العربية المستقلة بطابعه .

فالبرجوازية القومية – واهمها الصناعية – كانت ضعيفة في **المغرب وليبيا** ، ولذلك كانت العائلتان المالكتان في صدر الاحداث وتوطدت مواقعهما في السلطة عند الاستقلال (٣٠) .. وتألفت القوى الطبقية الحاكمة من اسياد الارض الكبار والبرجوازية التجارية (الوسيطة) . واما البرجوازية القومية ، وبينها البرجوازية الصغيرة ، فكانت في المعارضة .. وهذا لا يزال ينطبق على **المغرب الاقصى وتونس** .. اما **ليبيا** فتغير وضعها منذ الاطاحة بالملكية ، في اول ايلول ١٩٦٩ .

ونستطيع ان نقرر ان القيادات القومية القديمة ، في **مصر والعراق وسوريا** وغيرها اختفت من المسرح السياسي ، واحتلت مكانها قيادات جديدة .

ولكن السؤال الذي ينشأ هو : **هل كان هذا التبديل** بسبب تحول البرجوازية القومية القيادية عن مواقع مقاومة أو معارضة الامبريالية ، الى مواقع مهادنتها وخيانة المصالح القومية ؟

في **مؤتمر الحزب الشيوعي السوفييتي التاسع عشر** ، في عام ١٩٥٢ القى زعيم الحزب ، **ستالين** ، وكان يحتل مكان الزعامة في الحركة الشيوعية العالمية ، خطابا جاء فيه ان **البرجوازية القومية القت علم الكفاح القومي التحرري ، وعلى الطبقة العاملة ان ترفعه في المستقبل** .

هذا التقويم ابتعد عن **اللينينية** ، التي كما ذكرنا ، فرقت بين البرجوازية الثورية والبرجوازية الاصلاحية المهادنة للامبريالية ، وحسم في دور البرجوازية القومية تاريخيا ..

ومثل هذا التقويم تبنته احزاب شيوعية عربية (٣١) ، اعتبرت ان البرجوازية القومية ، وكانت في السلطة ، سارت في طريق الخيانة التامة ، ولهذا فلا سبيل الى التعامل معها ، ومن الضروري الوصول بالطبقة العاملة الى السلطة .

وانطلاقا من هذا التقويم رفعت بعض الاحزاب الشيوعية شعار **الجبهة الشعبية** – جبهة الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء – في حين أن الشعار الاستراتيجي ، الذي يعرب عن مرحلة النضال التحرري والقوى الاجتماعية السياسية التي تخوض ذلك النضال كان يجب ان يكون شعار **الجبهة القومية والوطنية** ، على اعتبار ان البرجوازية القومية – البرجوازية الصناعية بشكل خاص – لا تزال في جبهة مقاومة الامبريالية .

والواقع ان هذه البرجوازية مالت الى مهادنة الامبريالية ، كما لاحظنا بعد الاستقلال (في سوريا مثلا) ، ولكنها سرعان ما وجدت أن أحلامها بالارباح ، نتيجة مهادنتها ، تتبدد ولذلك عادت الى متراس مقاومة الامبريالية .

ولكن ذلك لا يغير من حقيقة صعود البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى في الحياة السياسية ، وبدء قيامها بدور قيادي في المرحلة التي تلت الاستقلال .

قيادة الحركة القومية العربية اليوم

ذكرنا ان ستالين ابتعد عن اللينينية حين أعلن ان البرجوازية القومية تخلت عن علم النضال التحرري .. لان مثل هذا الحكم التاريخي على هذه الطبقة ، في الاقطار المناضلة من اجل تحررها واستقلالها ، يتناقض مع الواقع ، وهذا ما اثبتته مسيرة الحركة القومية العربية في سنوات الخمسين في الاقطار العربية المتطورة .

ولاحظنا كذلك أن البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى وصلت الى مواقع السلطة في عدد من الاقطار العربية ، مصر وسوريا والعراق وليبيا ، عن طريق حركات الجيش في الأساس ، لان البرجوازية القومية فقدت القدرة على الاستمرار في

الحكم ولانها فقدت القدرة على حل المشاكل التي واجهت البلاد العربية في المرحلة الثانية من معركة الاستقلال – مرحلة الاستقلال الاقتصادي والاصلاحات الاجتماعية.

واوضح هذا التطور **الحزب الشيوعي السوري في برنامجه فأكد** :

« وقف كبار البرجوازيين وكبار ملاكي الاراضي ضد هذا التطور الجاري في حركة التحرر العربية ، وصاروا الى جانب عملاء الشركات والرساميل الاستعمارية ، في سياسة التعاون مع الاستعمار . اما البرجوازية الوطنية (القومية ١ . ت) الكبيرة ، التي اتسمت سياستها بطابع العداء للاستعمار في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، فقد تحولت عن هذه السياسة ، خصوصا بعد ان احتدمت المعركة الطبقية حول سبل التطور الاجتماعي والاقتصادي . واكدت المعركة الطبقية الداخلية ، كما اكد تطور الصراع مع الامبريالية ، عجز البرجوازية الوطنية الكبيرة ، ليس فقط عن تحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي ، بل حتى عن حماية الاستقلال الوطني (اقر في المؤتمر الرابع الذي عقد في دمشق بين ٢٦ و ٢٨ ايلول ١٩٧٤ ص ٩٠) .

وكان هذا تطورا طبيعيا ، لان مهام الثورة الوطنية الديمقراطية اندمجت في عدد من الاقطار بمهام التحول الى طريق التطور غير الراسمالي ، الذي تالفت مقوماته من الاصلاح الزراعي (اي تصفية ملكيات الارض الكبيرة وزعزعة مواقع اسياد الارض الاقتصادية والسياسية) ومن التاميمات الواسعة النطاق (التي انزلت ضربات قاصمة بالبرجوازية الكبيرة) .

وشددت هذه الاجراءات الاصلاحية العميقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي ، من الصراع الطبقي في داخل الاقطار العربية التي انتهجت طريق التطور الراسمالي ، وانعكس هذا الصراع في المحافل الحاكمة ، مما ادى الى عملية فرز واستقطاب ، حددته الاحزاب الشيوعية والعمالية في الاقطار العربية على الوجه الاتي :

« ولا شك في انه مع تعمق النضال ضد الامبريالية ، وتطور الصراع الطبقي ، يمكن ان تبرز ، واخذت تبرز فعلا ، هنا وهناك في صفوف حركات الديمقراطيين الثوريين واحزابهم ، (مثل « البعث » في العراق وسوريا) ، فئات يمينية ، يتجلى اكثر فاكثر جانبها الطبقي المحافظ ، المنبثق من مصالحها المادية ، من حيث ازدياد ارتباط هذه المصالح بالسوق الراسمالية العالمية ، وبالفئات المستثمرة الطفيلية في الداخل .. وتعمل هذه الفئات لجر مجموع الحركة الديمقراطية الثورية في اتجاهها» (بيان للاحزاب المذكورة صادر عن اجتماع عقده ممثلوها في اواسط كانون الاول ١٩٧٦ – طريق الشعب ٤ – ١ – ١٩٧٧ ، « الاتحاد » ٢٥ – ١ – ١٩٧٧) .

والحقيقة هي أن هذه الفئات اليمينية ، في البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى ، تتالف من شريحتين : الاولى عناصر ترتبط بالبرجوازية الكبيرة منذ البداية ، وتقف في الجناح الرجعي من تنظيمات الديمقراطيين .. والثانية عناصر تتحول ، خلال تنفيذ الاصلاحات الاجتماعية الجذرية وخصوصا التاميمات وبناء القطاع العام ، الى بيروقراطية برجوازية ، تنحاز مع الايام ، الى القوى الطبقية العليا ، التي لا تختفي من المسرح السياسي او الميدان الاقتصادي تماما – الى البرجوازية في المدينة والريف .

وهذا ما جعل الاحزاب الشيوعية في العالم العربي تلاحظ ، كما ذكرنا ، طبيعة البرجوازية الصغيرة المزدوجة وتؤكد بانها « تحمل ، في ايديولوجيتها وممارستها ، وجهين متناقضين ، وجها ثوريا واخر محافظا وجها ديمقراطيا ، واخر بيروقراطيا ، وفي ظروف معينة ديكتاتوريا » (برنامج الحزب الشيوعي السوري ص ٩٥) .

وعلينا ان نذكر ان هذه البرجوازية الصغيرة تميزت ، دائما ، بتذبذبها من ناحية وتخوفها من الطبقة العاملة من ناحية اخرى. ولذلك اتجهت عادة ، نحو الحد من

الديمقراطية ، حتى حين تقوم بتنفيذ اصلاحات اجتماعية جذرية ، فعندئذ تقوم بذلك عن طريق المراسيم الادارية ، ولا تسمح بتحرك الجماهير ، أو تنظيمهم الديمقراطي ·

وعلى ضوء الخبرة ، التي مرت عليها الاقطار العربية خلال العقدين الاخيرين ، نستطيع ان نستخلص بعض النتائج حول سلوك البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى ، بعد ان وصلت الى الحكم ··

اولا ·· اثبتت الخبرة في مصر ان **الاصلاحات الاجتماعية العميقة لا تمنع ،** خلال الصراع الطبقي في المجتمع وانعكاساته في محافل السلطة التي تتألف من البرجوازية الصغيرة ، **من الردة المعادية للعملية الثورية** ·· فالجناح اليميني من هذه البرجوازية ، تسانده فئات واسعة من البيروقراطية البرجوازية ، التي نمت في القطاع العام ، في غياب المراقبة الشعبية ، ارتد عن طريق التطور غير الرأسمالي ، وهو يشجع البرجوازية القومية والصغيرة على النمو الى برجوازية كبيرة ، في المدينة والريف ، وبذلك يخفف – ومع الايام يلغي اذا استمر **في هذا النهج – أهمية الاصلاحات الاجتماعية** التي تجمدت منذ بضعة سنين ·

وبحق ، شرح **الحزب الشيوعي اللبناني** هذه الظاهرة ، فقرر :

« الا ان انفراد ممثلي البرجوازية الصغيرة بالسلطة ، وعدم الوضوح الفكري لديهم لآفاق التطور المقبلة ، والطبيعة المزدوجة المتناقضة للبرجوازية الصغيرة أوجد الامكانيات لتحول عناصر منهم الى فئة بيروقراطية مدنية وعسكرية ، ففقدت صفتها كممثلة لمصالح الفئات الواسعة من البرجوازية الصغيرة والجماهير الكادحة عموما · » ··

ثانيا : اثبتت الخبرة ان من الممكن ، **كذلك ان تستمر قيادة البرجوازية الصغيرة في السلطة في نهجها الثوري وتواصل المسيرة على طريق التطور غير الرأسمالي ·**

فهذا هو الوضع في الجزائر ، حيث تواصل السلطة الثورة الزراعية ، أو الاصلاح الزراعي ، وتدعم مكاسب التأميمات ، وتقيم القطاع العام بوتائر متسارعة ، وتستفيد من الثروات الوطنية ، وتسمح للعمال ، الى حد ما ، بالمشاركة في تسيير بعض المؤسسات الاقتصادية ·

ثالثا : شهدت هذه الفترة نسقا ثالثا ، في العراق وسوريا مثلا ، حين قامت جبهات وطنية وقومية تقدمية يتعاون فيها الحزب الحاكم ، البعث – وهو يمثل البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية المتوسطة – والحزب الشيوعي في تنفيذ مهمات الثورة الوطنية التقدمية ، التي يندمج بمهمات السير على طريق التطور غير الرأسمالي ·

وهكذا ، في حين يقف الشيوعيون في قيادة نضال العمال والفلاحين وفئات الشعب الاخرى ، بما فيهم البرجوازية الصغيرة المتضررة ، يقف الشيوعيون في الحالة الثالثة الى جانب الحزب الحاكم ، ويتعاونون معه في السير بالعملية الثورية الى امام ·

أما في الحالة الثانية فالشيوعيون (في **حزب الطليعة الاشتراكية**) يؤيدون العملية الثورية ، من مواقع المسؤولية ، وينادون من أجل تثبيتها وتعميقها ·

ولكن ، حتى في **الاقطار العربية التي قامت فيها جبهة مع الشيوعيين** ، يستمر الصراع الطبقي ، ويشتد ، بتطوير الاصلاحات الاجتماعية ، ومواصلة طريق اللارأسمالية وينعكس ، بدوره ، في حزب البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى – **البعث في حالة العراق وسوريا** ·

وهذا ما ابرزه **الحزب الشيوعي السوري** في مطلع تعاونه مع « **البعث** » ، حين قرر أن قضية المستقبل ، او لمن ستكون الغلبة للاشتراكية ام لرأسمالية الدولة ، **فهي قضية لم تحسم بعد** ، لان الصراع يدور بين اتجاهين « **اتجاه تقدمي** ، يعمل على صيانة المكتسبات التقدمية ، وتعميقها ، وذلك

بانجاح القطاع العام ، وتطويره ، وتطوير القوى المنتجة ، والاسراع في بناء مشاريع التنمية وتحسين التخطيط ، ووقف عملية تشكيل رأسمالية كبرى جديدة ، وتصفية الملكية الكبيرة في الريف ، ونشر التعاون الانتاجي في الزراعة والحرف ، وتوجيه القطاع الخاص ، وتنظيمه بشكل يجعله مساعدا على تنفيذ خطة التنمية ومهام القطاع العام » · والهدف من كل ذلك تامين حاجات المجتمع المتنامية ، والصمود امام الامبريالية والصهيونية ، وتحسين اوضاع الطبقة العاملة والفلاحين ، في ميادين الاقتصاد والاجتماع والثقافة ·· ولا يمكن تحقيق هذه المهام الا بتوطيد أواصر الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي **وسائر الدول الاشتراكية** ·

أو اتجاه يميني ورجعي ، يعمل على افشال التدابير التقدمية بتنشيط القطاع الرأسمالي ، ومنع نمو القطاع العام ، وخلق الصعوبات والعراقيل في وجهه وتفريغه من محتواه ، بالسعي لان يستغله القطاع الرأسمالي ، كما يعمل على تبديد أموال الدولة على الجهاز البيروقراطي ، في بناء مشاريع غير منتجة (فنادق مثلا) ، وعلى عرقلة مشاريع التنمية ، والبعد عن التخطيط العلمي الشامل ، وعلى احكام قبضة التجار الكبار على توزيع المواد الاستهلاكية ، وعلى السعي لتوظيف الرساميل الأجنبية · (البرنامج ، ص ٣٦ – ٣٧) ·

ومن منطلقات فهمه طبيعة هذا الصراع ، يدعو **الحزب الشيوعي العراقي** ، الذي يتعاون مع حزب **البعث** في الجبهة والحكومة الى صيانة المكتسبات التقدمية ، وتطويرها ومواصلة المسيرة الثورية ويرى أن شرط ذلك **هو توسيع الديمقراطية** ، وتعميقها ، حتى يتمكن العمال والفلاحون والمثقفون التقدميون ، وسائر الفئات الاجتماعية ذات المصلحة في تطوير الثورة ، من المشاركة في انجاز المهمات الانية وصيانتها ·· ولهذا دعا الحزب ، في برنامجه الذي اقره في مؤتمره الثالث (ايار ١٩٧٦) ، فيما دعا اليه من أمور ، ضمان حرية الاحزاب الوطنية التقدمية ، دون قيود أو مضايقة ، واقامة المؤسسات الدستورية ، واقامة مجالس حكم محلي شعبية ، وتطهير جهاز الدولة من العناصر الرجعية والمخربة ، ومكافحة البيروقراطية ·

فبالديمقراطية يستطيع **الحزب الشيوعي ،** في العراق وغير العراق ، أن يحشد الجماهير في المدينة والقرية ، لحسم الصراع في مصلحة التقدم الاجتماعي ، لمصلحة العمال والفلاحين وسائر الفئات الشعبية ·

والسؤال عند هذا الحد هو **كيف نرى المستقبل ؟** ·

علينا قبل كل شيء ، أن نحدد القوى المتصارعة في الاقطار العربية ، فعلى ضوء توازنها تنجلي أمامنا خطوط التطور العامة ·

ولنذكر هنا ، مرة أخرى ، أن **الاقطار العربية تتميز** بتطور غير متعادل ، ويتفاوت تطور حركاتها القومية ، ولهذا **فهي تواجه مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية** ، حسب ظروفها الملموسة ، التي تقرر اصطفاف القوى الاجتماعية – الطبقية في المعركة القومية العينية ·· ولهذا نجد ان البرجوازية القومية في المغرب الاقصى ، مثلا لا تزال تتحلى ببعض النضالية القومية ، لان البلاد وقعت ، منذ استقلالها السياسي ، بفضل ملكيتها الاقطاعية الى حد كبير ، في قبضة الكولونيالية الجديدة ·

في بيان الاحزاب الشيوعية والعمالية ، الذي صدر في اعقاب مشاوراتها في موسكو في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٠ ، جاء : « وفي المستطاع أن تحل ، بنجاح القضايا الملحة التي تواجه النهضة الوطنية في الاقطار التي خلعت النير الامبريالي ، ولكن بشرط واحد ، أن تكافح الامبريالية والبقايا الاقطاعية بعزيمة وتصميم ، جامعة في جبهة وطنية ديمقراطية موحدة جميع القوى الوطنية في الامة » ·

وجاء في البيان ايضا ، ان تنفيذ مهمات

الثورة الوطنية الديمقراطية توحد كافة القوى التقدمية ، واكد أن التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين انما هو قوة فائقة الاهمية في الظفر بالاستقلال الوطني ، والدفاع عنه ، وفي تحقيق التحولات الديمقراطية العميقة ، وتامين التقدم الاجتماعي · وهذا التحالف مدعو لان يكون اساسا لجبهة وطنية واسعة · وعلى قوته ومتانته تتوقف ، أيضا ، الى حد غير قليل ، درجة اشتراك البرجوازية القومية في النضال التحرري ·

وهذا التعميم ينطبق ، بشكل عام ، على الاقطار العربية ، التي لا تزال في المرحلة الاولى من مراحل تنفيذ مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ·

أي ان الجبهات الوطنية المعادية للامبريالية لا تستبعد أي قوى اجتماعية طبقية ، الا حين تنقلب على الثورة ، وتحاول اجهاضها بالتعاون مع الامبريالية والرجعية ، أو حين تتناقض مصالح تلك القوى الاجتماعية مع الجماهير الشعبية الواسعة ·

واستبعاد الاقطاعية أولا ، وبعد ذلك البرجوازية الكبيرة والوسطى ثانيا ، عن الجبهة لم يكن اجراء اداريا ، بل نجم عن مواقف هذه القوى من الثورة الوطنية التقدمية ·

ولو أخذنا العراق اليوم ، لوجدنا ان القوى الثورية تتألف من الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين التقدميين وسائر البرجوازية الصغيرة الوسطى · ويشكل حلف العمال والفلاحين وسائر الكادحين القوة الاساسية في هذا المعسكر · (**برنامج الحزب** ، ايار ١٩٧٦ « **طريق الشعب** » ، ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٧٦) ·

أما القوى المعادية للثورة ، فهي بقايا الاقطاعيين وكبار الملاكين والبرجوازية الطفيلية ، من التجار والمرابين وارباب العقارات ، والبرجوازية البيروقراطية في أجهزة الدولة ، التي تبتز اموال الشعب وتتمتع بالامتيازات على حساب العمال · (المصدر ذاته) ·

ويحدد **الحزب الشيوعي العراقي** طابع البرجوازية الصغيرة ، فيعلن انها « على الاغلب فئات كادحة ، من عمال اليد والفكر ، وتتحول اعداد واسعة منها ، باستمرار ، الى صفوف الطبقة العاملة ، في حين تنتقل اقلية صغيرة منها الى مصاف البرجوازية ، وهي وان كانت غير متحررة من أيديولوجية الملكية الخاصة ، الامر الذي يطبع سلوكها السياسي بالقلق والتذبذب ، فانها ، موضوعيا وبوجه عام ، قوة ثورية وحليف للطبقة العاملة » · (المصدر ذاته) ·

ولا يختلف الوضع في التوازن الطبقي في سوريا عنه في العراق ·· والصراع الطبقي يحتدم في سوريا كما يحتدم في العراق ، ومن الطبيعي أن ينعكس في السياسة الخارجية ، فتقف القوى الوطنية والتقدمية ـ العمال والفلاحون والمثقفون والبرجوازيون الصغار والفئات الاجتماعية الوسطى ، الى جانب الصداقة مع الاتحاد السوفييتي وسائر الاقطار الاشتراكية وتكافح الامبريالية ، في حين يقف أسياد الارض الكبار ، والبرجوازيون الكبار ، والطفيليون في مخيم دعاة مهادنة الامبريالية ، والتعاون مع الرجعية ، وعرقلة التطور غير الرأسمالي ·

وهنا ، أيضا ، نلاحظ كيف أن التردد في تعميق الاصلاحات الاجتماعية الجذرية يفتح الثغرات امام نمو البرجوازية في المدينة والريف ·· وصور **الحزب الشيوعي** هذه الحقيقة في قطاع الريف ، واعلن ، في معرض تحليله التركيب الاجتماعي الفلاحي :

« فئة الفلاحين الاغنياء الذين يملكون او يستأجرون العمال ، بصورة دائمة او موسمية ويجنون أرباحا كبيرة ، هؤلاء الفلاحون الاغنياء ، وان كانوا قد ارتاحوا للاصلاح الزراعي ، الذي ازال ، الى حد كبير ، نفوذ الاقطاعيين من الريف ، فهم يستفيدون من

قدراتهم الاقتصادية ، وعلاقاتهم الكبيرة باجهزة السلطة من اجل الابقاء على نفوذهم الاقتصادي والسياسي في الريف ، وعلى علاقات الاستثمار القائمة فيه · انهم يعرقلون التطور اللاحق الضروري لصالح العمال في الريف ولصالح التطور العام في البلاد » · (البرنامج ، ص ٦١) ·

طبعا اصطفاف القوى الطبقية في مصر تعود الى سابق عهدها فهي الان ، بعد « الانفتاح » ، ومنح البرجوازية الصناعية والتجارية واصحاب العقارات واسياد الارض الحرية في العمل والاستغلال ، تشابه الانقسام الطبقي والاصطراع الناجم عنه ، الذي يميز الانظمة الرأسمالية الكلاسيكية ·

اما في لبنان ، فالاقطاعيون وكبار الملاكين والتجار الوسيطيين والماليين الكبار هم الذين يشكلون القوى الرجعية التي تتعاون مع الامبريالية وتجابه العمال والفلاحين والبرجوازيين الصغار وسائر الفئات الشعبية· ومن هؤلاء قامت **الجبهة الوطنية والتقدمية اللبنانية** ، من **الحزب الشيوعي اللبناني والحزب الاشتراكي التقدمي والتقدميين العرب والناصريين** ·· وهذه الجبهة هي التي صمدت بالتحالف مع **منظمة التحرير الفلسطينية** ، أمام هجمة الانعزاليين الرجعيين المتحالفين مع الامبريالية والرجعية العربية والصهيونية · وعلى هذه الجبهة ان توسع صفوفها ، وتعمق جذورها ،لتقو م بتنفيذ مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ·

ومن الممكن ان نرى **قاسما مشتركا** في الاقطار حيث قامت جبهات يشترك فيها الشيوعيون، هي قاعدة الحكومات ·· والاقطار التي قامت فيها جبهات نضالية يشترك فيها الحزب الشيوعي ·

هذا القاسم المشترك هو التحالف بين الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة (**بيان الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان العربية** ، « **الاتحاد** » ، ١ ـ ٥ ـ ١٩٧٥) ·

وهذا طبيعي ، اذ انهما على الرغم من خلافاتهما ، يصيران تاريخيا في نفس الاتجاه · فعدوهم ـ الامبريالية والرجعية العربية والصهيونية ـ هو عدو مشترك ، كما انهما يخافان عودة سيطرة البرجوازية الكبيرة وأسياد الارض الى الحكم ـ حيث هما في الحكم ـ بمساعدة الامبريالية أو الكولونيالية الجديدة ·

والان نصل الى القضية الاخيرة في بحثنا ، **قضية القيادة** ·· وقد اكدت الاحداث هذه القضية بالحاح ، خصوصا بعد الردة في مصر ، واخطار ترجيح كفة اليمين في سوريا ·· ولا يمكن اهمال نتائج ضغوط حكومات الدول العربية النفطية ، مثل السعودية والكويت ودولة الامارات على الانظمة العربية التقدمية المعادية للامبريالية ·· فهذه الحكومات ، بقدراتها الماليةالضخمة تبذل جهوداً كبرى ، عن طريق الهبات والقروض ، لحرف الدول العربية عن طريق معاداة الامبريالية والرجعية · ومن دواعي القلق هو أن قادة الدول العربية التقدمية ينتسبون الى البرجوازية الصغيرة ، والمعروفة بتذبذبها وبروز عناصر يمينية بين صفوفها ، في ظروف تطور الصراع الطبقي ·

في وثيقتهم الصادرة عن مشاوراتهم في موسكو في حزيران عام ١٩٦٩ ، أبرز ممثلو الاحزاب الشيوعية والعمالية ظاهرة **الفرز الاجتماعي ـ الطبقي** ، فأعلنوا :

« ويتطور تباين اجتماعي في الدول الفتية ، وتشتد حدة النزاع بين الطبقة العاملة والفلاحين والقوى الديمقراطية الاخرى ، بما فيها فئات البرجوازية الصغيرة، ذات الاراء الوطنية من جهة ، والامبريالية وقوى الرجعية الداخلية ، وخاصة عناصر البرجوازية القومية التي يشتد تواطؤها مع الامبريالية ، اكثر فاكثر » ·

والسؤال : هل هذا التقدير لا يزال صحيحا ، ام ان عناصر البرجوازية الصغيرة بدات تنحرف الى اليمين ، وتتواطأ مع

الامبريالية والرجعية العربية ؟

نظن ان من الخطأ وضع البرجوازية الصغيرة والفئات الاجتماعية الوسطى ، التي تحكم في عدد من الاقطار العربية وتنتهج سياسة ايجابية ، في جبهة واحدة .. بل علينا ان نؤكد أمرين : ان هذه الفئات ، في الفترة المعاصرة ، **تقوم بدور ثوري** ، بشكل عام ، **وان بعض عناصرها تنتقل خلال المعركة الى معسكر الرجعية ، المتعاونة مع الامبريالية** . بمعنى اخر ، لم تستنزف هذه الفئات طاقاتها الثورية ، ومحافلها الواسعة تجد مصلحتها « في تنفيذ مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ، بطريقتها الخاصة ، وبعض فئاتها تنزع الى الاشتراكية ، وتعلن عن عزمها على بنائها » .. (مقال « دور البرجوازية الصغيرة » ، مجلة « **الحقيقة** » ، العدد ١ ، ١٩٦٩) .

وعلى هذا الضوء ، **من الخطأ طرح شعار قيادة الطبقة العاملة في استكمال مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية** ، التي تندمج في بعض الاقطار بمهمات التطور غير الرأسمالي ذي الافاق الاشتراكية ، في عدد من اقطار العالم الثالث ، ومنها اقطار عربية .

ولكن هذا لا يعني ان لا تطمح الطبقة العاملة في الدول العربية ، في حلف مع الفلاحين ، الى القيادة .. الا ان هذا سيكون حصيلة تطور ونضال تخوضه طليعة الطبقة العاملة : الاحزاب الشيوعية والعمالية في الاقطار العربية .

وهذا هو توجه هذه الاحزاب .. جاء في بيانها الصادر في كانون الاول ١٩٧٦ ، ان حركة التحرر الوطني العربية تشكل قوة ثورية هائلة ، حققت نجاحات كبيرة ، وتتمتع بتأييد حلفاء اقوياء ، مثل الاتحاد السوفييتي ، وفي وسعها ان تحبط الهجمة الامبريالية والانتقال الى مرحلة اعلى من تطورها ، ولكن ذلك « يتطلب حشد كل الطبقات والفئات ذات المصلحة في هذا النضال - الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدينة والمثقفين الثوريين وكذلك الاقسام الوطنية من البرجوازية المعادية للامبريالية . وفي هذا التحالف الطبقي تلعب الطبقة العاملة والجماهير الكادحة في المدينة والريف دورا هاما ، يتصف بالثبات والحزم . وان دلالات الحاضر وافاق المستقبل تشير الى نمو وزن الطبقة العاملة (٣٢) ، التي تزداد عددا ، ويتعمق وعيها السياسي ، وتلعب ادوارا نشيطة في النضالات الوطنية والطبقية . وتعمل الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان العربية لتعزيز هذا الدور » .

من الطبيعي ان يتطور دور الطبقة العاملة مع نمو مرحلة تنفيذ مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ، الى مرحلة تعميق السير على طريق التطور اللارأسمالي والى مرحلة بناء الاشتراكية .. ليس من الضروري ان يكون النمو عبر فترات منفصلة . فمن الممكن ان يكون النمو عاصفا مثلما كان نمو ثورات التحرر القومي الى ثورات اشتراكية في عدد من الاقطار (الصين وفيتنام وكوبا وغيرها) وعندئذ تقفز الطبقة العاملة الى موقع الصدارة ، بينما هي ، الان ، قد حققت في بعض الاقطار العربية ، عن طريق الاحزاب الشيوعية ، المشاركة في عملية التحولات الاجتماعية الجذرية ..

ويعتمد صعود الطبقة العاملة الى مكان الحسم ، لا على توازن القوى الطبقية ومواقعها في الخريطة السياسية والسلطة فحسب ، بل على قدرة احزابها الطليعية ، الاحزاب الشيوعية والعمالية في العالم العربي ، على حشد القوى الشعبية وتجنيدها في المعارك القومية والاجتماعية .

حواشي

١ - اشتركت في الاجتماع الاحزاب الشيوعية في الاردن وتونس والسودان وسوريا والعراق ولبنان وحزب الطليعة الاشتراكية الجزائري وحزب التقدم والاشتراكية في المغرب « **الاتحاد** » ١ أيار ١٩٧٦ .

٢ - «**الدرب** » ايلول ١٩٦٩ ، اشترك في الاجتماع ٧٥ حزبا شيوعيا وعماليا وقد عقد في موسكو بين ٥ و ١٧ حزيران ١٩٦٩ .

٣ - وثيقة الاحزاب الشيوعية والعمالية في الاقطار العربية ٥ - ٤ - ١٩٧٥ .

٤ - وهذا كان معنى **برنامج ٣٠ مارس** (آذار) ١٩٦٨ الذي اعلنه الرئيس عبد الناصر وايده الشعب باستفتاء عام .

٥ - من برنامج الحزب الشيوعي السوري الذي أقره المؤتمر الرابع في ايلول ١٩٧٤ .

٦ - **دعوة الحزب الشيوعي العراقي** للاشتراك في الحكومة بوزيرين ، كانت في أيار ١٩٧٢ ، ولكن اقرار الميثاق ، وكان قد طرحه **حزب البعث** للمناقشة في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧١ ، تم نهائيا في ١٧ تموز . وآنذاك تم التوقيع على اتفاق **الجبهة الوطنية والقومية التقدمية** .

٧ - وكانت معاداة الشيوعية هي العامل الذي حرك قادة ليبيا الذين أعربوا ، في تلك الفترة ، عن معاداة السوفييت .. ولكن موقفهم تغير فيما بعد واصبح التعاون وثيقا بين الاتحاد السوفيتي وليبيا .

٨ - « **النداء** » (٥ - ١٠ - ١٩٧٣) .

٩ - الحزب الشيوعي الاردني ، حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري ، الحزب الشيوعي السوداني ، الحزب الشيوعي السوري ، الحزب الشيوعي العراقي ، الحزب الشيوعي اللبناني .

١٠ - في مطلع ١٩٧٣ ، صرح الملك السعودي - آنذاك - **فيصل** ان النفط والسياسة لا يمتزجان ، ولكنه - في ظروف الحرب - وافق على قرار حظر اسالة النفط للدول التي تدعم اسرائيل ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة ، خوفا من الحركة القومية العربية ، خصوصا وأن هذه الحركة فجرت انابيب النفط في حرب السويس ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧ . وهذا لا يتناقض مع راي اولئك الذين يؤكدون ان من دوافع هذا القرار ، ايضا ، زيادة الارباح . لكن المهم رؤية الامر المقرر . وهنا كان الضغط الثوري هو المقرر .

١١ - فالاتفاق نص على عسكرة خبراء أميركيين في المنطقة الحرام ، للاشراف على أجهزة الانذار الالكترونية .

(١٢) - التي انتظمت فيها الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية ، إنذاك ، وعرفت بالاممية الثانية .

(١٣) - ومنها الاقاليم العربية التي كانت في حوزة الدولة العثمانية - سوريا والعراق ولبنان وفلسطين .

(١٤) - عقد في ١٩ اذار (مارس) ١٩١٩

(١٥) ابان تلك الثورة (في ١٩١٩) ثار الفلاحون على أسياد الارض ومن بينهم : **محمد محمود** ، زعيم **حزب الاحرار الدستوريين** ، وأرادوا احتلال اراضيهم . ولهذا كان من الطبيعي أن يتسم نشاط هذا

الحزب ، الذي ضم اسياد الارض واصحاب العقارات ، بالتعاون مع بريطانيا وتاييد القصر ، ويؤلف قوة رجعية حتى ثورة ١٩٥٢ ·

(١٦) ألفت **الاحزاب الشيوعية** ، وهي الاجنحة الثورية في الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي انفصلت عن **الاممية الثانية** التي خانت الثورة الاممية الشيوعية ،وعرفت **بالاممية الثالثة (كومنترن)** ، بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى ، وذلك في مؤتمر عقد في ١٩١٩ ·

(١٧) اختلفت موازنة النمو بين الصناعة والتجارة في هذه الاقطار ، وكانت كفة التجارة في لبنان ترجح على كفة الصناعة ، في حين كان العكس هو الصحيح في سوريا ·· اما في فلسطين فالممارسة الصهيونية ، بالتعاون مع الامبريالية ، عرقلت ، بشكل خاص ، النمو الصناعي ، حتى بمفهومه المحدود ، في سائر الاقطار العربية المستعمرة، باستثناء الجزائر ، حيث كان الاستيطان الكولونيالي واسعا ·

(١٨) نشأت **الاحزاب الشيوعية في مصر** وسوريا ولبنان وفلسطين ، في الفترة الممتدة من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٢٤ ، اما في العراق فنشأ الحزب في عام ١٩٣٤ ·

(١٩) هذه فترة تحتاج الى بحث مستقل· ولا مكان لها في هذه الدراسة ·

(٢٠) مثلت الفاشية الايطالية ، التي انتصرت في عام ١٩٢٤ ، والنازية الالمانية التي استولت على الحكم في عام ١٩٣٣ ، والعسكرية اليابانية التي وجهت سياسة اليابان منذ بدء سنوات الثلاثين» التطور غير المتعادل بين الدول الامبريالية · فهذه الدول الامبريالية الجديدة وصلت الى المسرح الدولي ، بعد ان كانت الدول الامبريالية « العريقة » ـ بريطانيا وفرنسا في الاساس قد اتمت توزيع المستعمرات فيما بينها ، وارادت اعادة توزيع المستعمرات « لتحظى بحقها » ! وفعلا بدأت بتحركاتها في تلك الفترة ·· فاليابان احتلت منشوريا الصين وايطاليا احتلت الحبشة والمانيا ، بعد قليل ضمت النمسا وتشيكوسلوفاكيا ·

(٢١) استنفر صعود النازية في اوروبا مقاومة شعبية ، بقيادة الطبقة العاملة ، وبوحي من قرارات **المؤتمر السابع** ، نجحت بعض **الاحزاب الشيوعية** في اقامة جبهات **شعبية** ، احتل مكان الصدارة فيها **الاشتراكيون والشيوعيون** ، ومن ابرز هذه الجبهات **الجبهة الشعبية في فرنسا** ، التي نجحت في الانتخابات النيابية في عام ١٩٢٥ والفت الحكومة برئاسة الزعيم الاشتراكي **ليون بلوم** ، وباشتراك الشيوعيين ، الذين ناصروا منذ تاسيس حزبهم ، الحركات القومية في المستعمرات ·· ومنها الحركات القومية في الاقطار العربية ·

(٢٢) قد يبدو هذا التقسيم تقسيما تعسفيا ، لان مرحلة ما قبل الاستقلال شهدت تطورات هامة ، وسجلت معالم عينية ، من الممكن أن نتوقف عندها ، ومن هذه المعالم مثلا ، الهبات الثورية ، وتداعيها ، وردود فعل الامبريالية في مواجهتها ، ولكن القصد هنا ، التعميم لا التفصيل ، خصوصا ونحن لا نبحث كل قطر على حدة ، ولا نعالج بشكل ملموس اهمية التطور غير المتعادل ·

(٢٣) بشكل عام ، لان بعض الحركات رحبت بالمعونة السوفيتية في كفاحها القومي والمثل الافضل في منطقة الشرق الاوسط تركيا ·

(٢٤) عرفت هذه البرجوازية **«الكومبرادور»** ، وترجمناها الى العربية (التجارية) ، لانها تتركز ، في نشاطها ، على استيراد السلع من الدول الامبريالية ، ولهذا ترتبط مصالحها بالامبريالية ، وتقف في جناح الاصلاحية ، اذا انتمت الى الحركة القومية ومع القيادة الطبقية التقليدية ·· وقد اصطلح الشيوعيون على تسميتها ، مؤخرا **البرجوازية الوسيطة** ، ولعل ذلك افضل ·

(٢٥) مصر وسوريا والعراق والسعودية وشرق الاردن (واليمن كمراقب) ، ونتحفظ من كلمة مستقلة ، لان الحكومات كانت تدور في فلك الامبريالية ، وفي بعض الحالات تأتمر بأوامرها ، وفي مصر والعراق ، مثلا كانت بريطانيا تحتل قواعد عسكرية ، أما في شرق الاردن فكانت تسيطر على الجيش

(٢٦) **اسماعيل صدقي** كان رئيس وزراء مصر ، وعرف بالسفاح ، لانه ، في مناسبات عديدة ، تسلم رياسة الوزارة ، ليبطش بالحركة الشعبية ·· **ارنست بيفن كان وزير** خارجية حكومة العمال البريطانية ·

(٢٧) ايجابية ، بالمقارنة مع حكم وزارة **نوري السعيد** وزمرته من المتعاونين مع الامبريالية ·

(٢٨) قام **الحزب الشيوعي العراقي** بدور قيادي في هذه الوثبة ، التي اتخذت شكل اضرابات ومظاهرات ، أدت الى احباط **معاهدة بورتسموث** ، التي اتفق عليها **بيفن** ، وزير خارجية بريطانيا ، **وصالح جبر** وزير خارجية العراق وكانت مماثلة **لمعاهدة صدقي ـ بيفن** ·

(٢٩) بعد الحرب العالمية الثانية اصبح **الجيش** ـ والقصد هنا قياداته ·· عاملا مقررا في عدد من الاقطار العربية · واختلفت نتائج تدخل الجيش في الحياة السياسية ·· ففي حين كانت الانقلابات العسكرية في سوريا ، في سنوات الاربعين الاخيرة واوائل الخمسينات ، رجعية ، كانت ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ في مصر ·· وثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ايجابية ·· والواقع ان الجيش في الاقطار العربية أصبح عنصرا مقررا ، سنتطرق اليه في سياق البحث · ومع هذا علينا ان نذكر ان الجيش دخل الحياة السياسية في العالم العربي المشرقي لاول مرة في العراق عام ١٩٣٥ ، بانقلاب **بكر صدقي** ·

(٣٠) في ليبيا كان ذلك مؤقتا ، فقد اطاح **الضباط الاحرار بالنظام الملكي** ، في انقلاب الاول من ايلول ١٩٦٩ · واما في تونس فالعائلة المالكة لم تتظاهر بتأييد الحركة القومية التحررية ، ولذلك كان من السهل الاطاحة بها بدون انقلاب ·

(٣١) قرر الحزب الشيوعي اللبناني انه انحرف انحرافا يساريا ، نجم عن عقلية البرجوازية الصغيرة ، حين فوجىء بلجوء البرجوازية الحاكمة الى سياسة التضييق على الحزب ومطاردة نشطاته ، ولم يستطع أن يدرك ، بصورة موضوعية وهادئة ، ان ذلك كان تطورا طبيعيا لسعيها لتثبيت حكمها ووضع حد لنمو الحركة الشعبية ·· (**نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه** الجزء الاول ، ص ١٩٤٣) ·

(٣٢) في كتابه « نضال العرب من أجل الاستقلال الاقتصادي « كتب مولود عطاالله عن نمو الطبقة العاملة العربية اعتمادا على احصاءات سنوات الستين ، ما يأتي : وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وخصوصا بعد احراز الاستقلال ، أخذت الصناعة الوطنية تتطور ، واخذت الطبقة العاملة تزداد عددا · ولم يكن يوجد هنا ، قبل الحرب ، اكثر من ١،٤ مليون عاملا ، فاغلبهم كانوا يعملون في مؤسسات الحرفية الصغيرة ذات التكنيك البدائي · أما الان فقد بلغ تعداد الطبقة العاملة ٦،٥ ملايين عامل ، ويبلغ عدد عمال المصانع والمعامل ، من بين هؤلاء ١،٥ مليون عامل ، ويوجد أكبر عدد من العمال (بمن فيهم العمال الزراعيين) في مصر (٣،٦ مليون) ··· ص ٢٩

المنظمات الصهيونية العالمية ونشاطها

جيورجي فلاديميروف

اثناء زيارة وفد الامانة العامة لاتحادنا الى موسكو ، خلال شهر كانون أول (ديسمبر) الماضي تم الاتفاق مع « **الجمعية الروسية ـ الفلسطينية** » **التابعة لاكاديمية العلوم السوفياتية** على أن يقوم عدد من علمائها ، المختصين بالحركة الصهيونية ، بالكتابة لمجلة « **الكاتب الفلسطيني** » .

في العدد الماضي نشرت « **الكاتب الفلسطيني** » اول دراسة وصلتها من الجمعية ، بقلم **يفجيني يفسييف** .

في هذا العدد ننشر دراسة جديدة للكاتب السوفياتي **جيورجي فلاديميروف** .

ان هذا التعاون بين اتحادنا **واكاديمية العلوم السوفياتية يأتي** كجزء من برنامج تعاون واسع مع المؤسسات الثقافية في الاتحاد السوفياتي .

أقامت الصهيونية منظومة متشعبة من التشكيلات العاملة في عشرات من بلدان العالم ، **وهي تشرف على شبكة** واسعة من المنظمات الصهيونية المكشوفة وتلك التي تعمل وراء تسميات **متنوعة** « خيرية » و « ثقافية » و « تربوية » و « نقابية » و « دينية » ... الخ .

وفضلا عن ذلك **فهي** وحدة منظمة تخضع الى مركز **توجيهي واحد** .

ويفسر التركيب التنظيمي المعقد والمموه للصهيونية ، بحرص الاخيرة **اولا على اخفاء** المنابع الحقيقية **لهذا التيار وتمويه** الارتباطات العضوية مع الدوائر **الامبريالية الدولية** .

ولا يكتفي التركيب التنظيمي للصهيونية العالمية بضمان تنفيذ الاهداف الصهيونية الرسمية المعلنة **فحسب** ، **بل أيضا يقوم** بانجاز وظائف الاخرى في غاية الدقة ، مرتبطة بالتخريبات الايديولوجية ضد قوى الاشتراكية ، واحداث تصدع في صفوف الحركة العمالية **العالمية وحركة** التحرر الوطني ، وممارسة الضغط على الحكومات والاحزاب السياسية وبعض الشخصيات **في** كثير من البلدان .

وقد اقيمت منظومة التشكيلات الصهيونية على نحو لا يكتفي بعزل اليهود حسب الانتماء القومي ، **بشكل** عام ، فحسب ـ بل وحسب مبدأ الانتماء المهني والجنسي والعمر والاتجاه السياسي . ويصار ، **بمساعدة هذه** المنظومة الى ضمان توغل الصهيونيين في المنظمات النقابية والشبابية والنسائية وغيرها من المنظمات ، في **بلدان معينة** ، وعلى **مستويات** دولية . وتفرد المنظمات الصهيونية **دورا هاما لعملائها** العلنيين والسريين في الاحزاب السياسية والهيئات الحكومية وأجهزة الاعلام ، بهدف التأثير ، المباشر وغير المباشر ، على الرأي العام وعلى اتخاذ **القرارات السياسية في مسائل معينة** .

ان مثل هذه السعة من النشاط ، الذي يتسم بطابع « الاناقة في الغالب هو أحد الاسباب التي تجبر الصهيونيين على اخفاء منظومة النوابض السرية ، **التي** توجه عمل مئات المنظمات السرية والعلنية والمنتشرة في العالم اجمع . كما ان تنوع المنظمات الصهيونية ، هو بدرجة معينة محصلة **للتناقضات الداخلية المرافقة للصهيونية . ففي اطار المذاهب البرجوازية ـ القومية الشوفينية للصهيونية ، تصطدم فيما بينها تيارات** « يمينية » و « يسارية » ، نشأت على ارضيتها الفرق والاحزاب التي تتسابق على حق تمثيل الصهيونية « الحقيقية » بالشكل الذي يبدو أكثر انسجاما لفئات معينة من البرجوازية اليهودية .

تتسم الصهيونية وقادتها بطابع يجنح نحو تماثل مفهوم « اليهودي » و « الصهيوني » . ان القادة الصهيونيين يدركون ، أفضل من غيرهم ، خطر هذا المفهوم .

غير ان **الشيء المهام لهؤلاء** هو أن يجد اليهودي في الصهيونية أيديولوجية « **قومية** » ، **خاصة** به وشاملة ، تعكس ، حسب مزاعمهم ، مصالح جميع اليهود أينما كانوا ، ومهما كانت انتماءاتهم الطبقية في المجتمع .

وانطلاقا من هذا المفهوم المزيف ، يقوم الصهيونيون ، بلا حياء ، **بتشويه الحقائق** ، ويعلنون أن أي عمل ضد الصهيونية هو عمل ضد اليهود بشكل عام . وهكذا يضعون **علامة مساواة بين مناهضة السامية ومناهضة الصهيونية** . ان شجب الصهيونية ومكافحتها ، بوصفها نظرية شوفينية وممارسة ضارة ، لا يجمعها جامع مع مناهضة السامية ، بل العكس هو الصحيح ، **فان الصهيونية والعداء للسامية هما ظاهرة واحدة تتسم بطبيعة عنصرية واحدة** وأهداف لا انسانية ، قائمة على تسعير العداء بين قومية وأخرى .

ويسعى الصهاينة الى تشويه أفكار اليهود الذين يرفضون الايديولوجية الصهيونية ، **ويحاولون وضعهم في حقل جاذبيتهم بواسطة استمالتهم الى منظمات** « لا صهيونية » تقع تحت اشرافهم . وتبدو هذه المنظمات ، العجيبة في تنوعها ، تبدو في الظاهر بعيدة عن السياسة . فهي حسب منطقهم ، منظمات « انسانية » و «خيرية» و «دينية» ليس الا . ولكنها واقعة بشكل مباشر وغير **مباشر** ، **ضمن منظومة الصهيونية** ، ومقترنة **بمعالجة أيديولوجية حاذقة** ، الامر الذي يخلق لدى اليهود الذين لا يشاطرون الصهيونية أفكارها ، شتى الاوهام حول

حرية الاختيار ، والمساهمة في أعمال خيرية · وعندئذ يغدو هؤلاء ، في الواقع ، في مسار خدمة الاهداف الصهيونية ·

اما اليهود الذين يمتنعون عن التعاون مع الصهيونيين ، فانهم يتعرضون الى ضغط فظ وتهديد ووعيد ·

ان وجود العديد من المنظمات ، واقسامها وفروعها ، وانواع اللجان والمجالس الصهيونية يخدم الصهيونيين في الواقع · فكثيرا ما يجعل هذا التمويه المبرمج من اليهودي العادي عضوا في عدة منظمات صهيونية في آن واحد · وهذا هو سبب ظهور « الاحصاءات » الصهيونية على غير حقيقتها ، أي بزيادات كاذبة لعدد المنتمين اليها · وعندئذ تبدو المنظومة الصهيونية وفورة من حيث عدد المنتسبين اليها · وفضلا عن ذلك فان كثرة المنظمات تخلق العديد من الوظائف القيادية والمناصب الفخرية ، وهي تمنح « لذوي الخدمات » من الشخصيات الصهيونية · وهذه المناصب جذابة ، سواء من حيث السمعة او الافضلية المالية لهؤلاء ·

وتبرز في التنظيمات الصهيونية العالمية المتشابكة بمهارة ، النواة الرئيسية للقيادة ، والمركز الايديولوجي ، وهيئة التنسيق التابعة الى المنظومة الصهيونية العالمية والمتمثلة بالمنظمة الصهيونية العالمية والوكالات اليهودية · ففي مقراتهما ، في نيويورك والقدس ، تتصل الخيوط « من تحت » بالمنظمات الدولية والاقليمية الواقعة ضمن مجال تاثير المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، وتصعد الى « اعلى » في أروقة طواغيت المال والصناعة · وتقود الجوقة الصهيونية بمهارة تلك التشكيلات ، ويجري نفس الشيء عن طريق الخيوط التي تربط المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية بالدوائر الاسرائيلية الحاكمة ·

تأسست المنظمة الصهيونية العالمية سنة ١٨٩٧ ، في المؤتمر الصهيوني الاول الذي انعقد في بازل · واقر المؤتمر صياغة برنامج الاهداف الاساسية للصهيونية ، كما اقر أيضا ، تشكيل الحركة الصهيونية على نطاق دولي · ومنذ ذلك الوقت وضعت مهمة « تحويل الصهيونية من حركة جنينية الى منظمة ضخمة مؤثرة » (١) ·

وبقيت المبادىء التنظيمية ، التي أرساها « آباء » الصهيونية ، ثابتة حتى اليوم ، وهي : المركزة والطموح للاستحواذ ، بشكل مباشر او غير مباشر ، على اكبر عدد ممكن من اليهود واخضاعهم للتأثير الايديولوجي وقيادة المراكز الصهيونية الدولية ، وتحويلهم في خاتمة المطاف الى اداة لتحقيق مصالح البرجوازية اليهودية الكبيرة ·

ويكتمل النشاط السياسي والايديولوجي للمنظمة الصهيونية العالمية بامدادات مالية ـ اقتصادية ، وينظر القادة الصهاينة الى هذه الناحية كجانب هام جدا لتحقيق خطط الصهيونية · فكانت الخطوات الاولى للمنظمة الصهيونية العالمية تأسيس هيئاتها المالية الاقتصادية التي تم بمساعدتها الاستيطان الاستعماري لفلسطين ـ احتلال وشراء الاراضي ، واقيمت مؤسسات

تجارية يسيطر عليها الصهاينة · ففى عام ١٨٩٩ تم انشاء « تريست كولونيالى يهودى » ، راى فيه هيرتزل « مقدمة هامة لاية اعمال سياسية واقتصادية ، تقوم بها المنظمة الصهيونية العالمية في المستقبل ، (٢) · وفي عام ١٩٠١ قام الصندوق اليهودي « كيرين كايميت » بعمل واسع لانتزاع أراضي عرب فلسطين واستيطان المهاجرين اليهود فيها · ويملك هذا الصندوق حتى يومنا هذا حقه الاستثنائي في استصلاح وتعمير أراضي اسرائيل ·

والهيئة العليا للمنظمة الصهيونية العالمية ـ المؤتمر الصهيوني العالمي ، الذي يناقش المسائل الهامة للحركة الصهيونية ، ويعين سياسة المنظمة وينتخب هيئاتها القيادية · وترسل اسرائيل الى المؤتمر ٣٨ ٪ من المندوبين ـ اما صهيونيو الولايات المتحدة الاميركية فيرسلون ٣٩ ٪ ، والبقية ، وهي ٣٣ ٪ ، من شتى بلدان العالم الاخرى · (٣) ويتبين من هذه الارقام ان قادة الصهيونية في اسرائيل واميركا يستحوذون على ٧٠ ٪ تقريبا من الاصوات ، وبذلك يضمنون الاشراف الثابت على الهيئات العليا للمنظمة الصهيونية العالمية ، وتحرير السياسة التي يريدونها ·

وينتخب المؤتمر الصهيوني العالمي « المحفل الصهيوني العام » ولجنة تنفيذية · والاخيرة هي مركز فكري اداري والهيئة الرئيسية العاملة والموجه اليومي لكافة جوانب النشاط · وتتحكم اللجنة التنفيذية بزمام ادارة المنظمة الصهيونية العالمية ، وكافة شبكات المنظمات الصهيونية العالمية · وتعد هذه اللجنة وتنفذ ، في الواقع ، السياسة الهامة للمنظمات الصهيونية العالمية والنشاطات المرتبطة بها ·

ويمكن الحكم على سعة نشاط اللجنة التنفيذية واتجاهاتها الرئيسية في تركيب جهازها ، الذي يضم أقساما اختصاصية ، تمارس أعمال جمع التبرعات وتنسيق نشاط المنظمات الصهيونية ، ، والقيام بأعمال التجسس ، والاشراف على شؤون المنظمات الشبابية والطلابية والنسائية اليهودية ، وتشرف كذلك على « التربية اليهودية » والهجرة الى اسرائيل ، والدعاية والشؤون التنظيمية المرتبطة بالمنظمات غير اليهودية ، والاتصالات بالهيئات الدولية ، وشؤون الدين ، والتعليم ، والثقافة ، ومراقبة نشاطات الشركات العائدة الى منظومة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية (٤) ·

ان « الانشطار » الفريد في اللجنة التنفيذية ، الذي يظهر العلاقة الوثقى ، وتبعية المنظمة الصهيونية العالمية والحركة الصهيونية عموما الى القوى التي تعتبر بوصلة للصهاينة ومعينا لا ينضب من الدعم ، يثير التأمل في الواقع ·

فمنذ عام ١٩٢١ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان للجنة التنفيذية فرع في القدس وآخر في لندن · وكانت الصهيونية تعول في تلك الفترة على انجلترا ، أساسا في تحقيق اهدافها · اما انجلترا فكانت تستخدم الصهيونية لصالح سياستها الاستعمارية في الشرق الاوسط

وفي مرحلة ما بعد الحرب ، وعندما اندمجت مصالح الصهيونية بالامبريالية الاميركية ، تأسس الفرع الاميركي للجنة التنفيذية ، وأقام فرعه في نيويورك بدلا من لندن ·

وينتخب المؤتمر رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية ، وكان تيودور هيرتزل اول رئيس للمنظمة · وشغل هذا المنصب لاعوام طويلة حاييم وايزمان · وفي عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٨ كان ناحوم غولدمان هو الرئيس · وحتى الان لم يجد الصهاينة شخصية مناسبة لهذا المنصب · وبقي شاغرا حتى الان ·

وتعينت شروط قبول اليهود في المنظمة الصهيونية العالمية في طموح الصهاينة نحو جذب أوسع عدد من اليهود الى دائرة تأثيرهم · وبقيت هذه الشروط منذ قيام المنظمة الصهيونية العالمية حتى اليوم ، مع حدوث تغييرات طفيفة عليها · ويمكن أن يكون عضوا في المنظمة العالمية كل يهودي بلغ الثامنة عشرة من العمر · شرط أن يقر البرنامج ويدفع بدل اشتراك سنوي ، (٥) ومنذ ذلك الوقت ، احتكرت الشريحة اليهودية العليا في البرجوازية اليهودية الكبيرة حق تمثيل المنظمة ، وبسطت هيمنتها على أجهزتها التنفيذية ، زاعمة أن نظام تشكيل الهيئات القيادية يتم بشكل « ديمقراطي » · وتبلور ، منذ ذلك الوقت أيضا ، الوضع الذي تتسم به المنظمة الصهيونية العالمية · وفحواه ، أن الصهيونيين النشطاء يشرفون على كافة الاعمال · ويعار اقل الاهتمام بأراء ورغبات « الخاملين » الذين يشكلون الغالبية الساحقة ·

ان تقسيم الصهيونيين الى اقلية نشطة واغلبية خاملة يعكس ظاهرة عميقة للهوة التي تفصل بين مصالح الشرائح الصهيونية العليا وخدمها من الموظفين والعاملين ، والمصالح الجذرية للغالبية العظمى من اليهود في كافة البلدان ، هؤلاء الذين يتجرعون ترياق الصهيونية السام · والذين تعدهم الصهيونية ، كذبا ، بتلبية حاجاتهم الاجتماعية ، كاتجاه لحصر نشاطهم السياسي في قناة تحافظ على سلامة النظام الراسمالي ·

وبالرغم من كافة الجهود والدعاية والحملات الموجهة لجذب واستمالة اليهود الى عضوية المنظمات الصهيونية ، تبقى الاخيرة غريبة ، تماما ، عن القسم الاعظم من الكادحين اليهود · فمن مجموع ثمانية ملايين يهودي ، يعيشون في البلدان الرأسمالية ، انتمى ٩٠٠ الف فقط وبشتى الوسائل الى المنظمة الصهيونية العالمية · ففي الولايات المتحدة الاميركية ، حيث التأثير الصهيوني أقوى بشكل خاص ، انتسب الى المنظمة ٦٥٠ الفا ، من مجموع سبعة ملايين يهودي · وفي مرحلة الحملة الواسعة الملحاحة ، التي شرع بها عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ، لاستمالة اليهود الى المنظمات الصهيونية ـ انضم ١ ـ ٧ ٪ فقط من أعضاء الجاليات اليهودية في مختلف البلدان اليها · واستطاع الصهاينة استمالة خمسة الاف شاب يهود الى منظماتهم في الولايات المتحدة الاميركية ، من مجموع نصف مليون (٦) · وأشارت جريدة « بريسينسيا » التقدمية لسان حال الجالية اليهودية ، في الاورغواي الى أن هذه الوقائع لا تؤكد خطأ الفكرة الصهيونية ، بأن كل يهودي صهيوني فحسب ، بل وتشير الى التنافر الايديولوجي بين السياسة الصهيونية ومصالح الجاليات اليهودية أيضا (٧) ·

وفي عام ١٩٦٠ تغير الانتساب الفردي الى المنظمة الصهيونية العالمية الى انتساب جماعي

الامر الذي مكن القيادة الصهيونية العليا من الانفراد اكثر في تصرفاتها · وحصلت في الواقع على امكانات غير محدودة ، وأخذت ترسم السياسة الصهيونية الدولية دون رقيب ، محتفظة ، في الوقت ذاته ، بهيمنتها على جمهور القاعدة ·

وتعتبر المنظمات الاقليمية بنماذجها الثلاثة ، الشكل الرئيسي للعضوية في المنظمة الصهيونية العالمية ، وهذه النماذج هي : الاتحادات الصهيونية القائمة على مبدأ توحيد المنظمات الصهيونية في بلد ما « كالاتحاد الصهيوني في بلجيكا » والاتحادات الصهيونية القائمة على أساس العضوية الفردية (كالاتحاد الصهيوني الهولندي) ، والاتحادات الصهيونية المختلطة ، التي تضم المنظمات والافراد الى عضويتها (كالاتحاد الصهيوني في فرنسا) · ومنذ عام ١٩٧٠ يقوم المجلس الاميركي الصهيوني الموجود منذ زمن بعيد « كهيئة تنسيقية » للمنظمات الصهيونية المحلية ، بدور المنظمة الاقليمية ·

وفي عام ١٩٦٨ كان عدد المنظمات الصهيونية الاقليمية في كافة انحاء العالم ٣٣ منظمة ، موزعة على الشكل التالي : ١٤ في أوروبا ، و ١٣ في أميركا ، واثنتان في أسيا ، واثنتان في افريقيا ، واثنتان في اوستراليا ونيوزيلندا · (٨)

أما النوع الثاني من أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية ، فهو على شكل روابط صهيونية تعمل هناك حيث المنظمات الاقليمية في دور التبلور ، والتي لم تدخل بعد الى المنظمة · ومثال ذلك المنظمة الصهيونية الاميركية « هداسا » ـ المنظمة الصهيونية النسائية والتي تعتبر واحدة من اكبر المنظمات الصهيونية ·

وتجدر الاشارة هنا الى أن المنظمة الصهيونية العالمية تضم في صفوفها منظمات لا تلزم كل عضو من أعضائها بأن يكون صهيونيا · ولكن عليه أن يعترف بالبرنامج الصهيوني ، كالاتحاد العالمي لطائفة السفرديم والاتحاد العالمي للطلاب اليهود ، وكثير غيرهما · وهذه حالة شاذة ، يرفضها العقل السليم ، اذ لا يمكن الجمع بين اقرار المذهب العقائدي والابتعاد عن التنظيم · والمقصود هنا المكيدة غير الحاذقة للصهيونيين الذين يسعون بشكل ما ، لبسط « وصايتهم » على غير الصهاينة · وحشرهم تنظيميا في الحركة الصهيونية · ومن ناحية أخرى ، فان هذه التنظيمات هي واجهات مريحة للتمويه بين الصهيونيين وغير الصهيونيين ، بهدف التأثير عليهم والتوغل في المجالات التي لا يريد الصهاينة أولا يستطيعون العمل فيها بشكل علني ·

وتلعب الاحزاب الصهيونية الدولية على اختلافها ، « الاشتراكية » المزيفة منها واليمينية المتطرفة دورا هاما في تركيب المنظمة الصهيونية العالمية · ان وجود الاحزاب الصهيونية التي توحد الصهيونيين بروح الاخلاص لحركة سياسية ما ، أو اتجاه فكري معين ، ضمن اطار المذاهب الصهيونية يشير الى تلون الصهيونية · والذي يصعب من خلاله سبر غورها · كما أن دخول هذه الاحزاب الى المنظمة الصهيونية العالمية يشير الى عمق تماثلها ، والخضوع ، في خاتمة المطاف ، الى المهام التي يضعها قادة الصهيونية ·

وقد وجد القادة الصهاينة الذين ينتحلون الان صفة « الاشتراكية » ، لغة مشتركة مع ممثلي طواغيت المال ، وهؤلاء واولئك يوجهون بشكل مشترك ، دفة السياسة الصهيونية · وفي الوقت نفسه تعكس التناقضات بين الاحزاب الصهيونية صراع شتى القوى والفرق من أجل الاستحواذ على مراكز التأثير في الحركة الصهيونية · وكقاعدة ، فان قيادة الاحزاب الصهيونية تقع في اسرائيل وهذه القيادة اداة فعالة لتأثير قادة اسرائيل على المنظمة الصهيونية العالمية والمحافل الصهيونية في البلدان التي توجد فيها فروع لهذه الاحزاب · ويرتبط قادة المنظمة الصهيونية العالمية الكبار بمختلف الاحزاب السياسية الاسرائيلية ، وكثيرا ما يعكس تناسب القوى في هذه المنظمة وبدرجة معينة ، اللوحة السياسية في اسرائيل ذاتها ·

وثمة روابط خاصة تماما بين المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، وبينهما بعض الحدود الوظائفية ، ضمن وحدة فكرية وسياسية ، وكانت هيئاتهما القيادية ، لفترة طويلة ، مندمجة في وحدة متكاملة ·

تأسست الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩ كمنظمة مستقلة تتعاون مع المنظمة الصهيونية العالمية · وكان مبعث النشاط العارم للصهاينة من أجل استيطان فلسطين ـ والذي كان يتم تحت وصاية الادارة البريطانية الحاجة الى انشاء هيئة خاصة ، تقوم اولا : بدور حلقة وصل بين المنظمة الصهيونية العالمية واليهود الاغنياء الذين يساعدون الصهيونية دون ـ دخولهم الشكلي الى تنظيماتها · ثانيا ، ضمان سير الاعمال الفنية الواسعة المرتبطة بعملية تنظيم وتمويل هجرة اليهود الى فلسطين وتوزيع واسكان القادمين الجدد ·· الخ · وقد اخذت الوكالة اليهودية على عاتقها هذه الوظائف ·

وكان من المفترض أن يمثل الصهاينة وغير الصهاينة في الوكالة اليهودية بنسب متساوية · كما سيكون رئيس المنظمة الصهيونية العالمية رئيسا للوكالة اليهودية ، في ان واحد · وتم توزيع العمل بين المنظمة والوكالة : في ذلك الوقت ظلت المنظمة الصهيونية العالمية مركزا ايديولوجيا وسياسيا وتنسيقا رئيسيا للصهيونية العالمية · اما الوكالة اليهودية فقد قامت ، في الواقع ، بنشاط في تحقيق البرنامج الصهيوني · واحتل الصهيونيون بسرعة المناصب القيادية في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، وخرج أخر لا صهيوني من تركيب الوكالة اليهودية ، عام ١٩٤٧ ، وبعد ذلك اندمجت اللجنتان التنفيذيتان للمنظمة الصهيونية العالمية وللوكالة اليهودية وقد اتاحت هذه الحالة الحجة للتأكيد على أنه في الفترة اللاحقة ، أي حتى اعادة تنظيم الوكالة اليهودية عام ١٩٧١ كانت المنظمة اليهودية العالمية والوكالة اليهودية وحدة متكاملة · وبقي في الواقع تحديد الواجبات بين هيئات المنظمة والوكالة قائما طيلة الوقت (٩) ·

واذ ظهر المركز الصهيوني الدولي تارة بمظهر المنظمة الصهيونية العالمية ، واخرى بمظهر الوكالة اليهودية ، واحيانا ، بمظهر الوكالة والمنظمة معا ، فقد حصل على امكانات واسعة لمناورة ، تمكنه في حالات معينة من التحول الى الجهة التي تكون لصالحه · وقد قامت المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية باكثر من دور للالتفاف على التشريعات الضرائبية خارج اسرائيل ، وخاصة في الولايات المتحدة الاميركية ، حيث تقلص حجم الضرائب بشكل جوهري اذ كانتا تدفعان الضرائب كمنظمة واحدة وليس كمنظمتين ·

وفي وقت واحد ، ومع اندماج اللجان التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية

في عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ، تشكل ما سمي بالفرع الاميركي للجنة التنظيمية الذي تحول الى مركز قيادي ثان لمنظومة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية · (١٠)

واكتسب نشاط الفرع الاميركي ، منذ نشوئه ، طابعا سياسيا صارخا ، فقد اقام العلاقات مع الاوساط الحكومية والكونجرس وقيادة المنظمات اليهودية الاميركية الاكثر نفوذا · ففي فترة مناقشة المسالة الفلسطينية في هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ ، قام الفرع الاميركي بعمل واسع لكي تعترف هيئة الامم المتحدة بالوكالة اليهودية كهيئة رسمية تمثل سكان فلسطين اليهود · اما في ميدان الاعلام والدعاية فقد نشر الفرع الاميركي الكتب والكراريس والمواد الاخرى التي تدعو الى الافكار الصهيونية وسياسة اسرائيل (١١) ·

ويشير وجود الفرع الاميركي للجنة التنفيذية لمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية الى الدور الخاص للمنظمات الصهيونية الاميركية · ويساعد القادة الصهيونيين الاميركان على توجيه نشاط الصهيونية الدولية طبقا لصالح الدوائر الاحتكارية في الولايات المتحدة الاميركية · ومن جهة اخرى ترتبط اللجنة التنفيذية في القدس مع قيادة الدولة الاسرائيلية ، وتضم أعضاء الحكومة ، وذلك يضمن للاوساط الاسرائيلية الحاكمة وسائل قوية للتأثير على المنظمات الصهيونية الدولية · ومثال ذلك ، عندما كان ليفي اشكول وزيرا المالية اسرائيل ، كان يشغل منصب امين صندوق الوكالة اليهودية · وحتى في وقت قريب فان بنحاس سابير ، وزير المالية السابق واحد أصحاب النفوذ في حزب الائتلاف الحاكم (مباي) ـ حزب العمل الاسرائيلي ـ يشغل منصب رئاسة الوكالة اليهودية · وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٦ أصبح يوسف الموجي رئيسا للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، وكان رئيسا لبلدية حيفا سابقا ، وعضوا في الكنيست ، وغدا قادة اسرائيل وزعماء الصهيونية الاميركان قوة موجهة في منظومة التشكيلات الصهيونية الدولية · وبسطوا عليها ما يشبه السلطة الاسرائيلية ـ الاميركية الثنائية · وهكذا فقد غدا الجهاز الحزبي ـ الحكومي لاسرائيل جزءا لا يتجزأ واداة مؤثرة في التركيب التنظيمي للصهيونية العالمية ·

وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، تحولت الوكالة اليهودية ، التي هي عنصر في منظومة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، الى جسر يربط الاوساط الحاكمة الاسرائيلية بالصهيونية الدولية ·

واقرت الكنيست (برلمان اسرائيل) ، عام ١٩٥٢ ، قانونا بصدد النظام الاساسي للمنظمة الصهيونية العالمية ـ الوكالة اليهودية لاسرائيل · وهذا القانون ، هو ، كما أشار اليه بن غوريون رئيس وزراء اسرائيل الاسبق ، « أحد أهم قوانين اسرائيل » · وتم عام ١٩٥٤ عقد اتفاقية بين الحكومة الاسرائيلية من جهة ، والمنظمة الصهيونية العالمية ـ الوكالة اليهودية ، من جهة اخرى (١٣) · وجاءت هذه الاتفاقية تطويرا للقانون الذي اقر عام ١٩٥٢ · وربط القانون والاتفاقية ، بشكل راسخ ، اسرائيل مع الصهيونية الدولية ، ورسخ فعليا الالتزامات المشتركة بين الدولة الاسرائيلية والمنظمات الصهيونية · ونص القانون والاتفاقية ، بصراحة تامة ، على ان حكام اسرائيل ينتظرون من المنظمات الصهيونية الدولية القيام باعمال نشيطة لدعم اسرائيل من شتى الجوانب · ان كامل نشاط المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية يقوم على أساس «التعاون وتنسيق العمل مع دولة اسرائيل وحكومتها » · وجاء البيان المشترك ، الذى صدر فى الخامس عشر من اذار (مارس) عام ١٩٦٤ ، عن حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية

العالمية والوكالة ـ اليهودية ، تتوجا لمواصلة تعزيز هذه العلاقات · ومما جاء فيه ان « ... الجهود الهادفة الى غرس الروح الصهيونية في حياة اليهود هي قضية مشتركة بين دولة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية » · وبذلك أخذت حكومة اسرائيل على عاتقها الالتزامات تجاه المنظمة الصهيونية العالمية (١٤) ·

وفضلا عن منظومة **المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية** ، تتحمل الاوساط الحاكمة الاسرائيلية مسؤوليتها ازاء نشاط المنظمات الصهيونية وعملائها على النطاق الدولي · ويشهد على ذلك نشاطهم الواسع في الاعداد « النظري » للافكار الصهيونية في المرحلة الحالية ، وفي شتى انواع **التحشدات الصهيونية** · حيث يقوم ممثلو اسرائيل من ذوي المناصب الرسمية العالية بتنظيم حملات الافتراء الصاخبة والدعاية ضد البلدان الاشتراكية وحركة التحرر الوطني العربية ، وضد كل من يفضح الجوهر الحقيقي للصهيونية ·

ففي الظروف التي تمرر اسرائيل من خلالها السياسة التوسعية ، وتفصح عن عدائها الواضح تجاه الشعوب والبلدان العربية · وتشكل عقبة رئيسة في طريق تصفية بؤرة النزاع في الشرق الاوسط · فان اتحاد حكام اسرائيل مع المنظمات الصهيونية الدولية هو تعبير مكثف عن الممارسات السياسية للمذاهب الشوفينية الصهيونية ، التي تخدم مصالح الاوساط الامبريالية الاكثر رجعية · وعليه فان الصهيونية العالمية التي تدعم سياسة حكام اسرائيل ، تتحمل مسؤولية مباشرة عن بقاء بؤرة التوتر في الشرق الاوسط ·

وبعد العدوان الاسرائيلي على البلدان العربية ، عام ١٩٦٧ ، اتسع نطاق تعاون اسرائيل مع المنظمات الصهيونية الدولية · وغدا العون المالي الاقتصادي لاسرائيل من جانب الاوساط الصهيونية الدولية أداة ضخمة لزيادة القدرة الحربية لاسرائيل ، تعتمد عليها قيادة البلاد في تمرير سياستها العدوانية « من مواقع القوة » في الشرق الاوسط · وتحولت **الوكالة اليهودية** الى أداة يتم بواسطتها توزيع وانفاق المبالغ الطائلة التي جمعتها المنظمات الصهيونية لاسرائيل · وكانت أجهزة الوكالة اليهودية متمرسة ، بما فيه الكفاية ، لتنفيذ هذه المهمات · غير أن القيادة الموحدة **للمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية** كانت عاجزة عن تلبية متطلبات اشراك الصهاينة وغير الصهاينة في نشاط الوكالة اليهودية ، وخاصة طواغيت المال من أصل يهودي ·

واتخذ قرار ، عام ١٩٧١ ، باعادة تنظيم **الوكالة اليهودية** ، أدى ، عمليا ، الى تغيير تركيب هيئاتها القيادية · وكان هدف اعادة التنظيم ، حسب اعتراف « **الدليل السنوي اليهودي الاميركي** » لعام ١٩٧٢ ، يكمن في « تخصيص دور أكبر لاولئك الذين يغدقون الاموال على صناديق الوكالة ، ويقومون بجمعها في نشاط الوكالة اليهودية » (١٥) · وقد استلم دفة القيادة في الوكالة ، المعاد تنظيمها ، الاثرياء اليهود الذين يمولون النشاط الصهيوني واسرائيل ·

وكما أشار ممثل الوكالة اليهودية ، فانه « طبقا لهذه الاتفاقية ، أخذ اللاصهاينة على عاتقهم في الواقع ، حصتهم من المسؤولية في نشاط الحركة الصهيونية العالمية » (١٦) · فمن هم في الحقيقة هؤلاء « اللاصهاينة » ؟ يغدو واضحا من المقالة المنشورة في الدليل السنوي المذكور ، حيث قيل فيها : اذا كان الاشخاص الذين انتخبتهم هذه المنظمات من أجل تمثيلها في الوكالة اليهودية ، غير صهاينة شكليا ، فمن الخطأ تصنيف هذه المنظمات على أنها غير صهيونية » (١٧) لان هؤلاء لا يتفقون تماما مع اهداف الصهيونية فحسب ، بل ويقدمون الدعم المالي لخططها ·

واصبحت **الوكالة اليهودية** ، بعد اعادة تنظيمها ، هيئة يتجمع فيها زعماء الصهيونية العالمية وحكام اسرائيل وطواغيت المال والصناعة اليهود في بلدان الغرب ، وينفذون حسب أقوال « **نيويورك تايمس** » ، دور « جناح الصهيونية الضارب » (١٨) ·

وفي عام ١٩٧١ ترأس **الهيئة الادارية القيادية للوكالة اليهودية** ، المتكونة من أربعين شخصا ، المليونير · فيشر ، أحد الشخصيات اليهودية المتنفذة و « اللاصهيوني » في الولايات المتحدة الاميركية ، والمنظم النشيط لصناديق جمع التبرعات لاسرائيل ·

وتضم **اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية** ١٢ شخصا · ستة منهم يمثلون اسرائيل ، وخمسة يمثلون الولايات المتحدة الاميركية ، وواحد من انجلترا ·

وفي فترة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ترأس **بنحاس سابير** ، **اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية** ـ وهو شخصية صهيونية معروفة ـ شغل لمدة طويلة منصب وزير مالية اسرائيل (١٩) أما الان فقد حل **يوسف الموجي** محله ، كما أشرنا سابقا ·

وتعتمد الوكالة اليهودية ماليا على منظمتين كبيرتين في جمع الاموال : « **النداء اليهودي الموحد** » في الولايات المتحدة الاميركية ، و « **كيرين هايسود** » ـ **النداء الاسرائيلي الموحد** » ، العاملة في ٦٩ بلدا من بلدان العالم · والتي تسمى بحق « الذراع المالي للوكالة اليهودية » (٢٠)

ومنذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٧١ جمعت هاتان المنظمتان مليارين و ١٥ مليون دولار لسد احتياجات **الوكالة اليهودية** ، منها حوالي الثلثين في الولايات المتحدة الاميركية والثلث الاخر في البلدان الاخرى · وحسب المعطيات الرسمية فقد انفقت **الوكالة اليهودية** ، في هذه الفترة ، ثلاثة مليارات دولار في اسرائيل · أما ميزانية الوكالة ، التي أقرت في العام المالي ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، فقد بلغت حوالي ٥٨٠ مليون دولار (٢١) وتساعد المبالغ الطائلة ، التي تخصصها **الوكالة اليهودية** لتغطية نفقات الهجرة ، تساعد اسرائيل على تحرير مواردها ومن ثم تكريسها لاشاعة الروح العسكرية في البلاد وشراء وجبات كبيرة من السلاح الاميركي والاوروبي الغربي ·

وتعتبر **الوكالة اليهودية** في اسرائيل مالكة وشريكة للعديد من الشركات الصناعية الكبرى، ووسائل النقل والشركات التجارية (٢٢) ـ وتشرف على نشاط حوالي ستين شركة ، تملكها في الكامل أو تساهم جزئيا فيها · ويقوم بذلك مكتب شركات **الوكالة اليهودية** · ومن اكبر هذه الشركات « **الاحتكار الكولونيالي اليهودي** » و « **الشركة الاسرائيلية لتطوير الارض** » و « **شركة طيران العال** » و « **شركة النقل ـ نسيم** » وغيرها (٢٣) ·

وقد أدت اعادة تنظيم **الوكالة اليهودية** الى زيادة استقلاليتها ودورها في منظومة **المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية** ، ومتنت علاقات المراكز الصهيونية مع الاحتكارات البرجوازية اليهودية ، وأظهرت علاقات الصهيونية واسرائيل مع الاوساط الامبريالية ·

وقد أدت مساعي الصهيونيين لنشر نفوذهم على كافة يهود العالم الى نشوء فكرة انشاء ما يشبه « منظمة عامة عالمية » ، تبدو ، ظاهريا ، أنها لا علاقة لها بالصهيونية ، وتصب اهتمامها

بشكل « استثنائي لضمان وحماية الحقوق المدنية والدينية والسياسية » ليهود العالم (٢٤) .
وقد شرع زعماء الصهيونية بالعمل على انشاء مثل هذه المنظمة ، في اواسط الثلاثينات . وكانوا يتاجرون بالتذمر الحاصل عن المواقف المناهضة للصهيونية ـ للسامية ـ التي كان الفاشست الالمان والطليان يمارسونها . وبمعرفة ومباركة من حاييم وايزمان ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، قام ناحوم غولدمان ، الصهيوني النشيط ، بعمل واسع لتاسيس « مؤتمر يهودي عالمي غير صهيوني » . وفي عام ١٩٣٦ تاسس ، فعلا ، المؤتمر اليهودي العالمي (٢٥) .

ويضم المؤتمر اليهودي العالمي منظمات لاكثر من ستين بلدا . ويشرف على هذا المؤتمر ، فعليا ، اللجنة التنفيذية العالمية ، المقسمة الى اربعة فروع اقليمية : شمال اميركا ـ اوروبا ـ اسرائيل ـ جنوب افريقيا . وكان ناحوم غولدمان ، منذ عام ١٩٥١ ، رئيسا للمؤتمر اليهودي العالمي ، ورئيسا ، في الوقت نفسه ، للمنظمة الصهيونية العالمية ، حتى عام ١٩٥٨ (٢٦) .

ويضم المؤتمر اليهودي العالمي « غير الصهيوني » العديد من المنظمات الصهيونية . وللتاكيد على صهيونية هذا المؤتمر القاطعة انه يضم في الولايات المتحدة الاميركية فقط « المنظمة الصهيونية الاميركية » و « المؤتمر اليهودي الاميركي » ، واكثر من عشرة اتحادات صهيونية أخرى .

ويحتل المؤتمر اليهودي العالمي وضعا منفردا في المنظومة الصهيونية العالمية . ويستخدم وضعه « المستقل » هذا ، على نطاق واسع ، لصالح الصهيونية والاوساط الاسرائيلية الحاكمة .

ويتدخل في شؤون ويمارس نشاطات تفضل المنظمات الصهيونية تجنبها ، والوقوف بعيدا عنها ـ ولا تود الهيئات الرسمية الاسرائيلية التدخل فيها . وتخدم نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي في المنظمات والندوات العالمية وبعض الهيئات الدولية ، وكذلك تاثيره على المنظمات اليهودية في عشرات البلدان تخدم مصالح الصهيونيين .

وغدا الدفاع عن الصهيونية ، ونشرها ، وتنظيم الدعم لاسرائيل ، والتدخل في شؤون البلدان الاشتراكية اتجاها رئيسيا لنشاطات المؤتمر اليهودي العالمي .

واعترفت الدورة السادسة للمؤتمر اليهودي العالمي ، التي انعقدت في شباط (فبراير) عام ١٩٧٥ ، بهلع ، أن الامزجة المناهضة للصهيونية تزداد في العالم . واقترحت استخدام الخرافة القائلة : أن العداء للصهيونية الان هو شكل مغلف لمناهضة السامية ، واتهام كل من يناضل ضد الايديولوجية الصهيونية والسياسة العدوانية الاسرائيلية في الشرق الاوسط بالعداء للسامية . ولهذه الاغراض يدعو المؤتمر اليهودي العالمي الى استخدام الصحافة وكافة أجهزة الاعلام الصهيونية والغربية البرجوازية ، ويعير المؤتمر اكبر الاهتمام للدعاية لافكار « العلاقات الوثقى بين يهود الشتات واسرائيل » ، ويدعو كذلك الى هجرة اليهود الى اسرائيل . وتقديم الدعم السياسي والمالي ـ الاقتصادي والمعنوي الى اسرائيل . وتثير العزلة السياسية لاسرائيل قلق المؤتمر اليهودي العالمي . ومعروف أن سبب هذه العزلة يكمن في النهج التوسعي للاوساط الحاكمة الاسرائيلية . ويعتبر المؤتمر أنه من الضروري بذل الجهود والاستفادة من كافة الاقنية في البلدان الغربية والنامية للتغلب على هذه العزلة .

ويعمل المؤتمر اليهودي العالمي بانسجام مع المنظمة الصهيونية العالمية ، من منطلقات

العداء للشيوعية ، ويمنح نفسه الحق بالتكلم باسم اليهود الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى . واعتبر ناحوم غولدمان أن القضية الهامة التي تقف أمام المؤتمر اليهودي العالمي هي مقاومة « التاثير المتنامي لبلدان الكتلة السوفييتية وقوى الشيوعية في العالم كله » ونصح بايلاء الاهتمام الي البلدان الاشتراكية . (٢٧) واذ تدعو قيادة المؤتمر اليهودي العالمي ، برئاسة ناحوم غولدمان ، الى مكافحة الايديولوجية الشيوعية ، والتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الاشتراكية ، فانها تنصح ، في الوقت نفسه بالامتناع عن الاساليب العتيقة في مناهضة الاتحاد السوفييتي والاساليب الفظة للضغط على البلدان الاشتراكية . لان مثل هذه الاساليب تلحق الضرر بالصهيونية وأعوانها . غير أن ذلك لا يمنع المؤتمر اليهودي العالمي من الاشتراك ، بنشاط ، في الحملات المعادية للاتحاد السوفييتي ،وتنظيم الندوات الاستفزازية عما يسمى « بأوضاع اليهود في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى » .

ويهتم المؤتمر اليهودي العالمي بالمحافظة على سمعته ، كمنظمة « ليبرالية » ، ذات افاق واسعة ، ويسمح لنفسه حتى بانتقاد الصهيونية واسرائيل في بعض المسائل التكتيكية . ان النهج الذي لا مستقبل له للاوساط الاسرائيلية الحاكمة فيما يتعلق بتسوية أزمة الشرق الاوسط ، وهبوط سمعة اسرائيل الدولية أثارا لدى بعض الصهاينة تحفظات ازاء النتائج التي يمكن أن تسفر عنها السياسة الاسرائيلية الهوجاء لمصائر الصهيونية عموما . وقد انعكست مثل هذه التحفظات بشكل صريح في أقوال وأعمال ناحوم غولدمان وأنصاره في قيادة المؤتمر اليهودي العالمي . وبعد العدوان الاسرائيلي على البلدان العربية ، عام ١٩٦٧ ، لم ينبس ناحوم غولدمان ببنت شفة عن اعادة النظر بسياسة اسرائيل والتمسك بالمرونة والامتناع عن التطرف في مناهضة الاتحاد السوفييتي . ويعتبر ناحوم غولدمان انه ، في مجرى التسوية في الشرق الاوسط ، يكون من مصلحة اسرائيل أن تلبي مطالب العرب باعادة الاراضي المحتلة اليهم ، والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية . وينبغي ان يكون هدف اسرائيل التعايش السلمي مع البلدان العربية ، والحصول على ضمانات الدول الكبرى ، وعلى هذا الاساس يمكن اعداد القانون الاساسي المحايد . واعترف ناحوم غولدمان بانه بدون مشاركة الاتحاد السوفييتي لا يمكن اقامة سلم في الشرق الاوسط . وعبر لصالح انعقاد مؤتمر جنيف السلمي ، وشجب أسلوب « التسوية التدريجية » (٢٨) .

وقوبلت النداءات التي تتسم بالواقعية ازاء قضية التسوية في الشرق الاوسط ونقد مواقف الحكومة الاسرائيلية بالحراب من جانب الصهيونيين وقادة المنظمة الصهيونية العالمية وحكام اسرائيل . وبلغ النزاع بين أنصار غولدمان وقادة المنظمة الصهيونية العالمية أقصى درجاته ، في بداية عام ١٩٧٢ ، عندما منع رئيس المؤتمر اليهودي العالمي من القاء كلمته ، وعرض وجهات نظره في المؤتمر الثامن والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية .

واتخذ قادة المنظمة الصهيونية العالمية وزعماء اسرائيل اجراءات سريعة لقمع الانتفاض على السفينة الصهيونية . وفي عام ١٩٧٢ تم اتخاذ قرار ينص على « انه ، منذ الان ، سيكون للمؤتمر اليهودي العالمي قيادة جماعية ، وسوف لا يكون مسيرا حسب وجهات نظر رئيسه الشخصية » (٢٩) .

ويهدف وضع مراقبة فعالة على المؤتمر اليهودي العالمي في جانب المنظمة الصهيونية

العالمية – تم في عام ١٩٧٥ تغيير أنظمة المنظمة والمؤتمر ، فاذا كانت **المنظمة الصهيونية العالمية** تملك في الماضي حق « المراقب » فان اللجنة التنفيذية لها تمنح ، منذ الان فصاعدا ، حق تقديم ممثليها الى المناصب القيادية في **المؤتمر اليهودي العالمي** ٠

ان خلافات غولدمان وانصاره مع الحكام الاسرائيليين و**المنظمات الصهيونية العالمية** الا انه حتى في حالة ظهور أبسط الانتقادات الى أنصار السياسة الاسرائيلية تصطدم بمقاومة عنيفة من جانب الشرائح الصهيونية العليا ، وبالطبع لا يجوز تضخيم الخلافات الموجودة بين هؤلاء ٠ ولكن لا يجوز ، في الوقت نفسه ، ان نمر مر الكرام عليها ، فهي – اي الخلافات – ظاهرة تعكس الوضع المتأزم للايديولوجية الصهيونية التي لا تصمد أمام اختبار الزمن ٠

وتتيح المنظمة المتشعبة **للمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي العالمي** ، عبر مئات المنظمات الداخلة في مدارها – تتيح للصهيونية العالمية امكانات متفردة وأساليب متنوعة للتأثير على المحافل اليهودية – وعلى الرأي العام العالمي وعلى دول البلدان الرأسمالية ٠ كما أن دقة ورهافة عمل جهاز النفوذ الصهيوني تمكن من الاحتفاظ بالاسرار ، غير ان الجزء الظاهر من الجبل الجليدي الصهيوني العائم تساعد على الحكم على سعة نشاط الصهاينة وعلى الاساليب الرئيسية واقنية التأثير التي بحوزتهم ٠

وتعمل ضمن اطار **المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية** ، أو تحت وصايتهما ، المنظمات التالية : **الاتحاد العالمي للصهيونيين العموميين ، الاتحاد العالمي للصهيونيين الاصلاحيين ، المنظمة العالمية لليهود – الارثوذكس – الاتحاد العالمي من أجل يهودية تقدمية – الاتحاد الدولي للعمال اليهود ، الاتحاد العالمي للطلاب اليهود ، منظمة الشبيبة اليهودية ، الاتحاد العالمي للشبيبة الناطقة باللغة اليهودية المعريفة ، المؤتمر العالمي للصحفيين اليهود ، المجلس العالمي للنساء اليهوديات ، المنظمة الصهيونية النسائية العالمية ، المنظمة العالمية للعناية بالاطفال والصحة والنظافة بين اليهود ، المجلس العالمي للضمان الاجتماعي لليهود ، الاتحاد الدولي للسفرديم ، المجلس العالمي سفرديم ، الرابطة العالمية للغة العبرية والادب العبري ، مؤتمر الثقافة اليهودية بلغة الاديش** ٠٠٠ الخ ، ويمارس أعمال التنسيق بين المنظمات الصهيونية « **مجلس تنسيق المنظمات اليهودية** » و « **المجلس الاستشاري للمنظمات اليهودية** » (٣٠) ٠

ويستحوذ النشاط الاقليمي **للمنظمة الصهيونية العالمية** ، الذي يعتبر **المؤتمر الصهيوني العالمي** مركزا له ٠ يستحوذ على مكان هام في الدعاية للافكار الصهيونية واعداد الاتجاهات الاساسية لسياسة وممارسات الصهيونية ٠

وقد أعلن **مؤتمر بازل** ، عام ١٨٩٧ ، هدف الحركة الصهيونية بانشاء « ملجأ في فلسطين » لليهود والحصول على « موافقة الدول » لتحقيق مطامح الصهاينة (٣١) ٠

وحين برزت مسألة مستقبل فلسطين ، بعد تصفية الانتداب البريطاني أخذ الصهاينة الاميركان زمام المبادرة من أجل تحقيق الاهداف البرنامجية ٠ وكانوا يقومون بدور الموصل للمصالح الاميركية في الشرق الاوسط ٠ وفي عام ١٩٤٣ أقر مؤتمر الصهيونيين الاميركان **برنامج بالتيمور** ، الذي عكس « الطراز الهجومي الجديد لافكار الصهيونية الاميركية » ، ودعا

الى الغاء القيود على الهجرة اليهودية الى فلسطين واقامة الدولة اليهودية على كامل التراب الفلسطيني ٠ وتمت المصادقة على هذا البرنامج من قبل المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين ، الذي انعقد عام ١٩٤٦ (٣٢) ٠

وبعد تاسيس دولة اسرائيل نشات الحاجة الى « صياغة جوهر الصهيونية من جديد » فقد اعلن برنامج القدس عام ١٩٥١ ان المهمة الاساسية للصهيونية هي تقوية اسرائيل بشتى السبل ، وجمع اليهود فيها ، وتحقيق الوعي « الذاتي » اليهودي ، وربط يهود الشتات باسرائيل (٣٣) ٠

وقد ركزت المؤتمرات الصهيونية التالية اهتمامها في الامور المرتبطة بتنظيم الدعاية فهجرة اليهود الى اسرائيل ودعم سياسة الاوساط الحاكمة فيها ٠ ان هذا النهج في نشاط الصهيونية العالمية لم يكن الدور الاخير لها في دفع اسرائيل الى المغامرات والتحضير لعدوان ١٩٦٧ ٠

واذ جند الصهاينة كافة طاقاتهم لدعم السياسة التوسعية لاسرائيل اتخذوا في عام ١٩٦٨ ما سمي ببرنامج القدس الثالث المشبع بروح التوسع والغارق في الرجعية (٣٤) ٠

ويعبر برنامج القدس الجديد عن تضامن الصهيونية العالمية مع السياسة العدوانية الاسرائيلية ، ويعترف بوقاحة بأن الصهيونية تشترك في تحرير هذه السياسة ٠

وتلعب اجهزة الاعلام دورا هاما في خدمة النفوذ الصهيوني ٠ فقد تأسست وكالة الانباء اليهودية منذ عام ١٩٢١ ، وغدت الهيئة الاعلامية المركزية للصهيونية العالمية (٣٥) وفي الولايات المتحدة الاميركية تستحوذ هذه الوكالة تقريبا على كافة المطبوعات الدورية للمنظمات الصهيونية٠ ولهذه الوكالة علاقات وثقى مع اجهزة الاعلام الصهيونية الاخرى (٣٦) ٠

وثمة في العالم حوالي ٩٠٠ جريدة ومجلة صهيونية ، وثلثها تقريبا في الولايات المتحدة الاميركية (٣٧) وان الغالبية الساحقة من هذه الصحف والمجلات تمول من قبل الصناديق الصهيونية والبرجوازية اليهودية الكبيرة ، وهذه المؤسسات الاعلامية تبغي في الاساس شحن اليهود بالروح الصهيونية ، وتعير هذه الاجهزة اهتماما كبيرا لخدع غير اليهود عن طريق الصحافة البرجوازية ، هناك حيث التأثير الصهيوني قوي جدا ٠ وتنسجم الصحافة البرجوازية بشكل ودي وتنسق جهودها في حملات الدعاية الصهيونية التي تنظم كقاعدة للدفاع عن السياسة العدوانية الاسرائيلية وتغطية اوضاع الشرق الاوسط لصالح الصهيونية ٠

وتقوم اجهزة الدعاية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية بعمل اعلامي نشيط ٠ وتصدر دائرة المنظمة الصهيونية العالمية مجلة فصلية باللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية بعنوان « الصهيونية في غمرة العمل » وسلسلة « كونفرونتيشنز » المكرسة للشؤون الايديولوجية وتصدر بانتظام المواد الدعائية باللغة الانجليزية داعية الى التعاطف مع اسرائيل ٠ وفي هذه المواد صحيفة « اسرائيل دايجست » التي تصدر مرتين في الاسبوع ٠ وهي تستعرض مواد الصحف الاسرائيلية ٠

وتصدر نشرات خاصة لبلدان افريقيا باللغتين الانجليزية والفرنسية وصدر مسلسلة

« اسرائيل اليوم » بأربعين كراس بلغت نسخها ثلاثة ملايين نســـخة وشـرع بنشـــر « المكتبة الصهيونية » ٠

وتعد المنظمة الصهيونية العالمية بعناية فائقة الكوادر ـ الصهيونية المحترفة ٠ فقد درس في الندوات الخاصة باعداد الكادر في الفترة ما بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ اكثر من الفي كادر في ١٥ بلدا ٠

ولغرض نشر النفوذ الصهيوني وتعبئة الرأي العام لدعم اسرائيل يستخدم اسلوب جمـع التبرعات الى اسرائيل ٠ وتستخدم كذلك على نطاق واسع حملات تنظيم الزيارات الى اسرائيـل لاولئك الذين يتبرعون اليها بنقودهم كما ان معظم المتبرعين تزيد تبرعات كل منهم على عشرة الاف دولار ٠ وذلك يلقي ضوءا على الوضع الاجتماعي لهؤلاء « المتبرعين » ٠

واذ يضع الصهاينة في المقدمة تلك المنظمات التي تعمل تحت واجهات « خيرية » و « تربوية » فانهم يهدفون الى اخفاء الطابع السياسي العميق لهذه المنظمات ٠ وليس ثمة دولة اوروبية غربية خالية من الضغط السياسي الصهيوني ٠ وحجم التاثير الصهيوني على سياسة الولايات المتحدة الامريكية اكثر بما لا يقاس في بلدان الغرب ٠ فقد اعترف كينين رئيس « اللجنة الامريكية ـ الاسرائيلية للعلاقات الاجتماعية » والذي يقيم اوسع العلاقات مع المنظمات الصهيونية الكبيـرة قائلا : « اننا ندعو الكونغرس ان يلتمس الرئيس بالامتنـــاع عن السياسة التي نعتبرها ضارة ، ودعم السياسة التي نعتبرها مفيدة ، وفضلا عن ذلك ندعو الى تبني مواقف معينة في المؤتمـرات السياسية (٣٨) ٠

ان النشاطات الصهيونية السرية للتاثير على الهيئات الحكومية في بلدان الغرب ، تكتمـل بنداءات توجهها المنظمات الصهيونية العالمية الى الدول والحكومات والشخصيات تدعوهم فيهـا الى اتخاذ اجراءات ما ، او الامتناع عن قرار ما طبقا لمصالح الصهيونية ٠

ان الصهيونية كنظرية وكممارسة سياسية ، وكمنظومة متشعبة في المنظمات ولدت في عصر الامبريالية ، عصر الازمة العامة للراسمالية ٠

المصادر

١ ـ و ٠ زاكوير ، تاريخ الصهيونية ، نيويورك ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٦

٢ ـ المصدر نفسه ص ١١٣

٣ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل ١٩٧١ المجلد ١١ ص ١٢٣٤

٤ ـ الكتاب السنوي للحكومة الاسرائيلية ٥٧٣٢ (١٩٧١ ـ ١٩٧٢) القدس

٥ ـ المصدر نفسه ص ٥٤٠

٦ ـ (نيويورك تايمس » ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٢

٧ ـ « بريستينسيا » ١٤ ـ ١ ـ ١٩٧٢

٨ ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل ص ١١

٩ ـ يو ٠ زاكوير ، تاريخ الصهيونية ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ وموسوعـة الصهيونية واسرائيل ، المجلد ١ ص ٦١٢

١٠ ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل ، المجلد ١ ص ٦١٥ ـ ٦١٦

١١ ـ صحيفة « تيموكناك تشيرتن ٢١ ـ ١ ـ ١٩٧١

١٢ ـ كراينس « الحكومة والسياسة في اسرائيل « بوسطن ١٩٦١

١٣ ـ قوانين اسرائيل ٥٧١١ لاعوام (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) المجلد ٧ ص ٣ ـ ٤

١٤ ـ « جروزاليم بوست » ١٦ ـ ١١ ـ ١٩٦٤

١٥ ـ الكتاب السنوي لليهود الاميركان ص ١٧٨

١٦ ـ خبر اذاعته وكالة رويتر بتاريخ ٢٢ ـ ٦ ـ ١٩٧١

١٧ ـ الكتاب السنوي لليهود الاميركان ١٩٧٢ ص ١٨١

١٨ ـ (نيويورك تايمس) ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٢

١٩ ـ الاسرائيليون منهم ، تل ابيب ١٩٧٢ ص ٤١١

٢٠ ـ المصدر نفسه ص ٤١٣ ـ ٤١٥

٢١ ـ المصدر نفسه ص ٤٠٦

٢٢ ـ جويش اوبزرفر ١ ـ ١ ـ ١٩٧٥

٢٣ ـ الاسرائيليون من هم ص ٤٠٩

٢٤ ـ الكتاب السنوي لدولة اسرائيل (١٩٧١ ـ ١٩٧٢) ص ٣٤٤

٢٥ ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل المجلد ١١ ص ١٢٣١

٢٦ ـ المصدر نفسه

٢٧ ـ مجلة « سويسرا » ٤ ـ ٧ ـ ١٩٧٢

٢٨ ـ « واشنطن بوست » ١٣ ـ ١ ـ ١٩٧٥

٢٩ ـ « جروزاليم بوست » ١٨ ـ ٥ ـ ١٩٧٢

٣٠ – موسوعة الصهيونية واسرائيل ص ١ – ١١ والكتاب السنوي لليهود الاميركان ١٩٧١
٣١ يو · زاكوير « تاريخ الصهيونية ص ١٠٤ – ١٠٦
٣٢ – المصدر نفسه ص ٥٤٦
٣٣ – « جروزاليم بوست » ٢٣ – ٦ – ١٩٥١
٣٤ – المصدر نفسه ١٩ – ٦ – ١٩٦٨
٣٥ – يوسف فرينكل « الصحافة اليهودية في العالم » ١٩٦٨
٣٦ – الاسرائيليون من هم ١٩٧٢ ص ٤٠٩
٣٧ – المصدر نفسه
٣٨ – « واشنطن بوست » ٢٠ – ١١ – ١٩٧٢

حول النضال الوطني الديمقراطي في البحرين

عبدالله محمد خالد

في اعقاب انتخابات المجلس الوطني في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ ، والتي تمخضت عن انتصار العناصر الوطنية ، وحصول **« كتلة الشعب »** وحدها على ثمانية مقاعد ، علاوة على عدد آخر من النواب الوطنيين المستقلين ، فلقد تبين ، بشكل جلي ، سعة التأييد الشعبي الذي تتمتع به الحركة الوطنية البحرانية ، رغم ظروف العمل السري ، **التي فرضتها السلطات البريطانية في اعقاب ضربها هيئة الاتحاد الوطني** ، في ١٩٥٦ .

وبالاضافة الى عدد اخر من النتائج « غير المحسوبة » ، **فان الانتخابات البرلمانية في ١٩٧٣ قد بينت** ، ايضا ، مدى سوء تقدير الحسابات التي توقعت نتائجا اكثر تلاؤما مع رغبات السلطة ، وتماشيا مع مخططاتها . شهدت البحرين ، منذئذ ، اعدادا من الزوار والباحثين الذين جاء بعضهم للاطمئنان على سير الامور ، او لدراستها ، وتقصي جوانبها المختلفة .

وبالفعل ، فلقد حضر الباحثون في كل حقل ، ومن جنسيات متعددة ، عربية **واسيوية واوروبية واميركية لاعادة مسح البلاد** ، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا . وكان اخر هؤلاء الباحثين فريق علمي ، ضم عددا من المختصين في علوم الاجتماع ، والنفس ، والطب ، انصب اهتمامه على معرفة اهتمامات الشبيبة البحرانية ، وقدراتها النفسية ، والفكرية ، والبدنية .

لا شك ان مثل هذه الابحاث والدراسات ستساهم في ازالة الكثير من اسباب « سوء الفهم » ، الذي ادى الى سوء التقدير ، الذي برهنت انتخابات المجلس

٣٠ – موسوعة الصهيونية واسرائيل ص ١ – ١١ والكتاب السنوي لليهود الامريكان ١٩٧١
٣١ يو ٠ زاكوير « تاريخ الصهيونية ص ١٠٤ – ١٠٦
٣٢ – المصدر نفسه ص ٥٤٦
٣٣ – « جروزاليم بوست » ٢٣ – ٦ – ١٩٥١
٣٤ – المصدر نفسه ١٩ – ٦ – ١٩٦٨
٣٥ – يوسف فرينكل « الصحافة اليهودية في العالم » ١٩٦٨
٣٦ – الاسرائيليون من هم ١٩٧٢ ص ٤٠٩
٣٧ – المصدر نفسه
٣٨ – « واشنطن بوست » ٢٠ – ١١ – ١٩٧٢

حول النضال الوطني الديمقراطي في البحرين

عبد الله محمد خالد

في اعقاب انتخابات المجلس الوطني في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ ، والتي تمخضت عن انتصار العناصر الوطنية ، وحصول **« كتلة الشعب »** وحدها على ثمانية مقاعد ، علاوة على عدد آخر من النواب الوطنيين المستقلين ، فلقد تبين ، بشكل جلي ، سعة التأييد الشعبي الذي تتمتع به الحركة الوطنية البحرانية ، رغم ظروف العمل السري ، **التي فرضتها السلطات البريطانية في اعقاب ضربها هيئة الاتحاد الوطني** ، في ١٩٥٦ .

وبالاضافة الى عدد اخر من النتائج « غير المحسوبة » ، فان الانتخابات البرلمانية في **١٩٧٣ قد بينت** ، **ايضا** ، **مدى سوء تقدير** الحسابات التي توقعت نتائجا اكثر تلاؤما مع رغبات السلطة ، وتماشيا مع مخططاتها . شهدت البحرين ، منذئذ ، اعدادا من الزوار والباحثين الذين جاء بعضهم للاطمئنان على سير الامور ، او لدراستها ، وتقصي جوانبها المختلفة .

وبالفعل ، فلقد حضر الباحثون في كل حقل ، ومن جنسيات متعددة ، عربية **واسيوية واوروبية واميركية لاعادة مسح البلاد** ، **اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا** .
وكان اخر هؤلاء الباحثين فريق علمي ، ضم عددا من المختصين في علوم الاجتماع ، والنفس ، والطب ، انصب اهتمامه على معرفة اهتمامات الشبيبة البحرانية ، وقدراتها النفسية ، والفكرية ، والبدنية .

لا شك ان مثل هذه الابحاث والدراسات ستساهم في ازالة الكثير من اسباب « سوء الفهم » ، الذي ادى الى سوء التقدير ، الذي برهنت انتخابات المجلس

الوطني على وجوده . فكما يقول الباحث الاميركي **اميل نخلة** ، وهو نفسه احد الذين جاؤوا لدراسة البحرين من تلك الفترة ، فان « انتصار » ثمانية مرشحين يساريين قد كشف ان تقييم (١) الولايات المتحدة للسياسة البحرانية انما كان تقييما عتيقا » ولعل الاستنتاجات هذه الدراسات والابحاث ، والذي لم ينشر منها الا القليل ، اثرها من تراجع النظام البحراني عن متابعة التجربة البرلمانية ، التي أرادتها شاهدة زور ، لضمان استمرار سياساتها ، التي بدأ واضحا معاداتها لطموحات فئات عديدة من الشعب البحراني .

لقد أوضحت القوى الوطنية البحرانية ، منذ البداية ، وعيها للطابع المزدوج للعمل البرلماني في أوضاع كأوضاع البحرين . ولقد لخصت أهدافها من الدخول في خضم المعركة الانتخابية والتجربة البرلمانية في النقاط التالية (٢) :

١ ــ الاستفادة من البرلمان لاضفاء طابع الشرعية على جزء من نضالها ،

٢ ــ فك الحصار المفروض على تحركها ، والخروج من إطاره ، للالتصاق بجماهير اوسع ،

٣ ــ استخدام المنبر البرلماني لأغراض الدعاية السياسية بين الجماهير ، ولرفع مستوى وعيها ، ولتعرية السلطة ، وفضح مشاريعها ،

٤ ــ اضافة مجال جديد للصراع السياسي بين الجماهير والقوى التي تضطهدها ، والعمل على تنسيق العمل الجماهيري خارج البرلمان ونشاط المعارضة البرلمانية ،

٥ ــ محاولة تحقيق المطالب اليومية .

ولأزالة أي غموض حول توجهاتها ، فان برنامجها الانتخابي كان قد أكد على « ان وجودنا داخل المجلس الوطني لن يكون الضمان الاكيد لتحقيق هذه المطالب ، وانما الضمان الأكيد والصحيح هو الدعم الشعبي لهذه المطاليب ، والاستمرار الذي لا يعرف التهاون ، أو الكسل ، أو الاتكالية في النضال الجماهيري ، **من أجل فرض** هذه المطاليب ، ومن أجل الحصول على مكاسب شعبية جديدة (٣) » .

وجاءت الممارسة العملية داخل البرلمان ، ذاته ، لتؤكد صحة **هذه التوجهات** ، من جهة ، والتزام النواب الوطنيين بها ، من جهة اخرى .

كما ان مجمل التطورات ، التي تلاحقت منذ بدء الحملة الانتخابية ، وعبر الاستفادة من تلك الدرجة من الانفتاح التي طبعت سياسة السلطة البحرانية في تلك الفترة القصيرة ، كانت تؤكد مدى تطلع فئات شعبية واسعة لمتنفس لمناسبة ، ولمجال للتعبير عن عدم رضاها عن مجريات الامور وعن طموحها في التغيير .

ولقد أبرز الحضور المكثف للندوات والاجتماعات الانتخابية ، والتي كانت تعقد لمناقشة برنامج **كتلة الشعب** الانتخابي ، مدى الرفض الشعبي لاستمرار سيطرة أجواء الكبت السياسي .

واذا كانت هناك ثمة أمور يمكن الجدال حولها ، وخاصة بالنسبة لتفسير اندفاع الناخبين للمشاركة في الادلاء بأصواتهم فانه من الصعب الجدل حول ان أولئك الذين صوتوا **لكتلة الشعب** ، وغيرهم من المرشحين الوطنيين ، انما كانوا يصوتون ضد سياسات محددة قائمة ، ومن أجل دعم كل الطموحات التي جاء برنامج الكتلة معبرا عنها ، ومنطلقا منها .

لقد ساهمت نتائج الانتخابات في دفع معنويات كل الذين يتطلعون الى وضع نهاية لتلك السياسات ، التي لم يجن المواطن منها الا المزيد من المعاناة وتفاقم المشاكل المعيشية .

وبدءا من مظاهرة العاطلين ، في ٧٤/١٢/١٤ ، اي بعد اسبوع من اعلان نتائج **انتخابات المجلس الوطني ، لم تتوقف التحركات الجماهيرية** ، على اختلاف مستوياتها .

فعلى صعيد العمال والاضرابات العمالية ، تجدر الاشارة الى انه ، وخلال الستة الاشهر الاولى من ١٩٧٤ ، وصلت هذه الاضرابات الى ٣٦ اضرابا عماليا ، شملت العديد من المؤسسات الكبيرة والمتوسطة ، والتي يملك نصفها شركات أجنبية (اميركية وبريطانية) ، ويلعب رأس المال الاجنبي دورا هاما في أغلب الباقي ... وتشترك جميع هذه الاضرابات العمالية في كونها اضرابات محددة المطالب وواضحة الاهداف وعلنية التوجه ، وذات قيادات عمالية معروفة بالامانة والتفاني وتم انتخابها بواسطة العمال المضربين في كل مؤسسة (٤) .

كما تصاعدت الحركة المطلبية لدى الفئات الاخرى غير العمالية من صغار تجار ، وموظفين ، ونساء ، وشبيبة ، وطلبة . وتعددت العرائض الموقعة من قبل المئات حول مختلف المواضيع : من المطالبة باعتبار الاول من مايو عيدا رسميا ، الى اطلاق حرية التنظيم النقابي ، مرورا بعدد من المطالب الفئوية الاخرى (٥) .

تتفق الآراء على أن فترة التجربة البرلمانية كانت فترة نهوض للحركة الوطنية البحرانية . وانها قد نجحت في افشال تلك الحسابات التي توقعت لها أن تصبح اسيرة الحدود التي تفرضها أصول اللعبة البرلمانية ، وأن تتحول بالتالي ، وكما تريدها السلطة ، حركة اصلاحية ومدجنة .

ولقد بدا فشل هذه الحسابات جليا من خلال حملة الاعتقالات الواسعة التي شنتها الحكومة البحرانية في يونيو ١٩٧٤ في صفوف العمال ، وخاصة نقابيي شركة الومنيوم البحرين ، الشركة المتعددة القوميات . ولقد شملت حملة الاعتقالات تلك عددا آخر من الشخصيات الوطنية ، والذين ما يزال عدد منهم رهن الاعتقال ، منذ ذلك الحين ، وبدون محاكمة .

لقد جاءت حملة الاعتقالات تلك لتحقيق هدفين ، أولهما : ضرب النشاط النقابي والمطلبي ، والذي تمخض ، من بين أشياء أخرى ، عن اعلان تشكيل عدد من النقابات العمالية ، التي أخذت تمارس نشاطا شبه علني وملحوظ في مجال تنظيم العمال وقيادة تحركاتهم . أما ثاني أهداف تلك الحملة ، فكان تحدي سلطة البرلمان واعلان عجزه أمام الحكومة ، وابراز وجوده فارغا من أي محتوى أو معنى .

وعلى الرغم من ن حملة الاعتقالات كانت قد شكلت ضربة مؤلمة للنشاط النقابي والعمالي ، الا انها لم تستطع انهائه ، فلقد عاد النشاط النقابي الى ما كان عليه نشاطا سريا مستفيدا من ايجابيات فترة العلنية على قصرها . ولعله حدث رمزي في السياق التاريخي أن يأتي أكبر اضراب لعمال الميناء بعد ثلاثة أيام من حملة الاعتقالات تلك ، في ١٩٧٤/٦/٢٥ . من جهة اخرى ، فان محاولة احراج النواب الوطنيين لم تأت بالنتائج المتوخاه .

في ١٩٧٤/١٠/٢٢ ، أصدرت الحكومة البحرانية مرسوما بقانون أمن الدولة (قبل ساعات من بدء دورة البرلمان بعد الاجازه) ، والذي منح وزير الداخلية ، بموجبه ، حق احتجاز اي مواطن لمدة تصل الى ثلاث سنوات ، بدون الحاجة الى تقديمه لمحاكمة ، أو تحديد التهمة التي يحتجز على أساسها .

ولقد كان هذا المرسوم بمثابة السيف الذي قطع شعرة معاوية ، ما بين الوطنيين في البرلمان والحكومة ، وليفتح الطريق أمام نزاع مكشوف ، لم يعد أي من الطرفين في حاجة الى البحث عن طريقة لاخفائه . وساهم صمود المعتقلين ، وتصاعد حملة التضامن المحلية والعربية والعالمية مع النضال الديمقراطي لشعب

البحرين ، في تأكيد حقيقة أن الامور — منذ الانتخابات — لم تكن تسير في الاتجاه الذي أرادته لها السلطة .

وتعمق هذا النزاع المكشوف عبر المعارضـة الشعبية والبرلمانية لاستمرار القاعدة العسكرية الاميركية في البحرين (والتي تفضل السلطات ، بتشديد ، أن تسميها « تسهيلات ») . ولقد تأكد ، عبر ذلك ، أن المسألة قد تحولت الى مسألة وقت ، قبل أن تحين نهاية التجربة البرلمانية ، وقبل أن تعود الامور الى مجاريها السابقة .

ولقد جاء ذلك الموعد في ٢٣/٨/٧٥ ، وأثناء عطلة البرلمان الصيفية ، حيث أعلن حله ، في نفس الوقت الذي تم فيه اعتقال عشرات المواطنين ، على أساس تهمة سرعان ما تم تناسيها ، الا وهي المشاركة في « **مؤامـرة شيوعية تنطلق من البحرين لتشمل الخليج كله** » .

ويشير البيان ، الذي أصدرته القوى الوطنية الثلاث في أعقاب حل البرلمان ، الى دور الدعم الذي قدمته كل من السعودية وايران ، للتعجيل بخطوة حل المجلس الوطني وانجاحها (٦) .

ومهما يكن تباين الراي حول جدوى العمل البرلماني ، وحول جدية التوجهات « الديمقراطية » للطبقات الحاكمة في الخليج ، والتي تصطبغ العلاقات فيما بينها وكذلك علاقاتها بشعوبها بالعشائرية ، ومهما يكن الراي متباينا حول الديمقراطية البورجوازية ذاتها ، فان مما لا شك فيه أن حل المجلس الوطني في البحرين قـد أصاب الحركة الوطنية الديمقراطية بانتكاسة عميقة .

من جهة اخرى ، فان انهاء التجربة البرلمانية ، وما رافقها من تجميد مـواد الدستور ، واستمرار حملات الاعتقال ، والمداهمة والتفتيش ، قد حملت معها تطورا ايجابيا ، من المنظور التاريخي ، الا وهو توجه الاطراف المنظمة من الحركة الوطنية الى بدء تنسيق مواقفها ، كما تؤكد ذلك بادرة البيانات المشتركة . ويكتسب هـذا التوجه نحو تنسيق الجهود والمواقف اهميته ، في ضوء شراسة الهجمة وقناعة كافة الاطراف ان استكمال التحرر الوطني ، وانجاز مهمات المرحلة الوطنية الديمقراطية ، تتطلب تحشيد جهود كافة القوى والفئات الاجتماعية ذات المصلحة في التغيير ، وهذا يعني ، بالضرورة — وكحد ادنى — الوصول الى أعلى درجات التنسيق الفعلي بين أطراف الحركة الوطنية البحرانية .

لقد شهدت البحرين ، خلال الثلاثة اعوام المنصرمة منذ حل البرلمان ، تصعيدا مستمرا ، في المواجهة ما بين السلطة والحركة الوطنية ، ولقد تلازم ذلك مع استمرار حالة الطوارىء ، وما تستتبعه من اعتقال ومداهمة وتفتيش ومصادرة للحريات . كما توجهت السلطة الى استصدار القوانين الجديدة ، وتحديث بعض القوانـين الموروثة من عهد السيطرة البريطانية ، وذلك لسد تلك الثغرات التي اثبتت المعارضة الوطنية قدرتها على النفاذ من خلالها ، والاستفادة منها .

فجاء **قانون العمل الجديد** — مثلا — خطوة الى الوراء بالقياس الى سلفه ، خاليا حتى من تلك الايجابيات القليلة والمحدودة التي كان **قانون العمل** لسنة ١٩٥٧ يتمتع بهـا .

ولقد وصلت المواجهة ما بين السلطة والحركة الوطنية الى أوجها في أواخر ١٩٧٦ وبعد اغتيال **عبد الله المدني** ، رئيس تحرير مجلة « **المواقف** » ، الناطقة بلسان **الكتلة الدينية** ، المرتبطة برئيس مجلس الوزراء .

ورغم الغموض ، الذي ما زال يحيط ببعض جوانب هذا الحادث وملابساته وخلفيات بعض القائمين به ، الا أن ما هو واضح ان اغتيال **المدني** ، قد قدم الـى السلطة خدمة ، لا تقدر بثمن ، في معركتها ضد الحركة الوطنية والتقدمية . كما انه

سبب ارباكا داخل الحركة الوطنية ذاتها (٧) . وبجانب عشرات المعتقلين ، فلقـد سقط للحركة الوطنية شهيدان من جراء التعذيب .

لقد جددت اطراف الحركة الوطنية ، وفي مجالات عديدة ، مواقفها ، بوضوح ، من مجمل التطورات التي شهدتها البحرين ، والتي تميزت بتصعيد السلطة هجومها ، مستفيدة من تردي الاوضاع العربية المتزايد ، وانعكاس ذلك على الوضع في دول الخليج ، هذه المواقف التي تستند ، في جوهرها ، على ان مقدرة الحركة الوطنية البحرانية على الصمود مرتبطة ، بشكل مباشر ، بمقدرتها على الوصول الى اعلى درجات التنسيق ، والتعاون فيما بينها ، وانطلاقا من تصورات مشتركة لطبيعة المرحلة التي يمر بها النضال الوطني الديمقراطي ، وافاقها . ويبدو ، ايضا ، ان هنـاك قناعة عامة بأنه اذا كان النضال الوطني الديمقراطي في البحرين قد استطاع الصمود حتى الان ، بالرغم من الضربات الشديدة التي يتعرض لها ، وخاصة خلال السنوات الثلاث الاخيرة ، فان ذات العوامل التي جعلت هذا الصمود ممكنا ، يمكنها ، في ظل جبهة وطنية متراصة ، ان تؤمن استمراره وتناميه .

ان تحليل التركيبة الاجتماعية في البحرين ، يبرز عددا من الظواهر ذات الاهمية في هذا الصدد ، منها غياب الفلاحين كفئة اجتماعية ، وانعدام تأثيرهم السياسي ، وكذلك ارتفاع نسبة العمال والمستخدمين بأجر ، بالمقارنة الى الفئات الاخرى . وكما يشير الجدول التالي فانه يمكن تقسيم السكان الفعال اقتصاديا في البحرين ، وحسب معطيات اخر احصاء سكني لسنة ١٩٧١ ، الى الفئات التالية (٨) :

الفئة	٪ من السكن الفعال اقتصاديا
اصحاب اعمال	٦ر١٪
يعملون لحسابهم	٩ر١٥٪
يعملون لحساب العائلة بدون أجر	٦ر١٪
العاملون باجر	٨١٪

وتشير الارقام المتوافرة الى ان فئتي العمال والعمال الصناعيين يشكلون أكثر من ثلثي فئة العاملين بأجر في البحرين . بينما تبلغ نسبة العمال المرتبطين ، بشكل مباشر ، بالصناعة نسبة تزيد عن ٢٥٪ من السكان الفعال اقتصاديا ، كما يشير الجدول التالي (٨) :

الفئة	٪ من السكان الفعال اقتصاديا
كبار الموظفين	٢ر٢ ٪
موظفـون	٥ر٢٣٪
عمـــال	١ر٣٠٪
عمال صناعيون	٥ر٢٥٪
مزارعـون	٣ر١ ٪
صيـادون	١ر٢ ٪
حـرفيون	٨ر٢ ٪
صغار تجار	١ ٪
فئات اخرى	١ر١٠٪

وعلى الرغم من جهلنا بطبيعة الاستنتاجات التـي يمكن للباحثين الاميركـان

وغيرهم ممن هم مشغولون بمسح الاوضاع البحرانية . بهدف « تقييمها » ، الا اننا نرى في الارقام السابقة دلالات على **ان افاق النضال الوطني آخذة في الاتساع والتجدد.**

من المؤكد أن الاهمية التاريخية للطبقة العاملة ، في الوضع البحراني ، لا تنحصر في حجمها فحسب ، بل ، وايضا ، في طبيعة ظروفها وخبرتها النضالية التي تمرست بها طلائعها عبر سنوات طويلة .

واذا كان بالامكان العودة الى أحداث وانتفاضات تاريخية عديدة لمتابعة تنامي تأثير الطبقة العاملة البحرانية ، وخاصة من فترة النهوض الجماهيري الذي قادته هيئة الاتحاد الوطني في منتصف الخمسينات ، فان دورها في مقدمة النضال الوطني الديمقراطي قد تكرس بانتفاضتي ١٩٦٥ و ١٩٧٢ .

من جهة اخرى ، وكانعكاس للتركية الاجتماعية ذاتها ، فان الوضع البحراني يتميز بثبات وجود ، تنظيمات سياسية تستند الى قواعد اجتماعية ثابتة ، وتتمتع بتراث نضالي طويل نسبي . فهناك **جبهة التحرير الوطني البحرانية** ، والتي احتفلت قبل اشهر ، بعيدها الثالث والعشرين ، وهناك **الجبهة الشعبية ــ** البحرين ، والتي وان لم تعرف بهذا الاسم الا في نهاية ١٩٧٤ ، الا أن جذورها في البحرين تمتد الى بدايات **حركة القوميين العرب** في الخمسينات ، وكذلك الحال مع **حزب البعث العربي الاشتراكي ــ** منظمة البحرين .

وبجانب هذه التنظيمات السياسية ، فان الحركة الوطنية الديمقراطية في البحرين تستمد تأثيرها وفاعليتها من خلال عدد من المنظمات الجماهيرية الفئوية ، في قطاعات الطلبة والنساء والشبيبة والمنظمات النقابية والاجتماعية ، ويمارس بعض هذه المنظمات نشاطه علنا ، رغم العديد من القيود والملاحقات ، مقدمة بذلك دليلا اخر ، بجانب النشاطات الاخرى ، السرية والعلنية للحركة الوطنية ، على استحالة انهاء نضالها ، ومنع تناميه وتطوره .

---

(١) نخلة ، **أميل العلاقات العربية الاميركية في الخليج الفارسي** ٠ واشنطن ، ١٩٧٥ ٠

(٢) **« النضال »** ، العدد الرابع ، **١٩٧٦** ٠

(٣) **برنامج كتلة الشعب الانتخابي** ٠

(٤) **« النضال »** ، العدد السادس ٠

(٥) **محاضر جلسات المجلس الوطني**

(٦) **البيان السياسي المشترك الصادر عن تنظيمات الحركة الوطنية البحرانية ـ اغسطس ١٩٧٥** ٠

(٧) **« ٥ مارس »** ، العدد الحادي عشر ، **١٩٧٦** ٠

(٨) الارقام مستخرجة من معطيات **« الاحصاء السكاني العام لسنة ١٩٧١ »** و **« مؤشرات اجتماعية عن البحرين »** ل... ف٠ كانيستو و **« القوى البشرية في البحرين »** للدكتور ي٠ أهوجا ٠

الامبريالية ، المسألة القومية ونظرية العوالم الثلاث

... فرحان صالح

نشرت مجلة دراسات عربية العدد ٤ ـ ١٩٧٨ ، مقـالا للسيد **منير شفيق** حول الشركات المتعددة الجنسية ، ستار للنهب والقهر الامبريالي الاميركي وقد توصل الكاتب في دراسته لمجموعة مسائل متعلقة ليس فقط ، بالوطن العربي ، بل بالعالم الثالث ، ملمحا الى ان تفسيراته ، هي مايعنيه **لينين بكتابه** « الامبريالية ، اعلى مراحل الرأسمالية » ، ولا بد من مناقشة هذه الدراسة كونها تطرح موضوعات مهمة وخطيرة في أن معا » .

يركز السيد منير شفيق مقاله حول ثلاث قضايا .

١ ـ **تركيزه على عدم وحدة « الرأسماليين مع اعطائه استشهادات حول المسالة القومية بشكل مجرد** ، وبحيث انه في هذه الاستشهادات ، **لا يبين جوهر المسألة القومية** ، **بأعتبارها في نهاية المطاف مسألة** صراع طبقي ، **فهو يضع كل الطبقات في** سلة واحدة ٠ **بما فيها البورجوازية الكبيرة**، والكمبرادورية **بحيث يرى ودون تحديد على** ان التناقض **بين الضواري وبين** « دول العالم الثالث المستقلة حديثا ، **والتي تتطلع** الى التنمية وتعزيز السيادة القومية ورفع النهب الامبريالي لمواد الخام ، والنهب الامبريالي الاتي من بيع السلع المصنعة والتكنولوجيا بأعلى الاسعار « على اشده وبان ، **الامبريالية تولد المقاومة ضدها بسبب** عملية الالحاق القومي الذي تقوم به » .

٢ ـ التركيز على ثنائية مواقف البورجوازية ، فمنير يرى بأنه « لا بد من الرد ايضا على تلك الفكرة الساذجة التي ترى « وحدة الرأسماليين) تشمل ايضا بورجوازيات العالم الثالث ، وترفض ان ترى التناقض بين هؤلاء وبين دول العالم الثالث المستقلة حديثا «« ان رفض رؤية هذه التناقضات ينبع من نظرية «وحدة الرأسماليين « ليس على مستوى البلد الواحد فحسب وانما ايضا على مستوى العالم كله » .

« ومن هنا يجب ان يماط اللثام عن النهب والقهر القومي اللذين تمارسهما الطغم المالية الاميركية من خلال الشركات المتعددة الجنسية على الدول الاوروبية واليابان وعلى بلدان العالم الثالث ، كما يجب ان تشجع اتجاهات مقاومة ذلك النهب والقهر القومي « خاصة » ان المقاومة لا تقتصر على جماهير هذه البلدان ، وانما تمتد لتشمل ايضا اجنحة عديدة من رأسمالييها الذين يطمحون الى الاستيلاء على السوق المحلي وزيادة ارباحهم ، ورفع الضغوط التي يتعرضون لها من الطغم المالية التي تسحق بلا رحمة كل منافسيها من اجل تأمين اقصى الارباح » .

٣ ـ بناء مقاله حول نظرية العوالم الثلاث ، حيث يقول « ان التركيز في هذه

وغيرهم ممن هم مشغولون بمسح الاوضاع البحرانية . بهدف « تقييمها » ، الا اننا نرى في الارقام السابقة دلالات على **ان افاق النضال الوطني آخذة في الاتساع والتجدد.**

من المؤكد أن الاهمية التاريخية للطبقة العاملة ، في الوضع البحراني ، لا تنحصر في حجمها فحسب ، بل ، وايضا ، في طبيعة ظروفها وخبرتها النضالية التي تمرست بها طلائعها عبر سنوات طويلة .

واذا كان بالامكان العودة الى أحداث وانتفاضات تاريخية عديدة لمتابعة تنامي تأثير الطبقة العاملة البحرانية ، وخاصة من فترة النهوض الجماهيري الذي قادته هيئة الاتحاد الوطني في منتصف الخمسينات ، فان دورها في مقدمة النضال الوطني الديمقراطي قد تكرس بانتفاضتي ١٩٦٥ و ١٩٧٢ .

من جهة اخرى ، وكانعكاس للتركيبة الاجتماعية ذاتها ، فان الوضع البحراني يتميز بثبات وجود ، تنظيمات سياسية تستند الى قواعد اجتماعية ثابتة ، وتتمتع بتراث نضالي طويل نسبي . فهناك **جبهة التحرير الوطني البحرانية** ، والتي احتفلت قبل اشهر ، بعيدها الثالث والعشرين ، وهناك **الجبهة الشعبية** ـــ البحرين ، والتي، وان لم تعرف بهذا الاسم الا في نهاية ١٩٧٤ ، الا أن جذورها في البحرين تمتد الى بدايات **حركة القوميين العرب** في الخمسينات ، وكذلك الحال مع **حزب البعث العربي الاشتراكي** ـــ منظمة البحرين .

وبجانب هذه التنظيمات السياسية ، فان الحركة الوطنية الديمقراطية في البحرين تستمد تأثيرها وفاعليتها من خلال عدد من المنظمات الجماهيرية الفئوية ، في قطاعات الطلبة والنساء والشبيبة والمنظمات النقابية والاجتماعية ، ويمارس بعض هذه المنظمات نشاطه علنا ، رغم العديد من القيود والملاحقات ، مقدمة بذلك دليلا اخر ، بجانب النشاطات الاخرى ، السرية والعلنية للحركة الوطنية ، على استحالة انهاء نضالها ، ومنع تناميه وتطوره .

---

(١) نخلة ، أميل **العلاقات العربية الاميركية في الخليج الفارسي** • واشنطن ، ١٩٧٥ •
(٢) **« النضال »** ، العدد الرابع ، **١٩٧٦** •
(٣) **برنامج كتلة الشعب الانتخابي** •
(٤) **« النضال »** ، العدد السادس •
(٥) **محاضر جلسات المجلس الوطني**
(٦) **البيان السياسي المشترك الصادر عن تنظيمات الحركة الوطنية البحرانية ـ اغسطس ١٩٧٥** •
(٧) **« ٥ مارس »** ، العدد الحادي عشر ، **١٩٧٦** •
(٨) الارقام مستخرجة من معطيات **« الاحصاء السكاني العام لسنة ١٩٧١ »** و **« مؤشرات اجتماعية عن البحرين »** [illegible] ف• كانيستو و **« القوى البشرية في البحرين »** للدكتور ي• أهوجا •

الامبريالية ، المسألة القومية ونظرية العوالم الثلاث

... فرحان صالح

نشرت مجلة دراسات عربية العدد ٤ ـ ١٩٧٨ ، مقالا للسيد **منير شفيق** حول الشركات المتعددة الجنسية ، ستار للنهب والقهر الامبريالي الاميركي وقد توصل الكاتب في دراسته لمجموعة مسائل متعلقة ليس فقط ، بالوطن العربي ، بل بالعالم الثالث ، ملمحا الى ان تفسيراته ، هي مايعنيه **لينين بكتابه** « الامبريالية ، اعلى مراحل الرأسمالية • » ولا بد من مناقشة هذه الدراسة كونها تطرح موضوعات مهمة وخطيرة في أن معا • »

يركز السيد منير شفيق مقاله حول ثلاث قضايا •

١ ـ تركيزه على عدم وحدة « الرأسماليين مع اعطائه **استشهادات حول المسالة القومية** بشكل مجرد ، وبحيث انه في هذه الاستشهادات ، **لا يبين جوهر المسألة القومية ، باعتبارها في نهاية المطاف مسالة** صراع طبقي ، **فهو يضع كل الطبقات في** سلة واحدة • **بما فيها البورجوازية الكبيرة،** والكمبرادورية بحيث يرى ودون تحديد على ان التناقض بين الضوارى **وبين** « دول العالم الثالث المستقلة حديثا ، والتي تتطلع الى التنمية وتعزيز السيادة القومية ورفع النهب الامبريالي لمواد الخام ، والنهب الامبريالي الاتي من بيع السلع المصنعة والتكنولوجيا بأعلى الاسعار « على اشده وبان ، **الامبريالية تولد المقاومة ضدها بسبب** عملية الالحاق القومي الذي تقوم به » •

٢ ـ التركيز على ثنائية مواقف البورجوازية ، فمنير يرى بأنه « لا بد من الرد ايضا على تلك الفكرة الساذجة التي ترى « وحدة الرأسماليين) تشمل ايضا بورجوازيات العالم الثالث ، وترفض ان ترى التناقض بين هؤلاء وبين دول العالم الثالث المستقلة حديثا «« ان رفض رؤية هذه التناقضات ينبع من نظرية «وحدة الرأسماليين « ليس على مستوى البلد الواحد فحسب وانما ايضا على مستوى العالم كله »•

« ومن هنا يجب ان يماط اللثام عن النهب والقهر القومي اللذين تمارسهما الطغم المالية الاميركية من خلال الشركات المتعددة الجنسية على الدول الاوروبية واليابان وعلى بلدان العالم الثالث ، كما يجب ان تشجع اتجاهات مقاومة ذلك النهب والقهر القومي « خاصة » ان المقاومة لا تقتصر على جماهير هذه البلدان ، وانما تمتد لتشمل ايضا اجنحة عديدة من رأسمالييها الذين يطمحون الى الاستيلاء على السوق المحلي وزيادة ارباحهم ، ورفع الضغوط التي يتعرضون لها من الطغم المالية التي تسحق بلا رحمة كل منافسيها من اجل تأمين اقصى الارباح » •

٣ ـ بناء مقاله حول نظرية العوالم الثلاث ، حيث يقول « ان التركيز في هذه

المقالة على القاء الضوء على التناقض فيما بين الدول الامبرياليةبعضها ضد البعض الاخر ياتي بسبب نكران عدد من المنظرين المدعين اليسارية رؤيتها بحجمها الكبير الذي طرحه لينين ·· ويأتي اهمية ادراكه في عملية حل التناقضات الاساسية الثلاثة الاخرى وفهمها «حقا ان هذه المقاومة هي أشد واكثر حزما، وتقع في المقدمة لدى بلدان العالم الثالث التي تتعرض هي للنهب الاقتصادي بصورة اشد (··) ولكن هذا التمييز يجب الا يمنع من رؤية المقاومة لدى البلدان المصنعة ، حين تتعرض للالحاق والهيمنة والنهب » ·

قبل الاجابة على هذه الاطروحات ، لابد من العودة الى الجذور الاولى لمناقشتها ، وصولا الى تحديد موقف واضح منها ·

الماركسية والمسالة القومية :

المدارس الماركسية في الوطن العربي خاصة وفي العالم عامة تعددت وتباينت في مواقعها واجتهاداتها ، خاصة فيما يتعلق بالموقف من المسألة القومية ، وفيما اذا بعضها ينفي وجود امة عربية ، مستشهدا هذا البعض بالكتابات الستالينية ، التي ترى ان المسالة القومية هي « واقع اجتماعي مستقر ، تكون بصورة تاريخية : حيث تتشابك مقومات مشتركة من اللغة والارض والحياة الاقتصادية والتكوين السيكولوجي المعبر عنه في ثقافة مشتركة · وهذه العناصر والمقومات المشتركة لا بد ان تجتمع جميعا لكي نكون ازاء امة · بحيث يكون غياب احدى هذه الخصائص المميزة معناه غياب الامة » ويستشهدون ايضا بلينين حين يقول ان الامة هي « نتاج لا يمكن تفاديه ، وشكل لا يمكن تفاديه للعهد البورجوازي من التطور الاجتماعي » (١) ان البعض يرون بظهور المجتمع البورجوازي الموحد عبر السوق وعبر المسمات التي ذكرت ، المدخل لوجود قومية ما او عدم وجودها · ويلصقون هذ الوصفات العينية بالوضع العربي · في حين ان لينين وستالين قد تكلما عن واقع مادي ملموس وعيني حين تناولا هذا الموضوع · وبحيث اننا بحاجة لدراسة اوضاع بلادنا العينية اكثر ، وصولا لتحديد المراحل التاريخية التي اعقبت المشاعية ، فلم يعد ممكنا ابدا وضع كافة التطورات الاجتماعية التي شهدتها البشرية في قالب واحد وتعميمها (*) فماركس ، لا يتحدث فحسب مع انجلز عن التمايز والتباين في التطور الاجتماعي على الصعيد العالمي ، بل ينفيا ايضا ، تعميم المراحل الخمس ومرور كافة المناطق بها · ان هذا النفي يشكل مدخلا لاعادة النظر بهذه الاطروحات ونقض تعميمها ، يقول ماركس « بوجود ثلاث او اربع طرق بديلة للخروج من المجتمع المشاعي البدائي يمثل كل واحد منها شكلا من اشكال تقسيم العمل الاجتماعي الماثل او المتضمن فيه اصلا (اي في الطريق) وهي : الشرقي القديم والجرماني (علما ان ماركس لا يحصره باي شعب وحده) · والشكل السلافي الذي يبقى مهما نوعا ما ولا يذهب ماركس بعيدا في مناقشته مع الشكل الشرقي ومن اهم الفوارق بين هذه الاشكال الفارق التاريخي الحاسم الذي يميز الاشكال القابلة للتطور التاريخي عن الاشكال التي ترفضه » (٢) ويرى ماركس ايضا ان نمط الانتاج الاسيوي هو اكثر الانماط الانتاجية المقاومة للتطور ·

ان هذا يعني ان المراحل الخمس التي

(*) راجع ، نمط الانتاج الاسيوي ، جان شينوواخرون ، ترجمة جورج طرابيشي دار الحقيقة ، بيروت ·

(١) راجع دراسات عربية – العدد ٣ – ١٩٧٨ – نزيه ابو نضال – رد على القائلين بوجود « امم وقوميات عربية » ·

(٢) راجع مقدمة كتاب ماركس ، نصوص حول اشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية ، ل – اريك هوبزباوم – ترجمة الدكتور صادق العظم – ص ٢٧ – دار ابن خلدون – ١٩٧٤

تحدث عنها بشكل خاص ستالين هي صحيحة بالنسبة لاوضاع عينية خاصة ، ولا ينطبق بالتالي على كل الشعوب وكل المناطق ، وان هذا الفرق يعني ايضا مراجعة كافة الاطروحات التي بنيت على هذه القاعدة ونقدها ، وصولا وليس فقط من اجل تحديد وبلورة مفاهيم مادية تاريخية صحيحة في منطقتنا وفي العالم وبل ايضا الى تحديد التباينات والتمايزات في التطور ، تمهيدا لوضع خط سياسي مبني على هذا التطور ولوضع فكرة شمولية عنه ، تكون منطلقا واساسا هادفا لفهم الواقع المادي الحاضر الملموس ، من جهة ، وتحديد مفاهيمنا السياسية باتجاه المستقبل عبر قاعدة مادية تنظر للماضي والحاضر والمستقبل بشكل صحيح ·

ان هناك تراث واسع على هذا الصعيد ، ولكن هذا التراث بحاجة لقوى منظمة قادرة على وضعه كي يخدم مستقبل العالم باتجاه التقدم عامة ، ومستقبل العرب واهدافهم ، عبر مجتمع اشتراكي موحد ، بشكل خاص ·

المدرسة الثانية

كما ان المدرسة الثانية ، والتي ينتمي اليها السيد منير شفيق لها مواقف قدسية من المسالة القومية ، وتصل هذه المواقف الى عدم التحديد المطلق للطبقات الاجتماعية ، ومواقفها ، بحيث ان لينين اعتبر ان الخاصة القومية لثورتنا ، هي المسالة الزراعية (١) ولينين بناء على ذلك انطلق من قوى محددة ، ونحن هنا بحاجة لتحديد قوى الثورة القومية لا الى التسليم المطلق بالتعامل مع كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة وبغض النظر عن وجود تحليل طبقي لهذه الشرائح ، يأخذ بعين الاعتبار ، مصالحها ومواقفها وامكانياتها في الثورة القومية خاصة على صعيد بلادنا · اذ ليس هناك وحدة في المصالح القومية ، في بلادنا مثلا طبقات ، وان كان هناك تقارب بين بعضها الا ان هناك تباعد بين بعضها من حيث مواقفها القومية والوطنية · فالنضال القومي في نهاية المطاف ليس الا الصراع الطبقي · ان عدم التحديد هذا ، قاد البعض ، ومنهم الصديق منير شفيق الى الحديث عن ثنائية مواقف البورجوازيه ليس فقط في الوطن العربي بل على صعيد العالم الثالث ، ودول اوروبا مع اليابان ، كما يلاحظ من الدراسة · وبناء على ذلك ، دعا الى التضامن العربي ، والى وحدة العالم الثالث ، مع التحالف مع الدول الصناعيه الاوروبية – واليابان ضد الامبريالية ، ولكن اية امبريالية ، ليس هناك من وضوح كامل في ذلك ، رغما عن عنوانه ، يقول منير « ان الامبريالية تولد المقاومة ضدها بسبب عملية الالحاق القومي الذي تقوم به وتشمل هذه المقاومة شعوب المستعمرات ، كما تشمل شعوب البلدان المصنعة ايضا التي يقع عليها الالحاق » ان منير في هذا المقال ، يضع هذه الشعوب كوحدة متماسكة ، فليس هناك طبقات وليس هناك ايضا طبقات عدوة لهذه الوحدة ، وللنضال القومي · وفي حين ينفي وحدة الرأسماليين مشيرا الى ان المنافسة الشديدة والصراعات بينهم تكون باستمرار على اشدها ، الا انه ، لا يرى ان هناك وحدة وتماسك في مواقفها ودفاعها عن النظام الرأسمالي · نقول هذا مدركين جيدا عملية التنافس الشديد بين الرأسماليين الى حد الحرب ، فوحدة الرأسماليين من هذه الجهة خاطئة وغير صحيحة ، وهي مدخل وليس فقط للتحريفية ، بل أيضا للرضوخ للواقع القائم وتيئيس الجماهير ، ···· الا ان « التناقض بين الامبريالية وبين شعوب

(١) راجع كتاب – هنري لوفيفر – فكر لينين – ص ١٠٠ – دمشق ١٩٦٩ ترجمة أدب اللجمي ·

المستعمرات ، او بين الشعوب المضطهدة المنهوبة ، وتشمل ذلك بلدان اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية والبلدان المصنعة الاضعف والواقعة تحت الاحتلال ، كما يقول منير وبشكله المجرد الذي يتناوله غير صحيح · ولا يوصلنا الا الى تحريفية من نوع جديد والى المزيد من الاحلام النرجسية ، والتي ستؤدي الى المزيد من بروز قوى تمثل طبقات اجتماعية بكاملها ، كالرئيس السادات ، وغيره ، والذي يمثل الطبقة البورجوازية العربية الكمبرادورية ، الحليفة للاستعمار في بلادنا ·

وحينما نرى لينين في كتابه «**الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية**» يتحدث عن التناقض بين الرأسماليين بعضهم مع بعض · الا انه حدد البديل ، الذي لم يكن بالنسبة له الوحدة القومية على الاطلاق لمواجهة هذه الامبريالية ولمواجهة المشاكل الناجمة عن النظام الرأسمالي العالمي ، ولا وحدة شعوب العالم الثالث ، كما يدعي منير ، وبعض المتمركسين اليوم · بل حدد في كل كتاباته ، وانطلق من الطبقة العاملة عبر الحزب الطليعي وتحالفات هذه الطبقة مع اوسع فئات ممكنة من الطبقة الفلاحية والبورجوازية الوطنية المرتبطة بالانتاج المحلي ، وصولا لبناء نظام انتقالي اشتراكي باتجاه الشيوعية · كما ان ماركس انطلق من نفس الامور حيث يقول « ولا يشكل الافراد المنعزلون طبقة الا بقدر ما يتوجب عليهم ان يخوضوا معركة ضد طبقة اخرى ، وفيما عدا ذلك فانهم يقفون مواقف عدائية من بعضهم كمنافسين فيما بينهم · ومن ناحية اخرى تحقق الطبقة بدورها وجودا مستقلا ، ازاء الافراد ، بحيث يجدون شروط حياتهم مقررة مسبقا · فتحدد لهم طبقتهم وبالتالي مركزهم في الحياة ، وطبيعة تطورهم الشخصي ، فيصبحون مفصولين تحت لوائها · ولا يختلف هذا عن ظاهرة خضوع الافراد المنفصلين عن بعضهم لتقسيم العمل الذي لا يمكن الغاؤه الا بالغاء الملكية الخاصة والغاء العمل بالذات ، لقد اشرنا مرارا عدة كيف ان انضواء الافراد في الطبقة يجلب معه خضوعهم لمختلف انواع الافكار الخ ·

ان ماركس وهو يتحدث عن ذلك ، بشكل عيني لا مجرد ، قد حدد امكانية التغيير بدون هذه الشروط ، كما انه وضح الصورة التي يمكن ان تحصل في حال عدم وجود حزب طليعي له مصلحة في التغيير ، اذ تحل محل منافسة الرأسماليين وصراعهم ، منافسات وصراعات من نوع اخر ·

وفي حين ان منير يدعي انه يمثل المدرسة الماوية ونهجها السياسي على الصعيد العالمي والعربي خاصة ، الا ان هذا الادعاء ليس له ما يبرره · لان من الاعمال الاساسية التي قام بها ماو خلال الثورة الصينية تحليله الطبقي للمجتمع الصيني · وكتابته عن الطليعة القائدة في الثورة الطبقة العاملة بحزبها ، لا بدونه ، وتحالفها مع الشرائح العظمى من طبقة الفلاحين والبورجوازية الاخرى ، والتي لها مصلحة في التغيير ، عبر قواسم مصلحية مشتركة ، كذلك هوشي منه، وكيم ايل سونغ ، ولينين ، قادة الثورات التحررية باتجاه الاشتراكية لا باتجاهات اخرى ، انطلقوا جميعهم من تحديد ملموس للواقع الملموس عبر قوى طبقية محددة كأساس للانطلاق من اجل التغيير · يرى ماو « **ان الاعداء الرئيسيين للثورة الصينية منذ شنت اليابان عدوانها المسلح على الصين هم ، الامبريالية اليابانية ، وسائر الخونة والرجعيين الصينيين المتواطئين مع اليابان ، سواء الذين استسلموا علنا والذين يتهاونون للاستسلام** ،ويضيف محددا اكثر « ان الفئة العليا من البورجوازية ، اعني الفئة التي تمثلها الكتلة الرجعية للكومينتانغ ، قد تواطأت مع الامبريالية ، وشكلت حلفا رجعيا مع طبقة ملاكي الاراضي ، وغدرت باصدقائها الذين سبق ان ساعدوها ، الحزب الشيوعي والبروليتاريا ، وطبقة الفلاحين وفئات اخرى من البورجوازية الصغيرة ، وخانت الثورة الصينية ، الامر الذي ادى الى هزيمة هذه الثورة (···) وهكذا لم يسع الشعب الثوري ، والحزب السياسي الثوري (الحزب الشيوعي) انذاك الا ان يعتبر هذه العناصر البورجوازية في عداد خصوم الثورة · واثناء حرب المقاومة ضد اليابان ، ارتكب الخيانة قسم من طبقة ملاكي الاراضي الكبار والبورجوازية ، الكبيرة (··) فأصبحوا عملاء لليابان · لذلك لم يسع ابناء الشعب المناهضين لليابان الا ان يعتبروا هذه العناصر من البورجوازية الكبيرة التي خانت المصالح الوطنية في عداد خصوم الثورة ، « **ان الثورة الوطنية والقومية هما مهمتان ارتبطتا ببعضهما البعض ، وان وجهة النظر التي تعتبر الثورة الوطنية والثورة القومية الديمقراطية كمرحلتين من الثورة منفصلتين تماما ، هي وجهة نظر غير صحيحة** »

ومن خلال الواقع الصيني الملموس يكتشف ماو ان طبقة ملاك الاراضي الاقطاعيين هم حجر الزاوية الاجتماعي الرئيسي للسيطرة الامبريالية في الصين «« كما ان البورجوازية الكبيرة ذات الطابع الكمبرادوري هي طبقة تخدم بصورة مباشرة رأسماليي البلدان الامبريالية ، وهي ربيبتهم ، ولها روابط متشعبة بالقوى الاقطاعية في الريف » ولذا فان هذه الطبقة ، هي على الدوام خصما للثورة الصينية (١) ·

لذا فان المسألة القومية ، مسألة ذات سمات طبقية في نهاية المطاف ، واعتبرت خاصية فلاحية في الصين ، عولجت ضمن شروط واضحة ، ولم تكن وحدة قومية مجردة · بل كانت في نظر ماو قائمة على تحليل طبقي واضح المعالم ، وواضحة الظروف التي طرح بها ومن تخدم ، وهذه القوى العينية ، حسب ماو على الاقل ليست مصالحها في صدد المنافسة مع الامبريالية ابدا ، ولم يطرح ابدا عملية التحالف معها · وان كان هناك من مجال لتحييد اقسام من هذه الشرائح ، حسب ظروف عينية مجردة ، الا ان الاتجاه العام ان هذه القوى هي قوة عدوة ·

ان المسألة القومية ، ليست الا شخصية شعب ما ، وقد تكونت هذه الشخصية وتبلورت عبر الحقبات التاريخية المختلفة ، وعبر مؤثرات مختلفة داخلية اساسا وخارجية ايضا ·

وحدة الرأسماليين والنمو المتفاوت :

وفي حين ان لينين يتحدث فعلا عن النمو المتفاوت ، وعن عدم وحدة الرأسماليين الا انه يركز ، على الوعي السياسي المتفاوت لضرورة التغيير وعن الطبقات مع تحديد طبيعتها ومواقفها · اذ كيف يمكن الحديث عن وحدة على الصعيد القومي ، ما بين البورجوازية الكمبرادورية مثلا ، والطبقات التي لها مصلحة في التغيير باتجاه الديمقراطية الشعبية في بلادنا مثلا ؟ · وفيما اذا وجدت هذه الوحدة ، او لنقل هذا التضامن ، فكيف يمكن تفسير احداث لبنان ، الاردن ، وعمان ، والامور التي تحصل حاليا في مصر ؟ كيف يمكن تفسير مواقف هذه الطبقات ليس فقط من القضايا الوطنية والقومية المحددة ، وبل من القضايا الاجتماعية الداخلية ، مسألة التصنيع مثلا ، والوحدة القومية كمثل أخر ، وهل هذه الطبقات لها مصلحة في هكذا تحولات ، والبعض منها يصرح علنا ، انه ضد التصنيع لانه يبلور ويطور طبقة عاملة مناهضة لمصالحه ؟ وايضا كيف يمكن تفسير مواقف هذه القوى التي تتعاون مع الاستعمار ضد شعوبها ، وتتعاون ايضا مع العدو الصهيوني للغاية نفسها ومن اجل بقائها في قمة السلطة ؟

الاقتصاد السياسي بين العلم والتحريف

يقول ماركس في نقده للمدرسة البورجوازية القومية ما يلي :

« عندما ندرس » اي بلد معين من زاوية

---

١) ماوتسي تونغ · المختارات ، ج ٢ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ـ ٤٣٩ ـ ٤٤١ · دار النشر باللغات الاجنبية · بكين سنة ١٩٦٩ ·

الاقتصاد السياسي ، فاننا نبدأ بسكانه وانقسامهم الى طبقات ، ابتداء بالمدينة والريف ، وبالفروع المختلفة للانتاج ، بالتصدير والاستيراد ، بالانتاج والاستهلاك، السنويان بالاسعار الخ · يبدو ان الانطلاق من العناصر الواقعية والعينية امر سليم ، اي من الشروط المسبقة الفعلية ، على سبيل المثال ، والانطلاق في حقل الاقتصاد من السكان الذين يشكلون اساس عملية الانتاج الاجتماعية وموضوعاتها · الا ان التمعن بدقة في الموضوع يبين خطأ هذا الاتجاه ، اذ ان السكان لا يشكلون اكثر من فكرة مجردة عندما نتجاهل الطبقات التي يتألفون منها مثلا · وتظل هذه الطبقات ، بدورها تعابير فارغة اذا لم تعرف العوامل التي تستند اليها ، مثلا ، العمل المأجور ، الرأسمال وما الى ذلك · وهذه تفترض بدورها التبادل وتقسيم العمل والاسعار الخ ·· على سبيل المثال ، لا يشكل الرأسمال شيئا من غير العمل المأجور ومن غير القيمة والنقد والسعر الخ ··

فلو اتخذنا السكان كنقطة انطلاق نكون قد بدأنا من تصور غامض جدا لكل معقد ومن ثم وصلنا الى مفاهيم على درجة اكبر من التبسيط بواسطة التحليل ومن خلال تعريف اكثر دقة ، اي نكون قد انتقلنا من حدود توهمنا انها عينية الى تجريدات يزداد هزالها باطراد وحتى نصل الى اكثر التعريفات بساطة ، هنا يتوجب علينا القيام بالمرحلة ثانية في الاتجاه المعاكس اى ان نصل مجددا الى تصور السكان ، الذي لم يعد يشكل هذه المرة تصورا غامضا لكل معين ، بل مجموعا كليا يشتمل على العديد من التحديد والعلاقات · الطريق الاولى هي الطريق التاريخية ، التي تبناها الاقتصاد السياسي في طور نشوئه · كان علماء الاقتصاد في القرن السابع عشر مثلا يتخذون دوما ، كنقطة انطلاق لهم الكائن الحي ، او السكان ، او الامة ، او الدولة ، او عدة دو[...] الخ ··· لكن التحليل كان دائما يقوده[...] في النهاية الى اكتشاف عدد قليل من العلاقا[...] العامة والحاسمة والمحددة · مثل تقسي[...] العمل والنقد والقيمة · بعد استنتاج هـ[...] العوامل المنفصلة وتثبيتها ، بهذا القدر ا[...] ذاك من الوضوح تم تطوير الانظمـ[...] الاقتصادية ، بحيث تتقدم من مفاهيم بسيط[...] مثل العمل وتقسيم العمل والطلب والقيم[...] المتبادلة الى مقولات مثل الدولة والتباد[...] الدولي والسوق العالمية · ومن الواضح ان[...] الطريق الثانية هي المنهج العلمي الصحيح[...] فالمفهوم العيني هو على ما هو عليه لان[...] يشكل توحيدا لتعريفات متعددة بحيث يمثل[...] الوحدة التي تتصف بها الاوجه المختلف[...] للشيء · لذلك يظهر هذا المفهوم في عملي[...] التفكير بصفتة كخلاصة او كحصيلة ، وليس[...] كنقطة انطلاق على الرغم من كونه نقط[...] البداية الحقيقية وبالتالي نقطة بداية الملاحظ[...] والتصوير معا (١) · يبدو إن ماركس يرد[...] هنا ، بصورة غير مباشرة على اطروحات مماثلة لاطروحات منير شفيق ، والفارق ان الرد على اطروحات الاقتصاد السياسي البورجوازي · كانت في منتصف القرن التاسع عشر ، لا اطروحات تدعي الماركسية في اواخر القرن العشرين ·

ان ماركس ، كذلك لينين ، وماو ، وهوشي منه ، انطلقوا من موضوعاتهم من واقع محدد ، قائم ، وكان تراث البورجوازية في اوروبا وفي روسيا القيصرية تراث ضخم من الدراسات ، وانطلقوا منه ، فهل ان تجارب الوطن العربي ، هي التي انطلق منها منير في كتاباته ؟ وفيما اذا كانت هذه التجارب منطلقا له ، فيعني ان الاستفادة كانت ضحلة ، واستبدل الواقع العربي ، بواقع اخر ، من اجل الهروب من تحديد موقف علمي من المهمات الراهنة ليس فقط على الصعيد العربي ، بل أيضا على صعيد الوضع العالمي ·

(١) ماركس ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ·

القوى المنتجة والقوى الاستهلاكية :

من هنا ، يجب ملاحظة المشاركة العربية (١) في الانتاج العالمي ، اذ تبدو هذه المشاركة ليس فقط هامشية جدا ، بل مشاركة استهلاكية وليست قائمة على المنافسة ، لان الطبقات الحاكمة خاصة على صعيد العالم الثالث ، لم تتحول من دول تصدر المواد الخام ، الى دول مصنعة للمواد الخام · ان الانتاج بالنسبة للدول الصناعية المتطورة وبالنسبة للامبريالية الاميركية ايضا هو في الوقت نفسه استهلاك « انه استهلاك في شكل مزدوج ، ذاتي وموضوعي اولا لا يطور الفرد قدراته اثناء الانتاج فحسب ، بل يستهلكها ايضا في فعل الانتاج تماما كما تستهلك الطاقة الحيوية في عملية التناسل الطبيعي ، ثانيا الانتاج هو الاستهلاك لوسائل الانتاج التي تستخدم وتهترىء وتنحل جزئيا (الوقود مثلا) الى عناصرها البسيطة · والشيء نفسه يقال بالنسبة لاستهلاك المواد الاولية التي تفقد تكوينها الطبيعي ولا تعود لتحتفظ بشكلها الاصلي » وهكذا يشكل الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك قياسا منطقيا عاديا يمثل فيه الانتاج ما هو عام ، ويمثل فيه كل من التوزيع والتبادل ، ما هو خاص ، بينما يمثل الاستهلاكية الحالة الفردية ، التي تلخص الكل هذا تسلسل متماسك بدون شك · غير انه بمنتهى السطحية · فالانتاج تحدده القوانين العامة للطبيعة ، والتوزيع تحدده عوامل اجتماعية عشوائية ، وبالتالي فانه قد يترك اثرا نافعا الى هذا الحد او ذاك على الانتاج · اما التبادل فيقع بوصفه حركة اجتماعية شكلية بين الاثنين ·

ويقع الفصل الختامي ، اى الاستهلاك ، خارج مجال الاقتصاد (الا بمقدار ما يرتد تأثيره على نقطة الانطلاق فيعود الى اطلاق العملية نفسها من جديد) باعتباره لا يشكل الهدف النهائي فحسب ، بل الغاية القصوى ايضا » ·

ويضيف ماركس « لا يمكن ضمان ديمومة القوى المنتجة التي تم اكتسابها الا عندما تصبح التجارة ، تجارة عالمية اساسها الصناعة الكبيرة ، وعندما تنجر جميع الامم الى صراع المنافسة (١) » ·

على ضوء ما سبق ، يحدد ماركس اهمية الانتاج ، ودوره في عملية تطوير القوى المنتجة ، بينما المستهلك يستهلك ذاته ودون تطوير يذكر ، خاصة الانسان المستهلك لا المنتج حسب مواصفات تقييم الرأسمالية العالمية · فالرأسمالية تضع الحواجز المختلفة خاصة الجمركية ليس فقط لحماية انتاجها من المنافسة ، بل ايضا تتعامل مع الدول المستهلكة لانتاجها ضمن الشروط السياسية التي تضعها هي ، لاخارجها ، وتبدو امكانية المنافسة الوحيدة المحصورة للبورجوازية في العالم الثالث ، هي في العمل من اجل التصنيع الثقيل ، ولا يمكن الوصول لتصنيع ثقيل الا عبر وجود قوى لها مصلحة في ذلك ان امكانية المنافسة تبدأ بوجود قاعدة صناعية كمنطلق · فالبورجوازية الكمبرادورية التي تحكم ، على صعيد العالم الثالث مثلا ، بورجوازية تخدم الاستعمار ، وليست ابدا في صدد المنافسة معه ، وخيارها التعامل مع الاسواق الرأسمالية الاجنبية وضرب اية امكانية للتصنيع الداخلي التي يمكن ان تشكل قاعدة ليس فقط منافسة لها على الصعيد الداخلي ، بل حافرة قبرا لها ، فضلا عن ذلك فقسم منها يعمل على تصدير المواد الخام ، واستيراد الانتاج المصنع من هذه الدول الرأسمالية وتصريفه في الداخل العربي ، وفي مجمل دول العالم الثالث ، وهذه هي بالتحديد مهمة البورجوازية التجارية المرتبطة بالسوق الرأسمالية الاجنبية من هنا فان دور هذه البورجوازية ، دور

(١) وحتى بالنسبة للعالم الثالث ·

(٢) ماركس ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ ـ ١٣٥ ـ ١٢٥ ·

سلبي لا ايجابي في علاقتها بشعبها ، ودور ايجابي لا سلبي على الغالب في علاقاتهـا بالامبريالية . ويبدو ان دور فائض القيمة ، اي رأس المال المالي ، دور مساهم في حل ازمات الرأسمالية العالمية لنلاحظ فائض قيمة النفط في المنطقة العربية ، فنرى المليارات ، توظف في البنوك الرأسماليـة الاجنبية ، والقسم الباقي من انتاج النفط يصرف كثمن لمنتوجات استهلاكيـة مستوردة من الدول الرأسمالية الغربية ورأس المال المالي هنا ، لا يهـدف ابدا الى المنافسة ، ولا هو ضمن هذا الاطار اطلاقا كما يرى منير شفيق . كما ان هذه البورجوازية نراها تغرق الاسواق العربية بالانتاج الاجنبي من اجل المحافظـة على سعر الدولار ، ورفعه ، وخوفا من هبوط سعره .

مما سبق نلاحظ ان المنافسة بالنسبة للـدول المنتجة ، غيرهـا بالنسبة للدول المستهلكة . فالمنتجـون ينافسون بعضهم البعض ، بينما المستهلك دائما يطالب بتحسين شروط علاقاته ، وان هـذا التحسين لا يتم على حساب الرأسمالية في الغالب ، وبـل على حساب الشعب المستهلك وغير المنتج . واستنادا الى ما سبق ، نرى ان التناقض مع البورجوازية الكمبرادورية ، لا يحول فقـط دون تطور الرأسماليـة الصناعية المحلية ، بل أيضا الى عدم تطوير اليد العاملة .

ان المقول ان البورجوازيـة بشكل عام ذات مواقـف ثنائية ، قول يـؤدي لا الى التنظير للواقع الراهن ، بـل الى الرضوخ له ، وعدم مساسه بحجـة ثنائية المواقف وبحجة امور اخـرى . ان هذه التحليلات ستـؤدي لا الى التخلي عن دور الطبقة العاملة التاريخي كونها الطبقة الاكثر جذرية ولها المصلحة الاولى في التغيير بل الـى ضرب القوى الحليفة في الثورة الديمقراطية الشعبية البورجوازيـة المرتبطة بالانتاج المحلي القومي . **كما ان طرح فكرة المنافسة بشكلها المجرد ، كمن ينظر على ان الجمل العربي في صدد منافسة الصاروخ الاميركي** ، نعطي هذا كمثل ليس الا . فضلا عن ذلك فانا نلاحظ ، خاصة خـلال المرحلة التاريخية الاخيـرة ، ان للطبقة البورجوازية التجارية دورا رئيسيا في تفجير الاوضاع ، لمصلحـة ربيبتها الرأسمالية العالمية .

ـ الماركسية والعفوية :

يرى منير ، ان « الامبريالية تولد المقاومة ضدها بسبب عملية الالحاق القومي وتشمل هذه المقاومة شعوب المستعمرات ، كما تشمل شعوب البلدان المصنعة ايضا »« ان هـذه المقاومة هي اشد واكثـر حزما وتقع في المقدمة لدى بلدان العالم الثالث التي تتعرض للنهب الاقتصادي بصورة اشد » . اضافـة لمطالبته « بتشجيع اتجاهات مقاومة ذلـك النهب والقهر القومي » ان قوله هذا يـبدو منافيا للمبادىء الماركسية الاولى التي تحدث عنها لينين . فمنير لايركز على وسائل القوة في حل هذه التناقضات ، بل على المنافسة والتشجيع لهذه البورجوازيات . يقول لينين « **وينتج من هذه التفاوضات الدائمة التغير لا صعوبات عامة وحسب ، بل تغيرات مفاجئة في ميزان القوى بين المنظمات الاحتكارية الكبرى ، بين كبار الراسماليين ، ويتساءل** لينين . اما وقد تعدل ميزان القوى ، فاين يمكن ان يوجد في النظام الرأسمالي حـل التناقضات ، ان لم يكن بالقوة » (١) .

ان الخيار الذي يطرحه منير لا يتعدى رد الفعل العفوي ، وضمن اطار ان لكل فعـل رد فعـل ، فهل ممكـن ان تحصل الامور بشكل اوتوماتيكي وبهذه البساطة ان الامر مختلف نهائيا عن ذلك .

اخيرا ...

ان نضال شعوب المستعمرات ، عبر قوى حركة التحرر الوطني ، وعبر احزاب تمثـل الطبقة العاملة ، وتتحالف مع القوى الاخرى

---

١) فكر لينين ، مرجع سابق ص ٢٩٥

من اجل انجاز الثورة القومية الديمقراطية الشعبية الاشتراكية ، ان هذا النضال الـذي تحقق في مجموعة دول مهمة ، لم يكن لـه ان ينجح لو لم يحدد ويبني خطه على أساس التحليل الطبقي ، ويحدد عبر ذلـك القوى التي ستكون الاساس المادي للتغير وعلاقاتها مع بعضها البعض .

ومن جهة اخـرى ، فـان الحركات البورجوازية التي تناقضت مع بعضها البعض خلال فترات تاريخية محدودة ، كانت تطمح هذه القوى لا الى متغيـرات باتجاهات مناهضة للنظام الرأسمالي ، بل ان خيارها عمل متغيرات من اجل كسب مواقع في هـذا النظام الرأسمالي . وبالتاكيد فان طموحات هذه القوى ، ومصالحها متفاوتة في عملية الصراع ، من هنا يجب تحديد مواقع هذة القوى . فمثلا البورجوازية المرتبطة مصالحها بالنتاج القومي الداخلي ، بالامكان ان يكون عندها مواقف ثنائية احيانا ولكن هـذه المواقع هي في سلم النظام الرأسمالـي لا خارجه ، وهذه الطبقة او الشرائح الطبقية تنشد ايضا الى القوة الاقوى ، سواء كانت هذه القوة في السلطـة ، ام في النظام الرأسمالي ، فهي حلقة من مجموعة حلقات ، وان امكانية التحالف مع البورجوازية المرتبطة بالانتاج القومي مسألة واردة ومشروعة خلال مراحل تاريخية محددة . كما ان تصفيـة القوى البورجوازية الكمبرادورية والقوى شبه الاقطاعية في بلادنا ، ستؤدي الى تقوية البورجوازية المحلية وستتحول البورجوازية المحلية بعد ذلك الى عدو لا يمكـن تحقيق اهداف اخرى الا بتصفية مصالحه ،وتحويلها باتجاه الثورة الاشتراكية .

ان نظرية العوالم الثـلاث ، والنظرية القائلة بثنائية مواقف البورجوازية ككل ، وبالتنافس بين البورجوازية وايضا بـدون تحديد ودون تصنيف ودون معرفة القوى التي لها مصلحة في كـل ما ذكر ، ان هـذه النظريات بمجملها تبدو تحريفية وليس لهـا ابدا علاقة بالماركسية اللينينية .

الشخصية الفلسطينية والرؤيا البورجوازية

(دراسة في ادب جبرا ابراهيم جبرا الروائي)

فاروق وادي

مدخـل :

في اجابته عن سؤال حول اذا ما كان يقترح طريقة معينة لدراسة آثاره ، قـال جبرا ابراهيم جبرا :

« ... أود أن اشير الى نقطة واحـدة ، وهي ان من يدرسني يجب ان يدرس تياراتي كلها معا ، ويدرسها متواكبة زمنيا . حينئذ سيقترب من منهجي ، اما ان يأخذ ناحية واحدة من تفكيري فانه سيكتشف فيما بعد ان اهماله النواحي الاخرى قد تركت فجوة في دراسته » . (١)

واذا انطلقنا في دراستنا لعالم جبرا الروائي من هذه الاجابة ، فاننا يجب ان نرفق ذلك بالاقرار بوجود تلك « الفجوة » التي تحدث عنها جبرا في اجابته .

فجبرا ابراهيم جبرا ، اضافة الى كونه روائيا ، فهو شاعر ، وكاتب قصة قصيرة ، وناقد ، ومترجم ، ورسام . انه فنان متعدد المواهب ومتشعب الاهتمامات وكلها تمتزج وتتداخل لديه لتشكله وتقدم لوحة متكاملة لشخصيته الفنية والفكرية في مجمل عطائها الواسع . ويؤكد جبرا على هذا التكامل بقوله : « لو لم اكن هؤلاء كلهم معا لربما لم اكن اي واحد منهم ، انني اتكامل كانسان او كمفكر او كمبدع عبر كوني هـؤلاء جميعا ولم اشعر قط انني توزعت فيما بينهم بل انما كان في كل واحد منهم عون لي عـلى تقوية الشخص الآخر في ، فما عجزت عن قوله رساما قلته شاعرا ، وما عجزت عـن قوله شاعرا قلته روائيا ... » . (٢)

ان عزل جبرا ، الروائي ، عن ذلك الكل الكبير ، جبرا الفنـان ، فيه شيء من التجزيء التعسفي اذا ما قدمت الدراسة طموحا لفهم العـالم الكلي لجبرا الفنـان

ولشخصيته الفكرية والابداعية ككل . لكن هذه الدراسة تظل اضيق من ذلك في طموحها المحدد ، وهو الولوج الى عالم جبرا من خلال الرواية من اجل التوصل الى نقاط اضاءة مبدئية لكشف عالم جبرا الفني الواسع .

•

وليس فياختيار الرواية للوصول الى نقاط الاضاءة هذه ضربا مـن الاختيار العشوائي :

ـ فالشعر هو النشاط الذي يحظى بالاقل من الاهتمام لدى جبرا الفنان ، وهـو ـ على حد قوله ـ احد الروافد التعبيرية لاهتماماته الفنية . (٣)

ـ والقصة القصيرة ـ في اعتقاد جبرا ـ هي فن سهل قياسا الى الرواية ، ولذلك، فقد أقلع عن كتابتها منذ ١٩٥٦ لاحساسه بأن القصة لا تفي بحاجته . (٤)

ـ ورغم اعتزاز جبرا بما قدمه على صعيد النقد وازماعه عـلى نشر مجموعته النقدية التي سبق وان نشرمعظمها ، الا انه ـ كما اشار ـ لم يعد يفكر بكتابة المزيد من النقد كي يتفرغ الى كتابة رواية جديدة . (٥)

ـ وقد يتنفس جبرا من خلال الترجمة، فالترجمة ابداع آخر وتنفس ، لكنه رغم ذلك يظل محصورا في محددات رئة الغير . انها امتداد لاهتمامات الكاتب ومحاولة للمحافظة على اصالة الغير .. « غير انني فيمـا اكتب » ـ يقول جبـرا ـ « احافظ عـلى اصالتي » . (٦)

ـ ويبقى الرسم الذي توقف جبرا عن العطاء من خلاله منـذ الخمسينات . فعلى الرغم من اهمية هذا الجانب في تشكيل الشخصية الفنية لجبرا ، الا انه لا يشكل اكثر من رافد آخر لاهتماماته الكتابية . فللرسم علاقة بكتاباته ـ كما يقول ـ (٧) ، بما يحمله هذا القول من منح الاولوية للكتابة ، يعززه التوقف لصالح رفـد التجربة الكتابيـة (الروائية) بخبرات المعرفة والممارسة في الفن التشكيلي .

وليس في كل ذلك انقاصا لتلك الجوانب التي ساهمت في تطوير وتكوين شخصية جبرا الفنية ، او نفيا لتلك الجدلية القائمة فيما بينهـا والتي تضع في محصلة التقائها وتفاعلها معا شخصية الفنان فيه ، بل انها محاولة لابراز ذلك الجانب الاكثر وضوحا وبروزا واهمية لتلك الشخصية ـ ونقصد الرواية ـ والذي يمنحنا ذلك المبرر في اختياره قبل غيره موضوعا للدراسة .

فان عجز جبرا في التعبير عن اجزاء من عالمه وفكره من خلال الرواية ولجأ الى الاشكال الاخرى لكونها اكثر مطواعية لديه في تعبيره عن مسألة ما فتلـك مشكلته .

فليست مهمتنا البحث عما لم يتوصل اليه من خلال الرواية او عما استطاع التوصل اليه بالاشكال الاخرى ، لان مهمتنا هي البحث في الرواية فقط ، فيما قالته وصورته باسلوبها ٠ اما عدا ذلك ، فتلك مهمة اخرى لدراسات لاحقة قد تتناول جوانب اخرى من شخصية جبرا الفنية منفصلة ، او تتناول تلك الشخصية بتكاملها الفني ٠

الزمن والزمن الروائي :

خلال اربع وعشرين عاما ، نشر جبرا ابراهيم جبرا اربع روايات : (٨)

١ ـ صراخ في ليل طويل ٠ (٩)

٢ ـ صيادون في شارع ضيق ٠ (١٠)

٣ ـ السفينة ٠ (١١)

٤ ـ البحث عن وليد مسعود ٠ (١٢)

ورغم الفاصل الزمني بين صدور رواية واخرى (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ ـ ١٩٧٨) والذي يعطي مساحة لتأمل التطور في عالم جبرا الروائي ، الا اننا نستطيع تلمس خيوط تجمع بين هذه الروايات كلها لتحقق رؤية جبرا الفنية والفكرية في ثوابتها ومتغيراتها ٠

نستطيع ان نرى اضافات تراكمية فنية وفكرية بين رواية واخرى ٠ فنحن امام فنان قادر على التطور المستمر ، لكنه يظل ملتزما بجذور يحرص عليها ٠ انه لا ينفي قديمه ، وانما يتواصل معه في شغفه نحو الجديد ٠

جبرا ابراهيم جبرا يطور افكاره من موقع فكري وطبقي محدد ، ويطور شخصياته من هذا الموقع ، موقع البورجوازي المتنور ذي الطموح الحضاري ، ذلك الطموح الذي يحركه وهم مصالحة التناقضات وتهدئة الصراع بينها من اجل التفرغ لبناء الحضارة ٠

وهو اذ يطور ادواته ويهرع نحو اساليب جديدة تمدها الثقافة والمعرفة باساليب الرواية الغربية الجديدة ، الا انه يظل متصلا بجذور الرواية الكلاسيكية ٠

فالرواية الجديدة لدى جبرا لا تنفي سابقتها ، وانما تتواصل معها زمنيا ، وفكريا وفنيا ٠٠ وتتجاوزها ٠ ولا نختلف في ذلك مع جبرا اذ يؤكد في حديثه حول روايته الاخيرة على ذلك بقوله : « لا احسب هذه الرواية نقطة تحول في تفكيري واسلوبي

بمعنى قطعي بقدر ما هي امتداد منطقي لاول محاولة قمت بها في كتابه قصة » ٠ (١٣)

ان كل رواية من هذه الروايات الاربع ، تظل تلتقي مع سابقتها في اشياء كثيرة مشتركة سواء في الافكار التي تطرحها ، او في انماط الشخصيات التي تقدمها ، او الاسلوب ٠٠ وتمتد تلك الخيوط لتخلق ترابطا ما في نقاط كثيرة بين العمل الاول والعمل الاخير الذي يفصل بينهما زمن طويل ٠

وليس ضربا من المصادفة ان يأتي الزمن الروائي لكل رواية متجاوزا لزمن الرواية التي سبقتها ٠ فالحقبة التاريخية التي تقع فيها احداث رواية تتقدم الحقبة التي تقع فيها احداث الرواية اللاحقة ٠ فالزمن لا يتنامى في داخل العمل الروائي فحسب ، وانما يتنامى ايضا بقفزات في مجموع الاعمال الروائية للكاتب ٠ فكأننا نحن ، في روايات جبرا الاربع ، أمام رباعية تمتد زمنيا ، تتغير اسماء شخصياتها وتواريخها وخلفياتها ٠ كأنها تتناسخ من جديد ـ في كل مرة وبشكل آخر لتعيش في زمن اخر ، متفاعلة مع تاريخها ومكتسبة تجربة جديدة ٠

ولنلاحظ النمو الزمني الروائي بين رواية واخرى :

ـ في « صراخ في ليل طويل » لا يتحدد الزمن تاريخيا ٠ فالزمن الروائي يوم واحد ، وزمن الذاكرة في الرواية يمتد سنوات الى الوراء ٠ انها الرواية الوحيدة لجبرا التي يتضبب فيها الزمان والمكان وان كنا نستطيع ان نحدد الحقبة دون ان نحدد التاريخ ، فالحقبة هي تلك السنوات التي كانت لاحقة لسقوط الدولة العثمانية ورأت سقوط الطبقة التي انهارت مع انهيار الدولة على أرض ما ٠٠ عربية ٠

ـ وفي «صيادون في شارع ضيق» يتحدد الزمان والمكان ٠ فالزمن الروائي هو عام او قرابة العام ، فنحن في العام الذي تلا هزيمة ١٩٤٨ العربية ، ومع فلسطيني في بغداد يحمل الهزيمة في الذاكرة ويشهد تصاعد الحركة على ارض العراق التي تنبيء بالانهيار الكبير لذات الطبقة التي شهدنا انهيارها في الرواية السابقة ٠

ـ ونقفز في « السفينة » اعواما الى الامام ، تحققت خلالها نبوءة الرواية السابقة بالثورة ، وبدأ الفلسطيني يبحث عن بداية طريق ترده عن المنفى ٠ الزمن الروائي على ظهر السفينة لا يتجاوز الاسبوع ، لكن الاهمية هنا هي لزمن الذاكرة الذي يختزل التاريخ ٠ لا يتحدد زمن رحلة السفينة بالضبط ، لكنه أيام من سنة في الاعوام الاولى للستينات ٠

ـ والزمن الروائي في « البحث عن وليد مسعود » هو السبعينات ، لكن الذاكرة تعود اكثر من خمسين عاما الى الوراء لتختزلها ٠ والسبعينات هو زمن فلسطيني جديد

فبين زمنه في « السفينة » وزمنه هنا ، ثمة زمن آخر يطل في الذاكرة باحداثه التحولية : انطلاقة الثورة ، هزيمة حزيران ، احداث ايلول · وهنا ، تبرز طبقة جديدة قامت على انقاض الطبقة التي شهدنا انهيارها على الارض العربية في الروايات السابقة ·

في هذا الزمن المتصاعد ، تنمو شخصيات جبرا ، يعجنها التاريخ الذي يعجن الكاتب نفسه ، لنعيش معه زمنيه ·· زمنه الفلسطيني ، وزمنه فوق ارض عربية ·

ضعف الحدث المحوري وتفجيره :

ولو بحثنا عن الحدث المحوري في روايات جبرا ابراهيم جبرا بعزل متعسف عن مجمل البنيان الروائي ، لغدا الحدث باهتا وضعيفا · انه اساس في بناء الرواية لكنه ليس الاساسي ، ودوره هو خلق التماسك بين شخوص الرواية وافكارها · فالحدث في هذه الروايات لا يكتسب معناه الا من حيث هو وسيلة تصل بين المحاور الاهم في الرواية :

– فعل الذاكرة ودورها المؤثر في حياة شخوص الرواية ·

– تشابك العلاقات بين الشخصيات وهمومها الشخصية ·

– الهموم الاجتماعية والسياسية ، الثقافية والحضارية ، لهذه الشخصيات ·

فهذه كلها هي التي تمثل الكاتب بزخم تجربته الحياتية، وتشابك علاقاته الانسانية، وهمومه الثقافية ، وطموحاته الحضارية ·

● فلو جردنا روايته الاولى « صراخ في ليل طويل » من ذاكرة بطلها وهمومه الثقافية والشخصية ، لغدت يوما عاديا او شبه عادي في حياة الانسان ، ينتهي بنهاية خاصة تفجيرية في الصفحات الاخيرة · فامين – بطل الرواية – والمتحدث فيها – يعيش يوما عاديا · يتجول في الشوارع والمقاهي · يلتقي باصدقاء يعرفهم ·· يتحدثون ، يناقشون مسائل فكرية · وهو مثلهم ، مثقف له عدة كتب ، ويفكر في كتابة رواية ، ويعمل في الصحافة ، كما يعمل لدى عائلة من حثالات « الارستقراطية » في انجاز كتاب حول تاريخ العائلة وشخصياتها دون ان يحمل نفسه مسؤولية بعث الروح في هذه الطبقة ·

لكن امين في الرواية اكثر من ذلك ، وحياته اوسع من ذلك اليوم · انه يعيش هزيمة داخلية ، هزيمة حب ، (وذاكرته) تختزل في هذا اليوم تجربة سنتين او ما يزيد ، حين غررت به المراة التي احبها وتزوجها ، ثم عادت اليه اخيرا في نهاية يومه هذا ،

فرفضها ، في الوقت الذي دمرت فيه واحدة من الاسرة الارستقراطية كل مخلفات طبقتها ·· لتزحف الجماهير باحثة عن نهاية ليلها الطويل ·

● أما الحدث في «صيادون في شارع ضيق» ،فيحمل امتدادا زمنيا أوسع وأهمية اكثر منه في أية رواية اخرى للكاتب · والذاكرة هنا تظل حاضرة لكن دورها يبقى اضعف مما هو في الرواية السابقة والروايتين اللاحقتين · ويبقى الاهم في هذه الرواية ليس الحدث الذي يجيء تفجيريا ايضا في نهاية الرواية ، وانما الدخول الى عالم جديد ، مكانيا وتاريخيا ، ومعايشة الصراع عن قرب والتي يتيحها نسج العلاقات المتعددة والمتشابكة بين الشخصية الاساسية وشخوص الرواية ·

تتتبع الرواية الفلسطيني « جميل فران » منذ ان وطأت قدماه أرض بغداد قادما من فلسطين بعد هزيمة ١٩٤٨ · جاء الى بغداد ليعمل مدرسا في احدى كلياتها ، حاملا (ذكريات) عن القدس وذكرى امرأة خلفها تحت الانقاض · ثم عبر الى بغداد ، الى الشوارع الضيقة والفنادق الرخيصة والحمامات التركية · عرفنا بغداد تلك الحقبة من خلاله وتعرفنا الى شخصيات كثيرة دخل حياتها فدخلت الرواية · عبر الى عالم المتسكعين ، المثقفين ، المتمردين على الاسرة والدولة · ومن خلالهم عبر الى عالم الارستقراطية ، تسرب اليها ونسج معها العلاقات ·· علاقة حب مع فتاة وعلاقة جنسية مع امرأة · عاش حالة النهوض التي شهدتها بغداد تلك السنة ، ورأى بداية انهيار الطبقة التي عبرها ، حينما خرج صديقه المتمرد على الطبقة فقتل عمه ، والد الفتاة التي احبها جميل ·

● وفي رحلة « السفينة » من ميناء بيروت الى موانيء اوروبا،لا حدث محوريا ينمو ، وانما شخصيات تنمو امامنا من خلال (ذكرياتها) وعلاقاتها ببعضها · علاقات قديمة ، واخرى جديدة تنامت فوق السفينة التي اجتمعوا فوقها بمصادفات اصطنعت بعضها شخصيات الرواية ، ثم صنع الكاتب بقيتها ·
هذه الشخصيات ، بعلاقاتها الراهنة ، وبتشابك علاقاتها داخل الذاكرة ، وبخلفياتها الاجتماعية والثقافية والتاريخية ، هي التي تصنع الرواية وليس الحدث ·· وان انتهت رحلة السفينة نهاية مأساوية تفجيرية أيضا ، مثلها انتحار احدى شخصيات الرواية ، سليل الاسرة الاقطاعية ، فأثار انتحاره التساؤلات واعطى اجابات كثيرة ، ورسم نهايات لعلاقات وبدايات جديدة لعلاقات اخرى ·

● اما في «البحث عن وليد مسعود» فان تفجر الحدث يطل في السطور والصفحات الاولى ، بل من عنوان الرواية لكن الرواية اذ تبدأ من الحدث ، الا انها تغيبه لصالح الشخصيات ، والذاكرة ، والعلاقات ، والهموم الشخصية والثقافية ·

ان (الذاكرة) ، ذاكرة وليد مسعود وذاكرة الاخرين بمجموعة علاقاتهم هي التي تصنع الرواية انطلاقا من حدث اختفاء الفلسطيني وليد مسعود ·

يترك وليد مسعود بغداد ذات يوم ويقطع الحدود العراقية بسيارته ، تاركا في مسجلها شريطا بصوته (يبدو) مبهما ولا يحدد مكان اختفائه · واصدقاء وليد مسعود الذين يستمعون الى الشريط ، يقعون فريسة التساؤل عن مكان اختفائه لكنهم لا يبحثون عنه في العالم وانما في تجربتهم معه ·· ولا يبحثون عنه بقدر بحثهم عن انفسهم من خلاله · ولا تبحث الرواية عن مكان اختفائه بقدر بحثها عنه في ذاكرته وفي الاخرين · لكن الكاتب يعود في النهاية ليردنا الى منطلق الحدث ، ليشير الى ان غياب وليد مسعود كان لصالح حضوره في قلب قضيته ·

ان هذا التلخيص للحدث ، بما فيه من تلمس لاهمية فعل الذاكرة ، لا يقدم الرواية عند جبرا ، لكنه تأكيدا على ان الرواية ليست حدثا بالدرجة الاولى ·· فالحدث أساس وليس الاساسي في البناء الروائي هنا ·· وعندما ينتصب البناء شامخا يختفي الاساس ·

اما الاساسي لدى الكاتب ، فهو تشكيله لشخصية الفلسطيني من جهة ، ورؤيته – الكاتب – للصراع الطبقي من جهة اخرى ، وتمثيله لها بأدواته الفنية المتقدمة تقنيته المتقنة ·

ملامح الشخصية الفلسطينية الاساسية :

ننطلق من وصف المستشرق الانجليزي دنيس جونسون ديفز لرواية جبرا الثانية « صيادون في شارع ضيق » لنعمم ذلك بقناعة على مجمل نتاجه الروائي ، اذ يصف الرواية بانها رواية « افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى (١٤) ، كانما هو يضع الحدث الروائي في درجة ادنى من حيث الاهمية ·

وان كان جبرا ينفي تأكيده على البطل الواحد في رواياته مشددا على اهمية كل ابطاله (١٥) ، فان ذلك لا ينفي حضور شخصية او مجموعة من الشخصيات المحورية في كل رواية ، دون ان يعني ذلك انقاصا لاهمية الشخصيات الاخرى ·

ولعل « الفلسطيني » يكون هو الشخصية المحورية ، او على الاقل شخصية محورية ، في الرواية · وخصوصية الفلسطيني وتميزه وحضوره الروائي ، تنبع من خصوصية الكاتب الفلسطيني ، فهو يكتب عن تجربة عايشها عن قرب ·· تجربته الذاتية وتجربة شعبه · وذاكرة الفلسطيني في الرواية هي ذاكرة الكاتب ·· وهي خياله الذي يستمد الصورة من أرض الواقع والتاريخ ·

فمهما طور جبرا في شخصياته ، فان شخصية الفلسطيني تبقى هي الاكثر تطويرا · انها تكتسحنا بقوتها لانها تكتسح الرواية بذات القوة ، وهي لا تنفي الاخرين ولا تضعفهم لكنها تقتحمهم وتسكنهم بجبروتها · اننا نفهم الفلسطيني من خلال سلوكه ، علاقاته ، ذاكرته ، ونفهمه من خلال الاخرين ·· تماما مثلما نفهم الاخرين من خلاله ومن خلال علاقاتهم به ·

فالفلسطيني محور اساسي ، ان لم يكن المحور ، في شخصيات جبرا ابراهيم جبرا الروائية ، باستثناء روايته الاولى « صراخ في ليل طويل » التي تنتفي فيها الخصوصية الفلسطينية لدى بطل الرواية او اية شخصية اخرى · لكن هذا النفي يجيء منسجما مع نفي المحددات الزمانية والمكانية في الرواية ككل · وبظهور هذه المحددات في الروايات الثلاث اللاحقة ، حيث يحمل التاريخ رقما ودلالات واحداث تتفاعل مع حركته الواقعية · وحيث يحمل المكان اسمه الواقعي ووصفا واقعيا لمكوناته تبرز الشخصيات أكثر تحديدا من حيث انتمائها الوطني وسلوكها المتفاعل مع احداث التاريخ على الارض التي تقف عليها ، أي انها تبرز كشخصيات مستمدة من صلب الزمان والمكان ومتفاعله فيه بشكل أو اخر ·

ومن هنا نستطيع ان نرى الفلسطيني ، فهو في داخل الزمان والمكان · داخل زمانه الفلسطيني وزمانه العربي ، ومكانه الفلسطيني ومكانه العربي ·

ونستطيع ان نرى الشخصية الفلسطينية في مستويين :

المستوى الاول : حينما تكون هذه الشخصية هي الراوية الاساسية او احدى الشخصيات الراوئية الاساسية في الراوية ، وحينما تكون هذه الشخصية مؤثرة في مسار الرواية وفي شخصياتها الاخرى بشدة · وعلى هذا المستوى نلتقي بثلاثة نماذج اساسية موزعة بين الروايات الاخيرة الثلاث : « جميل فران » في « صيادون في شارع ضيق » ، و « وديع عساف » في « السفينة » ، و « وليد مسعود » في « البحث عن وليد مسعود » ·

المستوى الثاني : حينما تكون هذه الشخصية متصلة بشدة باحدى شخصيات المستوى الاول ، وحيث لا تكتسب الشخصية قيمتها الا من خلال علاقاتها بشخصية المستوى الاول التي تبرزها في الذاكرة وفي عمق تجربتها فتظهر فاعلة ومؤثرة فيها ومغنية لها ولجذورها · والشخصيات في هذا المستوى كثيرة ، لكن البارز فيها شخصية البطل الوطني والضحية الشهيدة ، فهناك « ليلى شاهين » في « صيادون في شارع ضيق » ، و « فايز عطا الله » في « السفينة » ، و « مروان وليد مسعود » في «البحث عن وليد مسعود » ·

وتحمل الشخصيات الفلسطينية الاساسية الثلاث ـ شخصيات المستوى الاول ـ صفات كثيرة مشتركة ومطورة في كل مرة عن سابقتها . ان تلمس هذه القواسم المشتركة وتحديدها يساهم في تحديد سمات الشخصية الفلسطينية الاساسية والنموذجية لدى جبرا ابراهيم جبرا الروائي :

١ ـ فلسطين ، العراق ، الخليج هي المحاور المكانية لشخصيات المستوى الاول الثلاثة (جميل فران ، وديع عساف ، وليد مسعود) . فجميع هذه الشخصيات تجتمع في تجربة النفي عن الارض والتعلق بها وبالمدينة التي تركوها (القدس أو بيت لحم او كلتيهما) . وكلهم تركوا المدينة نحو مدينة اخرى عربية باحثين عن خبزهم . الاول الى بغداد ، والثاني الى الكويت ، والثالث الى بغداد ودول الخليج . وان كانت تجربة الاول تتشابه مع تجربة الكاتب نفسه من حيث مغادرتهما بيت لحم عام ١٩٤٨ الى بغداد للعمل في احدى كلياتها ، الا ان هناك تشابها اخر بين تجربة الكاتب وتجربة بطله الثاني من حيث الرحيل والاتصال بالمجتمع البغدادي .. ولو أراده الكاتب على ظهر سفينة . ويمد جبرا خيوطا بين تجربته في بيت لحم ورحيله عنها وبين تجربة بطله الثالث « وليد مسعود » .

أي ان لهذه الشخصيات تجربة تكاد تكون متشابهة ، وتكاد تمس في أجزاء منها تجربة الكاتب نفسه .

٢ ـ لم يبرز جميل فران بوضع اجتماعي واقتصادي متميز لانه في الرواية بدأ يضع خطواته الاولى في طريق الحياة العملية في المنفى مزودا بطموحاته الكثيرة ، فاتاحت له الصدفة وضعه الثقافي والعملي الدخول الى المجتمعات الارستقراطية فدخلها مثقفا وعاشقا ومعشوقا فخلق خيوطا من التواصل مع هذه الطبقة التي احب ابنتها واحب المتمردين عليها معا . الا ان وديع عساف بدا جزءا من الطبقة البورجوازية وهو يخالطها على ظهر السفينة .. فلقد دخل هذه الطبقة بثقله الاقتصادي الذي كدسه في الخليج . ومثله وليد مسعود ، البورجوازي الفلسطيني الذي تكون طبقيا في المنفى (الخليج) ثم عاد الى العراق مخترقا طبقته هناك .

أي ان الاوساط التي تعيش في دائرتها هذه الشخصيات الثلاث هي اوساط بورجوازية وبقايا اقطاع ، وعلى الادق مثقفي هذه الطبقات .

٣ ـ كل الشخصيات الفلسطينية الثلاث مسكونة بشخصية اخرى من شخصيات المستوى الثاني ، شخصية الضحية الوطنية او البطولة الوطنية . فيد « ليلى شاهين » الحبيبة ، والخطيبة ، تحت الانقاض ، بعد العملية الارهابية ، تظل تلاحق جميل فران في كل مكان وموقع على امتداد الرواية . وجسد « فايز عطا الله » الدامي لا يفارق ذاكرة

وديع عساف ، الذي حمل صديقه القتيل في جبال القدس . وشهادة « مروان » الابن في عملية فدائية ، تترك بصماتها في اعماق وليد مسعود .

٤ ـ وكل الشخصيات الثلاث تحفظ في ذاكرتها ذكرى مقاومة ذاتية وبطولة في العام ١٩٤٨ . وان بدت تجربة جميل فران ادنى في مستواها (اقتناء سلاح دون استخدامه) ، الا ان بطولة وديع عساف تبدو اكثر بروزا في الذاكرة ، حيث يشارك بنفسه في العملية العسكرية التي يفقد فيها صديقه (السفينة ص ٦٤ ـ ٧٥) . وكذلك فان اجمل فصول الذاكرة لدى وليد مسعود هي التي يستعيد فيها ذكرى البطولة والمقاومة (... وليد مسعود ص ٢٤١ ـ ٢٤٩) .

٥ ـ والجذور الدينية المسيحية نجدها في الشخصيات الثلاث . ومحاكمة جميل فران للمسيحية (صيادون ... ص ٢٥ ـ ٢٧) لا تشكل خروجا عن الايمان بالروح او تحولا الى نقيض مادي ، بل هي نقد للمسيحية الاوروبية التي حولت المسيح الى فكرة مجردة ، بما يحمله هذا النقد لدى الشخصية الى معنى التحول لمزج الروحي بالحسي ، وهو سقوط للروحانية المجردة في ذاته املته ظروف مادية شهد فيها الوطن سقوطه على ايدي الغزاة . هكذا يتحول المسيح لدى جميل فران ممتزجا بالرؤية الحسية : « افكر بالمسيح كرجل يعيش في شوارعنا بوجه ناحل ويدين جميلتين . افكر به واقفا حافي القدمين على حجارة شوارعنا وهو يدعو البشرية كلها لحبه وسلامه » (ص ٢٦) .

ويؤكد وديع عساف على عواطفه الدينية الصوفية التي تتحرك لموسيقى الكنيسة .. « المسيح يلازمني ، حافيا ، كبير القدمين ، تقطر اصابعه الطويلة بالمعجزات ، وهو يكاد لا ينطق » (السفينة ص ٩٤) . لكنه ايضا يربط بين الوطني والديني من خلال « الصخرة » التي توحد بين التجربة الدينية والتجربة الوطنية لديه .. « لقد جعلنا من « الصخر » سرا نتقاسمه فيما بيننا . قلنا ان الصخر يرمز الى القدس » (ص ٦٠) .. « والمسيح من اختار من الناس ليكون خليفه له ؟ سمعان الصخرة » (ص ٦١) . ولا ينس وديع تجربته شبه الصوفية مع فايز عطا الله حينما مارسا معا « معمودية الماء والصخر » (ص ٦٣) وهتافاتهم في المظاهرة وهم يحملون جريحا .. « حملناه على اكتافنا ونحن نقول الصخرة ! واضربت البلاد ستة اشهر طوال . وتفجرت (صخور) فلسطين بالثوار (ص ٦١) .

وفي حياة وليد مسعود تجربة دينية اشد عمقا ، منها محاولته في صباه معايشة تجربة صوفية في كهف بعيد ، لكنها تكون تجربة فاشلة . ثم يوضع على المحك اذ يرسل في بعثة الى ايطاليا لدراسة اللاهوت ، وعلى المحك يكتشف وليد انه عاجز عن افناء نفسه بالتأمل ، فيقلع عن اللاهوت ودراسته ليقترب من ألحسي والوطني . لا يفقد ايمانه الديني وانما يربطه بالفعل الوطني ، فاللاهوت مجرد تأمل وهو يطمح الى

ان يعبر دائرة الفعل في الوطن ·· « اتمنى عندما يتحقق لي الفعل (في وطني (!) في وطني ! كنت أقول) ان اجد بينه وبين التأمل وشائج فكر اعرف ان اوغسطين نفسه كان سيرى فيها انقاذا لي من السقوط » (·· وليد مسعود ص ١٩٣) ·

ان الشخصيات الثلاث مؤمنة ، والتجربة الدينية تسكن شخصيتها ، تربط الاحساس الديني باحاسيس الحب والجمال والتعاطف الانساني ، وهي مثالية في طموحها الهادف الى ربط التأمل الصوفي بالصراع الوطني ·

٧ ـ والوجه الاخر المتناقض مع الحس الديني ، والمتصالح في داخل الشخصية مع هذا الحس ، هو الرغبة الحسية · فالشخصيات الثلاث مقبلة على مباهج الحياة بشغف ، وحاجة الجسد هي ذروة اللذة الحسية · ويفصل جميل فران مشاعره العاطفية ـ عن رغبته الجسدية ـ الوحشية ـ ، فهو يعشق « سلافه الربيضي » ، يحبها بعواطفه ولا يتصل بها جسديا ثم يقمع مشاعره المعادية لـ « سلمى الربيضي » ليغرق نفسه في جسدها ·· « كانت تبدو كحشرة ضخمة تقصد ابتلاعي · وتحديا لهذه الصورة انقضضت بوحشية على فخذيها الصقيلتين ومزقت يداي نهديها (الناصعتين) وقلت لها : ان فهت بشيء من الحب مرة ثانية قتلتك » (صيادون ··· ص ٢٠١) ·

ويحمل وديع عساف مفهوما متناقضا للجسد ، فهو يعني لديه معنى مخجل ، حيواني ،يمثل الصلة بين الانسان والدواب ، رغم انه الحقيقة الوحيدة التي لايدحضها أحد · ثم انه الشهوة النرجسية الطيبة ·· « هذا ما قلته لجاكلين · قلت لها انت نرجسية أكبر نرجسية تشتهين نفسك عن طريق مرآتي.فقالت : وحضرتك ؟ قلت : وأنا اشتهيك نرجسيا أيضا ، ولكن كمرآة لك · اعني ، يلذ لي ان اعكس شهوتك ، فاشتهيك ، أو اشتهيك فاعكس لك الشهوة التي تترقرق على جسدك (السفينة ص ٣٦) ·

اما وليد مسعود ، فانه في بداية مراهقته يقف في الكنيسة ليخترق اجساد النساء ويلتهمها بنهم ، ويدفع به اخلاصه للجسد الى تحديد علاقته بالدين تاركا مساحة من حياته وتجربته للجسد · ويظل في حياته مخلصا للجسد ، فقد عرف الكثير من النساء، وسواء شدته المرأة اليها بروحها او بجسدها فانه لا يتنكر للجسد مطلقا ، فقد روى ظمأ جسد « مريم الصفاد » الشبق ، واشعل الجسد في « وصال رؤوف » التي بدت امامنا طيفا روحيا شديد الشفافية وقع في خطيئة الجسد ·· « خطاياك معي كثيرة ، وليس اقلها انك علمتني هذه الكلمة « الجسد » ، وانت اشد من عرفت في حياتي تعلقا بامور الروح ، بامور الذهن ، بامور لا تمت للدنيا بشيء · اوقعتني في خطيئتك : ان تلهب الجسد ثم تبحث عن الجمر في الروح » (··· وليد مسعود ص ٢٧٢) ·
هكذا تلتقي الشخصيات الثلاث في اخلاصها للجسد ، وطاقتها الجنسية الهادرة،

وفي توحيدها للجسد والروح معا ، وفي رؤية القبح والجمال في العلاقة الجسدية ، ورؤية الانا بتضخمها ونرجسيتها ·

٧ ـ ويلتقي الثلاثة في عشقهم الرومانسي للارض · فالارض هي هم اساسي يطمحون الى التوحد به بعد انفصال ، وهم ، في بحثهم عن المرأة يبحثون عن النموذج الذي يتوحد فيهم وفي الارض معا · فيجد جميل فران نموذجه في سلافه الربيضي ·· « سوف أخذها بعيدا عن هذا المكان · الى مخيمات اللاجئين » (صيادون ·· ص ٢٥٥)

وفي البداية لا يحقق وديع عساف الالتحام المرتجى بينه وبين الارض والمرأة التي احبها « مها الحاج » ·· « كنت ابغي من مها ان تكون صخرة من صخور القدس : صخرة ابني عليها مدينتي » (السفينة ص ٢٧٧) ، فيقرر الزواج من الارض والفناء فيها لان « الفناء مع الارض في النهاية اطيب والذ واعمق · حالما ترى مها ذلك سينتهي الفصام بينها وبين ما احب · سيتحد الشيئان ثانية كما يجب ان يتحدا · سأحملها الى أرضي ، واحرث كلتيهما » (ص ٢٢٨) · واذ ترى مها ذلك وينتهي الفصام بينها وبين الارض التي يعشقها وديع ، يتحقق في ذات الفلسطيني ذلك التوحد بين المرأة والارض ·

وحينما يترك وليد مسعود بغداد مختفيا ، يعبر بكلماته الاخيرة على الشريط الهاذي عن بحثه الدائم عن المرأة النموذج ، المرأة الام ـ الارض ·· « وجواد يكتم دهشته لكثرة ما عرفت من النساء باحثا عن تلك التي لها عناد أمي وكبرياؤها ويزعم انه ما عاد يفهمني وانا الذي ما فهمت يوما أحدا (·· وليد مسعود ص ٣٤) · واذ تلحق به وصال ، التي احبها بصدق واحبته ، وتختار اختياره بالاندماج به وبقضية ارضه ، نصل مع وليد مسعود الى ذلك التوحد الباحث عنه بين المرأة والارض ·

٨ ـ وشخصيات جبرا الثلاث محصورة في نموذج المثقف البورجوازي ، حامل الطموح الحضاري العريض ، الذي لا يرى التغير الاجتماعي برؤية الصراع بين قواه الطبقية ، وانما بتعزيز المسرّعات الثقافية التي ستصنع في النهاية ذلك التغيير · هذا الطرح يبدو مضببا لدى جميل الفران ، وتعاطفيا لدى وديع عساف ، لكنه يزداد وضوحا ويقينيه لدى وليد مسعود ، الاصلب والاكثر تحديدا في تكوينه الطبقي والايديولوجي · فالثورة لديه « ·· ليست مجرد تغيير طبقي في نظام الحكم ، او مجرد وضع اليسار مكان اليمين ، او بالعكس · الثورة لديه هي وضع العربي في خضم العالم الكبير ، واثبات قدرته على الصمود من جهة وعلى العطاء من جهة » (·· وليد مسعود ص ٣٢٢) ·

٩ ـ والشخصية الفلسطينية شخصية جذابة ، محبوبة ، مستقطبة للاخرين بقوتها

التاثيرية الخارقة ومؤثرة فيهم وفي علاقاتهم · انها شخصية مركزية بين الجمع بذكائها وثقافتها ، تشد الرجال اليها بالحب والاعجاب والتقدير ، وتشد النساء بالعشق والشهوة وحدة الذهن · هكذا تتمحور الشخصيات الروائية حول جميل فران ، يشدها اليه ويروي عنها ، وهو معشوق المرأة ، معشوق سلمى ، ومعشوق سلافة ·· ثم عاشقها ·

وتعبر احدى الشخصيا تالروائية عن تلك المغناطيسية الرهيبة في شخصية وديع عساف وقوتها التاثيرية ·· « لم يدهشني ان تتعلق به جاكلين تعلق الكلب بصاحبه حتى اميليا كانت قد بدأت ترفرف حوله كطير يلذ له الوقوع في الفخ · ويوسف حداد ، ومحمود الراشد ، وفرنندو ، حتى الخدم والملاحين ، لم يكونوا في منجى عن شخصيته» (السفينة ص ١٠٥) ·

ويصل تاثير وليد مسعود في الاخرين الى مداه الاخير ، بحيث لا تشرع الشخصيات الروائية في البحث عن ذاتها بمعزل عن بحثها عن وليد مسعود في داخلها، انه متلازم مع تطور تجربتها وساكن في عمقها رغم غيابها ، وهو في داخلها فاعلا ، مؤثرا ، محبوبا ، تاركا بصماته في اذهان الرجال وأعماقهم ، وفي قلوب النساء العاشقات وأجسادهن ·

هذه هي الشخصية الفلسطينية الاساسية عند جبرا ابراهيم جبرا ، عملاقة في حضورها ، خارقة في قدراتها ، بورجوازية في رؤيتها · انها تنمو في خطها التصاعدي من رواية الى اخرى لتتشكل اخيرا في وليد مسعود الذي يمثل ذروة زخمها ونضجها (١٦) ·

الاقطاع يدمر ذاته :

والى جانب الشخصية الفلسطينية بابعادها المختلفة ، ثمة رؤية الكاتب للمجتمع بقواه الطبقية في انهيارها وصعودها كما يعبر عنها في مجمل العمل الروائي ومجمل اعماله الروائية ·

ورغم نفي جبرا القصدية في تصوير انهيار الاقطاع في رواياته الثلاث الاولى ، وتاكيده على انه انما يريد فقط تصوير ما يحدث في مجتمعنا (١٧) ، الا اننا نستطيع ان نرى هذا الانهيار بوضوح ، في تاريخ مجتمعنا وفي العمل الفني على السواء ، سواء كان القصد متوفرا ام غائبا عن وعي الكاتب ·

ورؤية جبرا لانهيار هذه الطبقة جديرة بالاهتمام ، فهو لا يرى علاقتها المتناحرة مع الطبقة الجديدة التي انبثقت من رحمها لتصنع قبرها ، وانما يرى القوة والفعل في « المتمردين » من داخل هذه الطبقة التي بدأت تلفظ انفاسها الاخيرة · ففي روايتيه

الاولى والثانية ، يجيء انهيار الطبقة من قوة داخلها ، من قوة « متمردة » عليها · فلم يفرز الاقطاع قوى طبقية جديدة لها وعيها ومصالحها المتناقضة معه ، بل افرزت متمردين خارجين عن حياة طبقتهم المتداعية واهتماماتها ، تمردوا على الطبقة ووضعوا نهايتها ، او على الاقل شاركوا في صنع نهاية طبقتهم التي اصبحت هشة وحاملة لبذور فنائها ، اما في الرواية الثالثة — السفينة — فان شخصية « البورجوازي » لا تلعب اكثر من دور هامشي ، وربما مسرعا ، لهذا الانهيار دون ان تصنعه هي ، لان انهيار شخصية سليل الاسرة الاقطاعية بدا محتما منذ البداية ·

● في « صراخ في ليل طويل » ، نشهد انهيار « الارستقراطية » بعد ان شهدنا هشاشتها ، وهي تحاول تصليب ذاتها وتاكيد حضورها من جديد من خلال ارتدادها الى الماضي ، تنقب في أوراقه عن مجدها الذاوي ·

الارتداد نحو الماضي تمثله « عنايت » سليلة الاسرة الارستقراطية التي تمثل بقايا الدولة العثمانية البائدة · انها تلقي بالحاضر بعيدا لتعيش ماضي الاسرة ، فتنقب في اوراق العائلة المنقرضة لتعيد احيائها بين دفتي كتاب · لكن عنايت تموت ، تموت فجأة قبل ان تتمكن من احياء ماضي اسرتها · وبالمقابل ، هناك « ركزان » اختها الاصغر الشهوانية ، عاشقة الملذات ، « المتمردة » الخارجة عن اهتمامات اختها والمملوءة برغبة تدمير الماضي · انها سليلة العائلة والمتمردة عليها في ان واحد ، والتي تصل بعد موت اختها الى قناعة تدمير كل ما تبقى من موروثات الطبقة التي تنتمي اليها ، فتحرق اوراق الاسرة القديمة ، ثم تدمر القصر الذي كان اخر رمز للاسرة والطبقة ·· لتخرج — بعد ذلك — الجموع الهائمة الباحثة عن نهاية ليلها الطويل ·

وهكذا يجيء دور « الجموع » — الجموع الهلامية غير المحددة الملامح — بعد الدمار الذي لم تشارك هي في صنعه ، لان الطبقة التي دمرت ذاتها أعفتهم من مهمة تدميرها ، وافسحت لهم طريق البحث عن السعادة ·

● وفي « صيادون في شارع ضيق » نلتقي بنظير اخر لشخصية « ركزان » اكثر تطويرا وتحديدا وتمردا ممثلا بشخصية « عدنان طالب » ، سليل الاسرة «الارستقراطية» بقايا تركات العثمانيين « الخارج عن الاسرة » ، « المتمرد » عليها ورافض لقبها ، الشاعر ، المثقف ، المبتذل ، الفوضوي ، المتسكع ، السياسي ، الرافض الحاد للاسرة التي ينتمي اليها وللدولة التي يعيش فيها · انسان غير محدد في خطه ، تقدميا ام رجعيا · خرج عن الاسرة بعد اغتصابه لخادمتها ·· ودخل السجن لاسباب سياسية ، ثم يخرج منه ليدخل محاولة انتحار وجودية فاشلة ·

عدنان ، هذا المتمرد ، هو الذي يضع اصابعه في عنق عمه ، رمز طبقته المتداعية، ليتركه جثة هامدة · وهو الذي يقول : « موت عمي حادث هام · انه نهاية عهد باكمله

تصور · انا ساعدت في وضع حد لعهد طويل من * »(ص ٢٥٦) · لينتهي الراوي في سطوره الاخيرة للرواية الى وضع الثقل كله في ايدي عدنان ورفاقه الاخرين من المثقفين المتمردين ·· الذين « يقذفون بانفسهم في صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية » (ص ٢٦٣) ·

فمرة اخرى ، الطبقة لم تخلق طبقة اخرى تهددها وتهدمها في النهاية ، بل افرزت « متمردين » من داخلها ·· دمروها بأنفسهم ·

● لكن هذا الدمار في « السفينة » لم يأت من متمرد خارج عن الطبقة ، بل جاء محتما من داخل فرد ينتمي الى الطبقة ويمثل انهياره وانهيارها معا · فاذا كان « عصام السلمان » (البورجوازي) يشكل تهديدا لحياة الدكتور «فالح حسيب» (سليل الاقطاع العثماني) في صميمها ، من خلال عشق الاول لزوجة الثاني وانتهاك جسدها ، فانه ليس هو الذي وضع حدا لحياة الدكتور فالح ، لان حياة هذا بدت هشة من الاساس ومتداعية تشرف على تخوم نهايتها · فجاءت النهاية على يد الدكتور فالح نفسه حينما اختار الموت انتحارا ، في اللحظة التي كان فيها عصام السلمان يضاجع الزوجة في الحجرة المجاورة على ظهر السفينة ·

نهاية فالح حسيب هي نهاية فرد ونهاية طبقة ، وانتحاره هو انتحار له وللطبقة التي ينتمي اليها ·· تلك الطبقة التي يرى جبرا انها انتحرت ذاتيا ولم تنحرها قوى طبقية اخرى متناقضة معها ومتجاوزة لها ، فهذا الانتحار ـ يرى جبرا ـ هو النهاية المحتمة التي انقادت اليها هذه الطبقة · وبانتحار الدكتور فالح ـ يقول محمود شعبان الراشد (الثوري) ـ : « يخيل الي ان فئة كاملة من المجتمع تنزاح عن مسرح حياتنا » لكن وديع عساف ، الفلسطيني ، يرد محتدا : « نعم ، تلك الفئة المفكرة التي تتحدى سيف الظلم بصدرها · انها في زوال سريع (ص ٢٣٢) ، وهو الذي رأى في انتحار الدكتور فالح خسارة ·· « رغم ايامنا القليلة معا ، فقد بدت الحياة اليوم وكانها جزءا رائعا من كيانها » (ص ٢٢٨) ·

ومثل بطله ، يرى جبرا « المأساة » في انتحار الدكتور فالح وطبقته اذ يقول : « في « السفينة » يقول وديع عساف في انتحار الدكتور فالح ان جزءا من الحياة قد قتل نفسه · هذا لانني ارى مأساة في كل انهيار · ليست تجربة المجتمع تجربة احادية مسطحة تستطيع ان ترفض جزءا منها دون ان تتأثر الاجزاء الاخرى · فانا ارى المأساة في كل حدث · هناك مأساة في نهاية فالح هي مأساة عربية كما ان هناك في الوقت نفسه انهيارا واقعا يجري الان » (١٨) ·

● اما وقد انهار الاقطاع ، فان شخصيات جبرا في «البحث عن وليد مسعود»بدت مكتسبة لملامحها الطبقية الجديدة التي تكونت بفعل مجهوداتها الذاتية · ولا يشير جبرا الى القوى الطبقية الاكثر جذرية في صراعها وتناقضاتها مع هذه الطبقة ، ولا يدمرها

لان حركة التاريخ لم تدمرها بعد ، لكنه في تصويره لازماتها النفسية والاجتماعية والاخلاقية ، يرسم من غير قصد الخط الاول في عملية سقوطها المقبلة ، رغم انه يمنح لمثقفيها القدرة الهائلة على التغيير ، مع انه لم يستطع الا ان يصور عجزهم عنه ·

ثورية المثقفين وعجزهم :

يعتقد جبرا ان المثقفين « هم المغيرون وهم الثوريون الحقيقيون سواء حملوا السلاح في سبيل هذا التغيير او لم يحملوه » رغم توزعهم بفعل الشك ـ بين الاوجه الكثيرة للفكرة الواحدة الذي قد يحول بينهم وبين « الفعل الايجابي » الا ان ذلك لاينفي قناعته بأن « للمثقفين دورهم الاكبر في هذا المجتمع على تناقضاتهم » (١٩) ·

يحرص جبرا في هذا القول على عدم تحديد الانتماء الطبقي والايديولوجي للمثقفين الذين ينيط اليهم بعملية التغيير ، فكأنما هم مجموعة متجانسة عائمة فوق كل الطبقات وخارجة من دائرةتناقضاتها وصراعاتها · وبهذا يضع جبرا شروط التغيير الثوري في ايدي « المثقفين » لا في ايدي « الطبقة » ·

لكننا ، عندما نبحث في داخل النص عن الانتماء الطبقي لمثقفي جبرا ، فاننا نستطيع ان نجد تحديدا طبقيا و ايديولوجيا لهؤلاء المثقفين ، رغم انه لايخلو من الميوعة والتناقض غالبا ، ليعود ويصب في ايديولوجية الكاتب نفسه ويستقي منها ·

فهذا الخليط الطبقي من مثقفي جبرا ، يظل في تناقضاته ادنى كثيرا من حدود التناحر بين الطبقات نفسها · انهم يلتقون ، يثرثرون ، يختلفون ·· ثم يعودون اصدقاء يمارسون حياتهم اليومية بحرص على بقاء العلاقة قائمة فيما بينهم ، فتناقضاتهم بسيطة، وهمومهم في التغيير مشتركة · لكنهم ، رغم ذلك ، بشخصياتهم التي رسمها الكاتب ، وبافكارهم التي اسقطها فيهم ، يظلون بورجوازيين ، سواء كانوا منتمين الى الطبقة او انحدروا من اصول اقطاعية او تسلقوا من اصول فقيرة · فالمثقف الثوري في عالم جبرا هو المثقف البورجوازي · فالتمرد هو « دائما امر ارستقراطي » (السفينة ص ٢٠) كما يقول وديع عساف · اما الثورة فانها امر بورجوازي كما تقول لمى : « نزعاتك ، يا عصام ، بورجوازية ، كمعظم الثوريين » (ص ١٧٦) · كما يؤكد محمود الراشد ، احد النماذج (الثورية) ، بان الثوريين « في قرارتهم ليبراليون » (ص ١٣٧ ـ) ·

لكن جبرا ، رغم ذلك، يسخف الرأي القائل بان معظم شخصياته من البورجوازيين، بل انه ينفي وجود البورجوازية في المجتمع العربي لعدم وجود الشبه بين المدينة الاوروبية والمدينة العربية ·· « انا لا اعتقد ان المدينة العربية تشبه المدينة الاوروبية التي نقل عنها بعض نقادنا فكرة البورجوازية دون فهم للتركيبة الفاعلة في المدينة العربية للبورجوازية الاوروبية تاريخ طويل لا يشبه في شيء تاريخ مدينتنا العربية التي

يصنعها اناس هم في جذورهم منتمون الى الارض بمعنى زراعي وبمعنى يكاد يكون صوفيا (٠٠٠) انا في حياتي لم افكر بان المجتمع الذي رأيته يبنى بسواعد مكافحين كافحوا سياسيا وكافحوا اقتصاديا لكي يوجدو نواة الحضارة العربية الجديدة، هو مجتمع بورجوازي، الا اذا اردنا ان نقول اننا كنا مخطئين في المائة سنة الاخيرة في محاولتنا بناء المدنية العربية المرجوة (٠٠٠) اما التأويلات الماركسية المنقولة عن المجتمع الاوروبي الذي تكامل في الستمائة سنة الاخيرة باتجاه نشوء الطبقة البورجوازية فانها في نظري قاصرة عن ادراك ما يحدث في المجتمع العربي اليوم في اي قطر من اقطار الوطن العربي» ٠ (٢٠)

وبخلاف جبرا، فان التأويلات الماركسية التي تشير الى صعود البورجوازية العربية، تشير بادراك الى الاختلاف بين نمط الانتاج وعلاقاته في المجتمع الاوروبي الذي ادى الى صعود البورجوازية الاوروبية، عنه في المجتمع العربي الذي ادى الى صعود بورجوازية طفيلية مرتبطة بالامبريالية (بورجوازية كومبرادورية) ٠

ان جبرا يتحدث عن «بورجوازية اوروبية» و «مدينة عربية»، فهو يعترف بطبقية الاولى لينفيها عن الثانية مكتفيا بتحديد سمتها الحضارية والقومية ٠ لكن السمة القومية في عملية التغيير (الاجتماعي) ليست هي الاكثر بروزا، فالاساس يكمن في السمة الطبقية للقوى الفاعلة، المؤثرة، والمغيرة ٠

وعليه، فان الانسان، في التأويلات الماركسية، لا وجود له خارج الطبقة في المجتمع الطبقي ٠ ثم ان الثقافة هي ثقافة طبقة، وعليه، فاننا لا نستطيع ان نرى مثقفي جبرا بمعزل عن انتمائهم الطبقي والايديولوجي، وانتماء الكاتب وايديولوجيته ٠ وحتى لو تخطت الشخصية طبقتها فان فكرها وممارساتها تظل تفضح انتمائها الجديد وتوجهاتها وتسخيرها للكاتب نفسه ٠

ان البحث عن انماط هؤلاء المثقفين، او عن بعض نماذجهم في داخل العمل الفني، هو الذي يحدد اتجاه شخصيات جبرا من المثقفين ٠

فثمة مثقفون متمردون على اصولهم الاقطاعية ٠ وابرز نموذج لهم «عدنان طالب» في «صيادون ٠٠٠»، الشاعر والمثقف الرافض لطبقته، الذي يقرأ ماركس ولا يفهمه، ويكتب شعرا سرياليا لا يفهمه الناس ٠ يأخذ من الثقافة ما يعزز تمرده، ويحرص على نفي التهمة بانه من طبقة الملاك الرجعيين التي يروجها اعداءه لان ارثه ضئيل نسبيا، وهو يحلم في اليوم الذي يرى فيه عائلته تتمزق، ثم يساهم بالفعل في هدم طبقته ٠ ومثله «توفيق الخلف»، ابن احد الاعضاء في مجلس الاعيان، المتمرد على المدينة والمشدود الى تقاليد العشيرة التي يمقتها ٠ والذي يلقيه جبرا مع «عدنان» في صفوف السيوف السياسية والاجتماعية الطامحة الى اعادة تعمير الارض ٠ ويضع الى جانبهم

صديقهم «حسين عبد الامير» الذي ينحدر من اصول فقيرة ويشارك اصدقاءه تسكعهم وتمردهم وهمومهم، فيشكل ظلا كسيحا لصديقه عدنان ٠

ان تمرد هؤلاء، سواء حركه الوعي او اللاوعي، فانه يجير في النهاية لصالح الطبقة الصاعدة البديلة المتجاوزة للاقطاع ٠

وثمة نموذج اخر، وهو نموذج المثقف الذي يدعي فكرا يتناقض مع طبقته، والذي تتناقض لديه الممارسة مع الفكر الذي يدعيه، المشدود بخيوط رومانسية الى الطبقات الفقيرة وبحبال غليظة الى طبقته رغم ادعائه الخروج عنها، مثل «عمر السامري» في «صراخ ٠٠٠» الذي تتلخص شخصيته بقوله: «وجدت لنفسي مخرجا من حياتهم (طبقته)، حين اكتشفت ان أطيب ما في الحياة هو تأمل البؤس والعوز وكل ما يتفرع عنهما ٠ اني اعترف بانني جبنت عن امر واحد: وهو العيش في احد تلك الازقة الشعثاء الملطخة، العائمة في ضباب رائع من نتن المجاري» (ص ٣٨) ٠

وتزخر رواية «البحث عن وليد مسعود» بأمثال هذا النموذج او ما يقاربه ٠ فالمهندس «عامر عبد الحميد» ينحدر من اسرة بورجوازية حاربت الاتراك ثم الانجليز ٠ وتفتح وعيه على الكتابات الشيوعية، ودخل السجن، لكنه اقلع عن قناعاته وممارساته ليتفرغ لاعماله التي اخذت تدر عليه ارباحا خيالية ٠ و «ابراهيم الحاج نوفل» الذي ينحدر من اسرة بورجوازية تجارية، ويلتزم لفظيا بجماهير البروليتاريا، ويظل يسكر طوال ساعات يقظته ٠ و «كاظم اسماعيل»، الملتزم بفكر الطبقة العاملة لفظيا، والذي يرش يده بالعطر بعد ان يضع يده في يد عامل ٠

ويقاربهم «عصام السلمان» (السفينة) الذى حمل الآراء الماركسية في شبابه، ابن البورجوازية الذي يعشق ابنة الاقطاع ـ عدوه الطبقي، والذي يتخلص من ماركسيته ليتقدم برؤيته المثالية للصراع ٠٠ «سيجيء عهد من العدالة فيلتقي الناس على تناقضاتهم، ويلتقي اليمين واليسار، في جنة ارضية ٠٠» (ص ١٧٥) ٠

وحتى المثقفون الذين ينتمون الى اصول فلاحية او فقيرة او بورجوازية صغيرة، فانهم بفعل صعودهم الاجتماعي يظلون في افكارهم وسلوكهم اقرب الى البورجوازية ٠ ونموذج الشخصية الفلسطينية ينتمي الى ذلك، ومثلهم «امين» في «صراخ ٠٠٠» الذي تحولّ بجهده الى طبقة اخرى ٠٠ «وما اسرع ما وجدتني جزءا من طبقة اجتماعية جديدة: وهلّ في الدنيا ما هو اسهل على المرء من نسيان ان الفقر موجود» (ص ٤٦) ٠

وحتى شخصية المثقف الثوري، فانها لا تتخلص من الرؤية البورجوازية التى ترسمه، فتقدمه اما متناقضا في ممارساته البسيطة مع طرحه الفكري، كما شخصية «عبد القادر ياسين» (صيادون ٠٠٠) الذي يتهجم على الحضارة المسيحية من خلال

نموذجها الانثوي ويتقرب منه في نفس اللحظة · او ان يكون هائما ممزقا على المستوى النفسي والذهني ، غارقا في اوهامه وهلوساته مثل « محمود شعبان الراشد » (السفينة) الثوري العاجز عن تحديد اتجاه ضربته ·· « انا اؤمن ان المجتمع لا بد من تغييره · كيف ، وفي اي اتجاه ، هذه تفاصيل ادرسها » (ص ١٣٥) ·

* * *

ان كل هذه النماذج وغيرها من مثقفي جبرا ، مهما اختلفت فانها تظل تلتقي في تعبيراتها التي تمثل رؤية طبقة ، فهم في المحصلة خدم البورجوازية ، سواء جاءوا منها او من فوق او من ادنى · فهم مساهمون في عملية التغيير لصالح البورجوازية ، وهم عاجزون عنه عندما لا يكون هذا التغيير في صالحها ·

* * *

ان القراءة المضمونية لاعمال جبرا ابراهيم جبرا الروائية ، تؤكد ان هذا الكاتب مفكر يدرك ما يريد ان يقول · وبقراءة العمل الفني بشكله ومضمونه غير المنفصمين ، يثبت جبرا انه يدرك ايضا كيف يقول ما يريد قوله كفنان ·

هكذا تتقدم رؤية جبرا الفنية والفكرية ، مرتكزة على ارضية ثقافية صلبة مستفيدة من معطيات الثقافة البورجوازية الاوروبية لتمزجها بالواقع الذي تخرج الرواية من صلبه · وهي تستند ، بمعرفة وادراك ، على الارث الطويل للرواية الكلاسيكية ، فتستفيد منها بوعي وتطوير وموهبة خلاقة ·

وحيثما يغدو ضروريا التحول نحو الاستفادة من اساليب الرواية الحديثة ، فان جبرا يدخل المغامرة بثقة · فاذا كان اسلوب القص الاحادي الكلاسيكي هو الذي ميز روايتيه الاولى والثانية ، فانه في روايتيه اللاحقتين التجأ الى اسلوب « الرواية الصوتية » التي يتوزع القص فيها بين عدد من شخصيات الرواية ، والتي هي احدث الاتجاهات في الرواية العربية المعاصرة (٢١) ، مستفيدة من رباعية « لورنس داريل » الاسكندرانية ، ومن اسلوب « وليم فوكنر » في « الصخب والعنف » ·· وغيرهم ·

لكن أصابع فوكنر تتضح اكثر في رواية جبرا الاخيرة ، وعلى الادق في الصفحات المنقولة عن الشريط الذي يتركه وليد مسعود في مسجل سيارته قبل اختفائه · تلك الصفحات الهاذية المنطلقة من اسار العقل والمنطق والتي تنعدم فيها النقاط والفواصل (الترقيم) تاركة للاوعي حريته في التدفق بلا حدود او ضوابط ، تعيدنا الى فوكنر ، كما تعيدنا الى تفسير جبرا لذلك في رواية فوكنر اذ يقول : « فكلما انتقل الفعل من الحدث المباشر في سير القصة الى الحدث المستذكر الذي اصبح انسيابا ذهنيا (بعد ان كان تسلسلا جسديا) ، انعدم الترقيم ، لان الترقيم يوحي بالفواصل المنطقية ، وفي الذكرى ـ كما يريدها المؤلف هنا ـ تتداخل الافعال والاقوال دونما فاصل او ناظم منطقي » (٢٢) ·

ان اصابع فوكنر لا تلغي خصوصية جبرا ولا تنقصها · وجبرا هو الذي كان من

اوائل من قدم هذا الكاتب الى القارىء العربي ، وهو الذي قدم الترجمة المتقنة لروايته الفذة التي تنفس الكثيرون من خلال اسلوبها الجديد فابدعوا ، ثم تنفس جبرا من خلاله وابدع ·

فجبرا ابراهيم جبرا فنان يعرف هندسته ، ويدرك الوسائل التي يضغط فيها الزمن والذاكرة بكثافة ، ويعرف كيف يمد الخيوط بين ماضي شخوصه وحاضرها ، وبين علاقاتها بعضها ببعض ·

انه يرسم شخصياته بابعادها المختلفة ، الاجتماعية والتاريخية والثقافية والنفسية · فهي تكوين لتلك المحصلة للعلاقات الحياتية المتشابكة ، بماضيها وحاضرها ، بثقافتها وعواطفها واحاسيسها ، وبتشابك علاقاتها الاجتماعية وجدليتها · وكل ذلك ، يؤكد حضور الشخصيات لا كمجرد فكرة وحسب ـ وان عبرت عنها ـ ، وانما ككيان انساني معقد يحمل فكرة ويمثلها كجزء من كيانه ·

وهو يعبر مجاهل اللغة وثرائها فيوزع ثروته اللغوية على شخصياته · لغة الثقافة للمثقفين ، بتجريداتها وصلابتها الصارمة ، ولغة السياسة للسياسيين ، بانفعاليتها الذهنية وحدتها ، ولغة الشعر للشعراء ، برقتها وشفافيتها ، اما اللغة البسيطة ، فهي للناس البسطاء · وهكذا ، تكون اللغة وسيلة للوصول الى الشخصية ، سواء كانت لغة سرد او حوار ·

ان جبرا ابراهيم جبرا فنان مدرك لادواته وواع لهندسته · يعرف المكان الصحيح للكلمة التي يقدم من خلالها رؤياه ·· ويعرف أين تكون ضربة الازميل في بنائه الفني ·

نؤكد ذلك ·· من موقع الاختلاف في الرؤية · فما اعمال جبرا في شكلها الايديولوجي الا انعكاسا لعالمه الاجتماعي في وعيه كانسان وفنان محكوم بشروط اجتماعية محددة ، وبانتماء اجتماعي محدد ·

حواشي

(١) نشرت مجلة « شؤون فلسطينية » (العدد ٧٧ ـ نيسان ١٩٧٨) اجزاء من حوار اجراه الياس خوري مع جبرا ابراهيم جبرا عام ١٩٧٤ · والمقتطف هنا هو جزء من غير المنشور حصلنا عليه من ارشيف مجلة « الكاتب الفلسطيني » ·

(٢) حوار اجراه نجمان ياسين مع جبرا ابراهيم جبرا (مجلة) « الجامعة » العراقية ـ العدد الرابع ـ السنة الثامنة ١٩٧٨) ·

(٣) عن الجزء غير المنشور من مقابلته لـ « شؤون فلسطينية » ·

(٤) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق · ومما يجدر ذكره ان لجبرا مجموعة قصصية

واحدة بعنوان « عرق » صدرت عام ١٩٥٦ ضمت قصصه التي كتبها منذ ١٩٤٦ وحتى تاريـ
اصدارها · واعيد نشرها عن اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٤ ·

(٥) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(٦) عن الجزء غير المنشور من مقابلته لـ « شؤون فلسطينية » ·

(٧) المصدر السابق ـ غير المنشور ·

(٨) يشير جبرا الى انه كتب رواية اخرى بالانجليزية بعنوان « الصدى والغدير » عـ
١٩٤٦ ، لكنها لم تنشر ـ راجع مقابلته في مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(٩) كتبت عام ١٩٤٦ بالانجليزية ، ثم ترجمها جبرا بنفسه الى العربية وصدرت عام ١٩٥٥
ثم اعيد نشرها بطبعة ثانيـة عن ـ اتحاد الكتاب العـــــرب ـ دمشق ـ ١٩٧٤ (نعتمد الطبـ
الثانية) ·

(١٠) كتبت بالانجليزية ونشرت في لندن عام ١٩٦٠ ، ترجمها الدكتور محمد عصفور الى
العربية وصدرت عن ـدار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٧٤) ·

(١١) كتبت بالعربية وصدرت عن ـ دار النهار ـ بيروت ـ ١٩٧٠ ·

(١٢) كتبت بالعربية صدرت عن ـ دار الاداب ـ بيروت ـ ١٩٧٨ ·

(١٣) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(١٤) عن كلمة للدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، وردت على الغلاف الخلفي للطبعة العربيـ
لرواية « صيادون في شارع ضيق » ·

(١٥) راجع حديثه المنشور في « شؤون فلسطينية » المشار أليه ·

(١٦) راجع دراستنا المستقلة لرواية « البحث عن وليد مسعود » المتوسعة في دراسة هـ
الشخصية وتأثيراتها · (« شؤون فلسطينية »)

(١٧) راجع حديثه المنشور في « شؤون فلسطينية » ـ مصدر سابق ·

(١٨) المصدر السابق ·

(١٩) المصدر السابق ·

(٢٠) مجلة « الجامعـــة » ـ مصدر سابق ·

(٢١) راجع ، الدراسة التي كتبها ضياء الشرقاوي حول « المعمار الفني في رواية السفينة
ـ مجلة « المعرفة » السورية ـ لعدد ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ أذار ـ نيسان ١٩٧٨ ·

(٢٢) راجع ملاحظتيه بعـد التقديم فـي ترجمته لرواية وليم فوكنر « الصخب والعنف » ـ
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٣٢ ·

الثقافة العربية المعاصرة

١ ـ ملاحظات بصدد المنهج

محمد حافظ يعقوب

اصل هذه المقالـــة ، هي مجموعة من الملاحظات كنت وضعتها بصدد الفكر التقدمي العربي تجاه الصهيونية ، بصفتها جزءا من الاندفاعة الامبريالية الاوروبية الغربية ـ والاميركية من ثمة ـ لاقتحام وترتيب أقطار العالم غير الاوروبي ، الذي سمي ، اخيرا بالعالم الثالث ، لقد قادتني تلك الملاحظات الى اشكال جديدة ، يمكن تلخيصهافي تساؤل : ما هي العلاقة القائمة بين تـطور فهم الفكر التقدمي العربي للحركة الصهيونية والمسألة اليهودية بالتالي ، وبين تطور مضمونات هذا الفكر نفسه تجاه الآليات الاجتماعية لمجتمعه من جهة ، وبين الأدوات المعرفية التي استخدمها هذا الفكر ، أو وجد نفسه مدفوعا الى استخدامها ، من أجل سبر غور مجتمعه ، والمشكلات التـي يجد نفسه مسوقا الى البحث عن حلول لها ، والاشكال الناجم عن استخدام هذه الأدوات المعرفية ، التي تتعلق بصلب المسألة النهاجيـــة ، من جهة ثانية · أقول ، ان الاشكال ، الذي قادتني تلك الملاحظات اليه ، وضعني أمام اشكال آخر ، يبدو وللوهلة الأولى أنه اشكال ليس في وقتـــه ، وخاصة أنه يوجه الى قارىء تستثيره ، أساسا ، التساؤلات التي تطرحها مرحلته الساخنة التي يعيشها : مشكلات الاحتلال ، والتخلف والتبعية ، والميات تجديدهما واعادة انتاجهما · بتعبيـر أكثر تحديدا : ينحصر الهدف الاساسي لهذه المقالة ، في مناقشة مشكلات الفكر التقدمي العربي ذاته ، من حيث هو الاداة المعرفية لحركة التحرر العربية ، بهدف محاولة فهم « القوانين » المؤثرة في طريقة فهم هذا الفكر ، وعوامل تطوره (التغيـــرات في المضمون أو المشكلات ، أو اكتساب مضمونات جديدة أو استبعاد مضمونات) وعوامل نظرية لنفسه وللجمهور*(الطبقات والشرائـح الاجتماعية) الذي يتوجه اليه · وبهذا المعنى ، فان هدف المقالة لن يتحقق في هذه الصفحـات

....

* لان الفكر يتضمن الاخر · لكل مفكر جمهوره الذي يتوجه اليه ، ويفترض لمخاطبته أو التحاور معه أو تحريضه بلغة ثانية : لكل مفكر حامل اجتماعي لافكاره ·

الشخصية الفلسطينية والرؤيا البورجوازية

(دراسة في ادب جبرا ابراهيم جبرا الروائي)

فاروق وادي

مدخل :

في اجابته عن سؤال حول اذا ما كان يقترح طريقة معينة لدراسة آثاره ، قال جبرا ابراهيم جبرا :

« ٠٠٠ أود أن اشير الى نقطة واحدة ، وهي ان من يدرسني يجب ان يدرس تياراتي كلها معا ، ويدرسها متواكبة زمنيا ٠ حينئذ سيقترب من منهجي ، اما ان يأخذ ناحية واحدة من تفكيري فانه سيكتشف فيما بعد ان اهماله النواحي الاخرى قد تركت فجوة في دراسته » ٠ (١)

واذا انطلقنا في دراستنا لعالم جبرا الروائي من هذه الاجابة ، فاننا يجب ان نرفق ذلك بالاقرار بوجود تلك « الفجوة » التي تحدث عنها جبرا في اجابته ٠

فجبرا ابراهيم جبرا ، اضافة الى كونه روائيا ، فهو شاعر ، وكاتب قصة قصيرة ، وناقد ، ومترجم ، ورسام ٠ انه فنان متعدد المواهب ومتشعب الاهتمامات وكلها تمتزج وتتداخل لديه لتشكله وتقدم لوحة متكاملة لشخصيته الفنية والفكرية في مجمل عطائها الواسع ٠ ويؤكد جبرا على هذا التكامل بقوله : « لو لم اكن هؤلاء كلهم معا لربما لم اكن اي واحد منهم ، انني اتكامل كانسان او كمفكر او كمبدع عبر كوني هؤلاء جميعا ولم اشعر قط انني توزعت فيما بينهم بل انما كان في كل واحد منهم عون لي على تقوية الشخص الآخر في ، فما عجزت عن قوله رساما قلته شاعرا ، وما عجزت عن قوله شاعرا قلته روائيا ٠٠٠ » ٠ (٢)

ان عزل جبرا ، الروائي ، عن ذلك الكل الكبير ، جبرا الفنان ، فيه شيء من التجزيء التعسفي اذا ما قدمت الدراسة طموحا لفهم العالم الكلي لجبرا الفنان

ولشخصيته الفكرية والابداعية ككل ٠ لكن هذه الدراسة تظل اضيق من ذلك في طموحها المحدد ، وهو الولوج الى عالم جبرا من خلال الرواية من اجل التوصل الى نقاط اضاءة مبدئية لكشف عالم جبرا الفني الواسع ٠

٠

وليس في اختيار الرواية للوصول الى نقاط الاضاءة هذه ضربا من الاختيار العشوائي :

ـ فالشعر هو النشاط الذي يحظى بالاقل من الاهتمام لدى جبرا الفنان ، وهو ـ على حد قوله ـ احد الروافد التعبيرية لاهتماماته الفنية ٠ (٣)

ـ والقصة القصيرة ـ في اعتقاد جبرا ـ هي فن سهل قياسا الى الرواية ، ولذلك، فقد أقلع عن كتابتها منذ ١٩٥٦ لاحساسه بأن القصة لا تفي بحاجته ٠ (٤)

ـ ورغم اعتزاز جبرا بما قدمه على صعيد النقد وازماعه على نشر مجموعته النقدية التي سبق وان نشرمعظمها ، الا انه ـ كما اشار ـ لم يعد يفكر بكتابة المزيد من النقد كي يتفرغ الى كتابة رواية جديدة ٠ (٥)

ـ وقد يتنفس جبرا من خلال الترجمة، فالترجمة ابداع آخر وتنفس ، لكنه رغم ذلك يظل محصورا في محددات رئة الغير ٠ انها امتداد لاهتمامات الكاتب ومحاولة للمحافظة على اصالة الغير ٠٠ « غير انني فيما اكتب » ـ يقول جبرا ـ « احافظ على اصالتي » ٠ (٦)

ـ ويبقى الرسم الذي توقف جبرا عن العطاء من خلاله منذ الخمسينات ٠ فعلى الرغم من اهمية هذا الجانب في تشكيل الشخصية الفنية لجبرا ، الا انه لا يشكل اكثر من رافد آخر لاهتماماته الكتابية ٠ فللرسم علاقة بكتاباته ـ كما يقول ـ (٧) ، بما يحمله هذا القول من منح الاولوية للكتابة ، يعززه التوقف لصالح رفد التجربة الكتابية (الروائية) بخبرات المعرفة والممارسة في الفن التشكيلي ٠

وليس في كل ذلك انقاصا لتلك الجوانب التي ساهمت في تطوير وتكوين شخصية جبرا الفنية ، او نفيا لتلك الجدلية القائمة فيما بينها والتي تضع في محصلة التقائها وتفاعلها معا شخصية الفنان فيه ، بل انها محاولة لابراز ذلك الجانب الاكثر وضوحا وبروزا واهمية لتلك الشخصية ـ ونقصد الرواية ـ والذي يمنحنا ذلك المبرر في اختياره قبل غيره موضوعا للدراسة ٠

فان عجز جبرا في التعبير عن اجزاء من عالمه وفكره من خلال الرواية ولجأ الى الاشكال الاخرى لكونها اكثر مطواعية لديه في تعبيره عن مسألة ما فتلك مشكلته ٠

فليست مهمتنا البحث عما لم يتوصل اليه من خلال الرواية او عما استطاع التوصل اليه بالاشكال الاخرى ، لان مهمتنا هي البحث في الرواية فقط ، فيما قالته وصورته باسلوبها · اما عدا ذلك ، فتلك مهمة اخرى لدراسات لاحقة قد تتناول جوانب اخرى من شخصية جبرا الفنية منفصلة ، او تتناول تلك الشخصية بتكاملها الفني ·

الزمن والزمن الروائي :

خلال اربع وعشرين عاما ، نشر جبرا ابراهيم جبرا اربع روايات : (٨)

١ ـ صراخ في ليل طويل · (٩)

٢ ـ صيادون في شارع ضيق · (١٠)

٣ ـ السفينة · (١١)

٤ ـ البحث عن وليد مسعود · (١٢)

ورغم الفاصل الزمني بين صدور رواية واخرى (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ ـ ١٩٧٨) والذي يعطي مساحة لتأمل التطور في عالم جبرا الروائي ، الا اننا نستطيع تلمس خيوط تجمع بين هذه الروايات كلها لتحقق رؤية جبرا الفنية والفكرية في ثوابتها ومتغيراتها ·

نستطيع ان نرى اضافات تراكمية فنية وفكرية بين رواية واخرى · فنحن امام فنان قادر على التطور المستمر ، لكنه يظل ملتزما بجذور يحرص عليها · انه لا ينفي قديمه ، وانما يتواصل معه في شغفه نحو الجديد ·

جبرا ابراهيم جبرا يطور افكاره من موقع فكري وطبقي محدد ، ويطور شخصياته من هذا الموقع ، موقع البورجوازي المتنور ذي الطموح الحضاري ، ذلك الطموح الذي يحركه وهم مصالحة التناقضات وتهدئة الصراع بينها من اجل التفرغ لبناء الحضارة ·

وهو اذ يطور ادواته ويهرع نحو اساليب جديدة تمدها الثقافة والمعرفة باساليب الرواية الغربية الجديدة ، الا انه يظل متصلا بجذور الرواية الكلاسيكية ·

فالرواية الجديدة لدى جبرا لا تنفي سابقتها ، وانما تتواصل معها زمنيا ، وفكريا وفنيا ·· وتتجاوزها · ولا نختلف في ذلك مع جبرا اذ يؤكد في حديثه حول روايته الاخيرة على ذلك بقوله : « لا احسب هذه الرواية نقطة تحـول في تفكيري واسلوبي

بمعنى قطعي بقدر ما هي امتداد منطقي لاول محاولة قمت بها في كتابه قصة » · (١٣)

ان كل رواية من هذه الروايات الاربع ، تظل تلتقي مع سابقتها في اشياء كثيرة مشتركة سواء في الافكار التي تطرحها ، او في انماط الشخصيات التي تقدمها ، او الاسلوب ·· وتمتد تلك الخيوط لتخلق ترابطا ما في نقاط كثيرة بين العمل الاول والعمل الاخير الذي يفصل بينهما زمن طويل ·

وليس ضربا من المصادفة ان يأتي الزمن الروائي لكل رواية متجاوزا لزمن الرواية التي سبقتها · فالحقبة التاريخية التي تتم فيها احداث رواية تتقدم الحقبة التي تقع فيها احداث الرواية اللاحقة · فالزمن لا يتنامى في داخل العمل الروائي فحسب ، وانما يتنامى ايضا بقفزات في مجموع الاعمال الروائية للكاتب · فكأننا نحن ، في روايات جبرا الاربع ، أمام رباعية تمتد زمنيا ، تتغير اسماء شخصياتها وتواريخها وخلفياتها · كأنها تتناسخ من جديد ـ في كل مرة وبشكل آخر لتعيش في زمن اخر ، متفاعلة مع تاريخها ومكتسبة تجربة جديدة ·

ولنلاحظ النمو الزمني الزمن الروائي بين رواية واخرى :

ـ في « صراخ في ليل طويل » لا يتحدد الزمن تاريخيا · فالزمن الروائي يوم واحد ، وزمن الذاكرة في الرواية يمتد سنوات الى الوراء · انها الرواية الوحيدة لجبرا التي يتضبب فيها الزمان والمكان وان كنا نستطيع ان نحدد الحقبة دون ان نحدد التاريخ ، فالحقبة هي تلك السنوات التي كانت لاحقة لسقوط الدولة العثمانية ورأت سقوط الطبقة التي انهارت مع انهيار الدولة على أرض ما ·· عربية ·

ـ وفي «صيادون في شارع ضيق» يتحدد الزمان والمكان · فالزمن الروائي هو عام او قرابة العام ، فنحن في العام الذي تلا هزيمة ١٩٤٨ العربية ، ومع فلسطيني في بغداد يحمل الهزيمة في الذاكرة ويشهد تصاعد الحركة على ارض العراق التي تنبيء بالانهيار الكبير لذات الطبقة التي شهدنا انهيارها في الرواية السابقة ·

ـ ونقفز في « السفينة » اعواما الى الامام ، تحققت خلالها نبوءة الرواية السابقة بالثورة ، وبدأ الفلسطيني يبحث عن بداية طريق ترده عن المنفى · الزمن الروائي على ظهر السفينة لا يتجاوز الاسبوع ، لكن الاهمية هنـا هي لزمن الذاكرة الذي يختزل التاريخ · لا يتحدد زمن رحلة السفينة بالضبط ، لكنه أيام من سنة في الاعوام الاولى للستينات ·

ـ والزمن الروائي في « البحث عن وليد مسعود » هو السبعينات ، لكن الذاكرة تعود اكثر من خمسين عاما الى الوراء لتختزلها · والسبعينات هو زمن فلسطيني جديد

فبين زمنه في « السفينة » وزمنه هنا ، ثمة زمن آخر يطل في الذاكرة باحداثه التحولية : انطلاقة الثورة ، هزيمة حزيران ، احداث ايلول · وهنا ، تبرز طبقة جديدة قامت على انقاض الطبقة التي شهدنا انهيارها على الارض العربية في الروايات السابقة ·

في هذا الزمن المتصاعد ، تنمو شخصيات جبرا ، يعجنها التاريخ الذي يعجن الكاتب نفسه ، لنعيش معه زمنيه ·· زمنه الفلسطيني ، وزمنه فوق ارض عربية ·

ضعف الحدث المحوري وتفجيره :

ولو بحثنا عن الحدث المحوري في روايات جبرا ابراهيم جبرا بعزل متعسف عن مجمل البنيان الروائي ، لغدا الحدث باهتا وضعيفا · انه اساس في بناء الرواية لكنه ليس الاساسي ، ودوره هو خلق التماسك بين شخوص الرواية وافكارها · فالحدث في هذه الروايات لا يكتسب معناه الا من حيث هو وسيلة تصل بين المحاور الاهم في الرواية :

ـ فعل الذاكرة ودورها المؤثر في حياة شخوص الرواية ·

ـ تشابك العلاقات بين الشخصيات وهمومها الشخصية ·

ـ الهموم الاجتماعية والسياسية ، الثقافية والحضارية ، لهذه الشخصيات ·

فهذه كلها هي التي تمثل الكاتب بزخم تجربته الحياتية، وتشابك علاقاته الانسانية، وهمومه الثقافية ، وطموحاته الحضارية ·

● فلو جردنا روايته الاولى « صراخ في ليل طويل » من ذاكرة بطلها وهمومه الثقافية والشخصية ، لغدت يوما عاديا او شبه عادي في حياة الانسان ، ينتهي بنهاية خاصة تفجيرية في الصفحات الاخيرة · فامين ـ بطل الرواية ـ والمتحدث فيها ـ يعيش يوما عاديا · يتجول في الشوارع والمقاهي · يلتقي باصدقاء يعرفهم ·· يتحدثون ، يناقشون مسائل فكرية · وهو مثلهم ، مثقف له عدة كتب ، ويفكر في كتابة رواية ، ويعمل في الصحافة ، كما يعمل لدى عائلة من حثالات « الارستقراطية » في انجاز كتاب حول تاريخ العائلة وشخصياتها دون ان يحمل نفسه مسؤولية بعث الروح في هذه الطبقة ·

لكن امين في الرواية اكثر من ذلك ، وحياته اوسع من ذلك اليوم · انه يعيش هزيمة داخلية ، هزيمة حب ، (وذاكرته) تختزل في هذا اليوم تجربة سنتين او ما يزيد ، حين غررت به المرأة التي احبها وتزوجها ، ثم عادت اليه اخيرا في نهاية يومه هذا ،

فرفضها ، في الوقت الذي دمرت فيه واحدة من الاسرة الارستقراطية كل مخلفات طبقتها ·· لتزحف الجماهير باحثة عن نهاية ليلها الطويل ·

● أما الحدث في «صيادون في شارع ضيق» ،فيحمل امتدادا زمنيا أوسع وأهمية اكثر منه في أية رواية اخرى للكاتب · والذاكرة هنا تظل حاضرة لكن دورها يبقى اضعف مما هو في الرواية السابقة والروايتين اللاحقتين · ويبقى الاهم في هذه الرواية ليس الحدث الذي يجيء تفجيريا ايضا في نهاية الرواية ، وانما الدخول الى عالم جديد ، مكانيا وتاريخيا ، ومعايشة الصراع عن قرب والتي يتيحها نسج العلاقات المتعددة والمتشابكة بين الشخصية الاساسية وشخوص الرواية ·

تتتبع الرواية الفلسطيني « جميل فران » منذ ان وطأت قدماه أرض بغداد قادما من فلسطين بعد هزيمة ١٩٤٨ · جاء الى بغداد ليعمل مدرسا في احدى كلياتها ، حاملا (ذكريات) عن القدس وذكرى امرأة خلفها تحت الانقاض · ثم عبر الى بغداد ، الى الشوارع الضيقة والفنادق الرخيصة والحمامات التركية · عرفنا بغداد تلك الحقبة من خلاله وتعرفنا الى شخصيات كثيرة دخل حياتها فدخلت الرواية · عبر الى عالم المتسكعين ، المثقفين ، المتمردين على الاسرة والدولة · ومن خلالهم عبر الى عالم الارستقراطية ، تسرب اليها ونسج معها العلاقات ·· علاقة حب مع فتاة وعلاقة جنسية مع امرأة · عاش حالة النهوض التي شهدتها بغداد تلك السنة ، ورأى بداية انهيار الطبقة التي عبرها ، حينما خرج صديقه المتمرد على الطبقة فقتل عمه ، والد الفتاة التي احبها جميل ·

● وفي رحلة « السفينة » من ميناء بيروت الى موانيء اوروبا،لا حدث محوريا ينمو ، وانما شخصيات تنمو امامنا من خلال (ذكرياتها) وعلاقاتها ببعضها · علاقات قديمة ، واخرى جديدة تنامت فوق السفينة التي اجتمعوا فوقها بمصادفات اصطنعت بعضها شخصيات الرواية ، ثم صنع الكاتب بقيتها ·

هذه الشخصيات ، بعلاقاتها الراهنة ، وبتشابك علاقاتها داخل الذاكرة ، وبخلفياتها الاجتماعية والثقافية والتاريخية ، هي التي تصنع الرواية وليس الحدث ·· وان انتهت رحلة السفينة نهاية مأساوية تفجيرية أيضا ، مثلها انتحار احدى شخصيات الرواية ، سليل الاسرة الاقطاعية ، فأثار انتحاره التساؤلات واعطى اجابات كثيرة ، ورسم نهايات لعلاقات وبدايات جديدة لعلاقات اخرى ·

● أما في «البحث عن وليد مسعود» فان تفجر الحدث يطل في السطور والصفحات الاولى ، بل من عنوان الرواية لكن الرواية اذ تبدأ من الحدث ، الا انها تغيبه لصالح الشخصيات ، والذاكرة ، والعلاقات ، والهموم الشخصية والثقافية ·

ان (الذاكرة) ، ذاكرة وليد مسعود وذاكرة الاخرين بمجموعة علاقاتهم هي التي تصنع الرواية انطلاقا من حدث اختفاء الفلسطيني وليد مسعود ·

يترك وليد مسعود بغداد ذات يوم ويقطع الحدود العراقية بسيارته ، تاركا في مسجلها شريطا بصوته (يبدو) مبهما ولا يحدد مكان اختفائه · واصدقاء وليد مسعود الذين يستمعون الى الشريط ، يقعون فريسة التساؤل عن مكان اختفائه لكنهم لا يبحثون عنه في العالم وانما في تجربتهم معه ·· ولا يبحثون عنه بقدر بحثهم عن انفسهم من خلاله · ولا تبحث الرواية عن مكان اختفائه بقدر بحثها عنه في ذاكرته وفي الاخرين · لكن الكاتب يعود في النهاية ليردنا الى منطلق الحدث ، ليشير الى ان غياب وليد مسعود كان لصالح حضوره في قلب قضيته ·

ان هذا التلخيص للحدث ، بما فيه من تلمس لاهمية فعل الذاكرة ، لا يقدم الرواية عند جبرا ، لكنه تأكيدا على ان الرواية ليست حدثا بالدرجة الاولى ·· فالحدث أساس وليس الاساسي في البناء الروائي هنا ·· وعندما ينتصب البناء شامخا يختفي الاساس ·

اما الاساسي لدى الكاتب ، فهو تشكيله لشخصية الفلسطيني من جهة ، ورؤيته ـ الكاتب ـ للصراع الطبقي من جهة اخرى ، وتمثيله لها بأدواته الفنية المتقدمة تقنيته المتقنة ·

ملامح الشخصية الفلسطينية الاساسية :

ننطلق من وصف المستشرق الانجليزي دنيس جونسون ديفز لرواية جبرا الثانية « صيادون في شارع ضيق » لنعمم ذلك بقناعة على مجمل نتاجه الروائي ، اذ يصف الرواية بانها رواية « افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى (١٤) ، كانما هو يضع الحدث الروائي في درجة ادنى من حيث الاهمية ·

وان كان جبرا ينفي تأكيده على البطل الواحد في رواياته مشددا على اهمية كل ابطاله (١٥) ، فان ذلك لا ينفي حضور شخصية او مجموعة من الشخصيات المحورية في كل رواية ، دون ان يعني ذلك انقاصا لاهمية الشخصيات الاخرى ·

ولعل « الفلسطيني » يكون هو الشخصية المحورية ، او على الاقل شخصية محورية ، في الرواية · وخصوصية الفلسطيني وتميزه وحضوره الروائي ، تنبع من خصوصية الكاتب الفلسطيني ، فهو يكتب عن تجربة عايشها عن قرب ·· تجربته الذاتية وتجربة شعبه · وذاكرة الفلسطيني في الرواية هي ذاكرة الكاتب ·· وهي خياله الذي يستمد الصورة من أرض الواقع والتاريخ ·

فمهما طور جبرا في شخصياته ، فان شخصية الفلسطيني تبقى هي الاكثر تطويرا · انها تكتسحنا بقوتها لانها تكتسح الرواية بذات القوة ، وهي لا تنفي الاخرين ولا تضعفهم لكنها تقتحمهم وتسكنهم بجبروتها · اننا نفهم الفلسطيني من خلال سلوكه ، علاقاته ، ذاكرته ، ونفهمه من خلال الاخرين ·· تماما مثلما نفهم الاخرين من خلاله ومن خلال علاقاتهم به ·

فالفلسطيني محور اساسي ، ان لم يكن المحور ، في شخصيات جبرا ابراهيم جبرا الروائية ، باستثناء روايته الاولى « صراخ في ليل طويل » التي تنتفي فيها الخصوصية الفلسطينية لدى بطل الرواية او اية شخصية اخرى · لكن هذا النفي يجيء منسجما مع نفي المحددات الزمانية والمكانية في الرواية ككل · وبظهور هذه المحددات في الروايات الثلاث اللاحقة ، حيث يحمل التاريخ رقما ودلالات واحداث تتفاعل مع حركته الواقعية · وحيث يحمل المكان اسمه الواقعي ووصفا واقعيا لمكوناته تبرز الشخصيات أكثر تحديدا من حيث انتمائها الوطني وسلوكها المتفاعل مع احداث التاريخ على الارض التي تقف عليها ، أي انها تبرز كشخصيات مستمدة من صلب الزمان والمكان ومتفاعله فيه بشكل أو اخر ·

ومن هنا نستطيع ان نرى الفلسطيني ، فهو في داخل الزمان والمكان · داخل زمانه الفلسطيني وزمانه العربي ، ومكانه الفلسطيني ومكانه العربي ·

ونستطيع ان نرى الشخصية الفلسطينية في مستويين :

المستوى الاول : حينما تكون هذه الشخصية هي الراوية الاساسية او احدى الشخصيات الروائية الاساسية في الراوية ، وحينما تكون هذه الشخصية مؤثرة في مسار الرواية وفي شخصياتها الاخرى بشدة · وعلى هذا المستوى نلتقي بثلاثة نماذج اساسية موزعة بين الروايات الاخيرة الثلاث : « جميل فران » في « صيادون في شارع ضيق » ، و « وديع عساف » في « السفينة » ، و « وليد مسعود » في « البحث عن وليد مسعود » ·

المستوى الثاني : حينما تكون هذه الشخصية متصلة بشدة باحدى شخصيات المستوى الاول ، وحيث لا تكتسب الشخصية قيمتها الا من خلال علاقاتها بشخصية المستوى الاول التي تبرزها في الذاكرة وفي عمق تجربتها فتظهر فاعلة ومؤثرة فيها ومغنية لها ولجذورها · والشخصيات في هذا المستوى كثيرة ، لكن البارز فيها شخصية البطل الوطني والضحية الشهيدة ، فهناك « ليلى شاهين » في « صيادون في شارع ضيق » ، و « فايز عطا الله » في « السفينة » ، و « مروان وليد مسعود » في «البحث عن وليد مسعود » ·

وتحمل الشخصيات الفلسطينية الاساسية الثلاث ـ شخصيات المستوى الاول ـ صفات كثيرة مشتركة ومطورة في كل مرة عن سابقتها · ان تلمس هذه القواسم المشتركة وتحديدها يساهم في تحديد سمات الشخصية الفلسطينية الاساسية والنموذجية لدى جبرا ابراهيم جبرا الروائي :

١ ـ فلسطين ، العراق ، الخليج هي المحاور المكانية لشخصيات المستوى الاول الثلاثة (جميل فران ، وديع عساف ، وليد مسعود) · فجميع هذه الشخصيات تجتمع في تجربة النفي عن الارض والتعلق بها وبالمدينة التي تركوها (القدس أو بيت لحم او كلتيهما) · وكلهم تركوا المدينة نحو مدينة اخرى عربية باحثين عن خبزهم · الاول الى بغداد ، والثاني الى الكويت ، والثالث الى بغداد ودول الخليج · وان كانت تجربة الاول تتشابه مع تجربة الكاتب نفسه من حيث مغادرتهما بيت لحم عام ١٩٤٨ الى بغداد للعمل في احدى كلياتها ، الا ان هناك تشابها اخر بين تجربة الكاتب وتجربة بطله الثاني من حيث الرحيل والاتصال بالمجتمع البغدادي ·· ولو أراده الكاتب على ظهر سفينة · ويمد جبرا خيوطا بين تجربته في بيت لحم ورحيله عنها وبين تجربة بطله الثالث « وليد مسعود » ·

أي ان لهذه الشخصيات تجربة تكاد تكون متشابهة ، وتكاد تمس في أجزاء منها تجربة الكاتب نفسه ·

٢ ـ لم يبرز جميل فران بوضع اجتماعي واقتصادي متميز لانه في الرواية بدأ يضع خطواته الاولى في طريق الحياة العملية في المنفى مزودا بطموحاته الكثيرة ، فأتاحت له الصدفة وضعه الثقافي والعملي الدخول الى المجتمعات الارستقراطية ، فدخلها مثقفا وعاشقا ومعشوقا فخلق خيوطا من التواصل مع هذه الطبقة التي احب ابنتها واحب المتمردين عليها معا · الا ان وديع عساف بدا جزءا من الطبقة البورجوازية وهو يخالطها على ظهر السفينة ·· فلقد دخل هذه الطبقة بثقله الاقتصادي الذي كدسه في الخليج · ومثله وليد مسعود ، البورجوازي الفلسطيني الذي تكون طبقيا في المنفى (الخليج) ثم عاد الى العراق مخترقا طبقته هناك ·

أي ان الاوساط التي تعيش في دائرتها هذه الشخصيات الثلاث هي اوساط بورجوازية وبقايا اقطاع ، وعلى الادق مثقفي هذه الطبقات ·

٣ ـ كل الشخصيات الفلسطينية الثلاث مسكونة بشخصية اخرى من شخصيات المستوى الثاني ، شخصية الضحية الوطنية او البطولة الوطنية · فيد « ليلى شاهين » الحبيبة ، والخطيبة ، تحت الانقاض ، بعد العملية الارهابية ، تظل تلاحق جميل فران في كل مكان وموقع على امتداد الرواية · وجسد « فايز عطا الله » الدامي لا يفارق ذاكرة

وديع عساف ، الذي حمل صديقه القتيل في جبال القدس · وشهادة « مروان » الابن في عملية فدائية ، تترك بصماتها في اعماق وليد مسعود ·

٤ ـ وكل الشخصيات الثلاث تحفظ في ذاكرتها ذكرى مقاومة ذاتية وبطولة في العام ١٩٤٨ · وان بدت تجربة جميل فران ادنى في مستواها (اقتناء سلاح دون استخدامه) ، الا ان بطولة وديع عساف تبدو اكثر بروزا في الذاكرة ، حيث يشارك بنفسه في العملية العسكرية التي يفقد فيها صديقه (السفينة ص ٦٤ ـ ٧٥) · وكذلك فان اجمل فصول الذاكرة لدى وليد مسعود هي التي يستعيد فيها ذكرى البطولة والمقاومة (··· وليد مسعود ص ٢٤١ ـ ٢٤٩) ·

٥ ـ والجذور الدينية المسيحية نجدها في الشخصيات الثلاث · ومحاكمة جميل فران للمسيحية (صيادون ··· ص ٢٥ ـ ٢٧) لا تشكل خروجا عن الايمان بالروح او تحولا الى نقيض مادي ، بل هي نقد للمسيحية الاوروبية التي حولت المسيح الى فكرة مجردة ، بما يحمله هذا النقد لدى الشخصية الى معنى التحول لمزج الروحي بالحسي ، وهو سقوط للروحانية المجردة في ذاته املته ظروف مادية شهد فيها الوطن سقوطه على ايدي الغزاة · هكذا يتحول المسيح لدى جميل فران ممتزجا بالرؤية الحسية : « افكر بالمسيح كرجل يعيش في شوارعنا بوجه ناحل ويدين جميلتين · افكر به واقفا حافي القدمين على حجارة شوارعنا وهو يدعو البشرية كلها لحبه وسلامه » (ص ٢٦) ·

ويؤكد وديع عساف على عواطفه الدينية الصوفية التي تتحرك لموسيقى الكنيسة ·· « المسيح يلازمني ، حافيا ، كبير القدمين ، تقطر اصابعه الطويلة بالمعجزات ، وهو يكاد لا ينطق » (السفينة ص ٩٤) · لكنه ايضا يربط بين الوطني والديني من خلال « الصخرة » التي توحد بين التجربة الدينية والتجربة الوطنية لديه ·· « لقد جعلنا من « الصخر » سرا نتقاسمه فيما بيننا · قلنا ان الصخر يرمز الى القدس » (ص ٦٠) ·· « والمسيح من اختار من الناس ليكون خليفه له ؟ سمعان الصخرة » (ص ٦١) · ولا ينس وديع تجربته شبه الصوفية مع فايز عطا الله حينما مارسا معا « معمودية الماء والصخر » (ص ٦٣) وهتافاتهم في المظاهرة وهم يحملون جريحا ·· « حملناه على اكتافنا ونحن نقول الصخرة ! واضربت البلاد ستة اشهر طوال · وتفجرت (صخور) فلسطين بالثوار (ص ٦١) ·

وفي حياة وليد مسعود تجربة دينية اشد عمقا ، منها محاولته في صباه معايشة تجربة صوفية في كهف بعيد ، لكنها تكون تجربة فاشلة · ثم يوضع على المحك اذ يرسل في بعثة الى ايطاليا لدراسة اللاهوت ، وعلى المحك يكتشف وليد انه عاجز عن افناء نفسه بالتأمل ، فيقلع عن اللاهوت ودراسته ليقترب من الحسي والوطني · لا يفقد ايمانه الديني وانما يربطه بالفعل الوطني ، فاللاهوت مجرد تأمل وهو يطمح الى

واحدة بعنوان « عرق » ، صدرت عام ١٩٥٦ ضمت قصصه التي كتبها منذ ١٩٤٦ وحتى تاريـ
اصدارها · واعيد نشرها عن اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٤ ·

(٥) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(٦) عن الجزء غير المنشور من مقابلته لـ « شؤون فلسطينية » ·

(٧) المصدر السابق ـ غير المنشور ·

(٨) يشير جبرا الى انه كتب رواية اخرى بالانجليزية بعنوان « الصدى والغدير » عـ
١٩٤٦ ، لكنها لم تنشر ـ راجع مقابلته في مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(٩) كتبت عام ١٩٤٦ بالانجليزية ، ثم ترجمها جبرا بنفسه الى العربية وصدرت عام ١٩٥٥
ثم اعيد نشرها بطبعة ثانية عن ـ اتحاد الكتاب العـــرب ـ دمشق ـ ١٩٧٤ (نعتمد الطبـ
الثانية) ·

(١٠) كتبت بالانجليزية ونشرت في لندن عام ١٩٦٠ ، ترجمها الدكتور محمد عصفور ال
العربية وصدرت عن ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٧٤) ·

(١١) كتبت بالعربية وصدرت عن ـ دار النهار ـ بيروت ـ ١٩٧٠ ·

(١٢) كتبت بالعربية صدرت عن ـ دار الاداب ـ بيروت ـ ١٩٧٨ ·

(١٣) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(١٤) عن كلمة للدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، وردت على الغلاف الخلفي للطبعة العربيـ
لرواية « صيادون في شارع ضيق » ·

(١٥) راجع حديثه المنشور في « شؤون فلسطينية » المشار اليه ·

(١٦) راجع دراستنا المستقلة لرواية « البحث عن وليد مسعود » المتوسعة في دراسة هـ
الشخصية وتاثيراتها · (« شؤون فلسطينية »)

(١٧) راجع حديثه المنشور في « شؤون فلسطينية » ـ مصدر سابق ·

(١٨) المصدر السابق ·

(١٩) المصدر السابق ·

(٢٠) مجلة « الجامعـــة » ـ مصدر سابق ·

(٢١) راجع ، الدراسة التي كتبها ضياء الشرقاوي حول « المعمار الفني في رواية السفينة
ـ مجلة « المعرفة » السورية ـ لعدد ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ أذار ـ نيسان ١٩٧٨ ·

(٢٢) راجع ملاحظته بعد التقديم في ترجمته لرواية وليم فوكنر « الصخب والعنف » ـ
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٣٢ ·

الثقافة العربية المعاصرة

١ ـ ملاحظات بصدد المنهج

محمد حافظ يعقوب

اصل هذه المقالـــة ، هي مجموعة من الملاحظات كنت وضعتها بصدد الفكر التقدمي العربي تجاه الصهيونية ، بصفتها جزءا من الاندفاعة الامبريالية الاوروبية الغربية ـ والاميركية من ثمة ـ لاقتحام وترتيب اقطار العالم غير الاوروبي ، الذي سمي ، اخيرا بالعالم الثالث ، لقد قادتني تلك الملاحظات الى اشكال جديدة ، يمكن تلخيصها في تساؤل : ما هي العلاقة القائمة بين تـطور فهم الفكر التقدمي العربي للحركة الصهيونية والمسالة اليهودية بالتالي ، وبين تطور مضمونات هذا الفكر نفسه تجاه الآليات الاجتماعية لمجتمعه من جهة ، وبين الادوات المعرفية التي استخدمها هذا الفكر ، أو وجد نفسه مدفوعا الى استخدامها ، من أجل سبر غور مجتمعه ، والمشكلات التـي يجد نفسه مسوقا الى البحث عن حلول لها ، والاشكال الناجم عن استخدام هذه الأدوات المعرفية ، التي تتعلق بصلب المسالة النهاجيـــة ، من جهة ثانية · أقول ، ان الاشكال ، الذي قادتني تلك الملاحظات اليه ، وضعني أمام اشكال آخر ، يبدو وللوهلة الأولى انه اشكال ليس في وقتـــه ، وخاصة انه يوجه الى قارىء تستثيره ، اساسا ، التساؤلات التي تطرحها مرحلته الساخنة التي يعيشها : مشكلات الاحتلال ، والتخلف والتبعية ، واليات تجديدهما واعادة انتاجهما · بتعبيـر أكثر تحديدا : ينحصر الهدف الاساسي لهذه المقالة ، في مناقشة مشكلات الفكر التقدمي العربي ذاته ، من حيث هو الاداة المعرفية لحركة التحرر العربية ، بهدف محاولة فهم « القوانين » المؤثرة في طريقة فهم هذا الفكر ، وعوامل تطوره (التغيــرات في المضمون او المشكلات ، أو اكتساب مضمونات جديدة أو استبعاد مضمونات) وعوامل نظرية لنفسه وللجمهور* (الطبقات والشرائح الاجتماعية) الذي يتوجه اليه · وبهذا المعنى ، فان هدف المقالة لن يتحقق في هذه الصفحات

....

* لان الفكر يتضمن الاخر · لكل مفكر جمهوره الذي يتوجه اليه ، ويفترض لمخاطبته أو التحاور معه أو تحريضه بلغة ثانية : لكل مفكر حامل اجتماعي لافكاره ·

واحدة بعنوان « عرق » صدرت عام ١٩٥٦ ضمت قصصه التي كتبها منذ ١٩٤٦ وحتى تاريـ
اصدارها · واعيد نشرها عن اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٤ ·

(٥) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(٦) عن الجزء غير المنشور من مقابلته لـ « شؤون فلسطينية » ·

(٧) المصدر السابق ـ غير المنشور ·

(٨) يشير جبرا الى انه كتب رواية اخرى بالانجليزية بعنوان « الصدى والغدير » عـ
١٩٤٦ ، لكنها لم تنشر ـ راجع مقابلته في مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(٩) كتبت عام ١٩٤٦ بالانجليزية ، ثم ترجمها جبرا بنفسه الى العربية وصدرت عام ١٩٥٥
ثم اعيد نشرها بطبعة ثانيــة عن ـ اتحاد الكتاب العـــــرب ـ دمشق ـ ١٩٧٤ (نعتمد الطبـ
الثانية) ·

(١٠) كتبت بالانجليزية ونشرت في لندن عام ١٩٦٠ ، ترجمها الدكتور محمد عصفور الى
العربية وصدرت عن ـدار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٧٤) ·

(١١) كتبت بالعربية وصدرت عن ـ دار النهار ـ بيروت ـ ١٩٧٠ ·

(١٢) كتبت بالعربية صدرت عن ـ دار الاداب ـ بيروت ـ ١٩٧٨ ·

(١٣) مجلة « الجامعة » ـ مصدر سابق ·

(١٤) عن كلمة للدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، وردت على الغلاف الخلفي للطبعة العربيـ
لرواية « صيادون في شارع ضيق » ·

(١٥) راجع حديثه المنشور في « شؤون فلسطينية » المشار أليه ·

(١٦) راجع دراستنا المستقلة لرواية « البحث عن وليد مسعود » المتوسعة في دراسة هـ
الشخصية وتاثيراتها · (« شؤون فلسطينية »)

(١٧) راجع حديثه المنشور في « شؤون فلسطينية » ـ مصدر سابق ·

(١٨) المصدر السابق ·

(١٩) المصدر السابق ·

(٢٠) مجلة « الجامعـــة » ـ مصدر سابق ·

(٢١) راجع ، الدراسة التي كتبها ضياء الشرقاوي حول « المعمار الفني في رواية السفينة
ـ مجلة « المعرفة » السورية ـ لعدد ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ أذار ـ نيسان ١٩٧٨ ·

(٢٢) راجع ملاحظتيه بعـد التقديم فـي ترجمته لرواية وليم فوكنر « الصخب والعنف » ـ
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٣٢ ·

الثقافة العربية المعاصرة

١ - ملاحظات بصدد المنهج

محمد حافظ يعقوب

اصل هذه المقالـــة ، هي مجموعة من الملاحظات كنت وضعتها بصدد الفكر التقدمي العربي تجاه الصهيونية ، بصفتها جزءا من الاندفاعة الامبريالية الاوروبية الغربية ـ والاميركية من ثمة ـ لاقتحام وترتيب اقطار العالم غير الاوروبي ، الذي سمي ، اخيرا بالعالم الثالث ، لقد قادتني تلك الملاحظات الى اشكال جديدة ، يمكن تلخيصهافي تساؤل : ما هي العلاقة القائمة بين تـطور فهم الفكر التقدمي العربي للحركة الصهيونية والمسألة اليهودية بالتالي ، وبين تطور مضمونات هذا الفكر نفسه تجاه الآليات الاجتماعية لمجتمعه من جهة ، وبين الأدوات المعرفية التي استخدمها هذا الفكر ، أو وجد نفسه مدفوعا الى استخدامها ، من أجل سبر غور مجتمعه ، والمشكلات التـي يجد نفسه مسوقا الى البحث عن حلول لها ، والاشكال الناجم عن استخدام هذه الأدوات المعرفية ، التي تتعلق بصلب المسألة النهاجيـــة ، من جهة ثانية · أقول ، ان الاشكال ، الذي قادتني تلك الملاحظات اليه ، وضعني أمام اشكال آخر ، يبدو وللوهلة الأولى أنه اشكال ليس في وقتـــه ، وخاصة أنه يوجه الى قارىء تستثيره ، أساسا ، التساؤلات التي تطرحها مرحلته الساخنة التي يعيشها : مشكلات الاحتلال ، والتخلف والتبعية ، والبات تجديدهما واعادة انتاجهما · بتعبيـر أكثر تحديدا : ينحصر الهدف الاساسي لهذه المقالة ، في مناقشة مشكلات الفكر التقدمي العربي ذاته ، من حيث هو الاداة المعرفية لحركة التحرر العربية ، بهدف محاولة فهم « القوانين » المؤثرة في طريقة فهم هذا الفكر ، وعوامل تطوره (المتغيـــرات في المضمون أو المشكلات ، أو اكتساب مضمونات جديدة أو استبعاد مضمونات) وعوامل نظرية لنفسه وللجمهور* (الطبقات والشرائـح الاجتماعية) الذي يتوجه اليه · وبهذا المعنى ، فان هدف المقالة لن يتحقق في هذه الصفحـات

....

* لان الفكر يتضمن الاخر · لكل مفكر جمهوره الذي يتوجه اليه ، ويفترض لمخاطبته أو التحاور معه أو تحريضه بلغة ثانية : لكل مفكر حامل اجتماعي لافكاره ·

القليلة ، اذ يكفيني هنا أن اثير المشكلة وان أضعها فيما أراه سياقها الصحيح : من حيث هي جزء من اشكال اكبر : اشكال التحررنفسه **

واذا كانت العادة جرت ، في الكتابات النقدية الأوروبية بشكل خاص ، أن يبحث الكاتب عن اشكالية يثيرها ، ثم عن مسوغات اثارتها تمهيدا لمناقشتها ، فان مسوغات العربي لمناقشة ما اصطلح على تسميته « بالثقافة التقدمية العربية » ، نابعة ، أساسا ، من الموضوع نفسه : « فالثقافة » العربية هي موضوع بحث ساخن ، منذ زمن طويل نسبيا ، مرتبط أصلا بمعارك التحرر وبصراعات الساحة السياسية العربية ، وخاصة منذ بدايات « عصر النهضة » ، وهي المعارك التي ما زال صداها الفكري يسمع ويتردد ، بحدة وبعصبية غالبا ، حتى وقتنا الحاضر ، فمنذ قرابة قرن كامل ، ومطالع القرن العشرين بشكل أخص ، ترافقت الهبّات والحركات الجماهيرية من أجل التحرر والاستقلال مع معارك فكرية ، بصدد الموقف من مسائل التجديد الفكري والادبي واللغوي ، والتحرر الفكري ، واعادة كتابة التاريخ العربي ، وغيرها · بل أن هذه المعارك الفكرية كانت (وما تزال) تتجدد باستمرر كلما أشتدت سخونة المعركة السياسية ، وازداد التوتر في الموقف من هذه المعركة · ان كتابا ومفكرين ، أمثال شبلي الشميل ، علي عبد الرزاق وطه حسين ، وغيرهم من الذين ارتبط اسمهم بمعارك « التحرر الفكري ، هم عمليا ، توجهات اقنعة ، أصداء ثقافية لكفاح الحركة الشعبية من اجل التحرر الفكري ، وما زال الموقف منهم يخفي عمليا ، الموقف من مسائل وقضايا التحرر السياسي الراهنة · بل ان مسوغا اضافيا ، جعل موضوعنا اكثر الحاحا ، وهو تلك الكتابات العربية الحديثة بصدد الموقف من التراث ، أي ما اصطلح على تسميته ، بصيغة توفيقية : الوصول الى المعاصرة مع المحافظة على الاصالة ، من جهة ، وتلك الكتابات الطموحة التي تملأ صفحات المجلات في لبنان والجزائر وسوريا والعراق ، بصدد « لغة الثقافة العربية الحديثة ، وقدرتها على التعبير عن مشكلات وطموحات التحرر العربي · أقول ، ان المسوغ الاضافي لهذه المقالة ، كامن في ملحاحية الموضوع · اننا نفترض أن الافكار لا تجد قبولها (رواجها) الاجتماعي ، الا بمقدار تلبيتها لحاجات اجتماعية : اي أن قيمتها الفكرية تكتسب ، اولا من كونها مجتمعية وليس كما يقول الدكتور أركون ، من خلال « المفهومات التي تخلقها ، أو التي تعيد قولبة محتواها ، أو مداها او استعمالها · » (١)

** ثمة جدل راهن بصدد الثقافة والمثقفين · وقد احتل هذا الجدل حيزا كبيرا في أذهان المثقفين ، وخاصة في سوريا ، فمنذ اكثر من سنتين ، ثمة حوار ساخن ، يكاد يكون يوميا ، بصدد الثقافة والادب في سوريا · معظم الاطراف في هذا الحوار تفترض سلفا انها تسهم في اغناء «الفكر التقدمي العربي » · ثمة كثيرون من الجديين والمخلصين · ولكن لا يكفي الاخلاص دائما·كثير من الكتابات ، وقعت من حيث لا تدري في الفخ الذي حاولت أن تتحاشاه : اللفظية والشكلية · ومع ان الحوار ، كمحصلة ، يظل ثريا مهما قيل بشأنه ، الا انه مع ذلك أثار اشكالات جديدة : هل صحيح ان المعركة تتحدد ملامحها في أشكال التعبير · هل هي مشكلة الشكل والمضمون فعلا ؟ اضطر الكتاب السوريون أمام شعار « شهادات حسن سلوك ايديولوجية لا أدبية » الى التأكيد على أهمية الشكل · ونحن لا نعارض ذلك ، ولكن السؤال يظل قائما : هل هي مشكلة شكل التعبير مثلا ؟ ليست العودة هنا ارتدادا الى بيزنطية « البيضة والدجاجة » ، أو الفكر والمادة » · ولكنها أساسا في التحرر ، ودور الثقافة ، وكيف يستطيع مثقف (مفكر ؟) أن يلعب هذا الدور !!

(١) محمد أركون · **الاسلام ، والتاريخية ، والتقدم** · مجلة « **الاصالة** » (الجزائر) · السنة ٦ ، سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٧٧ ، ص ١٥ ·

ان مفهومات (مضمونات) اية فكرة ليست منبثقة عن هذه الفكرة ذاتها ، بل هي منبثقة عن الحاجات اوضاع اجتماعية يجد الكاتب نفسه ، بوصفه جزءا من البنية العامة للوعي الاجتماعي لمجتمعه ، مسوقا موضوعيا للاجابة ، بكيفية ما وبنهاجية ما (وبجنس أدبي ما) ، عن هذه الملحاحية التي تتخذ تساؤلات ، اشكالات ، تستوجب الاجابة عليها ، ان تكرار طرح الموضوع عينه ، واحتلاله حيزا زمنيا واسعا في تاريخ « الثقافة » العربية الحديث ، هو مسوغ بحثنا الراهن ، لأن ذلك دلالة على ملحاحيته : كونه التساؤل بصدد مشكل التحرر ، وبلغة ثانية ، كونه التساؤل السياسي عن الفكر « المجدي » : الفكر القادر على تنوير الجماهير العربية ·

التساؤلات الاشكالية السابقة التي وضعناها ، لا تقودنا الى صلب الموضوع من جهة ، ولكن تقودنا ، كذلك ، الى صلب المنهج : منهجنا وزاوية رؤيتنا ، للموضوع اولا ، والى موضوع التباين ، الاختلاف ، الافتراق ، والتناقض مع الآخرين ، وهذا ما سيتوضح في سياق المقالة ·

فاذا كانت المسألة الفكرية هي ، في جوهرها ، احدى العمليات الاجتماعية لمجتمع ما ، من حيث هو مجتمع ومن حيث هي احدى مكونات وبنى الوعي الاجتماعي ، فان مشكلة التحرر الفكري او ما يسمى عادة بالاشكال المعرفي للتحرر (*) لا يخرج عن اطار اشكال تاريخي اكبر ، يواجه المجتمع برمته ، بمختلف طبقاته وشرائحه الاجتماعية ، وأعني به الاشكال الاجتماعي للتحرر ، بما هو كذلك ، أي بما هو عملية اجتماعية ، تاريخية · **

نقول ، اذا كانت المسألة الفكرية هي تعبير عن المسألة الاجتماعية ، واذا كان الهاجس

---

* أي ما اصطلح على تسميته أحيانا بالتحرر الفكري (الثورة الثقافية ، الثورة الفكرية ·· الخ) ، حيث تظل تندرج ضمن اطار الاشكال الاكبر الذي يعبر عن تلك الحقيقة الاكبر ، واعني بها المسألة الاجتماعية · أو بلغة اخرى : اشكال التحرر الاجتماعي ، ومايتفرع عنه من مشكلات لها علاقة بفهم آليات المجتمع المطلوب التحكم بألياته : النظرية الثورية ، البنية الاجتماعية ، الطبقات الاجتماعية (وفكرها من حيث هي طبقات) ، صراع الطبقات ، ألية الحراك او التطور الاجتماعي ··· الخ ·

** لما كانت العملية الاجتماعية ، بما هي عملية متحركة ، شكل يواجه « الفكر التقدمي » ، النظرية الثورية ، من أجل الأمساك بتلابيب المجتمع : فهمه من اجل تغييره ، تفسيره ، من أجل قلبه ، فان شكل تطور المجتمع ، بمعنى عدم ثباته هنا ، هو مشكل يواجه المجتمع ككل · بيد أن ، الموقف من هذا التحرك (ما يسمى عادة بالتطور) ، ليس موقفا موحدا بين مختلف الطبقات (والفئات ، الشرائح) الاجتماعية لهذا المجتمع ، التي تتوزع بين قطبين (موقفين) متناقضين : بين ضبط العملية الاجتماعية ، وبين تخريبها لصالح آلية اخرى · هذا يشرح لنا لماذا يكون الفكر متنوعا ، غنيا ، وبالتالي خصبا ، خلال فترات الازمات الاجتماعية (والسياسية من ثمة) ولماذا نجدثمة معارك فكرية حقيقية في تلك اللحظات التاريخية ! فاذا كان البحث عن مسوغات للموقف الاجتماعي (حجج ومبررات) عقلية هو الحافز الاكبر وراء ظهور الايديولوجيات ، فان ظهور الايديولوجيا هو تأكيد على ان الاشكال الفكري هو صدى لما ذكرناه قبل قليل : الوجه الآخر للعملية الاجتماعية · ويفسر لنا كذلك لماذا كان القرن التاسع عشر في أوروبا أو القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في الوطن العربي مثلا ، هو قرن العباقرة العظام في كل المجالات حتى السياسية منها ، ولماذا كان الأدب لفلسطيني الان (ليس المنتج من قبل فلسطينيين بل بصدد فلسطين) هو الاكثر غنى في الثقافةالعربية المعاصرة !

الفكري هو كذلك الهاجس السياسي * ، فان جماع الهواجس الفكرية لمجتمع ما ، تشكل فكره ، وبهذه الحالة ، يغدو الفكر الفرنسي (الانكليزي ، العربي ··· الخ) ، ليس فكرا موحدا ذا خصائص ثابتة ، بلغة أخرى ، ليس موقفا واحدا من القضايا نفسها ، ولكنه الفكر الذي يعالج قضايا ومشكلات معينة ، يواجهها هذا المجتمع ، بغض النظر عن الجوهر الاجتماعي لموقف كاتب معين منها (المضمون الطبقي لموقفه الفكري) ، هذا يفسر لنا الخطأ الاساسي (وهنا الفكري الذي يختفي الموقف من المسالة الاجتماعية ـ وبالتالي السياسية ـ من خلفه) الذي وقعت به التاريخانية العروية ، وأعني به النظر الى الفكر العربي من حيث هو فكر موحد يتطور بشكل موحد ، ومن حيث هو فكر فقط بمعزل وباستقلال (وبشكل متعال) عن العملية الاجتماعية ، وبالتالي عن الحامل الاجتماعي لهذه الافكار ، التي هي أفكار سياسية ، أولا واخيرا ·

٢ ـ اذا كان ما افترضناه ، كنقطة انطلاق منهجية للبحث ، من أن الثقافة تعبير عن المسالة الاجتماعية ، صحيحا ، فان الهاجس الاجتماعي ، وبالتالي السياسي ، الذي واجه الفكر التقدمي العربي ** ، منذ مطالع عصر النهضة ، هي مسائل التحرر السياسي (الاستقلال) أولا ، ثم التحرر الاجتماعي بصفة التعبير المكمل لهذا التحرر ، والذي تم اكتشافه بما هو كذلك فيما بعد وبعد خبرة سنوات طويلة من الكفاح من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية (عبر شعارات مبسطة ولكن معبرة بدقة عن الرؤية المسطحة الاحادية للامور : فلسطين عربية ·· مصر لابنائها ·· سورية للسوريين ··) وأليات اكتساب هذا المفهوم الاخير مضمونات تعبر عنه ، وعلاقة هذا الاكتساب بالتطور السياسي من جهة وباليات تطور المجتمع العربي خلال هذه الفترة ، من جهة ثانية ، وازدياد عدد المشكلات « الفكرية » و « المنهاجية » التي بدأت„تتسرب » الى الفكر التحرري العربي من جهة ثالثة ، عبر اصطدام حركة التحرر العربي نفسها بمعضلات عملية قوامها انجاز التحرر نفسه ، وضرورة فهمها لاليات وميكانيزمات المجتمع الذي تتصدى لتغييره وبالتالي اغتناء هذا الفكر بالمفهومات الاكثر تعقيدا : بما في ذلك تغير فهمها لنفسها (بنيتها

....

* يضيف كارل ماركس الى التعريف السوسيولوجي للانسان (الذي تعمم خلال القرن التاسع عشر) على انه حيوان اجتماعي ، بقوله انه « حيوان سياسي » أيضا ، فالمجتمع الانساني ليس جماعة ثابتة من الناس تكونت تاريخيا فقط ، وليس مجموعة من الطبقات فحسب ، بل هو مجموعة من الطبقات تدخل في اطار اليتين : آلية الحراك الاجتماعي (التغير) والموقف من هذا الحراك ، وثانيتهما : الصراع الطبقي ·

** سنستخدم هنا مصطلح « الفكر التقدمي العربي » للدلالة على « التراث الفكري » العربي خلال السنوات المائة الاخيرة ، المعبر عنه في تلك الكتابات التي تصدت لدراسة أسباب التخلف العربي من جهة ، واستهدفت بنفس الوقت اعادة صياغة المجتمع العربي صياغة تحررية ، عبر الكفاح ضد الامبريالية ، الاوروبية الغربية ، والاميركية وسياق هذا الفهم ، لاليات الفعل الامبريالي في الوطن العربي ، أو للامبريالية نفسها ، أو لكيفية التحرر منها وبغض النظر كذلك عن مضمون مصطلح التحرر الاجتماعي الذاتي الذي بشرت به ·

وبهذا المعنى ، فان مفهوم « التقدمي » ، في مصطلح « الفكر التقدمي العربي » ، هنا ، ليس محصورا في بحثنا ، على الكتابات ، الفكرية ، الماركسية ، او الشيوعية فقط ، بل هو يشمل كذلك الكتابات الفكرية التي اطلقت على نفسها ، قومية عربية ، او استقلالية عربية ·· الخ · اننا سنشير ، في هذا المصطلح ، وفي سياق هذا البحث ، الى الكتابات التي عبرت عن خطوط سياسية تحررية ، في الواقع العملي ، واحتلت حيزا عمليا في حركة الكفاح ضد الامبريالية ···

الاجتماعية : مقولة الطبقة الاجتماعية) ، واكتشافها لاليات ، الخروج والدخول التاريخي لطبقات وشرائح اجتماعية في بنيتها ، كحركة تحرر سياسي واجتماعي ، عبر تطور المهمات في الواقع العملي نفسه ·

هذا يفسر لنا لماذا لم يستطع مفكر هام فيمرحلة مبكرة من تاريخ الفكر التحرري العربي الحديث ، على غرار الدكتور طه حسين وعلي عبد الرازق مثلا ، ان يفهم التحرر الاجتماعي الا من حيث هو تغيير في البنية التنظيمية للدولة (لدى الثاني) ، أو للمؤسسة التربوية (لدى الاول) ، فلقد كانت المعضلات العملية التي كانت حركة التحرر تعاني منها متمثلة في الحكم الاستعماري · وفي المؤسسات السياسية والتربوية المعبرة عنه ، وكانت الرجعية في تلك الفترة غير مفهومة بعد من حيث هي تعبير سياسي ـ وفكري بالتالي ـ عن حقيقة اجتماعية (هي مقولة الطبقة الاجتماعية) ، لان تشكل الطبقة„الكولونيالية » في الاقطار العربية كان ما زال في بداياته الاولى ، وكانت اليات وميكانيزمات ، التشكيلية الاجتماعية ، الاقتصادية الجديدة في الوطن العربي المحتل ، ما تزال في مراحلها الاولى كذلك ، ولم تأخذ عملية الانشطار الاجتماعي الحديث في الوطن العربي (المصاغ صياغة امبريالية عبر عملية الحاق التاريخ الخاص بالامة العربية بالتاريخ العام للامبريالية) بعد مجراها الذي بدأنا في معرفته بشكل أوضح اليوم ، وبالتالي فان الجسم الاجتماعي لحركة التحرر العربية كان ما يزال فضفاضا وواسعا (وبالتالي هشا) · لقد كانت مسألة البنية الطبقية لحركة التحرر غير مطروحة على جدول اعمال التحرر نفسه ، وبالتالي الفكر ، اذ كان يكفي مثقف كشكيب ارسلان مثلا ، وهو الشخص الاكثر أهمية ، ان يؤكد بقناعة تامة أن الحكم الاجنبي (وليس الاستعمار ، وليست الامبريالية من حيث هي ظاهرة استقطاب عالمية ··) هو وحده المشكلة : الاستقلال والسيادة الوطنية هما وحدهما الحل والتقدم والوحدة يصبحان تحصيل حاصل (٢) ·

ان التجربة العملية ، التطور الموضوعي ·· الاخفاقات والنجاحات ·· الالحاق والالتحاق العربي (السقوط الكولونيالي) في عصر الامبريالية ، والتشكيلة الاجتماعية (العملية الاجتماعية المعبرة عن ذلك : تشكل مجتمعات جديدة « الانشطار الاجتماعي الجديد ·· الطبقات الجديدة ·· آلية الجبذ والنبذ في الجسم الاجتماعي لحركة التحرر العربي عبر تطور الية الالحاق والالتحاق بعصر الامبريالية (أو ماأصطلح على تسميته بعصر النهضة العربية) ·· الخروج المستمر لطبقات شرائح ، فئات اجتماعية ، بما في ذلك الافراد ، من جسم حركة التحرر ·· الدخول المستمر (المترافق مع تشكل وثبات هذا التشكل تاريخيا) لطبقات شرائح وفئات اجتماعية في جسم هذه الحركة ، وبالتالي ، ابتعاد واسقاط ، اقتراب واكتساب مضمونات جديدة لافكار وشعارات ، ودخول افكار ومضموذات جديدة ·· ، قد طرحت كذلك ونجم عنها مشكلات نهاجية تتعلق بصلب المعضلاتالمطروحة وتحقق وظيفيا تعميق رؤية حركة التحرر لنفسها ، وفهمها لمعضلاتها ولمهماتها المستجدة باستمرار (٣)

....

(٢) الامير ارسلان · سيرة ذاتية دار الطليعة ، بيروت · سنة ١٩٦٩ وكذلك محاضرة ، عن الوحدة العربية بدمشق(ايلول ١٩٣٧) · انظر ايضا : احمد الشرباصي شكيب ارسلان المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة سنة ١٩٦٣ ·

(٣) كنت عالجت هذه المشكلة ولكن في سياق اخر · راجع : **التخلف العربي والتحرر العربي** · دار ابن رشد ، بيروت ، ١٩٧٧ ·

وعلى هذا الاساس ، فان ما اصطلح على تسميته بـ « ازمة الثقافة العربية » ، الفكر العربي المعاصر ، تندرج ضمن « ازمة » حركة التحرر العربيـــة : كيفية الوصول الى « لغة » ، فكر ، محرض للجماهير الواسعة ، ، بلغة ثانية : كيفية مخاطبة ملايين الجماهير ٠ لقد كان البحـث عن « مخرج » للازمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العربية ٠٠ عن « هوية » المجتمـع العربي الحديث على ارضية الدولة الوطنية الحديثة ٠٠ عن اسباب اخفاقات وانكسارات النضالات الجماهيرية طيلة السنوات المائة الاخيرة ، الهزائم العربية المتتالية ، « التطور » الاجتماعي الرث ، التخلف واعادة نتاجه وتجديد الياته ، التبعية العربية للامبرياليـة ، التشكـك الشعبي المضمر والصريح المعبر عنه ، في سياسات الدول العربية وفي جدوى وفاعلية توجهاتها (وما ينجم عن ذلك من سلبية اتجاهها ومن معاملتها من حيث هي بنى معادية أو جراب واسع حافل بالثروات التي يجب نهبها وسرقتها دون الشعور باي وازع اخلاقي أو الشعور بالمواطنة تجاهها) ، هو الرافع الاساسي للتطور الراهن للفكر العربي الحديث : لقد قادت خيبة الامل الواسعة بـ «الدولة الوطنية» الناجمـة عن الاستقلال ، الى استخدام مناهج بحـث جديدة من اجل دراسة اسباب التـطور الرث واليات المجتمعات العربية الحديثة :الى استخدام السوسيولوجيا ،واستخدام السوسيولوجيا الماركسية بالتالـي ٠ بل ان مثقفا يمينيا معاديا للماركسية هو الاستاذ ، انطـون المقدسي ، اضطر الى الاعتراف تحت هذا التاثير ،الى القول ان السوسيولوجيا الماركسية مفيدة في فهم البنى العربية الراهنة (٤)

بمعنى آخر ، الضرورات السياسية والاجتماعية ، هي التي تعطي الافكار مسوغا لها ، وان رواجها وقبولها ، تكرارها بالتالي ، هو الذي يعطيها جدارتها الفكرية ، من حيث هي تجيب على تساؤلات ، هي بالاساس تساؤلات ذات منشأ « ازموي » اجتماعي تختزل الى بحث فكري ، ملـح عن اجابة ـ بغض النظر عن نجاحها او اخفاقها ، تعثرها أو فشلها ، في هذه الاجابة ٠ بلغـة ثانية ، لا ينبع القبول (الرواج والانتشار) الاجتماعي (والعقلي بالتالي) ، لافكار ما من درجة منطقية هذه الافكار نفسها (درجة مصداقيتها وتماسكها وجدارتها المنطقية) بل من جاذبيتهـا الاجتماعية : درجة تعبيرها عن المشكلات الاجتماعية القائمة ٠

ان تاريخانية العروي ، توفيقية زكي نجيب محمود وانور عبد الملك بصدد الاصالة والمعاصرة (وكذلك تكرار هذا الموضوع في عدد كبير من الكتابات وخاصة في الاونة الاخيرة) ٠ سوسيولوجيا سمير امين ، اسلامية حزب جبهة التحرير الجزائرية ، ماركسية الياس مرقص ٠٠ الخ ، لا تعبر في حقيقتها عن اجابات لتساؤلات فكرية ناشئة في اذهان مثقفين ومفكرين اطلعوا على مناهـج واخر منتجات « العقل » الاوروبي ، ولكنها في الاساس ، اجابات على تساؤلات ناشئة اصلا عن ازمة حقيقية هي ازمة المجتمع العربي التي هي ازمة تخلفه وتبعيته ، وازمة تحرره ، ان موضوعات العــروي ، مثلا ، بصدد « الايديولوجية العربية المعاصرة ، الفكر السلفي ، العرب تجاه اوروبا التاريخانية ، و « الفكـــر الذي يجب تبنيه » هي بالاساس موضوعات الساعة بالنسبة للعرب ، ولذلك كان الاحتفال الكبير والسريع بها ، كما انه يفسر لماذا اخفقت حدة هذا الاحتفال ، بعد ان تم « اكتشاف العروية ، بعد زوال دهشة التعارف الاولى٠ نفس الامـر يفسره كذلك ، لـــماذا

(٤) انطون المقدسي ٠ الوحدة في « المعركة العربية » ٠ المعرفة ، العدد ١٣٠ ، كانون الاول ١٩٧٢ ، ص ١٦٨

اخفق شاعر كبير ، يحتل حيزا واسعا في عالم الثقافة العربية المعاصرة ، هـــو ادونيس*، في استقطاب « جمهور » واسع في ساحة سياسية ساخنة ، هي الساحة السورية ، بينما كان نجح في ساحة سياسية اقل حدة هي بيروت(قبل الحـرب الاهلية اللبنانية) بالرغم من أن أدونيس ، كان استطاع ان يكوّن مجلة فكرية لها خطهــا ، الــذي كان يعتبر تقدميا حسب مقاييس الساحة الثقافية ـ البيروتية انذاك ، واستطاع استقطاب مجموعة من المثقفين الى مجلة « مواقف » عندما كانت مواقفه مرتبطة فقط بعالم الافكار والثقافة ، اي عندما لم تكن افكاره تخضع لمحك التجربة السياسية العيانية ـ اليومية ، والمباشرة ٠

ان جماع ومكونات « العقل » العربي الحديث ، هي بالاساس التجربة الاجتماعية العربية : التجربة السياسية ، وان تكون « العقل » العربي ، اذن ، هو تكون سياسي ، قبل كل شيء ، وان منهج مناقشة هذا « العقل » ، يعبر كذلك عن المنهج السياسي : موقف صاحبه من المســالة الاجتماعية العربية ، الذي هو بالمحصلة الاخيرة ، موقف سياسي من الفه الى بائه ٠ ان ما اصطلح على تسميته بالموقف من التراث التاريخي ٠٠ الخ ، هو بالحقيقة تعبير غير مباشر ، عن الموقف من التطور الراهن ، المسالة الاجتماعية الراهنة ، الصراع الطبقي ، بالتالــي ، في المجتمع العربي الحديث ٠

٣ ـ ما سبق يفسر لنا لماذا كان مصطلح مثل « الفكر العربي » ، « الثقافة العربية » ، أو « الايديولوجية العربية » ، هو مصطلح مضلل بحد ذاته ، ان لم يتم تحديده باضافة صفات أخرى عليه (بلغة المنطق الصوري : تحديد ما صدق الحد (تضمنه) بواسطة تضييق عديد أفراد جنسه (شموله)) ، تفصله عمليا عما يمكن أن يختلط به من مفهومات اضافية تحيله الى مصطلح غامض ، و « الثقافة العربية » المعاصرة ، ليست اذن التي تنشر في القرن العشرين فحسب ، بل والتي تتصدى كذلك للاجابة على تساؤلات ومعضلات المواطن العربي في القرن العشرين : مشكلات الفعل الامبريالي في الخارطة الجغرافية ـ الاجتماعية ـ السياسية العربية الراهنة ، وآليات هذا الفعل ، من أجل معرفة آليات كبح هذه الآلية ، عبر فعل معاكس : فعل التحرر العربي ٠ كما انه يفسر لنا الاسلوب ، المنهج ، الذي يجب أن يقرأ به الفكر العربي الحديث ، منذ مطالع ما يسمى بعصر النهضة العربية حتى اليوم : قراءته في سياقه التاريخي ، والمعضلات التـي جابهتـه فـي مراحله : استحضار اللحظة التاريخية ، ولكن في سياقها ، والاشكالات التــي أثارته ، وكيف فهمها « الفكر » في تلك المرحلة ، كما أنه يفسر ، كذلك ، ضلالية ورداءة مصطلح أزمة الثقافة

* الذين ينتقدون مواقف المثقفين التقدمين العرب « الانفعالية » تجاه قضايا الادب والفن تلك المواقف التي يشوبها كثير من « السياسة » و« قليل من الفن » ، يغفلون بتقديري ، مسألـة هامة في « العقل الثقافي العربي ، فالقضية الاساسية التي تحتل حيزا كبيرا في حياة ، وبالتالي تفكير هذا المثقف ، هي المشكل السياسي- والاجتماعي ، وليس المشكل الفني ، فهو ، بصفته مواطنا يعيش يوميا مشكلات لا يجد تفسيرا لها الا في السياسة ، لا يستطيع ولا يمكن ان يكون موضوعيا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ، ما دامت المواقف السياسية لكــل الناس ، هي نقطة ، الفصل في تقويماتهم ، أما ان نطالب المثقف فقط ، دون غيره ، أن يفصل ، يعزل ويميز ، بين الاعمال الفنية والفنان نفسه ٠ حياته وممارساته السياسية والاجتماعية ، لغته وشكل تعبيره ومضموناته ، فهذا مطلب تعسفي ، وغير موضوعي ، لان الفنان نفسه ، هو بالمحصلة الاخيرة ، كائــن سياسي ، اجتماعي ، ويلعب دورا سياسيا ، ولن ندخل هنا في جدل اضافي بصدد « اللغة الفنية » ، ولكن يبدو لي ، أن تفسير مواقف عديد من النقاد العرب من قضايا الادب والنقد الادبي ، يكمن فـي قراءة تاريخهم السياسي ٠٠ !

العربية – لانه يبعدنا عن الجوهر ، لاقتصاره على تشخيص العرض ، فاذا كانت الازمة هي أزمة التحرر ، أزمة السياسة التحررية وحركة التحرر العربي ، فان الازمات الاخرى هي أعراض أزمة التضيع ، أزمة المؤسسات التربوية ، أزمة المواصلات ، أزمة النقد الادبي ، أزمة « الفكر » ... الخ ..

بلغة ثانية ، ليس للمجتمع العربي ، ككل المجتمعات ، جوهر ثابت أو رسالة دائمة وخالدة ان له وجودا تاريخيا يتكون ويتعدل دون انقطاع ، وان ما يحدد وعيه ، الذي لا يكون هو ذاته ثابت كذلك ، هو وضعه ، أوضاعه التي هي كذلك عرضة للتغيير والتطور المستمر ، والخاضعة لجملة من المتغيرات الداخلية والخارجية .

نقول ، لا يمكن اختزال تطور « الفكر العربي الحديث » بحصره ضمن « عالم أفكار » معزول ومستقل ، وحتى متعال عن نفسه ، يتطور تلقائيا وبفعل عوامل ومراحل نابعة منه هو نفسه لان تطوره لم يكن تطور افكار محضة : لقد كان تطور أفكار ناجمة أساسا عن حاجات موضوعية عن خبرة الحركة التحررية العربية : ارث تركيا الاقطاعية والرجل المريض ، الدخول الامبريالي الصراعات الاوروبية لاقتسام ممتلكاتها ، أحداث لبنان ١٨٦٠ ، الحرب العالمية الاولى وحركة ١٩١٦ ، ونتائج الحرب ، ثورات ١٩ ، و ٢٠ ، و ٣٦ ، أحزاب الاستقلال ، ارث قضية فلسطين حزيران ، ارث الناصرية والبعث والقوميين العرب والشيوعيين ، ارث المقاومة الفلسطينية ... الخ ... بلغة ثانية ، يدرس الفكر العربي الحديث من خلال البرنامج المتجذر في الوجدان الشعبي العربي : برنامج الاستقلال الوطني ، ومشاريع التقدم ، التحرر ، الثورة الاجتماعية أي من خلال هذه الايديولوجية الضمنية التي تشكل القاسم المشترك الاعظم للوعي الشعبي العربي والتي يمكن تحديد مكوناتها بالتساؤلات التالية : أ – لماذا تم غزونا بهذه السهولة واليسر ؟ ب – أهداف أوروبا من هذا الغزو ؟ هـ – ثم ، وكنتيجة ، ما هي هذه الـ « أوروبا » ، ما هو سرها ؟ د – كيف نحقق تقدمنا ، ذاتنا ، ونحمي انفسنا من هذه الـ « أوروبا » . ومن أية «أوروبا» مماثلة أخرى ؟ كيف نحقق تقدمنا الحديث ؟

ان قراءة الفكر العربي خلال السنوات المائة الاخيرة ، في سياق التاريخ الموضوعي للامة العربية خلال نفس الفترة ، تكشف لنا أن هذا البرنامج كامن خلف وبين كل السطور ، وانه يشكل العنصر الاساسي لكل التساؤلات الفكرية والنهاجية ، وان تطور الاجابة عليها من حيث هي تساؤلات ، اي تطور مضمون الاجابات (دخول وخروج أفكار ومضمونات ، وتجذر وتعديل أفكار ومضمونات) مرتبط أولا بارث التجربة السياسية ، والاجتماعية – الاقتصادية المنبثقة عنها .

صحيح أن أوروبا شكلت عنصرا أساسيا من عناصر « الوعي » العربي الحديث ، ولكن صدمتها لم تحدث ردود أفعال تلقائية ميكانيكية صرفة ، كما يفترض بعض الكتاب العرب وغيرهم (هشام الشرابي ، البرت حوراني .. الخ .) ، فمواقف المثقفين العرب (طه حسين ، الطهطاوي ، محمد عبده .. الخ) لم تكن ردود فعل منعكسية اشراطية (ولكن في سياق العقل فقط) على الصدمة الاوروبية التي انتجت « صحوة » تجاهها ، لقد كانت « صدمة » اكثر تعقيدا ، وانتجت « صحوة » كذلك اكثر تعقيدا : لقد كانت أبعد من مجرد كونها « وعيا أسود »** . !

★ هذا يقودنا الى مناهج الاستشراق . ولكن المجال هنا لا يتسع لمناقشتها . وليست لدينا المراجع الكافية الآن . وأرجو أن أتمكن من ذلك فيما بعد . لكن يكفي هنا أن نشير الى انه نشأ بالاصل من اجل اكتشاف « العالم » المطلوب غزوه والاستيلاء عليه . وما زال الاستشراق الراهن ، على الغالب ، هو استمرار للقديم : فما زال « الموضوع » ، هو حقيقة هذا العالم الآخر » . نحن نفترض أن الاستشراق ، حتى طيب النية ، أدنى من المعرفة الموضوعية ، ومن فهم « الظاهرة » !!

هذا يعيدنا الى نقطة البداية التي انطلقنا منها : أشكال هذا البحث ، فاذا كانت الثقافة تشكل جوهر « الوعي الاجتماعي » الصريح والمعبر عنه ، وهو الوعي بضرورة التحرر والتقدم الاجتماعي ، فان دور الثقافة ، في هذه الحالة ، في عملية التحرر نفسها ، من حيث هي عملية ، لا يقتصر فقط على الجانب الايجابي ، بل هي قد تلعب أحيانا دورا معيقا ، كابحا لهذا التحرر ، حين ترتدي أقنعة ، تبدو للوهلة الاولى أنها وجوه حقيقية ، أي حين توجه هذا الوعي الاجتماعي نحو توجهات هي تاريخيا لا تعالج المعضلة الاساسية : اللحظة المعاشة واشكالاتها* . فاذا كان المكون الاول « للوعي » العربي الحديث هو مكون سياسي ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، فان المشكلة الاساسية التي شغلت بال المواطن العربي هي أولا وثانيا .. وعاشرا هي مشكلة التحرر والتقدم الاجتماعي . وبهذا الصدد ، فقد وضعت هذه المشكلة أوروبا ، في ذهن العربي – المثقف منه وغير المثقف – موضع التساؤل والبحث من أجل اكتشاف سرها وسبب تفوقها وهيمنتها : اعادة دراستها دراسة غير اوروبية ، ولكن هذه العملية لم تتم ، ككل عملية أخرى ، وفق هذا النموذج العروي المبسط : أوروبا – غير اوروبا ، فلقد تطلب الاقتحام الاوروبي وانتج بالمقابل ، وكذلك

★ بما أن الايديولوجيا منظومة ثابتة من التصورات والبنيات الذهنية عند عالم (هو بحد ذاته معطى ومتغير) ، وعن علاقات اجتماعية شديدة التغير ، فهي ستغدو انعكاسا مغلوبا للاشياء والواقع في وعي الناس داخل المجتمع ، يتم تقديمها عبر التاريخ في اشكال عديدة (اخلاق ، عقائد ، مفهومات) وتاسيسها بنحو مفاهيمي صارم بحيث تكتسب صفة اطلاقية وشمولية . وبذلك تصبح الايديولوجيا ، على المستوى العلائقي الاجتماعي ، اداة لصالح الطبقات المسيطرة وسلاحها يحكم سيطرتها ، وقمعها .

ان الثقافة (الافكار . الايديولوجيا) موضوع يمكن دراسته بحسب مناهج سوسيولوجيا المعرفة ، اننا نفترض مستويين لدراسة الثقافة ، من حيث هي مجتمعية :

– المستوى التاريخي للثقافة : تفهم وتدرس الهموم والمعضلات الاساسية لامة من الامم من خلال انتاجها الثقافي ، الذي يعبر بنفس الوقت ، عن أصالتها ، وعبقريتها الخاصة ، في علاقتها وصراعها مع البيئة ومختلف اشكال التحديات التي تواجهها . وبهذه الحالة يمكن دراسة توجهات فكر أمة في حقبة تاريخية معينة (خلال قرن أو نصف قرن) وكيف استطاع أن يعبر عن مشكلاتها ، انه بهذا المعنى يبين بنية الوعي الاجتماعي لمجتمع ما من المجتمعات .

– اما المستوى الثاني ، فهو المستوى الآني : اللحظة الراهنة ، مستوى المرحلة . وهنا يمكن اجراء تصنيف اخر : كيف عالج الفكر ، المفكرون ، مشكلات المجتمع الخاصة ، وهذا يكشف دورهم الاجتماعي : دور المفكر الاجتماعي اكان رجعيا أم تقدميا .

وبهذا المعنى ، فان التيارات الثقافية والفكرية (والسياسية من ثمة واذن) تغدو جميعها جزءا من بنية الوعي الاجتماعي ، من جهة ، وجزءا كذلك من فكر الامة نفسها ، من جهة ثانية . أي هو فكر الشعب ، لامة بأسرها . أما القول مثلا ، بحسب طريقة صفوان قدسي ، بمصطلح « الفكر القومي العربي » وهو يقصد به الكتابات ذات الاتجاهات « القومية » العربية ، فهو اما ينم عن جهل مطلق بألف باء « الفكر » ، واما عن تجاهل متعمد ، بهدف اعطاء الصفة الاطلاقية على « اتجاه » معين ، هو بعينه غير محدد ، ويبدو انه غير قابل للتحديد ، لانه فضفاض لدرجة تكاد تكون أكبر من أن يخضع للتحديد . فهناك الآن : اتجاهات اسلامية عربية ، واتجاهات قومية علمانية ، واتجاهات ماركسية وحدوية .. ونحن لا نستطيع ان نفترض انها ليست جميعا « فكرا » عربيا بنفس الوقت ! بل ان تعريف هذا « الفكر » تعريفا يحدده ، يبدو انه مستحيل منطقيا ، لاننا بذلك ننفي عنه صفة المجتمعية ، وننفي عنه كذلك مضموناته ، فهو اذا لم يكن ليبراليا ، أو ماركسيا ، أو اسلاميا .. فمن هو اذن ؟

مثقفين غير أوروبيين ولكنهم « متأوربين » ، توخوا محاكاتها ، وأسرهم تفوقها وجبروتها . هذا ينطبق أساسا على مدارس واتجاهات ومثقفين عرب معاصرين ، منهم العروي ـ انور عبد الملك ، ادونيس ، زكي نجيب محمود ، ورحله توفيق الحكيم في « الوعي » التي انتهت الى هتر شيخوخة تعسة .. وآخرين كثيرين . كما أنه يفسر اشكالات هؤلاء المفكرين الذين يجدون أنفسهم على هامش الحياة الاجتماعية ، ويفسر من جهة ثانية ، لماذا تكون دعواتهم مرفوضة وبعيدة عن الجماهير التي يتم اتهامها على الغالب بأنها هي الرجعية وانها ترفض التجديد ، كما انه يفسر من جهة ثالثة ، هوية هذا التجديد (أو الاصلاح ..) الذي يقدم الى الجماهير ، كما انه يفسر من جهة رابعة ، وعلى المستوى النهاجي ، كيف يجب ان ندرس تاريخ الدعوات الاصلاحية العربية الحديثة ، وأسباب « فشلها » ... وسنعود الى هذه النقطة فيما بعد ..

نقول ، اذا كان البحث عن سر أوروبا استغرق وقتا طويلا في « الفكر » العربي الحديث ، فان الاستجابة لم تكن وفق المعادلة المدروسة الساذجة : شرق ـ غرب ، أوروبا ـ غير أوروبا ،لان بصمات هذا البحث بارزة على سياقه التاريخي ومجموع توجهاته الرئيسية ، لقد كانت استجابة معقدة ، لان هاجس الفكر العربي خلال هذه الفترة كان البحث عن اجابة على السؤال الذي ما زال يتطلع الى جواب : اكتشاف أوروبا (وبتعبير اخر : سر تفوقها ، جبروتها ، طغيانها ، وقدرتها التي بدت يوما ما تفوق التصور ، وانتهاكها لعالمنا وتحطيمها لمجتمعنا) من أجل التحرر منها والخلاص من هيمنتها . لقد انتقل الفكر العربي (ولكن ليس بمعنى تطور ، بل بمعنى راوح) ، من تأكيده على تفوقها المادي وفقرها في الجانب الاخر (وبالتالي تفوقنا) : جانب الاخلاق والروح*، الى التطرف فيما بعد في قبول أوروبا ، من حيث هي كذلك ** ، مرورا بالرومانسية المتطرفة : الرومانسية اليائسة من امكان التحرر : نعيمة ، جبران ...

من الصحيح ، ان البحث عن سر أوروبا ووضعها موضع التساؤل ، يتطلب ، كما يقول العروي ، محاكاتها وتجاوزها بنفس الوقت ، ولكن مشكلة المثقف العربي كامنة ، من جهة ، في اصطدام عقله عبر التعامل مع الحقيقة الاوروبية الموضوعية ، من حيث هي حقيقة خارجية عنه ، ولكنها بنفس الوقت حقيقة معادية : فاذا كان رد فعله الطبيعي ، في البداية ، هو السعي نحو القطيعة مع كل ما هو أوروبي ، والبحث عن المسوغات النظرية لموقف القطيعة عبر البحث عن الذات ، واكتشاف عناصر التفوق العربي الكامن بالرغم من الضعف (رهنا ومنطقيا لارتداد نحو الذات : البحث في التراث ، وهنا الدين الاسلامي ، عن عناصر تردم الفجوة الناشئة وتجيب على السؤال الكبير) ، ولكنه من الصحيح كذلك ان التساؤل ظل قائما ، لان تعقد الظاهرة الامبريالية : انتشار العلاقات الرأسمالية في المجتمع العربي ، والظاهرات الناجمة عنها ، قد دفعته مرة ثانية للبحث عن سر أوروبا ، ولكن عبر نظرة جديدة أكثر عمقا لظاهرة اكثر تعقيدا ، نقول تكمن

....

★ يشمل هذا الموقف : الاجابات المتطرفة (مثل جملة الريحاني الشهيرة والشديدة التعبير عن هذا الموقف : أنا الشرق من يبيعني طائرات لابيعه فلسفات . حيث يصبح معنى الفلسفات هنا ، بحسب هذا المفهوم الريحاني : روحانيات ، ترهات . فالحضارة ، بذلك ، هي عناصر تقنية، مادية فقط . ولسنا في معرض مناقشة تسطح هذا الفهم ، ولا اثبات عجزه عن ادراك تعقد الظاهرة ، ليس الاوروبية فحسب ، بل العربية في عصر الامبريالية كذلك) . كما يشمل أيضا المدرسة المادية الميكانيكية (شبلي الشميل ..) ، او الحركة الاحيائية الدينية (الافغاني ومحمد عبده) ..

★★ مثل الدكتور حسين فوزي ، لطفي السيد ...

مشكلة المثقف العربي في الحقائق الموضوعية ـ الناجمة عن « أوروبا » : الحقائق الاجتماعية ـ السياسية ـ والاقتصادية : بين التخلف وآليات استمرارها واعادة انتاجها .

بلغة ثانية . ان استمرار ظاهرة التخلف العربي ، وبالتالي التفوق الاوروبي والاقتحام الاوروبي ، قد أعادت طرح السؤال القديم بصدد سر أوروبا ، وجدت أشكال البحث عبر اجابة له ، بحيث أدخلت المسألة النهاجية الى الصورة . ولكن خطأ العروبة الاساسي ، كنموذج وكمثال في هذا الصدد ، في معرض تقويمها لتطور « الايديولوجية العربية المعاصرة » ، هو خطأ البنيوية الشكلية القاتل : ميكانيكية العلاقة بين تطور الافكار : شكلية « توالد » الافكار من بعضها ، فاذا كانت التجربة العربية الحديثة تجاه أوروبا ، ولدت نوعا جديدا من المثقف السلفي ،والليبرالي والماركسي غير التاريخاني ، فان ولادة كل منهم سببه « التأمل » العقلي في فشل « النموذج الاخر وعجزه : تلد الفكرة بعلائقية شكلية ، نموذجها الاخر ، عكسها ، الذي هو صنوها ومكملها بنفس الوقت ، وبهذا المعنى ، اختزلت العروية الديالكتيك الماركسي ، الذي تفترض امتلاكه ، الى ارسطالية متحذلقة ، من حيث هي ظنت أنها قدمت ديالكتيكا لا يأخذه الباطل . ولعل هذا يفسره موقفها الاستعلائي من الجماهير : نخبويتها المركبة ، حين اضطرت ، في سياق بحثها عن حامل اجتماعي للتاريخانية التي تبشر بها ، الى الارتماء في أحضان نخبة مستعيرة من نخبة البورجوازية الصغيرة (المثقفين) .

٤ ـ للتجمعات البشرية (المجتمعات من حيث طبقات متراتبة) منطقها ، فكرها ، ايديولوجيتها الضمنية الخاصة ، التي تتكون وتتجذر في أذهان ابنائها بفعل عملية تاريخية معقدة وطويلة ، تحكمها قوانين أساسية يمكن تحديدها واكتشافها بواسطة اعادة قراءة تاريخ هذه المجتمعات وخبراتها الكبرى . وينبغي التمييز في هذا السياق ، بين نوعين من الايديولوجيا : الايديولوجيا الرسمية ، الدين أو التشريعات التي اكتسبت صفة القداسة ، وبين الايديولوجية الضمنية لهذا التجمع البشري : ايديولوجيته التاريخية ، وينبثق عن هذين المستويين الايديولوجيين ، مستوى ثالث : العلاقة بين هاتين الايديولوجيتين ، التي كثيرا ما يفترض خطأ أنهما تعبران عن درجة شبه كاملة من التطابق بينهما ، وبذلك يتم وضع العربة أمام الحصان . ان دراسة ظاهرة علاقة الايديولوجيا بالمجتمع ، دراسة سوسيولوجية ، تكشف الخطأ الاساسي : لان الايديولوجيا ، التي توجه لها الانهامات عادة ، ليست كائنا ثابتا جامدا ، وان احتفظت بملامحها الاساسية ، اذ ان المجتمع ينجح ، باستمرار ، في تلوين الايديولوجيا وفي اعادة تأويلها ، تأويلا يرضخها لايديولوجيته الضمنية : فهو يبقى على ثوبها ، ولكنه يلتهم مضمونها ، ويعيد بناءه ثانية بعناصر من أيديولوجيته الضمنية . بلغة ثانية ، يقوم المجتمع ، عبر عملية تاريخية ، طويلة أحيانا ، بترويض الايديولوجيا ، وبسلب عنفوانها الذي يكون شديدا وقويا في أول الامر ، وبتحويلها من الداخل الى مقصر وشارح ومبرر للاوضاع الاجتماعية ، التي كانت نذرت نفسها في شبابها لاعادة صياغته ، أو بالاحرى اعادة بنائه بعد تقويضه . وبصدد الاسلام ، فهو لم يكن سببا ، كما يفعل معظم المستشرقين الاوروبيين وبعض العرب المتأوربين ، في انحطاط المجتمعات الاسلامية في العصور المتأخرة ، بل كان ضحية هو الاخر لعملية اعادة تأويل له بحسب معطيات مجتمعات صارت متخلفة ، فتم ارضاخه لضرورات اجتماعية جديدة : لبنى اجتماعية رقيقية ـ اقطاعية استبدادية ، تقدس ما لقيصر، وتأكل ما « لله » .

ان اختزال عدد من المثقفين العرب العملية التحررية وتسطحيها الى معادلة حسابية ـ ذات مجهول واحد : مسخها الى مسألة نهاجية ، بتحويلها الى اشكال نهاجي يتعلق بطريقة التفكير التي « يجب » على العرب أن يتبنوها ، هو الذي يفسر ، الى حد بعيد ، ما كنا بينا من ابتعاد الجماهير العربية عنا ومن نظرتها الشكاكة الى الدعوات الاصلاحية التي رفضتها ، منذ القرن الماضي ، فلقد كان تأثير أوروبا الحاسم منذ القرن التاسع عشر ، كما يقول رودنسون ، في الوطن

العربي ، هو الذي خلق « وضعا أدى في كل مكان الى أحاسيس الذل والتمرد المنتشر » (٥) من جهة وأدى الى تكون « ضرب من الايديولوجية الضمنية عند جماهير الشعوب الاسلامية كرد على الوضع السياسي ، والاجتماعي والاقتصادي المحدث » (٦) ، من جهة ثانية · ان عجـــز هـذه التيارات عن أن تلبي تلبية **موضوعية** ، وليس تلبية منطقية أو ذهنيـــة ، الاحتياجات الحقيقية والعميقة للمجتمع العربي المعاصر ، وهي هنا التحرر والتقدم ، وما يتفرع عنهما من مسائـــل محاثية ، هو الذي يفسر مسيرة الثقافة العربية خلال السنوات المائة الاخيرة ، كما انه يفسر من جهة ثانية ، تلك الايديولوجية الضمنية المتجذرة في الاذهان العربية ، بنتيجة الخبرة المعقدة لهذه الاذهان ، بلغة أدق الجماهير الشعبية ، مع الغـــرب الاوروبي المتفوق والمهاجـم ، وما فهمته على أنه **ايديولوجيا الغرب** ، **وكيفية تعامل المثقفين العرب** مع هـــذه الايديولوجيـــة ، وأشـــكال واشكالات تعبيرأتهم عن هذه الكيفية · بلغه ثانية، سبب البعد الجماهيري الاساسي عن التيارات الاصلاحية الفكرية ، يكمن في عدم قدرة هذه الاخيرة على الاجابة على مشكلة الاصطدام بالغـــرب أي عجزها عن التعبير ومعالجة الموضوعات التي تحتل الحيز الاكبر في الايديولوجية الضمنية معالجة التحرر بتقديرنا ومن جهة اخرى ، لماذا كانت المسألة الاساسية ليست هي المسألة النهائية بسبب اعتقاد العروي ، بل هي أساسا مضمونات الفكر ، وقدرته على التعبير عن هذه الموضوعات « الجماهيرية من جهة ، وسبب ريبة المثقفين (ولن أقول تعاليهم ، احتقارهم ··) بالجماهير وبقدرتها على فهم أفكارهم ، كما انه يفسر من جهة ثالثة أو رابعة او خامسة ، لماذا كانـــت ايديولوجيا المثقفين **السائدة** ، هي أيديولوجيا آثمة : فاذا كانت المشكلة الاساسية التي تواجـــه المجتمع العربي (بتعبير اخر : التي تحتل الحيز الاكبر في الايديولوجية الضمنية) ليست فكرية بل هي أساسا مشكلة تحرره عمليا وموضوعيا ، من حيث هي عملية تاريخية يجب انجازهـــا ولم تفتر همة الناس من تبنيها ومن اعادة تأويلها واثارتها ، فان مصدر اثمية الفكر العربـــي السائد ، لا يكمن في مستواه التعبيري أو الاكاديمي (فهناك استثناءات فكرية وأدبية تثيـــر الاعجاب) ، ولكن لانه يضع نفسه خارج هذه العملية السوسيو ـ تاريخية فيبقى عـــلى هامش المجتمع وخارج مكونات ايديولوجيته الضمنية : غريبا ، منبوذا ·· **وبرجعاجيا** ★

هذا يعيدنا ، برأيي ، الى المشكل ذاته : الفكر وعلاقته بالتحرر كعملية اجتماعية تاريخيـــة تتطلع الايديولوجيا الاجتماعية العربية الى انجازه · كما انه يعيدنا كذلك الى ما كنا قلناه قبـــل

....

★ مكسيم رودنسون · **الماركسية والعالم الاسلامي** · ترجمة كميل داغر ، دار الحقيقـــة ، بيروت ، سنة ١٩٧٤ ، ص ٥٨ ·

★ هذا يفسر كذلك ، ومن زاوية اخرى ، ما كنا قلناه ، لماذا ظلت المحاولات الاصلاحيـــة الفكرية والادبية ، منذ القرن الماضي ، مرفوضة جماهيريا ، ليس لان الجماهير ، ايديولوجيتها ، ترفض التجديد بل لان « التجديد لم يكن متوافقا مع الحاجات الحقيقية للشعوب التي كان يقدم اليها كمثال ، حتى انه كان يؤدي الى اضرار تصيبهم » (**رودنسون** · المرجع السابق · ص ١٧٥) فالجديد الذي يلبي احتياجات اجتماعية حقيقية ، كان يتم تبنيه عمليا وضمنيـــا ، اجتماعيـــا ، واخلاقيا ، رغم أنف « المثقفين » على اختلاف اتجاهاتهم ، وكان الفكر ، يناقشه ويعالجه فيمـــا بعد · ان قراءة سوسيولوجية لاليات دخول « التجديد » في المجتمع العربي خلال السنوات المائة الاخيرة ، تبين بوضوح مدى عمق هذه الايديولوجية العربية الضمنية ، ومدى قدرتها على التعبير عن ذاتها وعن احتياجاتها ، وكيفية تكونها التدريجي والتلقائي ، فلقد قبلت التجديدات في أوساط اجتماعية واسعة ، ثم جاءت الاستفسارات ، ثم ، وفي النهاية ، آراء « المفكرين » وأحكامهم · وأرجو أن أتمكن من مناقشة بعض الاتجاهات الفكرية العربية السائدة ، التي تفترض نفســـها تجديدية وتقدمية ، في مقالة لاحقة ·

قليل ، من رفض الجماهير للتجديد الذي يطرحه المثقفون ، ويثير في وجهنا تساؤلا ، اشكالا ، يلح في الاجابة عليه ، وهو التساؤل حول سبب هذا الرفض الجماهيري ، سبب رفض الايديولوجيـــة الضمنية للجماهير العربية المفقرة ، لاشكال التجديد ونبذها لها ؟

يقودنا طرح التساؤل ذاته الى جوهر المشكل ، فما دامت الافكار لا تجـد رواجهـا وقبولهـا الاجتماعي من جدارتها المنطقية ، بل من جاذبيتها الاجتماعية وقدرتها على الاجابة على التساؤلات المفتوحة للحقبة التي تعيش فيها وتتصدى لها ، فان رفض الجماهير للتجديد ، اذن لا يكمن فـــي رجعيتها ، او في ايديولوجيتها التقليدية ، أو الاسلامية ، كمـا يـرى المستشرقـون الامبرياليـون الغربيون ، أو بعض العرب المتأوربين (أمثال **برنارد لويس** ، أو **عبد الله العروي** في مسألة نقـد الفكر السلفي) ، بل من درجة مصداقية هذه الافكار التجديدية موضوعيا وقدرتها على التعبيـــر عن احتياجات عميقة للمجتمع العربي ·

ان اشكال « الفكر » العربي ، بصفته فكرا غير أوروبي ويستهدف التحرر من أوروبا بنفس الوقت ، هو كيفية الوصول الى فكر محرض لملايين الجماهير من أجل لم « شعـــث وعيهـا » ، « وشتات » عالمها المادي ـ ما نسميه بالاصالة والمعاصرة ـ ، أي دون الخـروج عـن السـياق التاريخي لهذا العالم ، والتحرر ، بنفس الوقت ، من البصمات الثقيلة الوطأة والباهظة التكاليف للاقتحام الامبريالي ـ وهنا الاوروبي والامريكي كجزء منه ـ لهذا العالم ، الذي يفترضه الوعـي الاوروبي أنه عالم شاسع ساكن حافل بالاسرار ★ ، التي لا يمكن انجازها الا عبر اعادة صياغـة هذا المجتمع واعادة تكوينه مرة اخرى تكوينا يستهدف كذلك بناء عالم قادر على حماية نفســـه من أوروبا نفسها أو من أية اوروبا اخرى ، بالاعتماد على وسائل وأدوات ، مادية وفكرية ، لهـــا مساس بأوروبا كذلك (التقنية ، العلوم التطبيقية ، العلوم النظرية ومناهج البحث العلمي ···) ·

بتعبير اخر ، اذا كانت الامة العربية ، بصفتها واحدة من العوالم غير الاوروبية » ، تريد أن

....

★ حافل بالاسرار ، من حيث أن سياقه التاريخي مغاير للسياق التاريخي الاوروبي ، وغير مفهوم ضمن القنوات والادوات الفكرية الاوروبية · ويجب أن نضيف ، الى ان معنى السكـــون والسرية هنا ، يتضمنان جوهر التعالي الذي يضمره الفكر الغربي ، فالسكون نقيض الديناميـــة المفترض أنها متمثلة في آليات المجتمعات الاوروبية (وكأن التغير والتطـور فـــي هـذه الحالـة صفة مجتمعية أوروبية فحسب !) ،أما صفتا الغموض والسرية ، فلا عطاء حافز صريح ومباشر ، من أجل اكتشافه وبالتالي غزوه وانتهاك « عذريته » الحضارية·(لاحظ تعبير افريقيا العذراء ··) واعادة صياغته أوروبيا · هذا يشرح جزئيا ردود الفعل غير الاوروبية : الوعي الاسود ، البحث عن عناصر القوة في أمجاد الماضي ، النزعة القوموية وبعث التاريخ ليس من أجل دراسة الصيرورة التاريخية نفسها ، بل من أجل بعث أمجاده فقط ، كشكل من أشكال التعويض عن الانتهاك ، تقديس ما هو تاريخي ··

أليس صحيحا قولنا أن نمو هذه الاتجاهات « التعويضية » ـ ان صحت التسمية ـ هو تعبير عن أشكال من القمع المعنوي ، أشكال من الاستلاب ، وانها ، بالرغم من كونها تشكل ، في مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال بشكل أخص ، ردود فعل مشروعة ومفهومة ، لكنها لا تشكل وعيـــا حقيقيا بالمشكلة : أليات التحرر ؟ أليس من الصحيح السعي من أجل تأسيس سوسيولوجيا البلدان المتخلفة ، وليس سوسيولوجيا التخلف فحسب ، من أجل فهم سياق الاصالـة وآليـــات التحرر ، والوعي بهذا التحرر ؟

تحمي نفسها من « أوروبا » بأدوات دفاع ، مادية ومعنوية ، ذات أصول أوروبية ، واذا كانت أدوات الدفاع هذه لا مندوحة من استخدامها هي ذاتها ، فان الاشكال هنا يغدو شكليا ، ويصبح كذلك نوعا من الحذلقة الفكرية التي لا طائل من ورائها ، ان لم نقل انها تلعب دورا رديئا في عملية التحرر الاجتماعي ؟! لكن الاشكال مع ذلك يظل قائما ، ما دامت الجماهير الغفيرة ، المتطلعة الى التحرر والخلاص ، ترفض التعامل مع هذه الادوات وتعتبرها عنصرا معاديا ومهددا · واذا كان حدث ، عبر السنوات المائة الاخيرة ، نوع من تقبل التقنية الاوروبية ، الا انه ظل في اعماقه نوعا من التعايش الظاهراني ، الخارجي (نوعا من التلاؤم) مع أدوات خارجة عن « وعينا » ومستقلة عنه ، أما « الفكر » ، فما زالت قطاعات عريضة جدا تعتبره مادة مستوردة ترفض حتى الاطلاع عليها أو التعامل معها ، بمعنى أن الذرائعية النفعية الكامنة في الوعي الشعبي استنبطت مع مرور الزمن والحاح الحاجة العملية الناجمة عن الضرورات الحياتية والاجتماعية ، حلا عمليا وبسيطا : قبول ما هو مفيد من أوروبا (التقنية) ، ورفض ما هو ضار ومؤذ منها (الفكر ·· الاخلاق)*. وهذا يعيدنا ، مجددا ، الى تأكيد ما كنا بيناه من أن التجديد المطروح ظل دائما يقدم بصيغ منفرة ، وأحيانا معاكسة لحاجات الجماهير ·

ونحب أن نلاحظ ، قبل أن نختتم هذه الفقرة من البحث ، أننا ، كيلا نقع في محذور الشعبوية: نزعة تقديس كل ما هو شعبي ، لا نعتقد أن كل ما هو شعبي هو صحيح أو تقدمي أو مقدس ، نحن نميز ، بين الشعبوية ، وبين ما دعوناه بمكونات الايديولوجيا الاجتماعية الضمنية العربية ، التي نفترض أنها تتحدد أساسا في البحث عن التحرر والتقدم والرفاه · باختصار اكثر ، الشعبي ، ما هو شعبي هو غير الوعي الشعبي : فالعرضة النجدية ، أو الدبكة اللبنانية ، أو الاغنية الرائجة ، هي بمعنى من المعاني شعبية ، ولكن الوعي الاجتماعي ليس هو الدبكة ، أو العرضة ، أو الاغنية ·

٥ ـ يجدر بنا هنا أن نتناول مشكلة أساسية من مشكلات هذه المقالة ، وهي مشكل « المثقف » الماركسي في الوطن العربي · نحن نعتقد أولا أن للماركسية جاذبية خاصة في المجتمع العربي ، تكمن في قدرتها على الاجابة على التساؤلات التي تثيرها الايديولوجية العربية الضمنية ، من حيث هي قادرة على « التكيف » الاجتماعي مع مجتمعات غير أوروبية ، وتستجيب للحاجات العميقة لهذه المجتمعات : كونها منهج وأداة تفكير وتحليل يستطيع أن يجيب على التساؤلات العميقة لمسائل كيفية انجاز التحرر والتقدم ، وفي الحاحها بنفس الوقت ، على تفاؤلية تاريخية أخاذة تبشر بمستقبل ممكن وفي متناول اليد ، وفي قدرتها كذلك ، على الاجابة المبسطة على حلول هذه التساؤلات والمعضلات ·

يكمن المشكل بتقديرنا ، في التساؤل التالي : ما هي الاسباب الاجتماعية ، الحقيقية ، لعدم انتشار الماركسية في الوطن العربي ، بينما هي انتشرت وحققت انتصارات كبيرة في عوالم

★ تستند الرجعية في محاربتها للفكر التحرري ، على مقولات جاهزة مثل « الفكر المستورد » ·· الخ · ولكنها بنفس الوقت « تستورد » حججها الفكرية من أساطين الرجعية في العالم ، أي من أوروبا الامبريالية نفسها · هل هو سر أن نقول أن معظم اليهات العقاد مستمدة من برغسون ، وان مقولات ريمون آرون منتشرة لدرجة تكاد لا تصدق بين الكتاب العرب المعادين للتقدم ! · هذا دون أن نغفل الى ان هناك نوعا من الفكر المستورد بمعنى أن همومه وتطلعاته مستوردة ، أن مراجعة للكتابات التي انتشرت في الستينات مثلا توضح ذلك بشكل فاضح : واقصد بذلك موجة ما سموه يوما ما « بالقلق الوجودي » ·· الخ ·

متشابهة اخرى : عوالم غير أوروبية ، تتطلع ، كمثل الامة العربية ، الى التحرر والتقدم والرفاه الاقتصادي والاجتماعي ، وتأكيد الذات ؟ !

الذين يطرحون هذا التساؤل في العادة وعلى الاغلب ، يبحثون عن الجواب في وصفة سحرية : « رجعية » الجماهير العربية ! أو في الدين الاسلامي ، أو ، على أقل تقدير ، ومع افتراض حسن النية ، في ذكاء الرجعية واستغلالها للدين الاسلامي ؟ !*

ترتبط الاجابة البنيوية ، الصورية ، على هذا التساؤل ، بافتراض أن مشكلة الماركسي العربي تتحدد في العلاقة بين أوروبا ـ غير أوروبا : كونه يرتكز على فلسفة (هي الماركسية) تنتمي في أصولها الى عالم يعاديه ويناضل من أجل التحرر منه (أوروبا) ، ويستخدمها في عملية اثبات الذات ، التي تتضمنها عملية التحرر ذاتها · وفي تكوين وعي غير أوروبي ، من جهة ، وفي أن هذا الوعي نفسه ، من حيث أصوله الاوروبية ، هو وعي مشكوك بصحته وبجدواه وبفاعليته من قبل جماهير لا تستطيع وليست مطالبة عمليا في أن تدرس الحضارة الاوروبية من أجل الوصول الى عناصرها « الايجابية » ، التي تتمثل هنا في الفكر الماركسي ! ؟ · بتعبير ثان ، ما دامت ماركسية الماركسي العربي تمتاز عن ماركسية صنوه الاوروبي الغربي · (ولكن ليس بالمعنى الذي أصر عليه العروي : الاختلاف بين الماركسية كعلم في أوروبا ، وبين الماركسية كايديولوجيا في العالم العربي) في كونهما ينتميان لعالمين ، هما عمليا ونظريا متباينان ، وتنطوي العلاقة بينهما على تاريخ طويل من الصراعات والتصورات العدائية ، الصريحة والضمنية ، تجاه الاخر ، فكيف يستطيع الماركسي العربي ، في هذه الحالة ، أن يستخدم الفكر الماركسي كمحفز وكمحرض لجماهير مفقرة ، من حيث هي معادية في الجوهر لكل ما يمس أوروبا وتشكك بصدقه وجدواه ؟ شكلية التساؤل تحتم شكلية الاجابة : مشكلة الماركسي العربي كامنة في كون أدوات وعيه هي « غير أصيلة » ، وتستخدم من أجل بناء عالم أصيل ، بل ان مشكلته مستحيلة الحل : الماركسية ، كفلسفة وكفكر (من حيث تنتمي الى عالم يراد منها أن تعاديه ، وأن تعيد صياغة وبناء عالم يستريب في مصادرها ، عبر هذا العداء بنفس الوقت) ، لا تستطيع ، بصفتها نتاجا أوروبيا ، أن تكون سبيلنا الى المعاصرة ، دون ان نقصد الاصالة !!

تكمن الاجابة على هذا الشكل ، بتقديرنا ، في اعادة صياغة السؤال الذي تورط فيه حتى بعض الماركسيين العرب ، وليس أعداءهم فحسب ·

لماذا لم تستطع الماركسية في الوطن العربي ، أن تلعب ، كمثل الفيتنام أو الصين مثلا ، دورا محرضا ومؤطرا للجماهير ، بالرغم من جاذبيتها وقدرتها الفائقة على ذلك ؟ يتوضح الجواب، بتقديرنا ، من خلال الاجابة على أمرين : الاول ، هو معرفة ، ما كنا بيناه في الصفحات السابقة ،

★ أجاب عبد الله العروي ، في محاضرته البيروتية (نيسان ١٩٧٤) ، على التساؤل : الماركسية ليست بنت أوروبا ، بدليل أن أوروبا لم تعاملها حتى الان كابنة شرعية لها · تجيب الرجعية العربية على التساؤل ، بأسلوب يوحي بالصدق : معاكسة ومنافاة الماركسية لقيمنا وتقاليدنا ·· لاصالتنا ! · كثير من الماركسيين العرب وقعوا في الفخ : الماركسية لا تنافي تقاليدنا · ويبحثون عن المسوّغ في التاريخ والتراث : ابن خلدون ، القرمطية ·· الخ هل نقول ان بعض التقدميين العرب حين يعزلون الحركات والمواقف القومية في التراث ، عن سياقها التاريخي العام ، يقعون في نفس الفخ أيضا ؟! لان المطلوب هو دراسة الصيرورة التاريخية ، من أجل الوصول الى مكوناتها واكتشاف سياقها ·

أعني المكونات الاساسية للايديولوجيا الاجتماعية العربية الضمنية ، التي تعبر عن الاحتياجات العربية الحقيقية ، والثاني ، في معرفة تاريخ الماركسية في الوطن العربي ، على ضوء الاجابة على هذا الامر الاول ، أي قراءة تاريخها على ضوء فحص مدى تعبيرها عن تساؤلات الايديولوجيا الضمنية العربية ، وتلبيتها العميقة لاحتياجاتها ·

صحيح أن حملات العداء للشيوعية في الوطن العربي قد تم تنظيمها وقيادتها من قبل الامبريالية والرجعية العربية بفرض تشويهها وتنفير الجماهير منهاوصحيح كذلك أن الايديولوجيا المضادة قد استخدمت الدين الاسلامي في التشهير بالشيوعية ، في فترة كانت الاجابات الاساسية لتساؤلات الحقبة مستمدة من الدين الاسلامي ، ولكن الاجابة مع ذلك تظل مرتبطة بمعرفة كيفية تقديم ، فهم ، تصور ـ بغض النظر عن درجة الخطأ أو التشوه أو الدقة في هذا التقديم ، أو الفهم والتصور ـ الماركسية لهذه الجماهير التي تحتاج الى التحرر والتقدم ، بتعبير ثان ، يكمن الجواب ، بتقديرنا ، في معرفة انتشار الماركسية في الوطن العربي أولا ، وفي تاريخ تطورها ، من جهة ثانية ، وهذا ما سنحاول الاقتراب منه في دراسة لاحقة · ولن نسهم هنا في حملات العداء للشيوعية تحت اسم أو دعوى « الدفاع عن الماركسية الارثوذكسية التي انتهكتها الاحزاب الشيوعية التقليدية العربية » ، ولكن يجب أن نبين : أولا ، ان طبيعة انتشار الماركسية في بداياتها الاولى في الوطن العربي ، بين أفراد ومثقفين هم في غالبيتهم أبناء أقليات أثنية أو طائفية (أو حتى قومية) : أكراد ، أرمن ، شركس ، أرثوذكس ، وفرنسيين في شمال افريقيا ، خلق رد الفعل التلقائي ، والطبيعي ، من قبل جماهير (ايديولوجيا ضمنية) في مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال المباشر ، وترزح تحت نير الاحتلال ، وهو النفور واسترابة مما تعتبره عملا إنشقاقيا ، في حين تبحث هي عن الوحدة الجامعة لابنائها · أما الامر الثاني فهو تعزز النفور الناجم عن طبيعة هذا الانتشار « الانشقاقي » المريب ، بمسألة اخرى هي كيفية طرح الماركسية العربية وتصويرها لنفسها وكيفية تقديمها للجماهير ، أي عدم قدرتها على أن تلعب دور المحرض الجماهيري ، لكونها لم تستطع ، لجملة أسباب يعود معظمها للامر الاول (كونها انتشرت بين مثقفي أقليات) أن تجيب على الحاجات الاجتماعية الحقيقية : الاجابة على المهانة الامبريالية · بلغة ثانية ، لم تقدم الماركسية العربية نفسها كمجيب حقيقي لتساؤلات المرحلة ، وكمستجيب للاحتياجات الشعبية العميقة ، رغم قدرتها الفائقة على ذلك ، كما أثبتت تجربة الفيتنام مثلا ، بل طرحت نفسها ، وطرحت ، كايديولوجيا مناقضة للايديولوجيا السائدة : انتشارها بين مثقفين ، أفراد ، معزولين ، ومنهم أفراد مستعمرون ـ فرنسيين ويهودا في المغرب ، ويهودا أوروبيين في فلسطين وسوريا ولبنان ـ جعلها ، بالضرورة ، حاجة ثقافية ، وليست حاجة اجتماعية ، ومرفوضة ، كنتيجة وبطبيعة الحال ·

باختصار أكثر ، كون الماركسية في نشأتها وبداياتها الاولى في الوطن العربي ، منعزلة ، ميكانيكية ، مسطحة ، اقتصادية ، وطبقوية ، وحتى كوسموبوليتية ، يفسره الى حد بعيد جوهرها الاجتماعي آنذاك : كونها حاجة ثقافية انتشرت بين مجموعة من المثقفين أو من غير العرب ، وحتى المتأوربين ، وان انتشارها في السنوات الاخيرة ، اندماجها بالحركة التحررية ، وتحولها الى مكون أساسي لفكر هذه الحركة (لاحظ تطور الناصرية ، البعث ، القوميين العرب ···) حاليا ، يفسر كذلك وضعها الراهن : تحولها الى حاجة اجتماعية ، تحررية : بدايات فهمها الراهن كسوسيولوجيا ، تلقي أضواء كاشفة على المجتمع العربي وآليات عمله في عصر الامبريالية ، وآليات تحرره بنفس الوقت ·· ان تاريخ الماركسية ، قصتها في الوطن العربي ، تفسر الى حد بعيد كذلك ، ما كنا بيناه من قبل ، وهو لماذا يجب ألا يناقش « الفكر العربي في عصر النهضة » كذلك ، بحصره ، باختزاله أو بالاحرى بمسخه الى « عالم أفكار » معزول ومستقل ، وحتى متعال عن مجتمعه ·· !!

يبدو لنا أن تساؤل كيف يصبح الفكر العربي تحرريا ، يظل تساؤلا قائما في سياقنا هذا ، ما دام الاشكال الاساسي للتحرر الاجتماعي ما يزال قائما ، وما دام الفكر لم يستطع حتى الان أن يلعب دور المحرض ، المعبيء ، لملايين الجماهير العربية المتطلعة الي التحرر والتقدم والرفاه · بلغة اخرى ، ما دام الفكر لم يستطع أن يحقق جوهره الاجتماعي : دوره السياسي · ولكن الاجابة مع ذلك ، لا يمكن تسطيحها بجملة تعسفية ، شديدة العمومية ، أي اذا قلنا « حين يتبنى قضية الجماهير ، كمثال لاننا بذلك نقع في نفس الخطأ ونتحدث بلغة نعتبرها أثمة أو بتعبير عقائدي نتحدث باللغة البورجوازية الصغيرة بمعنى الاكتفاء بالعموميات ، بالشعارات ، بالمصطلح ، وبالتحدث ، بالتالي ، بلغة تقوم كلماتها بدور مهمة التعمية ، اخفاء وتمويه الحقيقة ، التي هي ، بالنسبة للعربي ، ليست غير حقيقة واحدة : هي كشف آليات التحرر ·

صار من الضروري ، في يقيني ، تشريح الفكر العربي السائد ، مناقشته ، ملاحقته ، ومطاردته · صار من الضروري تعريته ، وفضحه من جهة ، وتطويره ، من جهة ثانية · لقد كشف تطور الاحداث العملية ، وبين بوضوح كبير ، أزمة الوعي العربي السائد : مأساة تاريخ ثقافي كامل : مأساة يعانيها وعي جيلنا الذي تفتح على هزيمة حزيران ، المتمثلة في « صحوة » ولدها انهيار عالم كامل من انجازات الاجيال السابقة : حركة الاستقلال الوطني ، انجازات الدولة الوطنية وهشاشتها ، العالم الاجتماعي (القمعي ، الاستبدادي) الذي بناه هذا الجيل السابق ، وسقوط جبل بأسره من الكتاب والمفكرين · لانه حين ينحاز مثقفون عرب كبار أمثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ، ضد قضية الجماهير ، تصبح المسألة أكبر من أن يتم الاستخفاف بها ، لان هؤلاء المثقفين الكبار انفسهم ، هم الذين كونوا وعي جيلنا ، وهم الذين رصفوا في عقولنا موزاييكا من القيم والمثل : قيم الحرية والوطنية والبحث عن « عودة الروح » ـ بحسب لغة توفيق الحكيم ـ ، وهم الذين قاموا بهدم هذه القيم وبامتهانها ، بنفس الوقت ، وأخشى أن أقول بوقاحة دونها وقاحة القوادين ·· فاذا كان بحث توفيق الحكيم ، تمركز ، طيلة حياته الطويلة ، حول تغطية ووعي وعودة « الروح » ، وبالتالي الرد على التحدي الاوروبي ، فكيف يمكن أن نفسر أو نفهم تنازله عن هذه الروح نفسها في الاونة الاخيرة ؟ كيف يمكن ان نفهم استسلامه بالكامل أمام المهانة التي ولدتها اسرائيل ، وأمام سلطة كاريكاتورية ، مهرجة ورخيصة ، تعتمد أساسا الشطارة والفلهوية ومنطق « علي بابا والاربعين حرامي » ، في تعاملها مع شعبها ، الذي دعاه السادات ، في معرض حديثه عن انتفاضة كانون الثاني (يناير) المجيدة في العام ١٩٧٧ بالحرامية واللصوص والساقطين

ان اثما كبيرا يترتب على المثقفين التقدميين ، لان خط التراجع هذا ، كان مبلورا ، مصاغا ، كان موجودا ، وكان على خطنا تعرية هذا الخط ، وفضحه ، ليس بالتعرية النظرية فقط ، ولكن العملية كذلك : بالموقف السياسي ، بالفضح السياسي · قبل تبلور خط السادات ، كان جيل توفيق الحكيم ، انور عبد الملك ، نجيب محفوظ ·· يقول انه تقدمي ، ما دامت المسألة هي مسألة مواقف نظرية فقط · أما حين كشف « التصحيح » الساداتي عما تحت ورقة التوت ، حيث اضطرته الظروف الموضوعية الى ان يكشف ويبرز عورته ، عاهته ، لم يعد نجيب محفوظ ، ولا توفيق الحكيم ، قادرا على المناورة · صارت الايديولوجيا ، الكلمات ، هي الدفاع : الدفاع عن العاهة وتبرير العورة والعهر ، وحين يصبح الفكم محافظا يفقد جدليته ، يفقد كونه فكرا ، فهو صار معرفة آثمة ·

فهل من الممكن في هذه الحالة ، وعلى ضوء هذا الاشكال ، « لم شتات الوعي » العربي ، بحسب تعبير محمد أركون (٧) ؟ بلغة أخرى ، مع أن الدعوة الى « تأسيس كتابة عربية جديدة » ،

---

(٧) عبد الكبير الخطيبي · نحو علم اجتماع للعالم العربي · مواقف ٣١ ـ ٣٢ ، ١٩٧٥ ، ص١١ ـ

صحيحة من حيث الجوهر ،ولكنها ليست صحيحة على طول الخط ، صحيح ان « المعرفة العربية معرفة آثمة » ، بحسب الدكتور الخطيبي ، ولكن ليس لانها « معرفة ثانوية تلهث » وراء المفهومات الغربية ، من جهة ، وكذلك الاستخدام الهجين لهذه المفهومات ، الذي يعطي نتائج لا ترضي أحدا : لا العرب ولا الغرب » (٨) ، فعدم الوعي بالمشكلات وعيا حقيقيا ، ليس مرده الترجمة ، أو النظرة الاكاديمية لهذه المشكلات ، لان التخلف العربي ، أساسا ، ليس تخلفا فكريا ، انه فرع من الاصل ، الذي هو التخلف نفسه : بنى التخلف .. آليات تجديد واعادة انتاج التخلف .. التبعية .. الصراعات الطبقية العربية ـ العربية .. الحروب الاهلية العربية ... ان الوعي بالمشكلات ، من حيث هي كذلك ، هو الوعي **السوسيولوجي** .. هو الوعي غير الآثم .

باختصار اكثر ، لا يمكن للمعرفة العربية السائدة الان ان تكون غير اثمة ، الا اذا نظرنا اليها نظرة عروية : يجب ان تكون « تاريخانية » . ولكن المشكل ليس على هذا الشكل . هنا صار الفهم على رأسه : مقلوبا وستلبا ، يصبح موضوعيا اذا سالنا العكس « لماذا هـ اثمة ؟ وكيف تصبح ، من ثمة ، موضوعية : اي كيف تستطيع ان تجيب على الاسئلة الاساسية للايديولوجيا العربية الضمنية .. ؟

وعلى سبيل الخاتمة ، وعلى أن ننجز بقية الاجابة على المشكل ، يبقى التساؤل الاول قائما ؟ وهو كيف يمكن تاسيس فكر ، معرفة ، كتابة تحررية ، تستطيع ، بنفس الوقت ، أن تلعب دور محرض ملايين الجماهير العربية ، وتعبئتها من أجل التحرر و التقدم . ؟

الجواب بسرعة : حين تصبح الماركسية معربة ، اي حين تستطيع ان تحتل وان تجيب على تساؤلات الايديولوجية الضمنية ، وان تصبح المكون الاساسي ، المجيب الفعلي ، فكرا وعملا على تساؤلات كيفية التحرر من آليات : التجزئة ، التبعية ، تجديد واعادة انتاج التخلف والبعية ، واسرائيل ...

سيدي بلعباس ـ الجزائر نيسان ١٩٧٨

---

(٨) محمد اركون . المرجع السابق .

الطاهر وطار: روائياً

كشوفات تشريحية في التاريخ والمرحلة

الصافي سعيد

الطاهر وطار كاتب ، وقصاص ، وروائي جزائري تقدمي .

صدرت له ، حتى الان ، ثلاث مجموعات قصصية ، هي على التوالي :

« **الطعنات** » ، « الشهداء يعودون هذا الاسبوع » ، و « **دخان من قلبي** » .

وروايتين هما : « **الزلزال** » و « **اللاز** » .

ومسرحية هي : « **الهارب** » .

له رواية بصدد الطبع ، في دار ابن رشد ببيروت هي : « عرس بغل » .

كان قد وزعها على الاصدقاء والرفاق ، منذ سنة تقريبا ، عندما قام وطار بطبعها على آلة « ستانسيل » ، مع رواية « **القصر والحوات** » ، **التي دفع بها الى المطبعة منذ مدة ، ولم** تخرج الى الآن .

آخر ما كتب **الطاهر وطار** رواية ، بصدد الانتهاء منها ، « **جميلة ديالنا** » .

صحيحة من حيث الجوهر ،ولكنها ليست صحيحة على طول الخط ، صحيح ان « المعرفة العربية معرفة آثمة » ، بحسب الدكتور الخطيبي ، ولكن ليس لانها « معرفة ثانوية تلهث » وراء المفهومات الغربية ، من جهة ، وكذلك الاستخدام الهجين لهذه المفهومات ، الذي يعطي نتائج لا ترضي أحدا : لا العرب ولا الغرب » (٨) ، فعدم الوعي بالمشكلات وعيا حقيقيا ، ليس مرده الترجمة ، او النظرة الاكاديمية لهذه المشكلات ، لان التخلف العربي ، أساسا ، ليس تخلفا فكريا ، انه فرع من الاصل ، الذي هو التخلف نفسه : بنى التخلف .. آليات تجديد واعادة انتاج التخلف .. التبعية .. الصراعات الطبقية العربية ـ العربية .. الحروب الاهلية العربية ... ان الوعي بالمشكلات ، من حيث هي كذلك ، هو الوعي **السوسيولوجي** .. هو الوعي غير الآثم .

باختصار اكثر ، لا يمكن للمعرفة العربية السائدة الان ان تكون غير اثمة ، الا اذا نظرنا اليها نظرة عرووية : يجب أن تكون « تاريخانية » . ولكن المشكل ليس على هذا الشكل . هنا صار الفهم على رأسه : مقلوبا وستلبا ، يصبح موضوعيا اذا سالنا العكس « لماذا هـ اثمة ؟ وكيف تصبح ، من ثمة ، موضوعية : اي كيف تستطيع ان تجيب على الاسئلة الاساسية للايديولوجيا العربية الضمنية .. ؟

وعلى سبيل الخاتمة ، وعلى أن ننجز بقية الاجابة على المشكل ، يبقى التساؤل الاول قائما ؟ وهو كيف يمكن تأسيس فكر ، معرفة ، كتابة تحررية ، تستطيع ، بنفس الوقت ، أن تلعب دور محرض ملايين الجماهير العربية ، وتعبئتها من أجل التحرر و التقدم . ؟

الجواب بسرعة : حين تصبح الماركسية معربة ، أي حين تستطيع أن تحتل وأن تجيب على تساؤلات الايديولوجية الضمنية ، وأن تصبح المكون الاساسي ، المجيب الفعلي ، فكرا وعملا على تساؤلات كيفية التحرر من آليات : التجزئة ، التبعية ، تجديد واعادة انتاج التخلف والبعية ، واسرائيل ...

سيدي بلعباس ـ الجزائر نيسان ١٩٧٨

....

(٨) محمد اركون . المرجع السابق .

الطاهر وطّار : روائياً

كشوفات تشريحية في التاريخ والمرحلة

الصافي سعيد

الطاهر وطار كاتب ، وقصاص ، وروائي جزائري تقدمي .

صدرت له ، حتى الان ، ثلاث مجموعات قصصية ، هي على التوالي :

« **الطعنات** » ، « الشهداء يعودون هذا الاسبوع » ، و « **دخان من قلبي** » .

وروايتين هما : « **الزلزال** » و « **اللاز** » .

ومسرحية هي : « **الهارب** » .

له رواية بصدد الطبع ، في دار ابن رشد ببيروت هي : « عرس بغل » .

كان قد وزعها على الاصدقاء والرفاق ، منذ سنة تقريبا ، عندما قام وطار بطبعها على آلة « ستانسيل » ، مع رواية « **القصر والحوات** » ، **التي دفع بها الى المطبعة منذ مدة ، ولم** تخرج الى الآن .

آخر ما كتب **الطاهر وطار** رواية ، بصدد الانتهاء منها ، « **جميلة ديالنا** » .

مقدمة لبداية الرحلة مع الكتابة ·

·· يمكن ان نؤكد – دون خجل – أن **الطاهر وطار يمثل حضور ظاهرة منفردة في الابداع الروائي** – على الاقل في المغرب العربي – وبالتحديد في الجزائر ·· وهنا سوف نحاول ان ندعم هذا الرأي ···

– الكتابة عند **الطاهر وطار** – الكاتب الوحيد بالعربية في الجزائر – الذي اكد على قدرته الفائقة على امتلاك حس الفن الروائي بكل تشعباته ·· هي الكتابة – الموقف ·· الكتابة – الفعل بتشكيل المجتمع الحماسي ·· المجتمع اللاعب ، على حد تعبير ماركس ··· وحتى اذا كررنا ·· **هي الكتابة الهادفة من أجل تحرر الانسان تجاه انتاجية مشوهة ·· وموجهة – غصبا واغتصابا – نحو السعي وراء الربح ، والربح فحسب ·**

دائما كان وطار ، وبداية من مجموعاته القصصية « **دخان من قلبي** » ، « **الطعنــات** » ، « **الشهداء يعودون هذا الاسبوع** » ، مرورا بمسرحيته « **الهارب** » ، وروايته « **الزلزال** » ، ووصولا برواياته الثلاث ، التي تأتي – كقفزة نوعية – شكلا ومضمونا ، في رحلة **وطار** مع الكتابـة : « **اللاز** » ، « **القصر والحوات** » ، و « **عرس بغل** » ··· دائما كان هذا الكاتب مثقلا بهمـوم المرحلة ، وهموم تشابكاتها الاجتماعية ، مرحلة الانتقال الحرجة ، لصيق مجتمعه · وبالتحديد لصيق محركي التاريخ ، الذين ليس لديهم ما يخسرون ، لان ليس لديهم ما يملكون ··

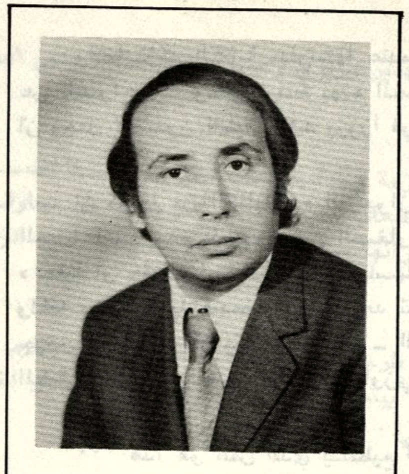
··· العلاقات الانتاجية والاجتماعية الفاسدة والمتفككة ، عشية الاستعمـار الفرنسي ·· وبالمقابل تبلور قوى اجتماعية صاعدة ، وبالنتيجة حرب التحريـر الوطنيـة ، ثم الصراعـات الايديولوجية داخل الحركة الوطنية ، التي هي صراع طبقي بالأساس ، في شكله المكثف ، ومتابعة ثورة المليون شهيد ، مع الرصد الحي والحار لدراما الصراع المحتدم بين من يملك كل شـيء ومن لا يملك أي شيء ··· ثم تناقضات مرحلة الانتقال – المرحلة – المعركة والمرحلة الحرجة في تاريخ كل الشعوب – تعرية التناقضات اللامرئية وتشريح سلبياتها ·· ومن ثم محاولة كشــف مزحزحي الثورات ، ومختطفي نضالات الشعوب ·

تلك هي مضامين « **الطاهر وطار** » في رحلته الكتابية ، التي تتوزع بين القصة القصيـرة ، والمسرحية ، والرواية ·

ان عضويته ، كمثقف طليعي ، تتأكد في طرحه للمشكلة – الظاهرة ، الدوائـر القائمة ، **ويتجاوز الواقع وقواه الطبقية وأدواته الايديولوجية السائدة**

ليس الصمت هو آخر المطاف ، بل الموقف العضوي الذي يتشكل – بديلا – **يمتطي صهـوة** الحلم الرؤيوي ·

ان التوغل في محيط نفسية أبطاله ، داخليا وخارجيا ، ومحاولة الادراك الواعي **للعلاقات**



● الطاهر وطار : روائيا ●

المعقدة · المتصادمة ، والمكملة بين الجزئي والكلي في حالة تمثل الوعي الديالكتيكي «·لتبنيـن **المكان والزمان في وحدتهما ، وفي الرؤية الكونية للعالم** ، وللاشياء (المعقدة والبسيطة) » (١) **هي السمات العامة للكتابة عند وطار** ، قصة قصيرة كانت أو رواية ·

في هذه المحاولة لرصد النتاج الروائي لهذا الكاتب الجزائري المملوء حماسا والمعبأ رؤية ، ونعني بالنتاج الروائي : رواياته الثلاث التي تشرح الواقع في أعماقه تعري المرحلة بالتحديد وتكشف عن تناقضاتها ، **قصد تعميق الصراع الطبقي والايديولوجي** · هــذه الروايات هـي : « **اللاز** » ، طبعت سنة ١٩٧٥ ، « **القصر والحوات** » ، ثم سحبها علـى آلة « المستنسيل « قام **صاحبها بتوزيعها المتواضع على رفاقه وبعض الاصدقاء** · ثم « **عرس بغل** » سحبت ، **هي أيضا** على آلة « المستنسيل » ·

– وقبل أن نمضي الى الرصد التحليلي لهذه الروايات · قبل أن نبحث في مضامينها ، **في تشكيلة البطل عند وطار · في موقع الاسطورة عنده** · في المرحلة وايقاع المرحلة · قبل هذا علينا أن نعرج ، ولو باقتضاب مكثف ، على موضوعات مجموعاته القصصية الاولى ، وروايته « **الزلزال** » التي لا ترقى لا الى المستوى الفني الجمالي ، ولا الموضوعي لرواياته الأخيرة · والتي تقف عند حد المحاولة المثالية أو المادية الفجة في تلمس الظاهرة ، وفي طرح الاصلاح الزراعي ، كضرورة تاريخية اجتماعية ·

ان مدلولية الكتابة ليست في أنها ترسم للقارىء صورة بشعة أو غير بشعة ، **بمعناهـا** الشائع ، ضمن حبكة جمالية معينة ، لواقع معين قائم · لكنه في الجانب الآخر مرفوض ، ومنهك داخليا · ليست هي مسالة تقنية فنية ، مفصولة عن مفهومية شاملة للحركة داخل المجتمـع ، اذ « ليس المطلوب ترجمة الفن الى واقع ، وانما ترجمة الواقع الى شكل جمالي جديد ، **يتجلى الرفض والنقض الجذري في الطريقة التي يتم بها تجميع الكلمات وترتيبها** » (٢) ·

---

(١) الثورة والثورة المضادة – فعل الثورة والفن · هربرت ماركيز ··
(٢) المصدر ذاته ·

وانما تؤكد الكتابة مدلوليتها عندما ترتبط بالشرط الانساني في جوهره ، الحركة المولدة عن الصراع · وحتى ترتبط بهذه الحركة ـ التجاوز التي هي جوهر انساني ـ على الكاتب أن يجعل المضمون الطبقي أشد بروزا في كتابته ·

ان كثيرا من الكتابات « البرجوازية المستنيرة » ، كما تسمي نفسها · وكتابات ملطفي الصراعات ، وهم البرجوازيون الصغار ، وحتى كتابات بعض الثوريين الذين يحاولون عن طريق « حقنة أو حقنات استهلاكية » ، أساسها الاستلاب الكلي ، تستطيع أن تشترط لنفسها الانساني ولكنه يظل رجعيا عندما يكون ذا بعد تخفيفي وتلطيفي لحدة الصراعات · بيد أن الجوهر وهو جوهر الديالكتيك أن يكون التداخل ـ التفاعل ·· الحركة ـ الصراع حتى تتمثل جدلية المضمون الطبقي الثوري والشكل الفني التجاوزي في جوهرها ·

··· هذا هو الفن الذي يستطيع أن يحتج و ـ لا نبغي الاحتجاج فقط ـ أو ينقض واقعا قائما على مداميك اغتصاب القوى المنتجة وابداعاتها ·· وهو الذي يعاني من التدمير السرطاني الداخلي ·

في مجموعات الطاهر وطار القصصية « الطعنات » ، « دخان من قلبي » ، « الشهداء يعودون هذا الاسبوع » بالرغم من أن موضوعاتها ذات صلة وثيقة بالمجتمع وهو يحاول اعادة صياغة الماضي ـ التاريخ فيها صياغة جديدة ويكشف عن سلبياتها عندما يحاول ملامسة عهد الاستقلال ملامسة لطيفة فانها تظل ذات نفس ضعيف يتراوح بين المضمون المثالي الفج وبين الشكل التقليدي الذي يتجاوزه أحيانا الى الشكل الساقط في الشكلانية ·

ان قصة « بقرة اليتامى » من ـ مجموعة الطعنات ـ والتي تتحدث عن تجربة العمال في التسيير الذاتي ، هي قصة ولا شك تحمل موقفا من العلاقات الاجتماعية التي بدأت تنمو داخل مجتمع المرحلة الوطنية الديمقراطية · هذه القصة تتمثل موقفا · وهو الوقوف الى جانب العمال في تجربتهم · ولكن قد نتسرع عندما ننعته بالثورية · ذلك أن هذا الموقف يبقى بعيدا الى حد ما عن الاستيعاب الشمولي ضمن مفهومية حياة العمال الواقعية المتحركة · أي وبالتحديد يبقى بعيدا عن استيعاب تجربة التسيير الذاتي كمرحلة وليس كنهاية سعيدة ·

في ـ بقرة اليتامى ـ نجد العامل محورا أساسيا ومدارا · لكنه عامل ـ ساذج ـ يتمرد ثم يصمت · يمتلك وعيا مهنيا مهزوزا وليس وعيا طبقيا · يطالب في حدود النقابة وهو غالبا ما يبدو في انسجام كامل وتجربة التسيير الذاتي عندما تلبي له بعض مطالبه الاقتصادوية ·

وعموما كانت موضوعات وطار في مجموعاته الأولى عبارة عن محاولة للاجابة عن السؤال الكبير المصيري : ماذا بعد الاستقلال ؟ أو كيف الوصول الى فهم المسائل الملحة المطروحة عن جزائر ـ الاستقلال ؟ ومن بينها ما أهمية مسألة ـ الاصلاح الزراعي ـ وضرورتها بالنسبة لجيش الكادحين والفقراء ؟

وكان لا بد من التعمق والغوص في فهم ـ معركة التحرير الوطنية ـ حتى يمكن أن يتعرف على القواعد السياسية والاجتماعية لاي اتجاه تنمية يكون في صالح قوى الثورة · هذا هو السؤال الثاني والمتفرع عن السؤال الكبير الذي يطرحه وطار ليجيب عنه ··· ربما تكون رؤية ـ كتاباته الجديدة ـ عنينا الروايات الثلاث في سياقها العام وفي مضونها ومفهوميتها للتاريخ

والواقع نقيضا لرؤية الاولى ·· وهي ـ تاكيدا ـ تجذير رؤيوي وعضوي لكن هذا لا يلغي أهمية مجموعاته المتمحورة في نقطتين أساسيتين :

١ ـ وجه يؤرخ لحرب التحرير الوطنية في نزعة وجدانية تغلب على أبطالها المسحة ـ الكوباوية ـ قدرهم في التمرد والثورة ضمن استيعاب مهزوز · هذا الوجه هو محاولة ـ تاريخية ـ لما طرحته هذه الثورة غداة انتصاراتها من تغيرات وتحولات بنوية على الواقع ـ ماديا وايديولوجيا ـ ·

٢ ـ وجه يحاول الكشف عن التناقضات التي طرحتها المرحلة الانتقالية ذو طرح يقترب ولا يبتعد كثيرا عن الطرح الموضوعي والذي يقترب ولا يبتعد من محاولة تكريس أو تثبيت أو اخماد هذه التناقضات بشكل غير حاسم وتوفيقي غير علمي ·

هذان الوجهان هما مصب موضوعات وطار في مجموعاته القصصية التي تبقى دائما مرحلة ـ مقدمة من مراحل كتاباته · وهي نقطة ضوء في أدب العربية الذي تفجر مع تفجير الثورة المسلحة ضد كل اغتصاب أو استلاب لابداعات الشعب العربي في الجزائر · فطبيعي أن تواكب الكتابة أي كتابة مسيرة هذه الثورة التي كانت الشكل المكثف لابداع هذا الشعب في مرحلة تاريخية معينة ·· كل منعرجاتها الحاسمة · معبرة عن همومها كاشفة انحرافاتها وفاتحة لها آفاقا جديدة ·

* فما هي هموم رواية ـ الزلزال ـ الرواية الاولى في رحلة وطار مع الكتابة ؟ والرواية الاولى التي تتطرق ـ بشجاعة محلية وذاتية ـ لما بعد الاستقلال كنفس جديد وطويل في رحلته · وكشكل فني اكثر تعبيرا واكثر استيعابا ـ عمقا ومساحة ـ لمرحلة غنية ·· متوترة · وساخنة ·

في ـ الزلزال ـ يطرح وطار موضوع الثورة الزراعية أو لنقل ـ المسالة الزراعية ـ كحتمية تاريخية · واهمية موقعها من عملية التحول الاجتماعي الذي حدث · ولكن ـ لنلاحظ من الآن ـ يسقط في الطرح الميكانيكي ذي الطابع التسجيلي ·

ان الشيخ ـ بالارواح ـ بطل الرواية · مالك الارض الاقطاعي · وشيخ التعليم ـ ازدواجية العمل عند الارواح ترمز الى أن العلاقات الاجتماعية السائدة ـ التعليم ـ القوانين ·· الخ وبالتالي الايديولوجيا ـ في مضمونها وشكلها شبه اقطاعية · هذا الشيخ الذي يحرق كل شيء في سبيل مصالحه الطبقية الضيقة تعقد معه ـ مصالحة طبقية وايديولوجية توفيقية يتبناها وطار ضمنيا · وذلك عندما يصاب هذا الشيخ بالجنون · والجنون هنا يشير الى لا معقولية الواقع السائد ـ العلاقات شبه الاقطاعية السائدة بعد ثورة كان وقودها فلاحون صغار وعمال ومسحوقون ·

والمصالحة الطبقية تاتي هنا كحل اخلاقي نتيجة فهم ميكانيكي للمرحلة عندما عقدها بين قطبي الصراع ، وتشير اليها سيارة الاسعاف التي تعد للشيخ عندما يصاب بالجنون ·

من هنا يمكن اعتبار الوعي الفني أو الفكري على وجه التحديد يتخذ منهجية وصفية للواقع وللحركة التاريخية حتى أن ـ بالمصالحة الطبقية والايديولوجية بين النقيضين ـ يأتي المفهوم العام للثورة واستيعاب الاصلاح الزراعي كضرورة تاريخية واجتماعية مائلا نحو المثالية · بمعنى

أن نظرة الكاتب لسياق الثورة والواقع في حركته وللقانون التاريخي وتجسيداته كانت نظـرة توفيقية على المنهج الانتقائي .

يتحدث « الأدرع الشريف » الناقد والقصاص الشاب الجزائري معيبا عن هذه الرواية يقول « خلاصة ما تقوله هذه الرواية هو أن الثورة الزراعية كان لا بد أن تكون حتمية الا انه لـو تعمق في تحليل الواقع الاجتماعي والظروف التاريخية ومضمون الثورة الزراعية كمهمة ديمقراطية لكان حري به أن يتساءل : لماذا لم تتم في ١٩٦٣ مثلا ؟ مع اننا نعتقد انها من اوائل المطالب التي رفعتها الحركة الوطنية . ومن العمليات الاقتصادية التي طرحها ميثاق طرابلس سنة ١٩٦٢ . ولماذا تعلن الحكومة في ١٩٦٣ عن الاصلاح الزراعي . وهذا الاعلان لم يبدأ فيـه الا مع مطلع السبعينات .. »

مع هذا نقول .

ـ ان أصالة الطاهر وطار ـ في فنه التي انفجرت مع حرب التحرير ظلت قادرة على التطور والتجدد . ظلت تستقطبها هموم عديدة وتستوعبها ضمن رؤية جديـدة ... فهؤلاء المشوهون العائدون من جبال الثورة .. الارامل اللاتي ما زلن ينتظرين الذين لن يأتوا .. والمحكوم عليهم بالوقوف الابدي أمام مكاتب الشغل . وفي محطات الباصات . والمتسكعون في البارات وعبر الشوارع من أصحاب العاهات العقلية والجسدية .. والفاقدون حلمهم الكبير في زحمة الشطارة الحرة .. هؤلاء هم الذين يشكلون هموم وطار . خصوصا في رواية ـ اللاز ـ روايته الثانيـة التي تنفذ الى أعماق الماضي ـ التاريخ الاول للشعب العربي في الجزائر من خلال انشقاقـات وتصدعات الحاضر ـ التاريخ الثاني لهذا الشعب .

علينا أن نعترف . أن المرحلة حرجة .. وتتطلب قدرا من الشجاعة الفنية والصراحة الفكرية التي تصل الى حد الوقاحة .. الدخول اليها أو فيها حرج والتوغل أو النفاذ فـي أعماقهـا أحـرج .

ولا مراء في أن الكاتب .. أي كاتب في مرحلة الاعداد والاستعداد للقطيعة الحاسمة مع كل اشكال القهر سيجد صعوبة . ولكن لا مراء أيضا أن الهروب من تشريح هذه المرحلة خيانة ...

تشريح الماضي مدخل لتشريح الواقع

« اللاز » . ذلك اللقيط الذي ما زال يبحث عن ابيه

ـ « وكان لا بد من تصفية الحساب مع الماضي .. كان لا بد من التعرية حتى الجذور . فهذا وحده ما يمنح الكاتب شرعية الكتابة عن الحاضر » (١) هكذا يقدم وطار روايته « اللاز » (الثانية بعد الزلزال) معلنا عضويته الموقفية بدون غموض .

(١) من مقدمة الرواية ـ اللاز ـ . منشورات الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع .

« القرية الجزائرية كما تركها ـ الرومان ـ تتأمل الجمال في كآبة .. وتطاول الظلال كلما انحنت الشمس وهنا واجهادا .. الماضي مثل كل ماض يتراجع الى الخلف .. ونحن مثل كـل حاضر نتقدم الى الامام .. الشهداء قد أصبحوا ذكريات بعيدة . وبطاقات منح كل ثلاثة أشهر وصوت « اللاز » يهدر في جنبات القرية الساكنة « ما يبقى في الوادي غير حجارة » هيـا اذن نتحسس الجرح .. شيء عشناه . وشيء سمعناه .. وشيء نتخيله » (٢) .

ـ من خلال هذه الايحاءات الاولية يبدأ تحديد المرحلة التي تشدد على تعريتها حتى الجـذور ... حتى تلمس الادران .

في البدء كان الفعل .. هكذا يؤكد غوته . ان كل مرحلة تاريخية عظيمة عند تقييمها ... هي مرحلة فعل ، الفعل ـ القفزة من خلال و ـ تتويجا ـ لتراكمات تاريخية ـ اجتماعية ظاهريـا ولعيون ـ الفوتوغرافيين ـ تبدو جامدة بلا حركة .

فك الاغتصاب عن قوى الانتاج المبدعة ، حسم الصراعات المكبوتة . تفجير الطاقات الكامنة . واختيار لحظة الرصد الواعية . هو الفعل ـ القفزة . فعل اللحظة المشحونة بعظمة مفجريها . واذن . هي لحظة الفعل ـ التوافق (الانسجام) النفسي والاجتماعي والقانوني (بمعنى الديالكتيكي) والسياسي بين جماهير المرحلة المعبأة براهنية لخطتها في تواصلها الذهني وبيـن قيادتها العضوية .

هذه اللحظة الساخنة والزاخرة بالفعل والحركة والعاطفة . كيف يتم رصدها الاضائي ؟ وحين يكون شكل الرصد شكلا فنيا ـ قصيدة ـ قصة . رواية . شريط سينمائي ـ كيف ينجح الفنان في عملية رصده ؟ ثم . وحين يكون هذا الفنان جزءا من تلك اللحظة ـ الفعل في نفس الوقت تواصلا أو امتدادا لذلك الواقع ـ والامتداد يكون حتى في شكل النقيض ـ في هذه الحالة كيف يتصرف الفنان ... والتداعيات شريط .. ؟؟

ـ انها لحظة زاخرة بالفعل .. بالحركة .. زاخرة بالحلم .. وحتى بالترهات .

ـ وانها لحظة زاخرة بالتحول المثقل بالبطء . زاخرة بغضب الكشف والتجاوز . وحتى بالفوضى . والسؤال المحوري .. هذه الثنائية الزمنية ـ الماضي والحاضر ـ كيف يتم رصدها ومعايشتها مستقبلا ؟ اي كيف تتحول هذه الثنائية الزمنية الى ثلاثية تواصلية .. الى وحـدة زمنية زاخرة بالمعطى والانطلاقة في شكل فني زاخر بالنفي ونفي النفي . ؟؟

ـ « اللاز » ـ كلمة لاتينية في أصلها . وتعني الواحد . أو البطل في لعبـة الورق . أي القادر على اكل جميع أوراق اللعبة . أسقط وطار هذا اللقب على بطله لكونه . بطل . قادر ولقيط لا أب لـه .

« هذا اللقيط الذي لا تتذكر حتى أمة من هو أبوه . وكأنها التقطته من الرماد مثل الدجاجة

(٢) رواية اللاز . الطاهر وطار ـ منشورات الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع .

··· برز الى الحياة يحمل كل الشرور (١) »

ـ اللاز الذي يحمل سمات عصره وشعبه ·· وقح · معاند · مكابر · ومشاغب ·· في نظر القائد الفرنسي عندما جاء في مونو لوج داخلي « آه ·· أيها اللاز اللعين · أيها المتحدي الاجلف · لو أعثر عليك · أعدمك سلخا · بل قبل ذلك أقلي زيتا في برميل ثم اغطسك فيه ·· آه أيها القذر انك لا تمثل شيئا · انك لا تمثل غير هذا الشعب اللقيط ·· غير هذه القضية المفتعلة التي انفلتت من دبر التاريخ » (٢) ·

واللاز الذي يقول له ـ زيدان الشيوعي ـ « انه ابني ·· ابن كل الناس · ابن ذلك الزمن ·· ابن ماضينا كله (٣) » ··· هذا اللاز المسحوق ـ النامي الذي يتحرك بكل اتساع في كل جهات المساحة يتلون ، يتقنع ، لا يخضع لخطوط الكاتب ولا لقنوات الالم والانصياع · هو شخصية الضياع ـ الحركة · الاستلاب ـ الاصالة · والمعاناة ـ المجاهدة والاجتهاد ··· لم يخن القضية رغم الانسحاق الداخلي ـ كونه لا تحدر عائلي محدد له في ـ مجتمع حنبلي ـ ورغم الانسحاق الخارجي ـ كونه مستلب وعيه للضرورة والفعل ـ ولكنه عرف كيف يجتاز كل الترسبات والعقد وينتمي بعفوية وعنفوان الى صفوف الثورة المسلحة ·

« حين اندلعت الثورة استبشر الناس بدنو أجله · خاصة وأنه يكاد لا يغادر مكتب الضابط · لكن الثورة لو رأت خيانة من اللاز لاعدمته · ولا أحد يستطيع نسبة خيانة واحدة معينة له · وجميع الذين يلقى القبض عليهم يشهدون لصالحه » (١) ·

ان اللاز هو النموذج المسحوق · والذي تعوزه المعرفة الجدلية بقوانين الحركة واذن قوانين العلاقات الاجتماعية · وعندما يكون عاجزا عن فهم هذه العلاقات المحيطة به · بمعنى عندما يكون عاجزا عن استيعاب العلاقة في نوعيتها التي تربطه بالمحيط لا يستطيع الدخول الى مرحلة الانجاز · « ثمة زمانان يتشابكان وان ظلا مستقلين بصورة جذرية · فليس لاحدهما تورط في الاخر » لكن زمن الحدث يتجلى في زمن الكمون والوشوك قبل الحدث نفسه الذي يأتي تجليا خارقا للترابط البنياني للمكان والزمان · وشخص كاللاز مستلب وشبه منبت ·· انجاز الكسر ـ الانعتاق ـ كسر العلاقة التناحرية والانعتاق الى علاقة انسانية غير مشوهة ـ مهمة تتطلب مكونات بنيوية على صعيد الذهنية المحمولة أو الموروثة ·· يمكن أن نسمي هذا بالوعي · ونلاحظ ـ وهو المفروغ منه ـ أن الوعي لا يمكن أن يأتي من داخل هذه الدائرة ـ دائرة العلاقة التناحرية ـ برغم تشديد ماركس ـ انجلز ـ معرفة الانسان يستمدها من الوسط المحسوس · ومن التجربة التي يتلقاها من العالم ـ · تكون التجربة ـ التلاحق ـ المعايشة حافزا وعاملا قمينا بأن يوقض في داخله الكمون والوشوك الغاضب · لكن هل يكون قمينا بأن يوجهه نحو الحدث الخارق ·· ما الذي يحتاجه اللاز · وكل شخص كاللاز مسحوق وفي طي الفعالية العديمة · او يوشك ·

ان الوعي يمكن تسربه من مجال العلاقات الاجتماعية في تناحريتها الدائمة ·· والمتنوعة في حركة ليست أتوماتيكية مع بعضها · لكن مع قوى الانتاج في تصاعديتها ـ وعلى صعيد

....

(١) المصدر ذاته
(٢) المصدر ذاته
(٣) المصدر ذاته
(٤) المصدر ذاته

التحت المادي ـ المبدعة · هذا الوعي المكبوت نتيجة لتراكمية استلابية وانسحاقية مبثوثة ومتفشية في شخصية اللاز ـ الشعب ـ اللاوعي (بمعناه المعرفي) لا يمكن تفجيره الا من خلال الصدمة عندما تخرج الصدمة من منطقتها ومنطقيتها الانفرادية الى المنطقة والمنطقية الجماعية لتكون حدثا نوعيا ومتنوعا يعلن عن حالة الانتقال من الحياة العادية ـ العلاقات القديمة السائدة ـ الى دائرة غنية ذات ايقاعات جديدة ضمن علاقات واسعة ونشطة للتخلص من المحمول والموروث في جموده ·

واللاز حتى ينتقل من فاعلية آلية ـ مرحلة الانسان اللاموقف · الانسان المنسحق ـ الى فاعلية انسانية ـ موقعية وموقفية ثم ونشاطية هذا الانسان ـ عليه أن يدرك طبيعة المرحلة التي يعيشها وتحاصره · بكل دوائرها · وعلاقاتها المتخشبة ·

عند هذا الطور التحليلي الرؤيوي لطبيعة المرحلة وطبيعة الدائرة يتوجب على المجهود الجماعي الجذري التحرك لصيانة ، بل لتشديد قوة الحصار والضغط على هذه الدائرة المنحطة اجتماعيا وتاريخيا حتى يتم اسقاطها ضمن استراتيجية تحقيق انسجامي بين الوعيين للذات وللمجموع · والذي يحدد فعالية هذه الاستراتيجية هو مبدأ الخروج الجماعي · أي الفعل ··· الجماعي · هنا يتوجب على ـ الوعي الوطني أن يتبلور ويتجذر · وعلى الوعي الطبقي أن يحدد مرحلته بدقة ويستوعب مهامها ليتم التلاحم بين الوعيين ـ لتتشكل وحدتهما قاعدة صلبة لوحدة الفعل المنافي للدائرة ـ الاغتصاب · والفعل ـ الانفلات خارج علاقاتها السائدة والفاسدة ·

ـ الانفلات خارج الدائرة الاولى الضيقة لبدء الفعل المضاد لهدم الدائرة الثانية قد تم حين يرتب الجنود الجزائريون في الثكنة خطة ويهربون باللاز بعد خوض عدة معارك مع رجال الحرس· وحين يصلون الجبل / قواعد الثورة / يلتقي اللاز بصدر ـ أبيه الروحي ـ العريض والحنون· وحين يمسك بندقيته ، يمسك زمام المبادرة ـ الفعل · يمسك زمام اللحظة ، وجوده ومصيره ، نقيا ، طاهرا · هكذا تمت عملية تجاوز الدائرة الاولى عند اللاز عندما تجاوز المجموع واقعهم ·

ان الواقع واحد · والعلاقات التي تكبلهم واحدة · والقوى التي تسحقهم واحدة (هم المسحوقون) لذلك سيكون الخروج لا معنى له اذا لم يكن واحدا جماعيا ومتماسكا ·

زيدان الشيوعي والحزبي / الشخصية الثانية / والجانب المسيس من شخصية اللاز ـ الشعب استطاع أن يرفض تلمودية ـ الحزب ـ الفكرية والتنظيمية · يرفض رؤياه المعمية العاجزة على مواجهة اللحظة وتحليلها ضمن منطقيتها الواقعية الملموسة في ملموسية الجدل والاستيعاب للتاريخ ·

زيدان الضائع الذي اهلكته السياسة حسب ما جاء على لسان أخيه ـ حمو ـ والذي تدرب في صفوف ومدارس الفرنسيين حسب ما جاء في خواطر الضابط الفرنسي ثم تسبقهم اليه موسكو · زيدان · العضو في الحزب الشيوعي الجزائري · عندما اندلعت الثورة المسلحة التحررية في أوائل الخمسينات / ١٩٥٤ / ماذا كان موقفه من الثورة ؟ ·· لقد انقسم من أول لحظة الى شطرين · شطر زيدان المبدأي الشيوعي وشطر الوجداني المواطن الجزائري بكل محليته ·· مفاذا كان ؟ ·

« التحقت بالثورة · لم استشر احدا · لا الحزب ولا غيره · أوجبت الظروف المحيطة بي ذلك ففعلت · واذا ما سئلت هل انسلخت من حزبي فسأجيب فورا بالنفي · واذا طلب مني ذلك

فسأظل أسأل عن الدوافع . لن انسلخ . ولن أدفع الاشتراك . ولن أسعى لتكوين خلايا جديدة . وسأظل أكافح من أجل الاستقلال الوطني » (١) .

هنا اندغم الموقف الوطني بالموقف الطبقي بأن حمل زيدان بندقيته رافضا موقف الحزب الشيوعي المعادي لهذه الثورة . ذلك الموقف المملي عليه من قبل الحزب الشيوعي الفرنسي .

ان ظروفا كثيرة قادت الحزب الشيوعي الفرنسي أن يتخذ موقفا عدائيا من الثورة المسلحة واعتبرها – ارهابا – تحت المقولة الميكانيكية الفجة / تحرير المحيط يتم عبر تحرير المركز / واذن لن يتم تحرير الجزائر الا بتحرير فرنسا . لان البرجوازية التي تمارس قهر الشغيلة الفرنسية هي التي تمارس قهر الشغيلة والجماهير الجزائرية لاستثمار كل طاقاتها . هذه المقولة الميكانيكية كثيرا ما كانت تستخدم غطاء لانخذالية بعض الاحزاب الشيوعية وقت صعود موجات التحرر الوطني ..

لا مراء البتة في أن هناك صراعات داخل الحركة الوطنية انذاك . وحلولا متنوعة وبرامج كثيرة ومتفاوتة في وطنيتها وفي درجة استيعابها للواقع وللتاريخ – من أقصى اليسار ، الى أقصى اليمين – وهي حبلى في سماتها العامة . وبمعنى عام . بمهام وهموم مرحلة التحرر الوطني .

لكن زيدان . رغم رؤيته الواضحة وتعليله الواضح لدائرة العلاقات السائدة . رغم ادراكه لبيروقراطية الحزب وانعزالية قيادته وموقفها التبعي الميكانيكي يظل يلح على موقفه الطبقي من الثورة . يلح على عدم انسلاخه من حزبه من جهة ومن جهة ثانية على عدم حل الحزب الشيوعي .

« لأول مرة في التاريخ يطرح موضوع تكوين جبهة من أفراد ، لا من أحزاب . هذا يعني تكوين حزب جديد . واذا كانت الخلافات والتصدعات داخل الحركة الوطنية تدعو بعض أعضائها الى تكوين هذا الحزب ، فانه ليس من الضروري أن يطلب من الاحزاب الاخرى حل أو تجميد نفسها . والموقف المبدئي في مثل الظرف لا بد له من أسس واضحة وشروط . أبسطها وضع ميثاق عمل وطني يساهم في تحريره .. » (٢) .

لكن هذه الصيغة التوفيقية من حيث الشكل بدت عاجزة . فزيدان لم ينسلخ من عضويته الحزبية من جهة . ولم يخلق بديلا لهذا الحزب البيروقراطي من جهة أخرى . ايضا لم يستطع أن يرجىء نشاطه الحزبي الى ما بعد الثورة الوطنية . والتردد البرجوازي الصغير وحده الذي خلق توتر التذبذب في الرؤية جعله يختار في شجاعة – انتحارية – : الموت الجسدي كواحد من بين اثنين / الموت الجسدي / أو – الموت السياسي الحزبي / .

الحالة الصعبة التي كان من الممكن توفير كل امكانياته لها لتشكل البديل الصحيح عجز زيدان عن تحقيقها كليا . وهي حالة توازنية يمكن أن تكسبه قطاعا واسعا من جماهير الثورة الوطنية . تلك هي . محاولة خلق خلايا جديدة في شكل تنظيمي مستقل عن الحزب الذي وعى بيروقراطيته .

---

(١) المصدر ذاته
(٢) المصدر ذاته

كثيرون من الشيوعيين الذين انسلخوا من أحزابهم حين اندلعت ثورات التحرر الوطني في أوطانهم . ولكن زيدان لم ينفصل ؟ .

وكثيرون حافظوا على انتمائهم الحزبي . وعملوا على تجذير رؤياهم السياسية . ولكن زيدان لم يحاول ذلك ؟ .

– أهو التراكم المرضي الذي يثقل المثقف البرجوازي الصغير ؟ لعلها حالة ثائية يعيشها في دوامة استلابية دائمة تتمظهر في شكلها الانفصامي المتارجح بين الموقف الحزبي المبدئي الجامد . وبين الموقف الوجداني الطفولي ؟

« سمكة لفظها فيضان نهر فتخبطت . وتخبطت فاستسلمت والسمكة لا دور لها الا الذوبان والانتهاء .. هكذا حظنا سيء يا اللاز .. » (١)

– ها هنا تقترب تراجيدية اللحظة – التقاطع في رواية « اللاز » عندما يقترب دور « زيدان » في الذبح ..

« اللاز الذي لن يفهمه أحد بعد زيدان .. » هو الذي سينفذ الذبح فيه .. هل هناك افظع من هذا ؟ .. « خلقت مادة خام . وستظل هكذا . لن يفهمك أحد بعدي يا اللاز حتى أنت لن تفهم نفسك .. التحقت بها عفويا . بل هي التي التحقت بك . أدركتها عملا وأدركتك روحا . ولما حان أوان اقتحامها لرأسك . لفكرك .. ها هو الجسر يقطع بينك وبيننا » (٢) ... هي الثورة في وعي ضروريتها .. هنا يفجر وطار عبوة الالم .. الثورة التي كان وقودها « اللاز » – كذات ومجموع – ليست ثورته . انها ملك لمن يتفرجون على صناعتها . مخاضاتها . وولادتها ثم يسرعون لجني أرباحها . واللاز الذي التحقت به هذه الثورة (استيعابها خارجيا) ظل خارجا عنها .

– كان منهكا ضمن دائرة ضيقة يعيش حالة انسحاق كلي / عقدة اللقيط في مجتمع حنبلي .. والتاريخ المجهول / .. وتحت جبرية الوضع ومتطلبات العمل تحدد اختياره – اللااختيار بأن انفلت من عقال الدائرة .

– أمر الشيخ – الايديولوجية الدينية والشوفينية / أن يحضر « اللاز » لتنفيذ حكم الاعلام ذبحا في – أبيه الروحي والسياسي – « زيدان » .. « ظل اللاز مشدوها لا يصدق عينيه وعندما انفجرت الدماء من قفا أبيه صاح في رعب : ، ما يبقى في الوادي غير حجره ، ثم ارتخت كل عضلاته . ودارت به الارض . ومد يديه – يحاول التثبيت بشيء ما . ثم هوى » (٣) .

لا مفارقة أمامنا اذا فهمنا طبيعة الجبهة السياسية والبنيوية التي شكلتها جميع فئات وشرائح الطبقة الصاعدة تاريخيا في تلك المرحلة ، (البرجوازية الصغيرة وبرجوازية المدن التجارية والعقارية وبرجوازية الريف الفلاحية) واستطاعت استقطاب معظم الفئات والشرائح الشعبية

---

(١) المصدر ذاته
(٢) المصدر ذاته
(٣) المصدر ذاته

المتضررة مباشرة من الاستعمار مما كون لها رصيدا جماهيريا ضخما كمثيا كان يندفع في وجه الرصاص بكل أنفة وعنفوان ويسقط جماعات بكل زخم في مستوى حرارة وحدة التناقض ·

حاول وطار أن يكون منحازا لهذا الزخم الجماهيري فنجح · وأعطانا صورة غير مشوشة منحازة وبعيدة عن ـ مواقع الحياد الخيانية والجبانة · عن الاشكالات والصراعات والممارسات خلال مرحلة ساخنة متفجرة ذات فاعلية تاريخية حادة · فنجح أيضا · لم يكسر الكادر العام ليخلق كادرا ستيوديوهيا لم يرسم لنا واقعا من خياله وتركيبه ·

ولكنه دخل بكل حرارة الفعل ـ الماضي للتشريح من أبواب الفعل ـ الحاضر · من بين ثنيات التناقضات المحتدمة في هذا الحاضر ـ الحرج نفذ للكشف حتى الجذور ·

هكذا وبعيدا عن المباشرة مسك وطار لحظة الانجاز مع المعطى الايديولوجي والتاريخي للمرحلة · لم يكشف · ولكن كشفنا أن هناك تعارضا قائما الى الآن · بين من كانوا وقودا ومن كانوا قوادا تلك اللحظة ·

الدخول الى الماضي المثقل بكل الترهات السياسية وبكل التضحيات الاسطورية كان صعبا · لكن تصير الصعوبة في حد ذاتها مدخلا لتحريك الصراعات المكبوتة تحت ركامات التضليلات الايديولوجية السائدة ·

ويبقى السؤال شامخا ·· الجبهة كانت التنظيم الحديدي الذي استطاع أن يفك الحصار عن قوى الابداع والانتاج · لكن أي جبهة ؟ ·

ـ هل هي جبهة أفراد أم هي جبهة أحزاب ؟ هذا ما احتار ـ زيدان ـ في تحديده ·· وتنتهي حركة الزمن الدائرة في ـ اللاز ـ بالتقاء كل الاطراف ·

ـ قدور البرجوازي الصغير · الغارق في بئر عميقة احتار في اختيار الحبل عندما امتد له حبلان · / اما وأما / ·· هذا · القدور ـ يموت وهو يقطع الحدود باللاز ·

ـ بعطوش : ينزع عنه ركام الخيانة الذي قاده ، الى اغتصاب خالته وأمرأة عمه ثم قتلها بالفأس في وحشية · هذا « الخائن » استطاع حين أشعل النار بمعسكر للفرنسيين تحقيق نوعا من الذات الموضوعية · وتدرج حتى صار قائدا بعد زيدان ·

وانتصرت الثورة ··

ـ رجع ـ حمو ـ العامل ـ الذي كان ممثل العمال في الرواية · من الجبل · ودع البندقية وهو في احتمالات الرجوع اليها ·· وهاهو ، بكل حماقات التاريخ ـ يبحث عن عمل ·· ولا يجده ··

ـ ورجع ـ اللاز ـ ·· اللاز ـ الشعب · انه يصيح على أرصفة الشوارع · ما يبقى في الوادي غير حجاره » · أدى دوره · وما زال مستعدا ·· الاحداث بدأت تأخذ مجرى غير طبيعي

·· انه يقف ها هنا ولا يزال ·· ولا يزال أيضا يعيش الثورة في ثياب عسكرية رثة يفترج على ـ ترهات التطور ·· الرث ·· ـ

وعند نقطة البداية تنتهي الرواية · انها تبدأ عند التقاء الزمنين : الماضي ـ التضحيات والحاضر ـ الضحايا ·· الطابور طويل كالتاريخ أمام مكتب المنح · ويبقى المستقبل في رحم الحاضر ورهن الانسان والعذابات ·

انه · أي اللاز ـ التضحية والضحية · سألت وطار · وماذا سيكون في الجزء الثاني ؟
ـ الثورة خلقت جميلتها ·· / جميلة بوجيرد أقصد / ·· ونحن علينا أن نخلق جميلتنا ·· قال وطار وضحكنا معا ملء الفاجعة ·· (١)

الواقع ·· وفواجعه

ذلك الصياد الذي يستبدل النهر بالقصر ··· فيسقط

ـ حين تتتابع الأحداث بسرعة فائقة · ويدخل الواقع في حركة لا معقولية مجنونة ·· قد تدخل معه دائرة أو دوائر لا مخرج لها ·· هي دوائر الموت المفاجىء والعذابات والانقلابات ·
ـ تراجيديا العصر والانسان تكمن في صراع مكشوف بين قوى من يملك كل شيء وبين قوى من لا يملك أي شيء · وتصبح هذه التراجيديا اكثر جنونا في فاشيتها حين تكون الصراعات خفية تتفاعل وتحتدم في الظلام ·· ان العصر مليء بالحماقات المكثفة بتصادمية التناقضات ·· الحسم ·· تلك هي مهمة حركة التاريخ حين تموضعها قوى فاعلة ومبدعة بمعنى الصعود التاريخي ·

ولحظة التوافق والانسجام بين الذات والموضوع هي لحظة محددة للحسم في مسار الحركة أي حركة موضوعية · ذلك هو المعقول ـ المعبأ والمشحون بسيادة الفعل والصعود ·· ويسقط هذا ـ المعقول الثوري ـ في المعقول السائد ـ · حين تفقد معادلة « الذات والموضوع » حالة انسجامها ·· هنا تتخلف حركة التاريخ في « تصاعديتها » وتقفز الى الواجهة « فلسفة الاغتيال »

ـ ما هي اللغة الاكثر فاجعة للتعبير عن هذه الفواجع ؟

« اغتيال المحجوب ورفاقه · اغتيال سلفادور الندي ورفاقه · اسقاط كل ما امكن اسقاطه من منجزات عبد الناصر · وقبلها · اغتيال شي غيفارا · لوممبا · بن بركة ·· والقائمة طويلة · كل هذه الاغتيالات التي تحركها قوى القهر والاغتصاب ·· هي احداث ضد الانسان ·· تحديات

---

(١) الجزء الثاني من رواية اللاز · هو الان بصدد الكتابة · وعنوانه « جميلة ديالنا » أي جميلتنا ·· وفي حديثه اعلاه هناك مزاوجة بين جميلة بوحيرد المناضلة التي انتهت بالزواج من « فرنسي » ، وبين مسار الثورة الجزائرية ··

شنيعة وتراجيدية لا يحكمها الا منطق الاحتكار ·· انه جنون التملك ·· انه واقع مجنون يجب تحطيمه ·· والتغيير عنه فنيا ·· التغيير عن لا معقولية هذا الواقع يحتم الالتجاء الى اللامعقول بالذات ·· » (١)

ويصرخ وطار « الاسطورة ·· أليست مشحونة بالفاجعة في كل فواصلها » ·· كيف ؟

— ان الاسطورة كتجربة وجودية عاناها الانسان الاول في بدائيته — وهو يصارع قوى لا يعرف قوانين حركتها ·· وما زال يعانيها ، انسان القرن العشرين في — استلابيته — تبقى دائما شحنة تعبيرية انفعالية ترسم طموحات الانسان في ايجاد معادل موضوعي لوجوده · وتفتش ضمن ما تفتش عن حلم وجودي يحمله الانسان في كل عصر · وبالذات في لحظات التشتت والانسحاق الداخلي ·· انها حلم الانسان التعويضي لعجز هذا الانسان أمام الفهم والتمثل · أولى البدايات نحو التغيير ·

عند — كلود لفي ستروس — « الاسطورة هي لغة شعب في مرحلة معينة من مراحل تطور رموزها الاجتماعية · وجوهرها لا يكمن في الاسلوب ولا في طريقة السرد ·· وانما تكمن في الحكاية التي تحكيها » والواقع ان الرسالة الاولى للاسطورة كما يؤكد لوكاتش هي : « اضفاء النتائج الاجتماعية لمكاسب العلم وجعلها مبهمة · ولقد كانت الفلسفة الكلاسيكية تمثل تحت مظهر المعرفة العلمية نفسها · أما الوظيفة الاجتماعية للعقيدة ·· أي للاسطورة هي اقتراح تطور للعالم وللعلاقات يتجاوب وتطور الفلسفة حيثما يفشل العلم في تقديم (رؤيا اجمالية » (٢)

— لم يفشل العلم في تقديم الرؤية الاجمالية لهذا العالم · انما الحد الذي وصلته علاقاته في التشابك والتداخل الجنوني فرض على كاتب كالطاهر وطار لشكل الاسطورة للتغيير عن عالم مستقر يتحرك بلا منطق ·

والشكل التعبيري دائما تفرضه اللحظة المكثفة التي يولد فيها هذا التعبير · وحتى يكون ذلك الشكل ناضجا · حيا · مشحونا ومتوترا لا بد من احتلال مساحته اللغوية حين تكون اللغة رفيعة كلغة الاسطورة ·· انه النزوع نحو الانسلاخ الكلي عن أساس — المعقول السائد — للغة · اللغة كشكل فني متكامل ·

— يقول « وطار » « هناك كثير من التجريد في واقعنا أو كثير من البطء في حركة مجتمعنا يجعلنا نعيش ثوراتنا تجريديا · وفي الحلم ··· انه لا يسعنا الا أن نبهر ونعبر عن انبهارنا بكل مهارة · بكل حزم · وبكل وسيلة » (٣) ·

— الفاجعة والعجز · التجريد والحلم · الواقع والانبهار ·· هي محمولات وطار في روايته الثالثة — القصر والحوات — هذه الرواية تأتي « لتطل على واقع العصر في تراجيديته بشكلها المزوج بشيء من المعقولية الجامعة والغوص في العلاقات البشرية بشكل تجريدي يقتنع

(١) حديث للكاتب الطاهر وطار اجراه معه صاحب هذه السطور · ولم ينشر
(٢) دراسات في الواقعية الاوروبية — جورج لوكاتش — دار الطليعة ·
(٣) من حديث اجراه كاتب السطور مع الطاهر وطار ·

بالرمز تحديا للامعقولية العصر · وتحديقا للرؤية النافذة في هذه الصيرورة الاجتماعية — التاريخية » (١)

— علي الحوات — الفقير ، اليتيم · والصياد البسيط والناصع القلب الذي يمثل الخط المستقيم في الرواية هو رمز الانشطار الفاجع للانسان : الصلابة والثبات من جهة والبلاهة والعجز من أخرى ·· كان قد نذر لجلالة السلطان أجمل سمكة يصطادها احتفاء بنجاته من الاغتيال كبرهان على محبته ·

القصير بعيد · ولا بد « علي الحوات » من اجتياز القرى السبع : قرية الاباءة · قرية الاعداء · قرية التحفظ ، قرية الاحتجاجات ، قرية التساؤلات · قرية بني هرار · وقرية التصوف ·· ينتهي الى القصر ليلاقي الحرس الملكي وقطع « يده اليمنى » لكن الحوات لا يهدأ له بال · ولا بد أن يفي بوعده · يصطاد سمكة ضخمة وجميلة ·· يحملها على ظهره حينا · وأحيانا ترافقه مشيا، يصل القصر لينتهي عند الحرس وتقطع يده اليسرى ·

ويعود ليبدأ المرحلة الثالثة ليجد عند الباب الحرس ثالثة ويقطع لسانه دون مقابلة السلطان

كل هذه الحركة الغامضة والمشدوهة ·· تبرز عمق الدائرة الاجتماعي التي يتحرك فوقها «علي الحوات » بدون سلاح ايديولوجي مضاد · بدون تمثل معرفي لعمق الصراع وضبط حركته ·

علي الحوات الذي لا يرى في القصر الا رمزا للعدالة والقوة والنزاهة « السلاطين لا ينبتون في التراب · ينحتهم الرب في السماء السابعة » « جلالته فوق كل تقدير فوق كل خطأ · وجلالته أعلم بشؤون الرعية من الرعية ·· انه منحوت في السماء السابعة بيد ربانية » (٢) يظل القربان التي تقدمه القرى السبع في شكل سحري وايمائي كخطة تاكتيكية — زاحفة — لمعرفة مدى قوة العدو : الحرس ·

ايضا سيظل — بدون مغالطة — حضور الجماهير — كما — على دائرة الصراع · وغيابها — كيفا — ·· « يمكن القول أن — علي الحوات » ذلك الصياد الفقير · هو احدى محصلات الواقع في ازمته ·· فاجعة عجز القصر تتحول الى طقوس وعبادات ارهابية · وفاجعة عجز القرى السبع (المعارضة) تتحول الى طقوس الخطبة ···

لقد جاء على لسان احد المؤتمرين من المعارضة (القرى السبع) « ان مسالة علي الحوات لا تنفصل عن مسالة استيلاء اللصوص على الامور · ومسالة تردي الرعية ومسالة مضاجعة حرس القصر لنساء الخصيان ··· واخيرا مسالة علي الحوات بالذات · انه منذ عصور طويلة لم يتقدم واحد من الرعية ليثبت ويؤكد صفته · ولقد كشف الحوات ماكنا نعمل على كشفه منذ تسع وتسعين سنة · اثبتت ان القصر شيء · وأن الرغبة شيء آخر ·» (٣) ·

هنا الطاهر وطار يدين وضعا متمزقا · الحركة فيه حركتان · خط دائري تمثله المعارضة · وسقوطها في لولبية او دائرية الخطبة والانفعال · رغم عمق الصراع الاجتماعي · والخط المستقيم

(١) المصدر ذاته
(٢) المصدر ذاته
(٣) المصدر ذاته

الذي يمثله ـ الحوات ـ في انشطاره الفاجع بين الصلابة والبلاهة .

ـ علي الحوات ـ ذلك الصياد الذي يملك قدرة فائقة على التخيل .. التخيل الذي يفتح الافاق . يقدمه وطار عبر الجو الاسطوري الذي يعبق بالخيال والحلم والمفاجاة والاحتمال والفاجعة .. جو فوقي تخيلي . كل خطوطه لا تخضع لحركة منظمة . انما هو شيء تعويضي للعالم تحتي . هنا يكون الروائي على درجة مرتفعة من النضج الفني حين تم التقاط خطوط النضج الفكري .

وترتقي رواية ـ القصر والحوات ـ بايحائيتها المبثوثة عبر مساحتها الى درجة الكلمة ـ السحر أو الكلمة للسحر . « ومهمة هذه الكلمة انما هي سحرية . يبدو من « بنية الرواية » العمل الفني انها كانت لتحدث تبدلات في العالم الخارجي بواسطة الايماء .. » (١)

ان الحوات الذي يعيش بلا زمن محدد . لا يكتسب مفهوما محددا لتفسير العالم . ومن ثم القدرة على تغييره . كان في جوهره . وعلى هذا الاساس عاجزا على تحديد الطريق .. سقط في المرات الثلاث بين أيدي الحرس . وظل عاجزا .

ان الانسان يتحول ويتطور من خلال التجربة بتفاعله مع العلاقات ذات الطابع الاجتماعي . ومن خلال التصادم بالنقيض لمحاولة حسم التناقض بتفجيره المكثف من الداخل . لكن الحوات الذي يعيش بدون زمن / كتوقيت موضوعي / والذي يتفاعل ميكانيكيا في اللامكان . / كمحيط موضوعي ـ فهو لم يحدد حركة ذاتها ضمن تفاعلها مع موضوعها . ففقد الطريق . وفقد نفسه وظل عاجزا جسديا / قطع اليدين واللسان / وعاجزا فكريا ـ ما زال يراهن على ان السلطان طيب وعادل ـ .

لقد كان الحوات طرفا في الصراع . لكنه ذيلي وهامشي . يدافع عن القصر دون انتساب عضوي . هل تحمل هذه الشخصية سمات وخصوصيات مرحلة الانتقال الحرجة . أم هي شخصية الواقع المعكوس والمشوه . والمتداخل .. شخصية الوعي الزائف ..

« ان الشخصيات التي يخلقها الواقعيون ـ يقول لوكاتش ـ هي التي تعيش حياتها الداخلية المستقلة . وتصبح تطوراتها ومصائرها كلها مستمدة من واقع الديالكتيك الداخلي لوجودها الاجتماعي والفردي . (٢)

ان علي الحوات شهادة لواقع مستنفر . ومتوتر . يعيش حياته الداخلية غير بعيد عن التاريخ ـ كتراكمات ميتافيزيكية ـ في وعيه وغير بعيد عن محيطه ـ حاضره ـ كتراكمات كمية ـ معارضة منقسمة بعيدة عن الفعل ساقطة في العمل الانقلابي ..

انه شهادة بسيطة وواضحة على قوى دخلت دائرة فلك الاغتصاب الدولي ، وهو ايضا شهادة على قوى لم تستطع الخروج من دائرة التمثل الثقافاتي التشدقي للوعي وتغيير الواقع .

ـ هل ما زالت الاسطورة كشكل من أشكال التعبير عن واقع غامض تستطيع اضاءة جوانب غامضة .. وتمنح مفاتيح كثيرة للواقع ـ اللغز ـ الفاجعة ؟ !

---

(١) جورج طومسون . ـ دراسات ماركسية في الشعر والرواية .
(٢) دراسة في الواقعية الاوروبية . جورج لوكاتش .

ذلك الهزي والاخواني .. الذي يريد تغيير الواقع ..

ـ ان تعامل أي كاتب متسلح بقوانين علمية ترتكز عليها نظرته للعالم وللاشياء نظرة اكثر شمولا لامكانيات وضرورات التطور والتقدم البشري مع الواقع الحي يشترط عليه أساسا وكنقطة تواصل بين ذاته المبدعة وموضوعه الدائب الحركة أن يكون متمرسا في قبض اللحظات النيرة المضيئة من مرحلته الشائكة والصعبة والمراس . وبهذا المعنى اذا اتيح المنظور الاشتراكي العلمي للكاتب استوعبه على وجهه الصحيح يستطيع أن يتجاوز كل المنظورات السابقة كأساس لانطلاقة نحو أسلوب جديد ومحدد .. يمد الواقع بمادة جديدة . ويسمح لمادة القديمة أن تغيب مرتبطا أوثق الارتباط بهذا الاساس المبدئي . وبهذه الحركة الديناميكية التي يجب أن لا يفقدها الكاتب حتى يستطيع القبض على أغنى لحظات المرحلة استكشافا وتوغلا في صميم الواقع المتحرك . وبهذه الانطلاقة لا بد ـ ونحن نؤكد ـ أن يحصل تقدم في الفن برغم المرحلة التي ينتمي اليها .

ـ كتب لوكاتش يقول « منظور الاشتراكية يتيح للكاتب أن يرى المجتمع والتاريخ على حقيقتهما . وهذا يفتح فصلا جديدا في أساسه مثمرا بدرجة عالية في الابداع الادبي » .

ويبدو أن ذلك الحاجز في تراكمات المثالية والنظريات التجريدية قد سقط الى النهاية . ليترك أمام ـ الكاتب الواقعي ـ ذلك الغارق الى الاذنين في واقعه أن يرى أمامه اكثر وبدون وسائط وان يسمع صوته وصراخه للاخرين بدون قنوات .

مثل هذا الحاجز قلنا قد سقط في حياة الفرد الواعي . وفي مجتمع الكاتب الذي هو بدوره يأخذ مساره نحو النظرة الواعية .. وان الاساسيات لكاتب ما حتى يشارك بصفة فعالية في الدفع بخط التاريخ أن يقفز من فوق الخط الفاصل بينه وبين محيطه ادراكا بسيرورة التواصل ..

لقد كتب « توماس مان » في العشرينات . في « يوميات باريس » « اني برجوازي بالتاكيد ولكن فهم وضع البرجوازي يعني درجة من الانفصال عنه . وادراك القوى الجديدة .. وهي السخف أن نخطىء فهم ـ الوعي الذاتي . على أنه تصوف . وليس هناك امرؤ يعرف نفسه معرفة دقيقة ويظل نفس الانسان » .

هنا لا بد من الاشارة الى أن اي عمل فني ـ وخاصة الرواية ـ التي هي تكون عالما قائما بحد ذاته من العلاقات والتناحرات والاستفزازات النفسية والاجتماعية . او لا تكون . هذا النوع من الفن لا يستطيع أن يتغذى على الذاتية الحرة اذا أريد له أن يكون ناجحا .

ان نقطتي انطلاق ووصول الرواية هما : الواقع ، أي الحياة . من هنا يكون شكلها الخاص في قوة عكسها للواقع ضمن حدود نفس القوانين الفنية التي تحكم أي عمل فني .. واين يفشل الكاتب ولا يستطيع القبض على جزئيات تلك « المسبحة ـ الواقع » تلك العملية المتداخلة وفق قانون ترابطي .. يفشل العمل الفني ويظهر مفككا .. من هنا ايضا يذهب دور المنظور الاشتراكي الى مدى أبعد وأعمق فيمثر عملية الابداع العملية الفنية .. ولكي يتحقق هذا القدر من الحماس الابداعي . يجب التوجه بحماس للتعبير عن عالم محدد ذي علاقات متشابكة معكوس

في مخيلته – في الابداعية – الى كل أشكال التعبير داخل نسق تغييري ذي معالم محددة وسيرورة نامية .

– وان الاسطورة التي يلجأ اليها الكاتب احيانا « لاتعني كذبة بقدر ما تعني مفهوما هو فوق المعقول والمعروف » (١) .. ولذلك نجد انفسنا مضطرين اليها اي « للاسطورة – رغم العلمانية – لتفسير المراحل الغابرة أو – المراحل الصعبة – من تاريخ البشرية » (٢)

لقد كانت الاسطورة دائما هي الشيء الخارق والغريب عن تفسير شيء خارق وغريب وصعب ولكنها ليست دائما هكذا . تكون الاسطورة أحيانا أنواعا من الخيال العظيم الابداعي فقط . واحيانا تكون المزيج بين الطاقة الخيالية من الابداع وتلك الطاقة من الواقعية العيانية (التصويرية) والتي احيانا تتجاوزها الى الواقعية النقدية .

يقول الطاهر وطار : « ان الحاج كيان – بطل رواية – عرس بغل » – يحمل كثيرا من صفاتنا نحن المثقفين في الجزائر ثقافة عربية .. فرغم مصادر ثقافتنا – الصفراء – ورغم غموض واقعنا وتداخل مفاهيمنا ننتمي الى الاشتراكية بكل عنفوان . وننجز الكثير منها .. (٣)

انه – اي الحاج كيان . البطل – الاسطورة الذي يحاول بكل حماس رغم – تراكمات الثقافة العاجزة والمنخورة أن يقفز من فوق الفاصل الذي يبعد بين ذاته الواعية – وبين المجموع الذي لا يمكن أن يعيش خارجه .. اي انه لا يمكن له ان يبدع خارج موضوعه بمعزل عن حركة الجزء في اندغامها مع حركة الكل ..

« هكذا دائما عندما تتحول المرأة ، الى بؤرة تنعدم المراحل . ينعدم التمييز بين حدودها وأروع حالة يكون عليها المسافر أن يتخلص من الشعور بالمكان والزمان .. أن يتحول الى دودة مستسلمة لالتهام جسم بدل من جسم مستسلم لالتهام دودة .» (٤)

« في تلكم الحال .. تعود الكينونة . وتعود الماهية ، ولا يبقى لزمن الوجود معنى فمتى لم يكن الحلاج سوى ذاكرة ، ومتى لم تكن – الجبة سوى ذاكرة ، ومتى لم تكن الذاكرة غير افرازات . (٥)

هنا يعيش الحاج كيان حالته الثانية .. الحالة – الغيبوبة عن الذات وعن المجموع . يعيش على قضم ترهات ميتافيزيكية وترسبات ثقافية بالية .. ويحاول أن يقنع بها نفسه المتوترة .. ويبرر بها ممارساته المستلبة .. ان هذا لموت بطيء ..

ان حلولية ذاته في ذاته .. عند غيبوبة الحشيش .. هي نوع من التشريح لذاته « المجرمة»

---

(١) عفيف بهنسي – الفن والمجتمع
(٢) روجيه غارودي . – الواقعية الاوروبية .
(٣) رواية عرس بغل . طبعت على الستانسيل . ووزعها الكاتب على أصدقائه .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥
(٥) المصدر نفسه ص ٤٥

ذاته العاجزة والمقهورة .. ومدلولية شعوره أو رغبته في التخلص من المكان والزمان لا تفعل سوى أن تعري هروبا ذا حالات متنوعة ومتناقضة ..

ان متتالية الحالات – الغيبوبة – الحلولية – الهرب ، الى الداخل – للتبرير .. التوبيخ النقد .. التشريح .. وذلك بتحريك من ترسبات ثقافية عاجزة .. لا تؤهله الا لهذا القدر من – النقد الداخلي المونولوجي – يأتي في رغبة مكبوتة في التخلص من المكان والزمان .. اي الهرب من الواقع العنيف ذي العلاقات العنيفة .. ثم يغوص في حالة ثانية يعيشها في تناقض صارخ .. وهي حالة ضدية عندما يلتحق بعلاقات الماخور والعاهرات البائسات والفتوة الاشقياء الهزيين باعتباره أحدهم السابقين المحكوم عليه بالاعدام .

يغوص الحاج كيان في هذه العلاقات التناحرية . ويتشابك معها بكل كيانه وكينونته – رغبة منه في التنفيس عن « ذات عاجزة » عندما يرى نفسه : زعيما لذلك الماخور . وعشيقا لسيدة الماخور العنابية .. ثم ومن– جانب آخر رفضا منه لهذا الواقع – العلاقات الفاسدة . وهو صاحب العقلية المحافظة الغارقة في الميتلوجيا .. يقترح أو يتزعم اقامة – عرس بغل – (١) – ذلك العرس الذي لا يخرج عن كونه فكرة ميتة منذ – تكوينها في عقلية ميثلوجية – جاءت للدلالة وهو ما تصبو اليه عن – واقع فاسد . والبديل غائب – المهمة كبيرة .. واداة التغيير النظرية عاجزة اصلاحية .. وفي حد ذاتها . هذه الاسطورة – اسطورة عرس بغل – ليس لها من الصحة سوى ما في – المعتقد العام – من ضمنية تدعو الى استحالتها بشكل تعجيزي .. حتى لا ننتظر نتائجها التي لا تتعدى أن تكون عقما في عقم

« انا مجنونة يا الحاج كيان ..

لم يعد ممكنا ابدا انقاذ الجرة . لقد ملأوها قطرانا وصعدوا الى قمة الجبل .. الجبل صخري وقد قذفوا بها .. انها لا بد أن تنكسر . وهذه المرة ستنكسر لا محالة .. » (٢) .

« عندما يكون الحاج كيان معي . ويكون ندي في لسانه أود .. أتدري ما أود أن أكون لحظتها .. سحابة تطوف في السماء بحثا عن حقل برتقال ظامىء تنزل غيثا ليسري في العروق .. » (٣) .

... وتكون الحالة الثالثة عندما تنمو حالة الوعي المتولد نتيجة استفزازات وتحديات من جو الماخور .. بتقمص الحاج كيان شخصيات كثيرة – أعجب بها وأحبها . خلال دراسته في – جامع الزيتونة .. » (٤)

---

(١) عرس بغل : اشارة الى ان – البغلة – هي حيوان عاقر بطبيعته . وتقول الاسطورة المنتشرة في المغرب العربي . انه عندما تلد البغلة بغلا يكون يوم القيامة قد قرب . أو تنتهي الدنيا وهو دليل على استحالة تلك الولادة .
(٢) رواية عرس بغل ، الطاهر وطار . ص ٥٠
(٣) رواية عرس بغل الطاهر وطار ص ٥١
(٤) جامع الزيتونة – ما يوازي جامع الازهر بالقاهرة . يوجد في تونس العاصمة . وهو أقدم من الازهر . عندما جاء حكم الدستور اغلقه بدعوى – علمنة العلم – ! ؟

هذه الحالة – النقيض لحالة الهرب الى الداخل الاولى وهي الجانب المكمل لحالة النقمة على ذاته · الثانية الغارقة في المناجاة الحشيشية ··

الحاج كيان · هنا يتمثل التاريخ الاسلامي والعربي في جانبه المضيء بكل أبعاده وشخصياته المتوهجة · يستحضر أبا سعيد الجنابي وحمدان القرمطي وعلي بن محمد وصاحب، الحمار ·· ثورة القرامطة · ثورة الذبح ·· كتدعيم لاهتزازات وعيه النامي والمحاصر وتكسير لاطار واقعية الواقع المكرسة ·· بهذا يؤكد أن ما يجب أن يحدث ليس بدعة · وليس زندقة · وليس صعبا اذا ما تحولت حلولية الذات في الذات الى حلولية الذات في القضية ··

القضية هنا ·· هي المرحلة الحرجة ·· مرحلة الانتقال بكل خصوبة احتمالاتها المسار واضح وصعب · والشعارات تملأ الدنيا · ولا تملأ البطون ·· عندها تكون تغطية للعجز التاريخي الذي ينخر حاملي ورافعي هذه الشعارات ·

« كنت اعلم يا حمدان ·· انني لا أجد معك اية صعوبة · انك مقتنع سلفا · لم يبق لكم ملجأ يا حمدان ·· تردت أوضاعكم · وتردت حتى لم يعد هناك وضع اسوأ تخشونه ·· السواد الثرى ، الخصب ضاق بكم ·· تشتغلون الليل والنهار في الارض وتبيتون جياعا · الماء لم يعد يغذي اطفالكم · تنجبونهم لتسمدوا بهم ارض اسيادكم · انكم مضرب الامثال في الفقر ·· واكثر الاحرار فقرا · كان الزنج اكثر حرية منكم » · (١)

« كل شيء ظاهر لا باطن الا العدل · وقرمط بين الناس · كل شيء باطن لا ظاهر الا الجور وقرمط بينهم ·· في كل شيء ·· بين الرجل والرجل ·· بين الرجل والمرأة بين العبد والسيد · (٢) ·

« مت يا حمدان قرير العين ·· »

السادة اختفوا من السواد · الالفة قائمة لن ترجع عن دعوتك الى اخر الدهر · مصير الانسانية جمعاء : القرمطة · لا صلاة ولا زكاة ولا وعظ ولا ارشاد يؤثر في قلوب الجياع ·· ينهم العدل والحقيقة ·· (٣)

– هذه الحالات الثلاث التي يعيشها بطل – عرس بغل – « الحاج كيان » في متتالية غير منطقية وكما تبدو · – استيعابه للثقافة الاسلامية استيعابا وجدانيا وجامدا ·· – من هنا ياتي عجزه عن تصور مجتمع انساني سعيد أساسه هذا الفكر الديني الذي لا يمكن استيعابه الا وجدانيا ·· انها – الاستحالة ·· المكبوتة في أعماقه · والمسيطرة على أفعاله وردات افعاله اللاوعية ·· وتاتيه في شكل حمى هستيرية هذه الحالة عندما ينتابه وقت الحشيش ·· ثم – استيعابه لعلاقات الماخور التجارية – بيع · شراء · ربح · وهي علاقات الواقع القديم – الجديد التي تستوجب التغيير · لكن العجز قائم بكل عذاباته · فالحاج كيان يحن لذلك الماخور · تشده اليه طفولته كتشابك بيئوي · ويحقق فيه رجولته المطموسة كمحيط عاقر ·· ان « العنابية » ·· وهي سيدة الماخور تشده بدلالها التي ما زالت تحتفظ به رغم سنوات القسوة

-----

(١) رواية عرس بغل – ص ٦٢ ·
(٢) المصدر ذاته الصفحة ذاتها
(٣) المصدر ذاته ص ٦٤ ·

وسحرها المستمد من سنوات العشرة · انها السلطة التي تعيش ركامات المجد الماخوري · وهي تنتصب بشوفينية على ركام من التناقضات المكبوتة داخل الماخور – المجتمع المرحلة · انها مرحلة · تجميد التناقض وتلطيف حدة الصراع وتمييع مضمون الشعارات بالالتجاء الى التلفيق والتوفيق بين كل الإطراف المستغلة والمستغلة ·· فكان عرس بغل عبارة عن – مهرجان احتفالي – ختن فيه بعض ابناء الفقراء – لتلطيف حدة الصراع وجعل الواجب مجردة صدقة – ··· واستدعت العنابية – السلطة كل الجهات فحضروا ممثليها ·· انها محاولة لجس النبض ··

« الاغواط · وسطيف وعنابة · ميلة ومليلة وبسكرة والبليدة · قسنطينة ·· وكلمسان وهران والاصنام · كلها تلبي الدعوة الى حضور عرس بغل ·

« الجلفة » تقول انها معها أحسن الراقصات في القطر · « عين البيضاء » تقول أن معها اشهر فرقة للغناء ·· « قسنطينة » · تؤكد ان في صحبتها سبعة قياد وأربعة هذيين » (١)

هنا لا نلمح الا استيعاب الحاج كيان للعلاقات الماخورية الذي يقف عند محاولة الهرب من تلك العلاقات للالتجاء الى الحشيش كمحطة تأملية في الداخل · عقدة الذنب ، وعقدة الماضي · تدفعان « كيان » الى البحث عن تكفير ذنبه · ولكن استيعابه المهزوز للواقع يدفع به نحو العجز والعذابات ·

وتظل العنابية تقول · وهي التي تعرف الحاج كيان اكثر مما يعرف نفسه :

« الحاج كيان طيب · ولن يفعلها · لن يحاول أن يبعدني عنه ابدا · واذا ما فعل ذلك فماذا سيكون موقف ختومة حبيبي ؟ ·

– « ختومة » هذا هو « خاتم النبوة » ، وهو الامتداد الطبيعي للحاج كيان – القبل · « الحاج كيان الشريك ، الحاج كيان الهزي » شخصية جامد ومسطحة لا تمثل أي عمق أو نمو أو رحابة · نموذج قريب جدا من الانتهازية ، يمسك ويتمسك بالجميع : الماخور – العنابية · وحياة النفوس ·

وتقفز الحالة الثالثة التي يمثلها الحاج كيان : عملية تكفير لعقدة الذنب ولممارسات شتى خاطئة عبر حقبة من الزمن ، هذه الحالة تعتبر نتيجة منطقية عندما يسيطر الوعي على حركات الحاج فيتذكر أنه في زقاق مسدود · « اليوم هو البارحة ، والبارحة هي اليوم ، وهي الغد » انه الرفض اللامبدئي والمبدئي في نفس الوقت · عندما يكون العجز مستفحلا وتكون الذات الفاعلة في طي عدم الفعالية ·

– الثقافة التي تلقاها في جامع الزيتونة عن شيوخ قريبين كثيرا من فكر حسن البنا ، وان ماضيه الاخواني لاتؤهلانه بأن يعتنق الفكر العلمي – فكر الملاحدة في نظر حسن البناء ·

وطبيعي فاذا كان الحاج كيان في منتهى الحماس والجدية فان أقرب شيء الى طبيعته والى ثقافته القديمة · هو أن يحاول مراجعة التاريخ العربي الاسلامي ·

-----

(١) المصدر ذاته ص ٨٢ ·

ان حمدان قرمط · وحركة القرامطة ستظل هي الاستحضارات التاريخي الذي يفرض نفسه على لاوعي الحاج كيان · ولذلك لا نجده يتذكر قرمط و علي بن محمد وثورة الزنج الا في أوقات الحشيش عند النشوة · وعند الارتجال عن حالته الاولى وتكوينه الاول ـ الثقافة الزيتونية وحسن البنا ـ

ان الحاج كيان · ذلك الثوري ـ الرومنسي ، الحالم ، عبر توترات الروايـــة · هو ذلك المثقف الانتهازي العاجز عن الذهاب الى أقصى حد · ولكن المفارقة التي تتقاطع والعبقرية · هي انه يكبت الصراع بداخله في مداهنة مقيتة مع السلطة · وذلك عبر عدائية غير مبدئية يمكن تحويلها في أي لحظة ، وتتفجر هذه العدائية في لحظات النشوة والخلوة حين يواجه الحـاج كيان الوعي بالحاج كيان اللاوعي · لتقع المقارعة وتقع المحاججة · والصراع ·· لكن هـــذا الصراع يظل في حدود هي مرسومة له مسبقا لم يستطع تجاوزها الى حدود المقاطعة أو التفجير ان العنابية ـ السلطة العلاقات بيدها الحل والربط · الامر والنهي ·

وتبقى « حياة النفوس » فتاة الماخور الرائعة · وراس ماله · تعتز بها العنابية ، يتصـارع من أجل الفوز بها كعشيقة « خاتم النبوة » «والجيدوكا» ويدفع من اجلها القروي كل ما في وسعه ·· ويحبها الحاج كيان ويخاف عليها من حياة الماخور المدمرة · وفي الاخير فهي التي تتقاطـع حولها كل الخيوط ·· انها نقطة السراع وتمفصله ·

والقروي الذي يرغب في الزواج من حياة النفوس · هو البعد الثاني للحاج كيان الذي يخاف عليها من الماخور · ولكنه يخاف ان يجهر بذلك امام العنابية امام السلطة · انه بعد الكبريـاء الذي ينهكه الكبت وتنهكه المداهنة ان شخصيات الرواية جميعها عبارة عـن اضـاءات جانبيـة لشخصية الحاج كيان المتوترة المضنية ولمظلمة ان كل التوترات التي توجد بدخله تتزايد شدتها بتطور الرواية افقيا ، اضاءة من الكاتب في جانب الموضوع الذي يطرحه كمعاناة يُعيشها المثقف العربي عامة والمثقف الجزائري خاصة ·

● سالت « الادرع الشريف » القاص والناقد الشاب الجزائري عن رأيه في رواية « عرس بغل » ، قال « لا بد وأن لكل فكرة حامل · أي أن دلالة العمل الادبي متأتاة من الصورة · والصورة هي لحظة تجسيد التجديدات الفكرية · بالنسبة لعمل مثل « عرس بغل » يصعب كثيرا على القارىء استيعاب دلالته · ذلك انها اذا ما أخذنا العناصر المادية لتجسيد المضمون / غير اللغة والعبارة والاسلوب / اي العلاقات · نجد أن واقع الرواية مبغى · العلاقات التجاريـة تمثل جانبـا من العلاقات الرأسمالية (بيع ـ شراء ـ ربح) وهي كمعادل موضوعي للاجتماعي ينتقل الكاتب من تصويرها الى اضاءاتها (اسبابها ـ ظروفها ، ضمن الحركة التاريخية ·) »

وهكذا فان فكرة « عرس بغل » المأخوذة عن الاسطورة الشعبية التي تحمل استحالة ولادة البغلة مع استحالة نهاية العالم · هي في النهاية لا تخرج عن معنى استحالة بناء مجتمع سعيد خال من الاستغلال · على أرضية فكرية تحمل تكريس الاستغلال كمبدأ في احشائه · انها استحالة التوفيق بين امكانية بناء المجتمع اللاطبقي وبين الفكر الديني التلمودي + الطبقي ·

ان « وطار » في هذا العمل الرهيب يؤكد مرة ثانية أنه لا يميل الـى كبـت التناقضات فـي مجتمع المرحلة · انه ليس من الذين يهبطون بالمنظور الاشتراكي الى مستوى النهايات المسعيـدة الطفولية ·

انه سيظل السؤال شامخا : ماذا بعد ؟ وما العمل ؟

وتنتهي الرواية بالضجيج وبظهور جماعات غريبــة · وباطلاق الرصاص · وبالتحام حياة النفوس والقروي : الجانب المكبوت في الحاج كيان في مجتمع الكبت والتوفيق والانتقاء ·

·· ويظل الخطر : حزب المقيم وتعدد الزوجات ··

عندما ندرك ان الفن ، في أساسه ، لا يعدو أن يكون الا ذلك النشاط العملي التجـاوزي للعادي ، والطبيعة ، والزمن · ندرك ، بالضرورة ، أن هذا النشاط ذا النغمة الملحمية هو بالضبط مهمة الفن نحو الانسان · وهي مهمة انسانية اجتماعية · ومقابل ذلك عندما يكون الفن عبارة عن سكونية مرتبطة بزمن واحد ، بلحظة واحدة يكون بعد الفن هو أنه فن بلا انسان ، ويكـون بعد الانسان ، هو انه انسان بلا فن ، بلا آفاق ·

ان الفن لا يكون اكثر ارتباطا بالانسان في وحدته الزمنية الا عندما يتوغـل فـي التاريـخ والواقع والحلم (المستقبل) ، هكذا يؤكد غارودي ·· وتبقى مهمته الكبرى ، وهمـه الاسمـى رهن توغله الاستيعابي في تجلياته للمستقبل ·

هل كان « وطار » يتحرك داخل هذه الرؤية الجديدة للواقع والفن ؟

يقول « وطار » عن القصر والحوات : « ان هذه الرواية جاءت في ظرف يحتم على كل كاتب صادق مع واقعه ، ان يقول ان ما يجري من حولي اكبر من امكانيات فهمي ، أو امكانيات توصيل فهمي الى الغير · لقد كنت واعيا أن الاسطورة قد احتازها العصر ، ولكن ماذا نفعل عندما نجد انفسنا مضطرين اليها ··· »

على الحوات هي الشخصية التي تحمل داخلها ، بكل عفوية ، كل تدميرات الانسان والعالم وتراجيدياته ·

وهل يكون « اللاز » غير ذلك الشخص الذي يحمل كل سمات شعبـه ، بكـل تعرجاتهـا ، وتلوناتها ·

وهل يخرج الحاج كيان عن نموذج مثقف المرحلة الحرجة : انها الموقعية المصطدمة بموقفية غير ثابتة وحاسمة ، عندما تكون الثقافة أكداسا من الترهات · ويكون الواقع أكداسا من مزابل التجارب غير الناجحة ·

ان المرحلة حاسمة وحرجة ··· والصراع ، بالرغم من محاولات تلطيفه وتحجيمه ، محتدم ·· والثورة ، ما لم تركز مجتمعها الحر والواعي ، تظل دائما في متناول الخطر · وعلى المثقف الثوري أن يستوعب ايقاعات الحركة في حضور دائم ، حتى يضمن استمرارية هذه الايقاعات · وحتى يضبط ذلك ، عليه أن يضبط طبيعة هذه المرحلة ، فيحدد تناقضاتها العدائية ، ثم تناقضاتها غير العدائية · ومن ثم يتم الاصطفاف الطبقي ، الذي يقود المرحلة ·

ان وعي الكاتب لهذه الخصوصيات لا تتبلور الا عبر الممارسة الاجتماعية ·· وعضويته لا تتحدد الا عبر هذه الضرورة وعند التحام الوعي بالضرورة يكون الفعل المعبر عن الحركة والحرية·

ان وعي الكاتب لضرورته يعني وعيه للقوانين والصراعات وطبيعة المراحل التاريخية .

وان **الطاهر وطار** ، بتركيزه على حساسيات مرحلة الوطنيـــة الديمقراطيـــة ، وبتفجيره لتناقضاتها ، يكون قريبا من حقل الممارسة الايديولوجية والنضالية من واقع الثورة وجماهيرها (سميشا العمال والفلاحين) .

في الجزائر ، الان ، يدخل البناء التحتي في تناقض مع بنائه الفوقي . انه تناقض بين قوى الانتاج وشكل العلاقة الانتاجية . فهل تكون هذه الوحدة التي تجمع الاضداد موضوع الفنان أو الكاتب العضوي من خلال ارتباطه بايديولوجيا الفعل والممارسة .

ان الايديولوجيا والثقافة والفن والقوانين تتطلب وقتا هو أطول بكثيـر من الوقت الذي يستغرقه بناء مصنع أو تعبيد طريق ، أو حتى خطة تنمية بكاملها .

سيظل هذا الموضوع هو موضوع المرحلة الحساس . ذلك انه العامل المحدد لعضوية أي مثقف مع المرحلة ... ربما « **عرس بغل** » تجيب على ذلك . انها محاولة رصد لمجتمع المرحلـة ببنائيه في شكل علاقتهما التناقضية .

– التحولات التحتية ، المزارع النموذجية ، القوى الاشتراكية .

– تعدد الزوجات ، الفكر الديني ، وحزب القيم .. انها محاولة للدعوة الى الثورة علـى علاقات الربح والقيم .

---

* **سميشا** : كلمة روسية تعني تحالف .

كلثوم عودة فاسيليفا *

ابو سلمى

يقتضي الواجب عنـــد الكتابة عن مواطنه فلسطينية اتخذت من الاتحاد السوفياتي وطنها الثانـــي ان اشيد بـاولئـــك الذيـــن خدموا الثقافة والحضارة العربيتين فـــي الاتحاد السوفياتي منذ انشـــاء « دار الادب العالمي » للطباعة والنشر في روسيا بعـد ثورة أوكتوبر العظمى سنة ١٩١٧ والـــذي ترأسها آنذاك مكسيم غوركي ، تلـــك الدار التي احتلت روائع الادب والفكر العربيـة مكانا بارزا بين منشوراتها حتى الآن .

وان مراكز الاستعراب السوفياتية التي نشأت في شتى المدن الروسية بعد الثـورة ، قد أدت خدمات جلى فـــي عالـــم البحـث والاستشراق ، وكشفت عن كنوز عربية كانت مدفونة ومجهولة في ظلمات التاريخ ، وفي طليعة هذه المراكز ، مركز لينينغراد برئاسـة كراتشكوفسكي ، استاذ علماء الاستعراب ، ومركز الاستعراب في جورجيا الذي كـــان يقوم في بادىء الامر بالبحوث اللغويـــة . ومركز أوكرانيا الذي كان يعمل فيه الاكاديمي كريمسكي زميل كراتشكوفسكي ، وتلامذته ، في دراسة ثقافة العرب وتاريخهم في العصر الحديث ومركز طاشقند ودراسة المخطوطـات العربية القديمة ومركز باكو الذي قام بجمـع وترجمة اقوال المؤرخين العرب في تاريـــخ القفقاس .

ولا مجال الآن لتعداد الايادي البيض التي قدمها علماء الاستعـــراب السوفيـات للفكر العربي فهي تحتاج الى زمن وبحث طويلين ولكن لا يمكن ان اتحدث عن كلثـوم عودة قاسيليفيا دون ان اشير بصورة موجزة الى البحوث العلمية عن الشعر الجاهلـي والعصور الاولى من الاسلام التي كتبهـــا وحققها كراتشكوفسكي ومنها بحوث في شعر الشنفري والنعمان بن بشير والاخطل وذي الرمة وابي نواس ومسلم بن الوليد وكتـاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ و « حي بن يقظان لابن الطفيل . والى كتاب البخلاء ترجمـة المستشرق بارانوف واضع القاموس الروسي العربي . ومن أروع الامثلة للترجمة العلمية هي ترجمة كراتشكوفسكي ولرسالة الملائكـة لابي العلاء المعري الذي قال عنها ((ان هذا المؤلف الذي شغلت به مدة عشرين عامـــا وعشت معه كأنما هو واحد من افراد اسرتي قد احتل مكانا جديرا به في ميدان الحيـاة والعلم معا .)) .

ولا يفوتني ان اذكر كتاب « الف ليلـة وليلة » لميخائيل ساليه الذي درس كل مـــا سبق نشره من تراجم لهذه الحكايات قبل ترجمته وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغـــات العديدة في الاتحاد السوفياتي ، ثم اشير الى رحلات ابن ماجد الرحالة الشهير الذي كـــان يرشد المراكب البرتغالية الى الهند ، والـــى كتاب « المنازل » والديار » وكتاب « القانون» و« الشفاء » لابن سينا والى اعمـــال ابي الريحان البيروني وكتابه « الاثار الباقية من

(*) نص المحاضرة التي كان من المقرر ان يلقيها الشاعر ابو سلمى في مهرجان لتكريم كلثوم نصر عودة ، اتفـــق على عقـــده بين اتحادنا واكاديمية العلوم السوفياتية ، ثم تأجـل الـــى وقت لاحق .

ان وعي الكاتب لضرورته يعني وعيه للقوانين والصراعات وطبيعة المراحل التاريخية ٠

وان **الطاهر وطار** ، بتركيزه على حساسيات مرحلة الوطنيـــة الديمقراطيـــة ، وبتفجيره لتناقضاتها ، يكون قريبا من حقل الممارسة الايديولوجية والنضالية من واقع الثورة وجماهيرها (سميشا العمال والفلاحين) ٠

في الجزائر ، الان ، يدخل البناء التحتي في تناقض مع بنائه الفوقي ٠ انه تناقض بين قوى الانتاج وشكل العلاقة الانتاجية ٠ فهل تكون هذه الوحدة التي تجمع الاضداد موضوع الفنان أو الكاتب العضوي من خلال ارتباطه بايديولوجيا الفعل والممارسة ٠

ان الايديولوجيا والثقافة والفن والقوانين تتطلب وقتا هو أطول بكثيــر مــن الوقــت الذي يستغرقه بناء مصنع أو تعبيد طريق ، أو حتى خطة تنمية بكاملها ٠

سيظل هذا الموضوع هو موضوع المرحلة الحساس ٠ ذلك انه العامل المحدد لعضويـــة أي مثقف مع المرحلة ٠٠٠ ربما « **عرس بغل** » تجيب على ذلك ٠ انها محاولة رصد لمجتمع المرحلـــة ببنائيه في شكل علاقتهما التناقضية ٠

– التحولات التحتية ، المزارع النموذجية ، القرى الاشتراكية ٠

– تعدد الزوجات ، الفكر الديني ، وحزب القيم ٠٠ انها محاولة للدعوة الى الثورة عـــلى علاقات الربح والقيم ٠

....

* **سميشا** : كلمة روسية تعني تحالف ٠

كلثوم عودة فاسيليفا *

ابو سلمى

يقتضي الواجب عنـــد الكتابة عن مواطنه فلسطينية اتخذت من الاتحاد السوفياتي وطنها الثانـــــي ان اشيد بـــاولئـــك الذيـــن خدموا الثقافة والحضارة العربيتين فـــي الاتحاد السوفياتي منذ انشـــاء « دار الادب العالمي » للطباعة والنشر في روسيا بعـــد ثورة أوكتوبر العظمى سنة ١٩١٧ والـــذي ترأسها آنذاك مكسيم غوركي ، تلـــك الدار التي احتلت روائع الادب والفكر العربيـــة مكانا بارزا بين منشوراتها حتى الآن ٠

وان مراكز الاستعراب السوفياتية التي نشأت في شتى المدن الروسية بعد الثـــورة ، قد أدت خدمات جلى فـــي عالـــم البحـــث والاستشراق ، وكشفت عن كنوز عربية كانت مدفونة ومجهولة في ظلمات التاريخ ، وفي طليعة هذه المراكز ، مركز لينينغراد برئاســـة كراتشكوفسكي ، استاذ علماء الاستعراب ، ومركز الاستعراب في جورجيا الذي كـــان يقوم في بادىء الامر بالبحوث اللغويـــة ٠ ومركز أوكرانيا الذي كان يعمل فيه الاكاديمي كريمسكي زميل كراتشكوفسكي ، وتلامذته ، في دراسة ثقافة العرب وتاريخهم في العصر الحديث ومركز طاشقند ودراسة المخطوطـات العربية القديمة ومركز باكو الذي قام بجمـع وترجمة اقوال المؤرخين العرب في تاريـــخ القفقاس ٠

ولا مجال الآن لتعداد الايادي البيض التي قدمها علماء الاستعـــراب السوفيـــات للفكر العربي فهي تحتاج الى زمن وبحـث طويلين ولكن لا يمكن ان اتحدث عن كلثـــوم عودة فاسيليفيا دون ان أشير بصورة موجزة الى البحوث العلمية عن الشعر الجاهلـــي والعصور الاولى من الاسلام التي كتبهـــا وحققها كراتشكوفسكي ومنها بحوث في شعر الشنفري والنعمان بن بشير والاخطل وذي الرمة وابي نواس ومسلم بن الوليد وكتـــاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ و « حي بن يقظان لابن الطفيل ٠ والى كتاب البخلاء ترجمـــة المستشرق بارانوف واضع القاموس الروسي العربي ٠ ومن أروع الامثلة للترجمة العلمية هي ترجمة كراتشكوفسكي ولرسالة الملائكـة لابي العلاء المعري الذي قال عنها ((ان هذا المؤلف الذي شغلت به مدة عشرين عامـــا وعشت معه كأنما هو واحد من افراد اسرتي قد احتل مكانا جديرا به في ميدان الحيـــاة والعلم معا ٠)) ٠

ولا يفوتني أن اذكر كتاب « الف ليلـة وليلة » لميخائيل ساليه الذي درس كل مـــا سبق نشره من تراجم لهذه الحكايات قبـل ترجمته وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغـــات العديدة في الاتحاد السوفياتي ، ثم أشير الى رحلات ابن ماجد الرحالة الشهير الذي كـــان يرشد المراكب البرتغالية الى الهند ، والـــى كتاب « المنازل » والديار » وكتاب « القانون» و« الشفاء » لابن سينا والى اعمـــــال ابي الريحان البيروني وكتابه « الاثار الباقية من

(*) نص المحاضرة التي كان من المقرر ان يلقيها الشاعر ابو سلمى في مهرجان لتكريم كلثوم نصر عودة ، اتفـــق على عقـــده بين اتحادنا واكاديمية العلوم السوفياتية ، ثم تأجل الـــى وقت لاحق ٠

القرون الخالية ، والجواهر » · وكذلك اعمال المجغرافيين والمؤرخين العـــرب ذات العلاقة بتاريخ تركمانيا الذي قام بترجمتها فيكتــور بيلاييف عضو المجمع اللغوي المصري وكذلك رسالة ابن فضلان التي صدرت بالروسية سنة ١٩٣٩ وقـــام الاستاذ كوفاليفسكي ينشر الصورة الاصلية للمخطوطة مـــع الترجمة العلمية الدقيقة برعاية كراتشكوفسكي ·

وقال الدكتور سامي الدهان ـ عضــو المجمع العلمي العربي بدمشق واحد اعـــلام الادب في سورية والذي زار الاتحاد السوفياتي مع وفد المجمع العلمي العربي بدمشق بدعوة من اعضاء المجمع العلمي السوفياتي : قال في مقدمة كتابه عن رسالة ابن فضلان ص ـ ١٠ ((فكان أول همي أن افوز بنسخة مــن الرسالة مترجمة الى الروسية مع التعليقات وقد تفضل علي بها الاستاذ (ف · بيلاييف) مشكورا وفيها الصورة الشمسية الواضحــة لرسالة ابـــن فضلان وكانت تعليقاتها منارة لي وهدى) ·

وعلق على الدراسة بقوله : ((والحق ان هذه الدراسة هي أدق ما صدر عن ابـــن فضلان ورسالته وهي أصح التعليقات واقربها الى فهم النص فهي تعتمـــد عـــلى المقالات والدراسات التي نشرت قبلها وترجع الـــى المصادر الحديثة الواسعة ، وعلى قوة في الملاحظة ووقوف على العربية)) ص ٤٩ ·

ورسالة أمير الصفد الى الجراح بـــن عبد الله حاكم آسيا الوسطى وهي وثيقــة كتبت بالعربية على الجلد وبقيت أكثر مـــن ١٢٠٠ سنة في الارض وتضررت كثيرا مـــن أثر الرطوبة فيها فبهتت الوان الحبر فيهـــا وتلاشـــى نحـــو ثلـــث النص تمامـــا الا أن كراتشكوفسكي تمكن من قراءة هذه الوثيقة من بقايا نصها وقد اتاحت هذه الرسالة التي قام كراتشكوفسكي بتفسيرها ، الفرصــــة لتزويد العلماء بمعلومات جديدة عن حكـــم الامويين في آسيا الوسطى ·

وقد اعتنى العلماء السوفيات أيضـــا بالكتابات العربية المنشـــورة عـــلى جدران المساجد والمدارس والخانات والبيوت وعـــلى أبواب الاسوار القديمة التي كانت تحيط بالمدن وعلى الاواني النحاسية والفخارية والسيوف وخاصة في آســـيا الوســـطى وداغســـتان وازربيجان والقرم وكازاخستان وطاجكستان والقفقاس ، ويذكر في هذا المجال اســـماء المستشرقين ، فرين ، غريغورييف ، ودورن، وسافيلييف وخانيكوف ولانشـــى المستشرق « عمري شيخ سعيدوف » من داغســـــتان وكراسه (الكتابات العربية تتحدث) واوليغ بولشاكوف في لينينغراد والعالم الطاجيكـــي « ا · مختاروف » · ان هؤلاء العلماء حملوا مشاعل النور وساروا في طرقات التاريـــخ المظلمة ، حتى أنهم جعلوا الحجارة تتحـــدث عن الحضارة العربية ·

ولا ننسى المهرجانات العديدة التي تقام في الاتحاد السوفياتي من آن لآخر احياء لتراث وذكرى الفلاسفة والعلماء امثال ابن سينا والبيروني والبخاري ·

وأخيرا لا آخرا مهرجان الفارابي الذي أقيم في الاتحاد السوفياتي برئاسة العالـــم الاكاديمي غفوروف رئيس معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم بموسكو ·

وان كان بعض هؤلاء المفكرين ولدوا في الديار الشرقية من الاتحاد السوفياتي الان الا انهم نشأوا وتثقفوا فـــي ظلال الدولـــة العربية وكتبوا فلسفتهم وافكارهم وتراثهـــم باللغة العربية وان احدهم وهو الفارابي توفي في دمشق · فكانوا رمزا لوحـــدة الفكـــر والثقافة والانسانية · وقد وصفهم العلامـــة الفلسطيني قدري حافظ طوقان كاعلام عـــرب في كتابيه القيمين « مقام العقل عند العرب » « والخالدون العرب » ·

في يوم من أيام الربيع ربيع فلسطين ، أجمل ربيع ، وفي مدينة الناصرة عـــروس الجليل ، وفي دار « نصر عودة » ، في حارة الروم قرب العين التي التقى قربها يوســـف النجار مع مريم العذراء أول لقاء ، وفـــي اليوم الثاني من شهر نيسان سنة ١٨٩٢ ، ولدت خامس بنت لعفيفة الخال من زوجهـــا نصر عودة ، وسميت هذه البنت « كلثوم » ·

ومن الطبيعي جدا في المجتمع العربـــي آنذاك ، أن البنت الخامسة لم تستقبلهـــا الاسرة استقبالا حارا لان نصر عـــودة كان يأمل بولد له بعد بناته ، يعينه في حياتـــه ويخلد اسمه بعد مماته ·

وفوق ذلك لم تكن البنت كلثوم عـــلى جانب ولو بسيط من الجمال ، مما جعل امها تقول لها بعد ما كبرت قليلا بلهجتها العامية النصراوية « يا سودا يا لودا مين بياخدك » اي انك لن تجدي زوجا لك بسبب هيئتك »·

وجاء بعد البنت الخامسة ولد لنصـــر عودة سموه سليما · وهكذا كانت اســـرة نصر عودة تتالف عدا الوالـــد والوالـــدة من خمس فتيات وصبي واحد · ومن الطبيعي ايضا أن يكون الاهتمام الكبير بالصبـــي وحده · واسرة عودة كان اسمها في بادىء الامر حمولة أبو علي ثم عائلة حداد ثم نصر ثم عودة وكان نصر عودة والد كلثوم مـــن الكادحين في هذه الحياة ، ولم يكن غنيـــا وانما كان يتعامل مع الفلاحين في تجـــارة القمح نيابة عن أخيه الملاك أسعد عودة لان نصر كان يشتهر بذلاقة اللسان وقوة الحجة·

وقد تفتح ذهن كلثوم البنت الصغيـــرة باكرا ، وان الطبيعة اذ حرمتها من الشكل الحسن فقد وهبتها فكرا نيرا ولذلك اهتمت بالقراءة والدأب على الدراسة أكثر مـــن زميلاتها ·

وكان لروسيا في ذلـــك الوقت صلات كثيرة في فلسطين ولها مدارس ومستشفيات وكنائس وأديرة ، وخاصة في الناصرة وبيت لحم والقدس ، وفي قلب القدس توجد محلة كبيرة فيها بنايات عدة وكنيسة كبرى عـــلى النمط الروسي ، واسم المحلة « المسكوبية »·

وكان الارثوذكس العرب ينظرون الـــى روسيا كاكبر دولة ارثوذكسية في العالـــم واكثر العرب المسيحيين في فلسطين هـــم ارثوذكس ومنهم دار عودة في الناصرة · وكان للمدارس الروسية في فلسطين أثرهـــا في التعليم وفي التيار الادبي العربي وقـــد تخرج من هـــذه المدارس أدباء وشـــعراء فلسطينيون عديدون منهم خليل بيدس وناصر عيسى ونعمة الصباغ وناصر رمضان وشفيق نصار الـــذي أصبح مفتشـــا فـــي المدارس الروسية ، ومن ابرز من تخرج من هـــذه المدارس من غير السوريين ، الاستاذ ميخائيل نعيمة · وكان الخوري نقولا الخوري من بيت جالا ، البلدة الريبة من بيت لحم ، استاذا في مدرسة سينمار الروسية في بيت جالا وكان لذلك اثره في ولده الشاعر الفلسطينـــي اسكندر الخوري البيتجالي ·

وكان على رأس هذه المدرسة الروسية فـــي الادب الاستاذ خليـــل بيدس وخاصة المدرسة القصصية الروسية · وخليل بيـــدس هو من مواليد الناصرة سنة ١٨٧٥ ، وتخرج من المدرسة الداخلية الروسية ، وبعد ست سنوات مـــن الدراسة ، ومـــن ثم استحق ان يتولـــى احـــدى ادارات المـــداس الروسيـــة الابتدائيـــة في انحاء سوريـــة وفلسطيـــن ولبنـــان · وهكـــذا كـــان مديرا للمدرسة الروسية في حمص «سورية» ثم في بسكنتا (لبنان حيث درس الطالـــب ميخائيل نعيمة ثم جهزه ليقبل في مدرســـة الناصرة الروسية ·) وقد وصف ميخائيـــل نعيمة المدارس الروسية الابتدائية ومدرســـة دار المعلمين في الناصرة في كتابه (ابعـــد من موسكو ومن واشنطون) ص ٨٥ ـ ٦٦ فيذكر كيف باشرت الطائفة الارثوذكســـية تشييد بناء ضخم في الجهـــة الشرقية مـــن بسكنتا وليكون مدرســـة مسكوبية ويقول : « انتهى البناء عام ١٨٩٦ فانتقلنـــا اليـــه وشعرنا في الحال كاننا انتقلنا من الجحيم ، فغرف التدريس واسعة وجميلة ونظيفـــة والمقاعد فيها ليست من طراز ما عرفناه مـــن قبل » ثم يمعن بالتفصيل في وصف الغـــرف والطاولات والالواح الى ان يقول : « امـــا مدير المدرسة فكان دائما من خريجـــي دار المعلمين الروسية في الناصرة وكان اقصـــى ما أتمناه لو أصبح يوما مديرا لمدرســـة مسكوبية » ·

ثم يصف مدرسة الناصرة الروســـية ويقول : بلغت الناصرة المدينة الفلسطينيـــة التي ربي فيها يسوع ·· فوجدتني في مدرسة

تضم نحوا من ٤٥ طالبا اصغرهم في مثل سني (وكان في الثالثة عشرة من عمره) واكبرهم دون العشرين بقليل وجميعهم في تستغرق الدراسة في كل منها عامين . وفهمت ان الطلاب قد اختيروا مثلي من مدارس روسية ابتدائية في انحاء سوريا وفلسطين ولبنان ، أما الاساتذة فكانوا من الروس ما عدا استاذ اللغة العربية ومدير المدرسة واستاذين اخرين والثلاثة الاخرون كانوا عربا ولكنهم تخرجوا من معاهد عالية في روسيا » .

ثم يتابع ميخائيل نعيمة كلامه فيقول :

((وكانت الدروس تلقن بالروسية ما خلا اللغة العربية وآدابها والتاريخ العام والتعليم المسيحي . ولعل دار المعلمين الروسية في الناصرة كانت المدرسة الاولى في العالم العربي التي اهتمت بتدريس تاريخ الادب العربي وفن التربية والتعليم ، ولانه لم يكن قد قام بعد من العرب من يكتب تاريخ الادب العربي بطريقة جامعة ، تصلح للتدريس في المدارس فقد كنا نستعين بترجمة خطية لكتاب وضعه في الموضوع احد المستشرقين الروس .))

واصدر خليل بيدس مجلة « مجلة النفائس » في الاول من تشرين الثاني سنة ١٩٠٨ . وقد ترجم عن الروسية روايات كثيرة معظمها للكتاب الروس وبعضها لكتاب غير سوفيات فاول ما ترجم رواية « ابنة القبطان » لبوشكين وقد طبعت في جريدة المنار بيروت سنة ١٨٩٨ ثم « القوزاقي الولهان » و« الطبيب الحاذق » وطبعت الروايتان ايضا في بيروت سنة ١٨٩٨ وقد طبع في نفس السنة كتابا عن تاريخ روسيا القديم . وفي سنة ١٩١٣ ترجم « انا كارنين » .

وعرب رواية « شفاء الملوك » وقد الفتها الكاتبة الانكليزية ماري كوريلي ونقلتها الى الروسية ز . جورانسكايا بعنوان « تحت نير السلطة » فعربها عن الروسية بعنوان « شقاء الملوك » . ثم عرب « اهوال الاستبداد » لتولستوي وفي مقدمته لهذه الرواية التي نشرها في آخر اعداد السنة الثانية من النفائس ١٩٠٩ يقول : « وضع هذه الرواية المؤلف الشهير والكاتب البليغ الذائع الصيت الكونت الكبير تولستوي الروسي . وهي من خيرة الروايات الادبية لما تضمنه من العبر والحكم في تثقيف الاخلاق وتنوير الاذهان وحث النفوس على الكمالات الانسانية ، وقد تصرفت في تعريبها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال وتبويب لتكون موافقة لذوق قراء العربية وسميتها « اهوال الاستبداد » لما يراه والمطالع فيها من الاستبداد والجور والعسف والظلم وغير ذلك من الفظائع والكبار التي تعافها الانسانية ... اما اسمها الحقيقي فهو « كينياز سيربرياني » اي الامير سيربرياني وهو احد ابطالها » .

وترجم كذلك روايات « هنري الثامن » طبع القدس ١٩١٣ « والحسناء المتنكرة » « القدس ١٩١٩ » العرش والحب » ١٩١٩ « الوارث » ١٩١٩ .

كما ترجم الى الروسية رواية « المملوك الشرد » لجورجي زيدان وعرب أيضا حكايات قصيرة مثل « سياحة في عالم الخيال » و« خواطر » من كتاب طريق الحياة لتولستوي ونشرت جميعها في مجلة النفائس العصرية . ومن الذين امنوا بمدرسة بيدس القصصية فترجموا ووضعوا القصص ونشروها في مجلة النفائس العصرية ، كتاب عديدون امثال ، انطون بلان ، جبران مطر ، كلثوم عودة ، فارس مدور وابراهيم جابر وسليمان بولس وعبد الكريم سمعان . وانطون بلان هو الذي عرب رواية طويلة عن الروسية اسمها « في سبيل الحب » وكان من اساتذة المدرسة الروسية في الناصرة. وكانت طالبات مدرسة السيمنار الروسية بيت جالا يترجمن حكايات عن الروسية ويرسلنها الى مجلة النفائس العصرية .

يقول الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه حياة الادب الفلسطيني الحديث ـ من اول النهضة حتى النكبة « طبع المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت سنة ١٩٦٨ » . صفحة ١١١ ـ ١١٢ .

« ولقد كان الاستاذ خليل بيدس ومن اجتمع حوله في مجلته النفائس كانطون بلان ومن بعده الاستاذ نجاتي صدقي خير من فتحوا النوافذ على الحياة العربية لتتسرب اليها انفاس الادب الروسي الفنية . وحين اتصلت حياة هذا القطر بالادب الاوروبي الحديث رأينا آخرين من الشبان ينقلون عن الادب الروسي المترجم الى اللغات الاوروبية . ففي منتصف العقد الرابع من القرن العشرين نجد محمود سيف الدين الايراني وعارف العزوني ينقلان « للطليعة » لمحات عن حياة غوركي ماخوذة عن كتابه (حياتي وانا صبي) وفصولا من رواية الام ... وقصصا من قصص السوفيات (الطليعة : الاعداد ١٠،٧،٦ السنة ٢ ص ٥٦٧ ـ ٥٨٠ ، ٥٩٣ ـ ٨٦٩ .)

وبعد الحرب الثانية نجد عارف العزوني ينقل « للطريق » قصصا من مجموعة أقاصيص ليننفراد في تمجيد بطولة ابنائها ابان الحرب ، كما ينقل من أدب الحرب اناشيد لبعض الجنود السوفياتيين الشعراء، اصطبغت كلها بتلك الروح الانسانية العالية التي كانت على مر التاريخ مصدر اعمال بطولية كبيرة (الطريق عدد ١٦ سنة ٤ وعدد ٣ سنة ٦ ص ٧٧ ـ ٨٠)

وعارف العزوني هو الذي ترجم لناظم حكمت ((ترانتابو)) من رسائل شاب حبشي الى زوجته (الطليعة ـ عدد ٤ سنة ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٧) .

كما ترجم عبد الحميد ياسين قصة الرهان لتشيكوف ونشرت في مجموعة له من الاقاصيص سنة ١٩٤٦ . ومن كبار الذين اتصلوا بمنابع الادب الروسي الاستاذ نجاتي صدقي ، فقد نشر كتابا في سلسلة اقرأ رقم ٢٨ بعنوان « بوشكين امير شعراء روسيا » وقد كتب اليه الاستاذ ميخائيل نعيمة في رسالة بتاريخ ٣ آب سنة ١٩٤٤ ، نشرت في مقدمة الكتاب يقول فيها : ((واما الفصول التي تلطفت وقراتها لي من الدراسة التي تعدها عن بوشكين ، فقد تركت في ضميري كثيرا من السرور مع شيء من الامتنان لك . .. ذلك لانك قمت ببعض الواجب الذي كان من المفروض ان اقوم به انا نظرا للصلة المتينة التي بيني وبين الاداب الروسية ، فقد رشفتها صافية من منابعها الصافية ، ولكم تمنيت لو يتاح لي نقل بعضها الى لغتنا كيما ينعم ابناء الضاد ، ولو بنفحات من طيوبها النادرة المثال بين آداب الامم .. وها انت تاخذ الكسندر بوشكين أعظم شعراء الروس وقمة باسقة ما بين قمم الشعر الباسقات في الارض ، فتنقل الى قراء العربية اخبار حياته القصيرة والحافلة بكل جليل ومدهش من الاخبار ... ومما يزيد في قيمة عملك انك ، وقد حصلت قسطا ليس بالقليل ، تستقي معلوماتك من مصادرها الاصلية وفي ذاك ما يغريني بالامل ـ وقد فرغت من حياة بوشكين ـ أن اراك تنصرف الى نقل بعض المعالم الادبية الروسية الى العربية ، فمن المخجل ان تبقى الى الآن محجوبة عن العرب وما من أمة حية ـ كبيرة كانت أم صغيرة ـ الا وتتمتع اليوم بنصيب من جمالها الفتان وغناها المفرط وروحها الانساني العميق » .

ونشر كتابا آخر من سلسلة اقرأ رقم ٥٠ عن تشيكوف نقل فيه عن الروسية بعض مسرحياته وقصصه . ومنهم سليم قبعين وهو من أسرة قبعين المعروفة في الناصرة الذي اصبح صحفيا مشهورا في القاهرة وقد ذكره كراتشكوفسكي في كتابه « القيم » « مع المخطوطات العربية » عندما تحدث عن رسالة الملائكة للمعري يقول ص ٦٣ : « تسلمت من القاهرة نسخة كاملة من هذا المخطوط ، كان اوصى بها تلبية لطلبي ، صحفي مشهور هو سليم قبعين مترجم تولستوي الى العربية وقد ارسل لي سليم هذه النسخة ذاكرا لي بتباه وفخر أنه قد وجد في النهاية احسن نوع من الورق والحبر الضروريين لنسخ هذه الرواية » .

انني اعتذر عن الاستطراد عند التحدث عن فقيدتنا الغالية ولكن علمي بأن هذا الاستطراد لا يخرج عن الرسالة التي كانت تؤديها كلثوم ، جعلني ابيح لنفسي هذا الاستطراد .

بعد ما درست كلثوم عودة دراستها الابتدائية في مدينة الناصرة ذهبت الى دار المعلمات الروسية الموجودة في بلدة بيت جالا.

انهت دراستها في المدرسة الروسية عام ١٩٠٨ وهي في السادسة عشرة من عمرها وقد تتلمذت على الاستاذ خليل السكاكيني احد اصحاب المدارس الادبية في فلسطين وكان له اثر كبير في توجيهها · ثم عادت الى الناصرة واخذت تدرس فيها لمدة ست سنوات وكانت تساعد والدها من راتبها الذي كانت تتقاضاه · وفي هذه المدة تعرفت على الدكتور الروسي ايفان فاسيليف طبيب المدرسة الداخلية الروسية في الناصرة ، وكان يتمتع بسمعة حسنة لطيبة اخلاقه واخلاصه لمهنته وانسانيته ، واشتدت الصلة بينهما حتى اتفقا على الزواج · ولكن والدها عارض هذا الزواج لسببين الاول : لان ابنته كانت تساعده وبزواجها تنقطع المساعدة والثاني لان هذا الزواج نتج عن حب بينهما ، والحب يجلب كلاما كثيرا على الاسرة ، وذلك من اثر العادة العربية القديمة فقد كان الشاعر الذي يحب فتاة ويتغزل بها ، يمتنع اهلها عن تزويجها منه وذلك خوفا من كلام القبيلة بانها لم تتزوج الا عن حب وان الحب لا يتم بين شخصين الا وتكون علاقة بينهما قبل الزواج ، وهذا لا يجوز وكلكم يعرف قصص مجنون ليلى ، وقيس ولبنى ، وجميل بثينه ، وكثير عزة ·

وقد ساعد بعض افراد اسرة عودة والدها في الامتناع عن الرضى بالزواج ، وقد روت لي السيدة كلثوم نفسها عندما التقينا بها سنة ١٩٥٧ في موسكو بأن بعض افراد اسرتها العتاة طلب من احد الصبيان ان يدفعها من اعلى سطح البيت عندما تعتليه فتقع على الارض وتموت وتستريح العائلة منها ومن عارها ، فذهب الصبي واعلمها بالقصة لتاخذ حذرها ، ولكن رجلا من افراد اسرتها هو ابن عمها نجيب عودة ، اخذ بيدها ، وذهب هو واياها والدكتور ايفان فاسيليف الى القدس وعقد قرانهما في كنيسة هناك ثم عاد بها الى الناصرة وجعل والدها وجميع افراد اسرتها امام امر واقع ، ويقال ان الدكتور ايفان تعهد بمساعدة والدها بالمبلغ نفسه الذي كانت تدفعه كلثوم اليه من راتبها ·

وكان قبل ذلك قد تم لقاء بين كلثوم وكراتشوفسكي في شهر أيار سنة ١٩١٠ ويقال ان سبب المعرفة كانت قصيدة نثرية نشرت في بعض الصحف العربية كان عنوانها « آه لو أن لي جناحين لطرت بهما » بتوقيع سائح روسي يجيد اللغة العربية اجادة تامة ·

وقال كراتشكوفسكي ، في كتابه مع للخطوطات العربيةص ١٢٢ ، عن كلثوم وكنت قد قابلتها في الناصرة ذاتها وكانت آنذاك معلمة ناشئة الى جانب عملها في المجلات العربية » · وكان كراتشكوفسكي قد جاء الى الشرق وأقام سنة ونصف في مصر وسورية وفلسطين وقد زار القدس كثيرا واجتمع بادبائها وكتابها وقد جاء في مجلة النفائس العصرية ، المجلة الادبية التي كان يصدرها خليل بيدس في القدس في الجزء الرابع من سنة ١٩١١ في الصفحتين ١٨٩ _ ١٩٠ وصف ليلة أدبية مقدسية اذكر بعضه في ما يلي : « روي الكاتب الروسي المعاصر » ثيودروف ، في جريدة ريتش وهي من الجرائد اليومية المشهورة التي كانت تصدر في بطرسبورج قال فيها : « اجتمعت ببعض ادباء القدس في منزل الخواجا بندلي الجوزي استاذ الاداب العربية في كلية قازان وكان معي الخواجه كراتشكوفسكي المستشرق الروسي وكان قد جاء الشرق في مهمة علمية فاقام في مصر وسورية وفلسطين لذات الغاية سنة ونصف السنة فاتقن اللغة العربية وتخلق باخلاق العرب وعاداتهم ، أما الادباء الذين اشرت اليهم فهم الاستاذ خليل السكاكيني والشاعر الكاتب اسعاف النشاشيبي وارستقراطي من سلالة الفاتحين جميل الخالدي وكان حديثنا بعضه بالفرنسية وبعضه بالانكليزية واكثره بالعربية وكان رفيقي المستشرق وصاحب المنزل يترجمان الحديث وكنت اسمع وانا مسرور مرتاح حديث هؤلاء الشبان المتقدمين ذكاء وحماسة ووطنية وقد علمت امورا كثيرة مما لا نعلمه نحن الاوروبيين عن هذه الامة العظيمة بتقاليدها وتاريخها وآدابها ولا يخفى ان جَمهور السياح الاوروبيين اذ كتبوا شيئا

عن سوريا وفلسطين انما يلتقطون ذلك من أفواه الحوذيين والحمالين والباعة المتجولين· ان السوريين هم جزء من الامة العربية المشهورة بعمرانها وتاريخها وشعرها وهم الآن متاخرون في العلم والادب بسبب استبداد الحكومة السابقة بهم وبغير ذلك من الاسباب التي لا حاجة الى ذكرها ···· كنت جالسا أسمع اللهجة العربية وكاني اسمع انغاما موسيقية جميلة يستشف منها القوة والعناد وكان تلك الالفاظ نار تستعر حدة ثم لا تلبث ان تخمد فيستولي بعدها التامل والسكينة وبعد ان مضى هزيع من الليل اقترحت على النشاشيبي ان يسمعنا شيئا من شعره فانشدنا قصيدة في الحرية (ذكرى فتاة مكدونيا) ارتحت اليها كل الارتياح واكبرت المعنى العربي العظيم في اللفظ العربي الفخيم وخلت كاني أسمع اصوات جمهور لا فرد » · اسعاف النشاشيبي هذا هو الذي أصبح فيما بعد زعيم مدرسة أدبية في فلسطين ولقب بأديب العربية وقد كان للآداب الروسية وخاصة قصص تولستوي اثرها فيه حتى انه عندما توفي تولستوي رثاه بقصيدة منها :

يا رسول السلام من للسلام
يوم تذكى نار الوغى بضرام
من يجير الضعيف بعدك أو من
يرتجيه في الكارثات الجسام
أظلم الكون حين بنت فبتنا
حلفاء الاشجان والآلام ·

وفي سنة ١٩١٤ رحلت كلثوم عوة مع زوجها الطبيب الروسي ايفان فاسيليف الى مدينة كرونشتات على ساحل بحر البلطيق ·

اندلعت الحرب العالمية الاولى فدخلت كلثوم مدرسة للتمريض والتحقت بالصليب الاحمر للجمعية السلافية وخدمت في سيبيريا ثم في تشيرنغوريا الجبال السوداء وفي عام ١٩١٧ نزلت مع زوجها في أوكرانيا حيث واصلت اعمالها كممرضة · وكان وباء التيفوس انذاك منتشرا في أوكرانيا واصابت العدوى زوجها الطبيب ايفان فاسيليف الذي كان يعمل في المستشفيات ليل نهار فتوفي عام ١٩١٧ تاركا زوجته وبناته الثلاث ولم يكن عمر اكبرهن يتجاوز الخامسة واصغرهن لم يمض على ميلادها سوى شهرين ·

لقد كانت السيدة كلثوم عودة شجاعة بكل ما ي هذه الكلمة من معنى ، نعم انها كانت شجاعة عندما تزوجت رجلا غريبا وهي الفتاة الفلسطينية الناصرية المحافظة ،وكانت شجاعة عندما سافرت معه الى روسيا في تلك الاوقات ، وكانت شجاعة بعد وفاة زوجها عندما وقفت وحيدة مع بناتها الصغيرات ، تعبد طرق حياتها وحياة صغيراتها في محيط غريب عنها « كاللبوة تدافع عن صغارها » وفي وقت كانت الثورة الاهلية مستعرة ·

اشتغلت مزارعة غير عابئة بالمشاق ، وكانت القرويات يساعدنها في زراعة الارض ودراسة المحاصيل مقابل تثقيفهن وتعليمهن القراءة حينا واعطائهن دروسا صحية للوقاية من الامراض ·

وعاشت في أوكرانيا حتى سنة ١٩٢٤ ثم انتقلت الى لينينغراد حيث عملت مع كراتشكوفسكي ابي الاستشراق الروسي في الزمن الحديث · وكان يدير معهد الاستعراب العلمي السوفياتي فاخذت تعمل في التدريس وكان من برامجه ، فضلا عن تعليم اللغة العربية الفصحى تعليم اللهجة المصرية · والى جانب التدريس كانت تقوم بالتاليف والترجمة من العربية الى الروسية ومن الروسية الى العربية وتساهم في تاليف القاموس الروسي العربي ، فيقرأ لها العرب قصصا عن لينين وحكايات للاطفال ويقرأ لها الروسي مختارات من الادب العربي · وكتابها الاخير هذا واسمه المنتخبات العصرية لدرس الاداب العربية طبعته وزارة المدارس العليا للاتحاد السوفياتي _ جامعة العلوم الشرقية في موسكو ، وقد اطلعت على الطبعة الثانية من هذا الكتاب في مكتبة لينين بموسكو وفي اخره مقدمة من الاستاذ كراتشكوفسكي باللغة الروسية · ومن العجيب انها لم تنتخب ولا مقطوعة لاي كاتب فلسطيني في هذا الكتاب· كما انها ترجمت الى اللغة العربية كتاب كراتشكوفسكي الذي وضعه بالروسية عن حياة الشيخ محمد عياد طنطاوي ، بناء على

طلب من المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في جمهورية مصر ، وقد طبعه المجلس الاعلى بمصر بسنة ١٩٦٤ بعدما راجع نصه العربي وحققه وعلق عليه الاستاذان عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغني حسن . ولم تقطع صلتها بالادباء العرب والصحف والمجلات العربية اثناء عملها مع المستشرق الكبير كراتشكوفسكي التي كانت تكن له اكبر الاعجاب والاجلال وفي سنة ١٩٢٧ نشرت مجلة الهلال القاهرية التي كانت ارقى المجلات العربية واوسعها انتشارا ، نشرت شروط مسابقة في عددي (فبراير شباط) ومارس واذار) في سنة ١٩٢٧ وكان موضوع المسابقة « كيف يعيش المرء هنيئا في هذه الحياة » واشتركت كلثوم عودة فاسيليفيا بهذه المسابقة وقد جاء في مجلة الهلال الجزء الثامن الصادر في اول (يونيو حزيران) سنة ١٩٢٧ ما يلي :

« في يوم الاربعاء ١١ مايو (أيار) الماضي عقدت في دار الهلال الجلسة الختامية للجنة التحكيم ، مؤلفة من اصحاب السعادة والعزة الاساتذة احمد شفيق باشا ، خليل مطران ، مصطفى عبد الرزاق ، منصور فهمي سامي الجريديني ، سلامة موسى ، وبعد مراجعة الردود والمفاضلة بينهما قررت قسمة الجائزة بين ردين. هما الرد (نمرة ١١٠) والرد (نمرة ٦٤) وبعد مراجعة الظروف الحاوية لاسماء المتسابقين الحقيقية وجد ان صاحبي الردين هما الانسة كلثوم عودة فاسيليفيا (من لينينغراد ـ روسيا) ومحمد توفيق يونس افندي (من مصر) » .

وقد استحسن المحكمون ردودا اخرى ولكنهم اعتمدوا في حكمهم على شرح المسابقة المنشور في الهلال ومنه يظهر جليا ان المطلوب ايراد اختبارات شخصية ومشاهدات واقعية وليس مجرد البحث النظري . ولاهمية هذا البحث التاريخي من وجهة نظر كلثوم الى الحياة والعمل والناس جميعا البسطاء منهم والعلماء فقد رايت ان انقل اليكم هذا البحث وقد نشر في العدد ٩ الهلال ص ١٠٤٣ الصادر اول يوليو ١٩٢٧ ـ ٢ محرم سنة ١٣٤٦ وهذا هو النص بكامله

« لم اجسر على خوض هذا الموضوع مع علمي بقصوري في اصول اللغة وفن الكتابة الا لاني كثيرا ما اسمع ممن يحيطون بي : هنيئا لك ما اسعدك ، وحياتي عبارة عن سلسلة قصص لو اردت سردها لضاق بها المقام . فقد نشأت في فلسطين ثم هربت من البيت واقترنت بطبيب روسي وبعد العناء سامحني المرحوم والدي الذي لم يرد هذا الزواج قط . ثم سافرت مع زوجي الى روسيا وقد ابتدات الحرب ونحن في مياه البوسفور وبعد مدة اتممت دروسي واديت الامتحان المطلوب للحصول على رتبة ممرضة وسافرت الى الصرب ومنها الى الجبل الاسود وبعد تقهقر الجنود رحلت عن طريق البانيا الى فرنسا ومنها رجعت الى روسيا عن طريق انكلترا واسوج ونروج وفنلندا . ثم كنت في اوكرانيا وقت ان شبت الحرب الاهلية وها انا الان في بطرسبورغ وقد توفي زوجي وقت وباء التيفوس عن ثلاث بنات عمر كبراهن خمس سنوات ولصغراهن شهران من العمر . اذكر هذا كله ليرى القارىء تلك التقلبات التي عرضت لي في حياتي ، وفي كل حالة كنت سعيدة .

لقد استقبل ظهوري في هذا العالم بالدموع وكل يعلم كيف تستقبل ولادة البنت عندنا نحن العرب وخصوصا اذا كانت هذه التعسة خامسة اخواتها وفي عائلة لم يرزقها الله صبيا . وهذه الكراهية رافقتني منذ صغري فلم اذكر ان والدي عطفا يوما علي . وزاد في كراهية والدتي لي زعمها اني قبيحة الصورة فنشأت قليلة الكلام كتوما اتجنب الناس ولا هم لي سوى التعليم . ولم اذكر ان احدا في بيتنا دعاني في صغري سوى « يا ستي سكوت » او « ياسلولة » وانكبابي على التعليم في بادىء الامر نشأ من كثرة ما كنت اسمعه من والدتي : « مين ياخذك يا سودة بتبقي كل عمرك عند امراة اخوك خدامة » .

وكان ثمة شبح مهول لهذا التهديد اذ ان عمتي لم تتزوج وكانت عندنا في البيت بمثابة خادم فهال عقلي الصغير هذا الامر وصرت افكر كيف اتخلص من هذا المستقبل التعس .

لم ار بابا للفرج الا بالعلم ولم يكن سوى مهنة التعليم في ذلك الوقت تباح للمراة . وقد كانت العادة قبل الحرب ان من يكون اول تلميذ في المدارس الروسية الابتدائية يتعلم في القسم الداخلي مجانا وبعدها يحصل على رتبة معلم فعكفت على العمل وبلغت مرادي . والفضل في هذا لوالدي اذ ان والدتي المرحومة قاومت بكل ما لديها من الوسائل دخولي المدرسة .

فهل كنت سعيدة في حياتي ؟ نعم انني وجدت في نفسي خصلتين هما من اهم العوامل في هناء عيشي : الاقدام على العمل مع الثبات فيه ، والمحبة ، محبة كل شيء ، الناس والطبيعة والعمل وكل شيء يلامسني . هذه الخصلة الثانية هي التي تساعدني دائما في احرج مواقف حياتي

ان تذليل المصاعب لبلوغ المراد هو من اكبر عوامل السعادة فاذا اقترنت هذه بسعادة من يحيط بنا ايضا فهناك هناء العيش حقا . قضيت خمس سنوات بين تلك البنات اللواتي كنت اعلمهن وقد احببتهن حبا ساعدني على ان اعيش مع كل واحدة منهن بعيشتها الصغيرة وان اساعدهن على قدر طاقتي . وقد قابلني بالمثل فكنت دائما ارى وجوها باسمة ضاحكة وكن يرافقنني في كثير من تنزهاتي .

واذكر اني زرت مرة احدى صديقاتي وكانت ابنتها تتعلم عندي ولها ١٢ سنة من العمر فوجدت صديقتي في الفراش فاخبرتني في اثناء الحديث بانها غضبت امس على ابنتها اذ قالت لابيها اذا ماتت امي فتزوج بمعلمتي فهي تكون لي اما ... شعرت بسعادة لم اشعر بمثلها من قبل ملات قلبي اذ ان تلك الصغار يحببني كما احبهن

وفي وقت فراغي كنت ازور اطراف المدينة حيث يعيش الفلاحون واتفقد اطفالهم الصغار المهملين وقت الحصد وكان قلبي يتقطع الما عندما ارى تلك العيون الملتهبة بالرمد فاغسلها بمحلول حامض البوريك وبعد تنظيفها انقط محلول الزنك عليها . اظن ان بعض الاطباء الذين لم يجعلهم الزمن الة بل ظلوا بشرا يدركون تلك السعادة التي كنت اشعر بها عندما كنت ارى بعد ايام تلك العيون سليمة صافية وتلك الايدي الصغيرة تطوق عنقي . هذا الشعور كثيرا ما كان ينسيني تعبي . عندما كنت في ساحة الحرب في البلقان وفي روسيا . الم اكن سعيدة لتعافي كل جندي او لتخفيف الامه ؟ الم يرقص قلبي طربا عندما كنت ازور المريض واراه متجها الى الصحة وارى عائلته سعيدة لشفائه ؟ نعم اني كنت احب الجميع فاتالم لالام كل فرد وافرح لفرحه ولهذا لم تشعر نفسي اني غريبة مع ان لي ثلاث عشرة سنة في الغربة .

والامر الثاني ، واهميته لا تقل عن الاول، هو حسباني كل عمل شريفا . فلست اخجل من اي عمل كان ، ما دام غير ماس بشرفي ولا بشرف غيري ، اشتدت الازمة المالية وقت الحرب الاهلية في روسيا فصرنا نشتغل بلا اجر . نعم ان الفلاحين كثيرا ما كانوا يكافئوننا عند شفائهم ولكن لا اظن شيئا اثقل من هذه المكافاة وقد كنت دائما اردد : « مصائب قوم عند قوم فوائد » . وحدث ان توفي زوجي فاخذت اربعة افدنة لازرعها وكان الفلاحون يساعدونني على زرعها . نعم اننا سكان المدن نشعر بتلك اللذة التي يشعر بها القروي . نحن لا نفيق الا الضحى ولا ننام الا الفجر فلا نرى كيف تستقبل كل حشرة وكل عشبة وكل نسمة اشعة الشمس الاولى وتطرب لها ولا كيف يتلاشى الندى امام حرارتها ولا كيف ترفرف العصافير فرحة للدفء .

نعم اني كنت سعيدة لهذه المناظر واظن اني كنت اسعد لشعوري باني قادرة على كل عمل . ولما كنت امشي وراء الحصاد ، واضم لفائف القمح كنت لا اشعر بالتعب مع اني لم اعتد هذا العمل .

ولا تسأل عن ضحك الفلاحين عندما كنت اضع الوقود في الة الدراس البخارية · وهذا عندهم مهنة الكسالى ، نعم في بادىء الامر عانيت تعبا شديدا اذ كانوا يوقدون بالقش والتبن وهذا يجعل الموقد في حركة دائمة تتعب الظهر · ولكني مع ذلك كنت احسب عيشي هنيئا اذ اني لم احس الجوع او العوز انا واولادي مهما ضاقت الاحوال · لم أضع وقتي بين الفلاحين سدى بل كنت ادرس اخلاقهم وعوائدهم ولغتهم وكنت لهم عند الحاجة اكبر معين · وفي وقت الفراغ من العمل ، في الشتاء كنت القي عليهم محاضرات في نظافة المنزل وبعض الامراض الوبائية والجلدية · كنت اقرأ لهم عن امراض الدواب فنتباحث مليا في هذا الموضوع وكثيرا ما اخذت عنهم امورا لم اجدها في كتاب · ولكن اكبر همي كان مساعدة القروية التي لم تختلف حالتها اذ ذاك كثيرا عن حالة نسائنا · والفضل الكبير في تقدمها عائد للعناية الجديدة في تعليم المرأة في روسيا ·

في كل مشيخة توجد امرأة تؤلف عصابات من النساء في كل قرية فتعلمهن القراءة والكتابة وكيفية تدبير المنزل وتربية الاطفال وزرع الخضراوات الى اخره · وقد كان تأليف هذه العصابات في بادىء الامر من الامور الصعبة لعدم ثقة القرويين بتلك المرأة المرسلة من المدينة لتعليمهن · الا ان ثقتهن بي كانت والحمد الله كبيرة ، فكنت كل يوم أحد اجمع نساء القرية التي اسكنها واحدثهن في الموضوعات المتقدمة وكنت أسر جدا وافرح لفرح كل منهن عندما تقدر ان تكتب اسمها · وكان بين تلك النساء من جاوزن الاربعين ولكنهن كن يتعلمن بخفة الفتيات · نعم بين تلك القرويات وجدت نفسي وما كان يكدر عيشي الا تذكرى ان هناك في وطني العزيز لا يقوم احد بمثل هذا العمل ، ليس في القرى وحدها بل ولا في المدن · ان كل مظلوم يحن الى مثله وانا وجدت القرويات مظلومات في البشرية مثل نساء العرب وانا احداهن فاخذت بيدهن وكنت اشتغل بينهن بكل محبة ورغبة · فلم تكن عندي اوقات ضائعة للملل أو الضجر ولم اعرف في حياتي ما هو الاحتياج المادي والنفساني حتى ولا في تلك المجاعة الهائلة وتلك الحرب الاهلية الفظيعة · لما مات زوجي قالت احدى المعلمات السائرات في الجنازة « ما اتعس هذه المرأة ؟ ! لم يبق لها سوى ان تحمل الكشكول وتطرق الابواب فهي غريبة ولا مساعد لها ولا معين وصغر بناتها يمنعها من العمل » ولم اقم في هذه الضيعة قبل هذا سوى ثلاثة ايام وانا لم اشتغل على عهد زوجي ولهذا لم يكن يعرفني احد سوى انني امرأة زوجي · ولكن لم يمض نصف سنة حتى قالت لي تلك المعلمة : سعيدة انت ما أهناك فضحكت وقلت لها : عندنا يقولون « حتى على الموت لا اخلو من الحسد » · وكنت اذ ذاك سعيدة حقا لاني كنت محسودة ولست بالحاسدة ولا شيء ينغص العيش اكثر من الحسد · لا اذكر من قال من الروسيين : ينبوع الحياة في داخلنا ، فيا لها من حكمة بالغة · نعم ان ينبوع الحياة فينا فاذا قدرنا ان نروي جميع مظاهر حياتنا به صارت حياتنا وردة زاهرة تتغلب برائحتها العطرة وجمالها على الاشواك التي هي كثيرة جدا في طريقنا · فلا تؤلمنا هذه الاشواك كما لو كانت وحدها · ومن لا يرتوي بينبوعه لا بد له من ان يقف كالعطشان فتجف حياته وتصير صحراء ، والسعادة والهناء كالسراب فيها يركض وراءه فلا يصل اليه ولن يصل ولو كانت لديه الملايين ·

تعلمت ان اجد الجمال في كل ما يحيط بي طبيعيا كان او من صنع ايدي البشر ، فجمال الطبيعة كان دائما يسكن اضطراب نفسي لانه رمز الخلود واما صنع البشر فكان جماله يجدد قواي ويكسبني اعجابا بعقل الانسان فانكب على العمل كالنملة ، فأنا ولا مبالغة كنت في جميع اطوار حياتي سعيدة اشتغل راغبة لا ملزمة ولا اجد الراحة الا عند تذليل المصاعب متمتعة بحريتي الشخصية التي هي من اعظم اسباب السعادة · وفي مواقف كثيرة برهنت للاوروبيين على اننا نحن نساء العرب لاننقص

عن نسائهم اذا وجدنا نحن وهن في وسط واحد · وخاتمة هناء عيشي هو وجودي الان وعملي تحت مراقبة المستشرق الروسي العلامة كراتشكوفسكي اتعلم واعلم اللغة العربية بقرب هذا الرجل الكبير الذي يحب العرب وقد كاد يضحي بحياته لدرس لغتهم الكبير ليس بعلمه فقط ـ بل بأخلاقه النادرة اشعر بالسعادة الكبرى لانه أفهمني اشياء كثيرة جميلة عن شعبي لم اكن اعرفها من قبل فزاد حبي لوطني وزادت سعادتي اذ اني صرت املة بأنه لا بد لنا نحن العرب من مستقبل لا يقل مجدا عن الماضي ·

كلثوم عودة فاسيليفيا

لينينغراد

وامضت مع استاذها كراتشكوفسكي عمرا غنيا بالانتاج العلمي المفيد · وقد صدر تحت اشرافها باللغة العربية كتابة الهام « دراسات في تاريخ الادب العربي » وترجمت فيه بحث « الحضارة العربية في اسبانيا » ·

وان الشهادة التي تذكرها كلثوم عودة في كراتشكوفسكي الذي انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣ ، هي شهادة يقولها الادباء العرب في هذا المستشرق الكبير الذي احبه العرب وأحبهم حتى انه مكتوب على الدار بزين البرونزي المحيط بقبره في مقبرة فولكوفو بلينينغراد بالعربية شطر بيت من شعر ابي العتاهية هو : « الموت باب وكل الناس داخله » ·

ثم انهم عربوا اسمه ونادوه « غنطوس الروسي » بدلا من اغناطيوس وذلك عندما كان في لبنان واكتفي بقولين لكاتبين كبيرين ـ في هذا الصدد ـ معبرين عن أدباء العرب جميعا الاول ميخائيل نعيمة يقول في احدى مقالاته : « الا الف أهلا وسهلا بك يا غنطوس لقد احببناك كما أحببتنا وها أنا واحد من ابناء العربية التي فتحت لها قلبك وفكرك ، ادعو لك بازدياد النشاط واحييك باعجاب من عرف جمال زوجك وأحب لغة اجدادك كما أحببت لغة اجداده · »

والثاني محمود تيمور يقول عنه : « عرفت فيه رجلا ذا خلق متين وعزيمة صادقة وأدب جم ، وقد وهب حياته لخدمة اللغة العربية وادابها فلم يهن ولم يتراجع بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها فاصبح علما راسخا من اعلامها وقوة من قواها العتيدة وان رجلا قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية في العالم الغربي واوسع لنا الطريق لنتبوأ مكانتنا بين اداب الامم العالمية لجدير بأن يحتل في قلوبنا اكبر مكانة » ·

وقد طالعت بامعان كتابه الشهير « مع المخطوطات العربية » وعرفت من خلاله ما يتحلى كراتشكوفسكي به من الدقة والاطلاع والعقل النير والذكاء اللماح والصبر الجميل والصدر الواسع والقلب الكبير وكيف افهمنا كما قال ان الحياة علمته بأنه لا يمكن الفصل بين البشر والكتب وان الكتب كانت تدعوه دائما وقد تجلى له انها اقوى من الناس وكيف ان صورة الشرق ترتفع امام عينيه غنية بالاشخاص الرائعين · »

وقد ذكر فلسطين في كتابه كثيرا : وله صلة وثيقة بادبائها وفي كتابه صورة له ص ٤٠ مع ادباء فلسطين انذاك كتب تحتها : جلساء كراتشكوفسكي في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩١٠ في القدس · الاستاذ في جامعة قازان ثم جامعة باكوبندلي صليبا الجوزى وجميل الخالدى صاحب المخطوطات والشاعر اسعاف النشاشيبي والمعلم السكاكيني ·

وكم كان من المفيد لو تحدث كراتشكوفسكي عن هؤلاء الذين نشر صورتهم فقط · ولكن الاستاذ خليل بيدس في مجلة النفائس العصرية وصف كما ذكرت اجتماع هؤلاء الادباء الذين اصبحوا اعلاما في العالم العربي مع كراتشكوفسكي في منزل الجوزى « القدس » ·

وذكر كراتشكوفسكي كيف امضى ليلة في دير القديس سابا قرب البحر الميت وعاش في الخيال مع المخطوط الذي كتبه ابنا انطون البغدادي في دير القديس سابا وتذكر قصيدة كتبها الكسي تولستوي بعنوان يوحنا الدمشقي وكأن الدمشقي قد غرس هناك نخلة تقوم الان احدى اخلافها وحيدة ولربما كتب انطون البغدادي في ٨٨٥ تحتها

هذا المخطوط الذي انتهى به الامر في القرن العشرين الى ان يخزن بعناية في قسم المخطوطات الروسية في لينينغراد ·

وكان ينشر مقالاته بتوقيع مستعار في مجلة صغيرة في حيفا ص ٤٦ ثم زيارته لمكتبة الخالدية في القدس حيث يقول « وهناك في القدس في مكتبتها المهملة التي تسمى بالخالدية شعرت باحساس خاص يستحوذ على شعوري ، وكان باعث هذا الاحساس ، ذكريات تاريخ قديم يتصل بالقائد العربي المشهور خالد بن الوليد فاتح الشام في القرن السابع الميلادي ومؤسس العائلة » · ص ٥٩

وحينما مر بيافا في رجوعه من مصر قال : « ·· وفي الليل عندما مررنا بيافا لم يحل لي ان انام ، وعندما كنت اتمشى على ظهر الباخرة ، لم اكن افكر في عبير بساتين البرتقال الذي يدرك السفينة احيانا على بعد عدة كيلومترات من البحر ، انما كنت افكر في امكانية كتابة رسالة عن هذا الشاعر (سلامة بن جندل) ص ٧٣ · هذه الفلسطينيات المبعثرة في كتابه قربت المسافة كثيرا بيني وبين كراتشكوفسكي وجعلتني اتتبع اثاره في اهتمام كبير ، وارجو ان تسمحوا لي ببعض ملاحظات صغيرة ، على كتابه القيم هذا ، يغفر لي سردها حبي للمستشرق الكبير ولبلاده العظيمة :

ذكرت السيدة فيرا كراتشكوفسكي ارملة الفقيد الكبير في مقدمتها ، ان الطبعة الحاضرة هي اول ترجمة كاملة للكتاب (مع المخطوطات العربية) (من الاصل الروسي الى اللغة العربية) ، فيا حبذا لو ذكرت اسم المترجم هل هو كراتشكوفسكي نفسه ام غيره أم عدة اشخاص ، لانه يجب ان يذكر صاحب الفضل في الترجمة ايضا ·

وفي ص ٦ ذكر « علم المعاني والبدع واظن ان الكلمة الاخيرة خطأ مطبعي اذ الصحيح علم البديع المعروف وجاء في الكتاب ص ١٢٨ « وعرفت ان الرابطة الادبية التي لعبت منذ سنة ١٩٢٠ الدور القيادي للادب العربي الحديث في اميركا كانت تضم من بين اكثر الاعضاء نشاطا - عدا نعيمة - اثنين من خريجي مدرسة المعلمين في الناصرة · والصحيح ان الاسم هو الرابطة القلمية ، اما الرابطة الادبية فهي التي تشكلت في دمشق سنة ١٩٢١ وكان رئيسها خليل مردم بك الذي اصبح رئيسا للمجمع العلمي العربي بدمشق ·

واظن ان المترجمين للكتاب عدة اشخاص اذ بينما يقول في صفحة ٤٦ كنت اوقع مقالاتي باسم غير عادي هو « الغريب الروسي » اذا به يقول ص ١١٩ وكان هؤلاء الناس يعرفونني لا باسمي العربي المستعار المعروف « الرحالة الروسي » فحسب بل كانوا يعرفونني ايضا بلقب ، غنطوس الروسي » · والفرق بين الغريب والرحالة واضح في اللغة العربية ، وانا اميل الى انه كان يستعمل كلمة الرحالة : فلو كان المترجم واحدا لوضع كلمة واحدة لا كلمتين ·

ثم انه في بحثه المخطوطة الرائعة التي اكتشفها وهي « رسالة من بلاد الصفد » يقول في صفحة ٢٨٣ ، ان كلمة « ستي » لا تستخدم الا في العامية ومعناها « سيدتي » ·

ان كلمة ستي الان لا تستخدم الا في العامية ولكن ابا العلاء المعري وهو محبوب كراتشكوفسكي كما سماه يقول في رسالة الغفران :

ست ، ان اعياك أمري
فاحمليني زقفونه

ولا يستخدم المعري الا الكلمة الفصحى ، هذه هنات صغيرة اذكرها كما يضع العرب خرزة زرقاء للفتاة الجميلة خوفا من ان تصاب بالعين لجمالها ·

وكانت كلثوم بين الفينة والفينة تزور مسقط رأسها فلسطين وتلتقي بالادباء الفلسطينيين وخاصة استاذها الاديب الكبير خليل السكاكيني اثناء زياراتها لوطنها الاول تدون الامثال والتقاليد - الفلسطينية وتبحث وتنقب وتسال شان الاديب البحاثة ، قبل اعداد اي بحث ·

وقد اطلعت على رسالة منها الى شيخ العروبة أحمد زكي باشا في مصر تساله فيها

عن معنى كلمة « جورة » في الوقت الذي كانت تفكر في كتابة بحثها عن العادات المرتبطة بولادة الطفل عند العرب وقد اطلعت على نص الرسالة في الجزء السابع من الهلال القاهرية الصادر بتاريخ أول مايو - ايار سنة ١٩٢٩ الموافق ٢١ ذو العقدة سنة ١٣٤٧ وجواب شيخ العروبة الذي يظهر اجلاله للسائلة المحترمة واعترافه بادبها وفضلها واتماما للفائدة اذكر الرسالة وجوابها :

سؤال

من سيدة روسية الى العاجز عن الجواب بقلم الاستاذ احمد زكي باشا

في هذا الصباح وافاني البريد بمظروف غريب : ف

١ - سطر بالانكليزي
٢ - سطران بالفرنسي
٣ - ثلاثة اسطر بالعربي ·

واما طابع البريد فمزخرف باللون «الاحمر» وفيه صورة عمارة اثرية لم اتبين كنهها وبجانبها رموز لم اتعرف اصلها ولا فصلها ·

ويطيف بها كلمة في الاعلى واخرى في الاسفل وحرفان مزدوجان (CP CC) عن اليمين واليسار وتحتهما رقم السنتين ١٩٠٥ و ١٩٢٥ وتحتهما رقم ١٤ في كل من الناحيتين (ولعله ثمن الطابع) وهذه الكتابات بعضها ملون بالاحمر على ارض بيضاء وباقيها ابيض يحيط به الاحمرار وكل ذلك مما لا «شيوع» له في بلادنا لانه من عمل البلاشفة ·

فلعل احد المستنيرين من هواة البريد يتكرم بتعريفي عن حقيقة هذه الرموز وعن الغاية المقصودة من تخليد تينك السنتين (١٩٠٥ و ١٩٢٥) .

فضضت ختام الخطاب وبدأت النظرة الى الامضاء فاذا هو مرقوم بالعربي في ثلاث كلمات (كلثوم عودة فاسيليفا) ثم الافرنجي في حرفين يتلوهما لفظان (Kv. ode vassilieva) على ان هذا وذاك لم يكن فيهما ما ينبهني الى « تذكر جيران بذي سلم » أو استحضار احد معارفي وراء البحار ·

تلوت الخطاب الى ان اقتربت من نهايته فرأيت صيغة الانوثة في كلمة واحدة فهمت ان السيدة الكاتبة من ارومة عربية ثم « تمسكبت » اي صارت موسكوبية بزواجها من احد رجالات الروس ·

هي تسالني عن لفظ عربي ضاع مسماه على خلايا ذاكرتي بالكر والفر وبعدما ترددت على حنايا حافظتي بالتنقيب والتنقير رضيت من الغنيمة بالاياب وها أنذا أقرر انني عاجز عن الجواب لكنني لم اتعود الوقوف في منتصف الطريق لذلك رأيت من الواجب ان اطرح السؤال على أهل الدراية بهذا الشان ففي السويداء رجال وفي الزوايا خبايا ·

قالت السيدة حفظها الله ما نصه بالحرف الواحد ·

« سيدي الفاضل

اعتذر اولا لحضرتكم لازعاجي اياكم بتحريري هذا ، وما شجعني الا حبكم للعلم وهو اشهر مما يذكر واسمى ما يجد ·

كنت وانا في الصيف الماضي في فلسطين اجمع وادون عاداتنا التي تكاد تندثر وقد عثرت وانا ادون الولادة وما يليها من التقاليد على كلمة « جورة » وبهذه الكلمة يسمون المحل الذي تلد عليه المراة ، بقطع النظر عما اذا كان ذلك على حجر أو على الكرسي المختص بالولادة وقد سالت عن ذلك كثيرين من المسنين لماذا اطلقوا كلمة « جورة» على هذا المحل فلم اخذ جوابا معقولا · فلربما كانت العادة قبلا عند العرب ان تحفر جورة حيث تلد فيها المرأة ، وبطلت ولم يبق الا الاسم · ونظرا لما هو معلوم لدى الجميع عن سعة علمكم بالجزيرة العربية واحوال سكانها ، رأيت ان ارجو منكم ان تفيدوني اذا كان يوجد لديكم شيء من المعلومات عن هذا الامر ، وانا بعد البحث علمت انه عند بعض شعوب قوقاس توجد عادة انزال المرأة الى حفرة مخصصة لها وقت الولادة كما وفي افغانستان عند بعض القبائل تولد المرأة فوق مجرى المياه القذرة التي تكون عادة باحدى جهات

الغرفة وعما يظهر انه شيء شبيه « بالمصراف » في بيوتنا وقد كان في الصيف الماضي وعدني استاذي السكاكيني ان يصحبني لاتشرف بمعرفة حضرتكم اذ كنت اذ ذاك انا في القدس ولكن الظروف لم تسمح لي بذلك اذ التزمت ان اسافر قبل الوقت وانا اسفة جدا لهذا . بالختام ارجو المعذرة ثانية لازعاجي اياكم ولا زلتم عونا للعلم والفضيلة سيدي . »

كلثوم عودة فاسيليفا .

فانت ترى يافتى العرب ان هذا الكتاب الكريم يشهد لصاحبته الفضلى بالبراعة في ميدان الادب وكيف لا واستاذها خليل السكاكيني ؟ ولكنها والحق اقول . قد فاقته بالتوفر على تدوين عادات بلادنا ثم النظر اليها بنبراس الاستقراء والاستطلاع ثم الرجوع بها الى بيان الحالات المعيشية والعمرانية التي كان عليها اباؤنا الاولون وفي ممثل هذه المباحث المتعبة فائدة لبيان التطور من حالات البداوة الى رفاهات العمران ، وذلك من افانين التاريخ التي لا يواجهها الا الفكر الجبار .

وانني اهنئها على التعليل المعقول الذي اشارت اليه في تضاعيف كتابها واعتقد ان بقاء لفظ « الجورة » الى الان في ارض فلسطين دليل على التدرج الذي طرأ على نظام الولادة عند قومنا وجيراننا مع توالي الازمان والاجيال طبقا لما يقضي به ناموس النشوء والارتقاء .

ولربما يكون لهذه « الجورة » اثر مادي ما يزال باقيا على عهده القديم في بعض القرى المنقطعة عن العمران وفي احشاء البادية او ثنايا الجبال .

من اجل ذلك جئت الى عرش صاحبة الجلالة غير المتوجة راجيامن «الصحافة» نشر هذا السؤال على رؤوس الاشهاد وفي مهاب الرياح عسى ان يتفضل العارفون والعارفون وحدهم — بالارشاد الى الوثائق التي تشير الى اصل هذه العادة في قديم الزمان والى التعريف بما قد يكون لها من اثر باق الى الان في بعض الجهات المجهولة او الماهولة . ورجائي الى الفضوليين — وهم كثيرون — ان يتركوا الكلام لافاضل الربانيين ولجهابذة الاخبار ولعلماء العاديات العربية في المصرية والعراقية . وانني اتخيل ان لهذه العادة اثرا قد تشهد به التوراة . ولاهل فلسطين يساق الكلام بنوع خاص والسلام .

احمد زكي باشا

الهلال

الجزء السابع السنة ٣٧

اول مايو سنة ١٩٢٩ ـ ٢١ ذو العقدة سنة ١٣٤٧

وعندما ارسل الاستاذ كراتشكوفسكي كتاب المنتخبات العصرية لدرس الاداب العربية ، الذي الفته السيدة كلثوم نصر عودة فاسيليفا ، الى الاستاذ امين الريحاني اجابه الاستاذ الريحاني بكتاب من الفريكة لبنان بتاريخ ١٤ ابريل سنة ١٩٢٧ جاء فيه ما يلي :

« ثم جاءني امس ـ وفضلكم لا ينضب معينه ـ نسخة من كتاب المنتخبات العصرية لدرس الاداب العربية ، الذي جمعته السيدة كلثوم عودة فاسيليفا ، وكتبتم انتم له المقدمة بارك الله فيكم وفي السيدة كلثوم التي حسنت الانتخاب وكانت في ميزانها عادلة . السيدة كلثوم التي ظفرت ، على ما اظن ، بجائزة الهلال في ما كتبته عن السعادة ، فعسى ان تكون ظافرة كذلك بالسعادة نفسها اني اشكرها واشكركم على اهتمامكم بالاداب العربية ، خصوصا العصرية منها .

انه ليسرني ان اكون على اتصال بكم فلا تضنوا علي بكلمة من حين الى حين ، وان من اماني ان ازور بلادكم لادرس احوالكم الجديدة الاجتماعية والسياسية سلام ازكى من زنبق الوادي في هذه الايام ، وهذه زهرة منه تحمل حبي وسلامي ، صديقكم المخلص .

من كتاب رسائل الريحاني ، جمعها وبوبها البرت ريحاني ، طبعة ١٩٥٩ ، ص ٣٣٦ .

ولامين الريحاني الى كراتشكوفسكي ثلاث رسائل الاولى هي التي قرات منها الفقرة الماضية والثانية كانت من الفريكة بلبنان وتاريخ اول تشرين الاول سنة ١٩٣٢ وهي

التي تتعلق برسالة الملائكة للمعري التي ترجمها كراتشكوفسكي الى الروسية ، وهي تبين منزلة المستشرق الكبير عند مفكري العرب . قال الريحاني : صديقي العزيز الفاضل الاستاذ كراتشكوفسكي حفظه الله .

انكم معشر المستشرقين لمن اعجب الناس لانكم من اقربهم الى تلك القوة الالهية التي تحيي العظام وهي رميم . وكاني بالمعري ابي العلاء وقد علم بما احييتم من رميم اثاره يقول متواضعا : « ما ظنناها والله تتجاوزنا سنا ، وها هي تفوقنا بنحو الف سنة ، انه لعجيب امرها فقد تخيلناها ملائكية لتعزيز اللغة العربية بين اخوان جبريل صديق الرسول عليهما السلام ، وقلنا حسبها ان تنتشر هناك في السماء ، وما تخيلنا ولا حلمنا ان ستجيئها الحرارة من الشمال ولو بعد الف سنة ، فتبعث فيها الحياة ، فتنطق بلغة الانس بلسان العرب وقد تخللته درر من بيان الروس .

حياك الله يا اخي الروسي الكريم . ان « رسالة الملائكة » تجثوا امامك وتقبل الارض ثم تستاذنك فتقول : « قد كان لمنشئي رغبة شديدة في نشر رسالته اللغوية ، الادبية ، الفلسفية ، الالحادية ، بين الانس والجن والملائكة ، فاختار لكل كتابا واسلوبا ، فخص الانس « برسالة الغفران » ثم كتب « رسالة الملائكة » ثم شرع يكتب رسالة الشياطين خصوصا للجن ، وقد رايته يرسم عنوانها رسما والمرجح انه كتبها واتمها ، وهي اليوم على ما اظن كما كنت انا بالامس فهل لكم يا حبيب الله ان تطلبوها فتجدوها ان شاء الله وتحيوها كما احييتموني ؟ هل لكم ان تتموا نعمتكم علي فتبحثوا عن شقيقتي « الشيطانية » وتجمعوني بها بعد هذا الفراق الطويل ؟ اني باسمي وباسم منشئي ، سيد اللزوميات وصاحب الرسائل الثلاث ، اشكركم وادعو لكم بطيب الاقامة في هذه الدار الفانية . »

وان كاتب هذه السطور صديق المعري بالفريكة يحيي صديق المعري بلينينغراد ويدعو له بالصحة والسعادة وبدوام التوفيق في البحث والتنقيب خدمة للاداب العربية والروسية وتمكينا لروابط الاخاء والسلام بين الشعوب .

رسائل الريحاني ص ٣٨٧

اما الرسالة الثالثة ، وهي ايضا مرسلة من الفريكة بلبنان تاريخ ٢٥ تموز سنة ١٩٣٥ ، فتتعلق بحفلة يوبيل كراتشكوفسكي ، يقول فيها :

منذ علمت بحفلة اليوبيل التي ستقام لكم وانا افكر في الكتابة اليكم ولو سطرين فيهما وردتان من بستاني العقل والقلب اضمهما الى ما سيقدم لكم من المحبين والمعجبين بعلمكم . ولكني يوم علمت بالحفلة كنت بفلسطين اتداوى بحماماتها المعدنية ، وانا لا ازال في حالة غير صحية وغير مرضية . ومع ذلك فقد استحثثت الضعف باسم الحب فقام اليوم يلبيني ويقول : حيا الله الاستاذ كراتشكوفسكي ومتعه على الدوام بالصحة والعافية وجمل احوالهبطول العمروالاقبال .

وقد وصل الكتاب من لندن ، ذلك الكتاب البديع بطبعه وشرحه وفهارسه ومقدمته الانكليزية (كتاب البديع) لابن المعتز فحق لمؤلفه ، وان كان في اعلى الفراديس ، ان يعتز بما اغدقتم عليه من علمكم وحبكم وغيرتكم ادامكم الله للعلم مصباحا منيرا وللعرب صديقا ونصيرا والسلام عليكم من صديقكم المخلص : امين الريحاني

ايها الاصدقاء : لقد كانت كلثوم عودة مسرورة وجادة في عملها مع زملائها وكانت تعتبرهم اسرتها حتى انها كتبت مرة تقول : « في الايام الماطرة ، حينما كان ينتابني الحنين الى الوطن الى شمس فلسطين الدافئة كنت اذهب الى تلك الاسرة واجد عندها ما انا بحاجة اليه من الدفء والنور » .

وهي تعتبر اسرتها الكبيرة الشعب السوفياتي باجمعه ، وقد طلب منها بعض رجالات فلسطين في ذلك الوقت ان تقيم في

فلسطين وتزاول نشاطها في خدمة وطنها الاول وشعبها فاعتذرت وكتبت تقول في مذكراتها : « ان روسيا لم تعد غريبة عني ، وقد احببتها وأحببت الشعب الروسي ووجدت مكاني ان احيا في هذه البلاد ، في الثورة التي احسستها في تلك الاعوام بقلبي أكثر مما فهمتها بعقلي » .

وفي لينينغراد كانت كلثوم تقوم بالتدريس في المعهد الشرقي هناك وكان في برنامجه تعليم اللغة العربية الفصحى واللهجة السورية ثلاث سنوات : « بشربانوف » .

وقد قرأت في صحيفة اردنية مقالا بعنوان: فلسطينيات عالمات ـ هل تعرفين كلثوم عودة فاسيليفيا .

جاء فيه قول تلميذتها المستعربة الروسية لوتسكايا بان كلثوم عودة هي التي وضعت في برنامج الاستشراق الروسي مادة اللهجات العربية ، وقامت هي ذاتها بوضع برنامج تدريس اللهجتين السورية والفلسطينية . وتابعت المستعربة لوتسكايا قولها : لقد كانت كلثوم عودة فاسيليفيا بالفعل أما لكل طالب وطالبة . اما حازمة تطلب من اولادها الطلبة الحزم والجلد ... وكانت تفرح لفرح الاخرين وتأسو لاحزانهم .. ولقد علمتنا نحن تلامذتها العديدين حب الشرق العربي وغرست في قلوبنا مشاعر الاحترام العميق لمطامح شعوبه وتطلعاتها .

ثم اصبحت تدرس في القسم العربي في معهد الفلسفة واللغة والتاريخ في لينينغراد عام ١٩٣٣ ، بعد انشاء كرسي اللغات السامية الحامية فيه . ولما اعيد افتتاح معهد الاستشراق الى موسكو سنة ١٩٤٣ عادت كلثوم عودة الى موسكو لتعمل في ذلك المعهد ثم اشتغلت في ما بعد في معهد العلاقات الدولية وفي المدرسة الدبلوماسية العليا » .

وفي أب سنة ١٩٥٧ زرت مع زوجتي موسكو الزيارة الاولى ابان مهرجان الشباب العالمي الذي اقيم انذاك في عاصمة الاتحاد السوفياتي ، وكان معنا الاستاذ ابراهيم عودة وزوجته وهو قريب السيدة كلثوم ، وتعرفنا شخصيا للمرة الاولى بكلثوم عودة فاسيليفيا ومعها حفيدتها ادا ، التي اخذت تكلمني بلغة عربية فصحى وقد سألت السيدة كلثوم لماذا تتحدث حفيدتك بالفصحى قالت اريدها ان تتعلم الفصحى اولا ثم العامية .

وتعرفنا في ذلك الوقت أيضا بالشاعر ناظم حكمت وزرناه مع الوفود العربية في بيته الكائن في اطراف موسكو ، وقدمنا اليه هدية عبارة عن حطة وعقال عربيين . وتعرفنا ايضا لاول مرة بأسرة سوفياتية طيبة هي اسرة زوريتش تتألف من سيدة عجوز فاضلة قتل زوجها في الحرب تعيش مع بناتها الثلاث فيرا ولاريسا ولودا . وهم أسرة طيبة مثل الشعب السوفياتي المعروف بطيبة نفسه وكرمه ونبل قلبه ووفائه . ومن ذلك التاريخ توطدت صلات الصداقة بيني وبين مواطنتي الفلسطينية كلثوم عودة وناظم حكمت وأسرة زوريتش .

وفي اكتوبر (تشرين اول ، سنة ١٩٥٨ بعد حضورنا مؤتمر كتاب افريقيا واسيا في طشقند عدنا الى موسكو . وفي الاجتماع الذي عقد في معهد الاستشراق للكتاب العرب المشتركين في المؤتمر كانت كلثوم عودة والصديق القديم عبد الرحمن سلطانوف ، وقد تكلمت في ذلك الاجتماع وقلت ان صداقة الشعبين الفلسطيني والسوفياتي خالدة ، وان كلثوم عودة هي الرمز الحي الماثل للصداقة الدائمة فهي فلسطينية سوفياتية الى الابد .

وقد توثقت عرى الصداقة بين كلثوم عودة واسرة زوريتش واهدت كلثوم الى فيرا زوريتش المعلمة السوفياتية كتبها المترجمة من العربية الى الروسية .

وفي كل مرة كنت ازور موسكو كنت اذهب انا وفيرا زوريتش الى زيارة كلثوم في بيتها التي كانت تعيش فيه وحدها . لان بناتها الثلاث مع ازواجهن . وفي احدى هذه الزيارات وكنا معها في المطبخ وكانت تغلي لنا القهوة العربية بادرتني بالسؤال وهي تضحك لقد احضر لي قريبي حب الهال فكيف اضعه في القهوة ، فقد نسيت ذلك لانني منذ اربعين سنة لم استعمله ولم اذق

طعم حب الهال . فلما قلت لها ان حب الهال يحمص كالبن ثم يطحن ويوضع في القهوة قالت المسألة طويلة . قلت اذن ضعيه كما هو في دولة القهوة وليغل مع الماء والبن ، وهكذا كان .

ولذلك لم استغرب بادرة الوفاء التي قابلتني بها اسرة زوريتش عندما زرتها في بيتها البسيط الواقع في حارة كريفوأرباتسكايا في قلب موسكو في شهر أيار سنة ١٩٧١ . فقد نبهتني الى زيارة قبر كلثوم عودة مواطنتي القديمة وصديقة الاسرة .

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الاحد في ٢٣ من شهر ايار سنة ١٩٧١ ،كنت امام الباب الشرقي لفندق روسيا انتظر الانسة فيرا زوريتش فيدروفنا ، فاقبلت فيرا وهي تحمل باقة من الازهار وركبنا السيارة معا الى مقبرة « نوفوديفتشي موناستر » التي كانت في القديم ديرا للبنات واصبحت مقبرة للعظماء من أدباء وشعراء ورجال دولة ومثقفين .

دخلنا المقبرة واخذنا نبحث عن قبرين لشخصين عزيزين ، الاول ناظم حكمت والثاني كلثوم عودة ودلفنا الى البقعة المخصصة للكتاب وفجأة وقفنا امام لوحة رخامية سوداء كبيرة طولها ثلاثة امتار تقريبا ، وصورة ناظم حكمت منحوته على طول الصخرة بقامته الفارعة وهو يهم بالسير صعدا . ومكتوب على اللوحة باللغة الروسية : ناظم حكمت ١٩٠٢ ـ ١٩٦٣ .

وقفنا على القبر وناولتني مرافقتي بعض الزهر الاحمر ، وضعته في قوارير مغروسة هناك ، ورفعت يدي وقرأت الفاتحة ، وسألتني بيرا : ماذا كنت تقول . فافهمتها باننا نحن المسلمين من عادتنا عند زيارة قبور الاعزاء المسلمين نقرأ عن روحهم فاتحة القرأن الكريم .

ثم اخذنا نبحث عن قبر المواطنة الفلسطينية الصالحة كلثوم عودة وغير بعيد عن قبر ناظم حكمت طالعتنا صورة كلثوم النصفية محفورة على لوحة رخامية ومكتوب على اللوحة الرخامية بالعربية : كلثوم نصر عودة فاسيليفيا .

٢ نيسان سنة ١٨٩٢ ـ ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٦٩ .

- وكذلك هذه العبارة مكتوبة باللغة الروسية ، وتحت ذلك مكتوب الروسية :

جي فيم بريميير ، ومعناها مثل للناس الاحياء .

ووضعنا الازهار الى جانب ازهار كثيرة موجودة في متر مربع على الارض أمام اللوحة الرخامية . وعرفت فيما بعد ان طلابها العديدين يزورون قبرها أيام الاحاد ويضعون الازهار دائما على قبر معلمتهم ، عرفانا بجميلها وفضلها وجلست على مقعد حجري موضوع خصيصا للزائرين واخذنا نتذكر هذا الوجه الكريم الطيب الذي توارى في عالم الغيب وترك أشعة تضيء الطريق للادباء والباحثين .

ان هذه الازهار التي يضعها طلابها واصدقاؤها على قبرها ينفح عطر الاخلاص والوفاء ، وتحمله نسائم موسكو الى الافق . وكلما ذبلت هذه الازهار تبدل بأزهار جديدة، اما كلثوم عودة فقد تركت ازهار المعرفة ، التي لا تذبل تحمل عطر الانسانية الخالد الى قلب كل انسان وطالب علم .

حقا لقد صدق من كتب على قبرها :

« المثل للناس الاحياء » لقد كانت مثلا في البساطة والتواضع ، هي بساطة وتواضع العلماء كانت مثلا في القلب الكبير الذي يسع الناس جميعا ، يحب السعادة للبشر جميعا ، مثلا في العمل الجدي المتواصل ، مثلا في الاعتراف بالجميل ، مثلا لطالب العلم والمعلم ، لقد كانت مثلا للصداقة العربية السوفياتية ـ حقا لقد كانت مثلا للانسان .

يوسف عبدلكي

مؤرخاً .. ومحرضاً

تعتبر الاعمال الاخيرة للفنان العربي السوري ، **يوسف عبـد لكي** ، من اهـم العلامات البارزة في تاريخ الفن التشكيلي الحديث ، في القطر العربـي السوري ، اذ ياتي بالابيض والاسود ، بعد سلسلة من المعارض الملونة بالزيت والمائي ، دون ان تترك اثرا او تاثيرا لدى المشاهد العادي لاسباب تتعلق بالمضمون ، اكثر مما تتعلق بالتقنية .

واهمية يوسف ، في هذه المرحلة ـ التي تحتوي الظـواهر السياسية بقدر مـا تحتوي الظواهر الاخرى سلبا وايجابا ـ ان يوسف استطاع ان يعبر عنها ، من خـلال منهج جدلي ، استخدم في تطبيقه لونين ، هما الابيض والاسود وما يقع بينهما مـن رماديات ، تذكرنا كثيرا باساليب العمل السياسي الناضج ، الـذي لا يساوم عـلى القضية المبدئية ، دون ان يغفل لحظة واحدة عن التعامل مع القوى الحليفة ، وبدرجات متفاوتة ، متناغمة ، بما يخدم تلك القضية ويحقق لها الوصول الى اوسع قطاع ممكن من الجماهيـر ..

ولكي لا يكون الحديث عابرا عن اعمال يوسف ، لابد مـن تقسيمها الـى ثلاثة اقسام رئيسية ، هي :

ا ـ ثلاثيـة ايلـول

ب ـ الخيـول

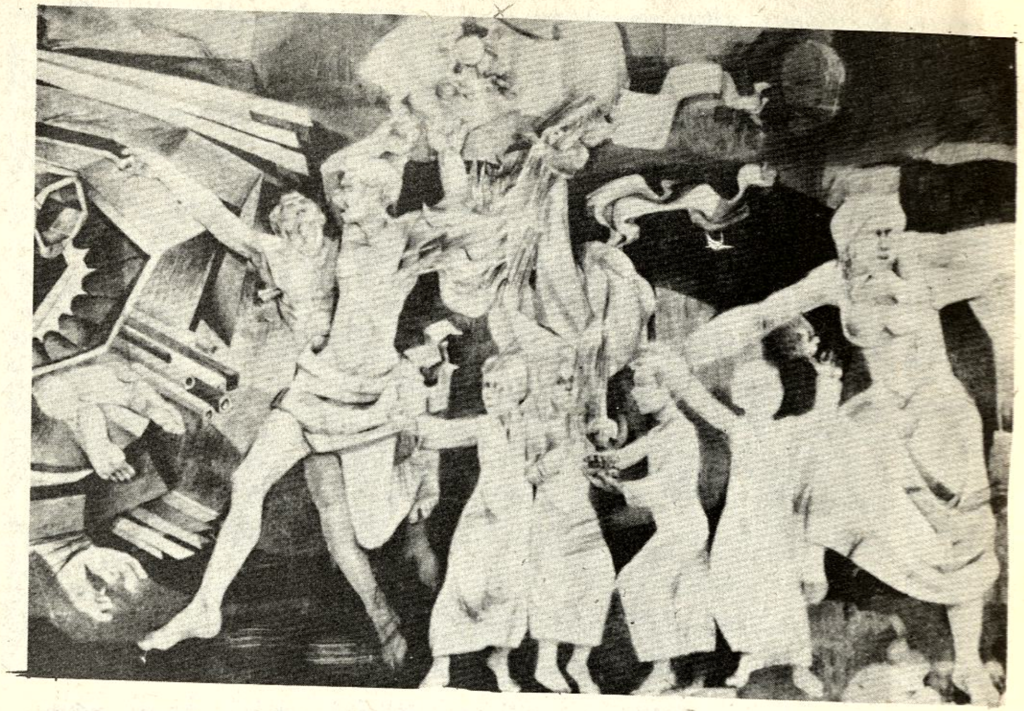
هـ ـ الفضيحـة ..

وقبل الدخول في تحليل وفهم الثلاثيـــة ، لا بد مـــن الاشارة اولا الى السمات التشكيلية الاساسية ، في أعمال يوسف ·· وأول هذه السمات مستمدة من مخزونه في معرفة تاريخ الفن التشكيلي الكلاسيكي والمعاصر ، من حيـــث التشريح ، والتعبيـــر والضوء والظل ، مستمدة من معرفة مسبقة ، [illegible] لاساليب الفنانين ، من **مايكل انجيلو** ، **والجريكو** ، **ورمبرانت** الى **دالي** ، **وبيكاسو** ، مرورا بالانطباعية والتركيبيـــة حتى التكعيبية ، وصولا الى الواقعية الاشتراكية ، التي ظهرت في فن ما بعـــد أوكتوبر ١٩١٧ ، مضيفين الى كل ذلك ، ان الفنان استخدم قلم الرصاص ، والحفر ، والحبـــر الصيني · والالوان المائية ، والليتوغراف ، بمهارة تقنية عالية ، هي نتاج سنوات مـــن التجارب [illegible]ءا من الثلاثية الايلولية ، وانتهاء باخر عمل بالحبر الصيني ·· ولا بدأولامن قراءة عامة في الثلاثية ·

تنقسم ثلاثية ايلول الى ثلاثـــة اقسام هي : **« البدء ـ التنفيذ ـ الامـل »** ، في مساحة ١٢٢ سم × ٥٤٠ ، على ثلاث لوحات ، بالقلم الرصاص ، يصور فيها البـــدء بالمجزرة ، التصدي للمجزرة ، وذروة المجزرة ثم التصدي للنتائج ·· ويتالف هـــذا العمل ، من مجموعة من العناصر الاساسية ، والثانوية ، الانسان والراية ، في مواجهة آلة الحرب الفاشية ، والحصان المضاد ، والراية ، والراية المضادة ، والشمس والعتمة ، والانسان والقوى المعادية له ، لطموحاته ، وتطلعاته ، عبر فهم علمي لمسالة الحيـــاة والموت ، والحرية ، وشروطها من خلال التداخل ، وعدم التداخل فـــي ذات الوقت ، بجهد قادر على فرز هذه العناصر حتى في حالة الاختلاط كما يحدث ، عادة ، فـــي المجازر : **مدريد ـ عمان ـ بيروت** · لقد فهم الفنان عناصر الصراع وعوامله ، وامسك بقلم الرصاص ليعبر عنه بقدرة التقنية بالزيت ، وهذه الاهمية تسجل للفنان · فقلـــم الرصاص ، عادة ، لا يستخدم للتعبير عن الاحداث الكبيرة والمهمة على مثـــل هـــذه المساحة الجدارية ، ولا يقدم على ذلك الا فنان شجاع ، يتمتـــع بقدرة تعبيرية غيـــر عادية ، تطوع قلم الرصاص والورق لمثل هذه الرؤية المفجعة والثورية ، في ان معا ·· انه هنا يؤرخ ولكي نفهم ذلك لا بد من تحليلها لوحة لوحة ، وعنصرا عنصرا ، محاولين ان لا نغفل شيئا جديرا بالاضاءة ·

اولا : البـــدء

أو[illegible]افت النظر في هذه المرحلة في هذه اللوحة هو هذه الاشكال الرماديـــة والمبسـ[illegible]ـمائمة في ما يقارب ثلثي يمين اللوحة ·· وبالرغم من ذلك فالقراءة تبدأ من يسار اللوحة ، حيث تقع الة الحرب الفاشية ·· المؤلفة من دبابة ، ومطحنة بتروس ··



وانوار كاشفة وفوهات مدفـــع ورشاشات في تشكيلها هندسة منطقيـــة ، لا تـــكاد تكون مقروءة حتى تنقلب الى شيء غير منطقي ، وغير مقروء ، بين تفاصيلها تطل بقايا انسانين ، ساقان في حالة الدخول الى المطحنة ، وذراعان مقيدتان بأنشوطة في حالـــة دخول أو خروج ، تحت ثقل يشبه حجر الرحى وفي الساقين ، والذراعين تشكيل يشبه كثيرا فمين يطلقان صرختين فاجعتين ، باتجاه الارض الغارقة بالصمت ، والسواد ، ما نلبث ان نرى صداهما في هذا التصدي الانساني ، الباسل ، والعـــاري ، لانسانين تخترقهما قذيفة واحدة ، وبالرغم من سقوط احدهما ، الا ان القذيفة تشد احدهما كـــلا الى الاخر ، فيما يشبه الالتحام المصيري غير القابل للانفصام ، بل والقـــابل لمتابعة السرعة في التصدي ، مما يؤكد على ان الموت المحتم هنا ليس موتا ساكنا ، وبـــدون فاعلية ، انه الموت المليء بالحركة الى الامام ، والحركة الاخرى في خلفية اللوحة حيث الحصان ذو الشكل الانساني المهاجم بلهب القذيفة يطلق صرخة مزيجا مـــن النـــداء والفجيعة ، وهي صرخة تقابل ، من حيث الاتجاه ، صرخة الساقين ، والذراعيـــن ، فهي باتجاه الشمس المخسوفة في الليل الايلولي الاسود ، الذي لا تضيئه سوى رايـــة الثورة ـ بشمسها التي حطمت السلاسل ـ بتشكيلها الموازي لتشكيل الحصان المنطلق الى الامام ، دون ان يغفل عن اطلاق صرخته بصرخة الحرب ، والفجيعة ، والنجـــدة ،

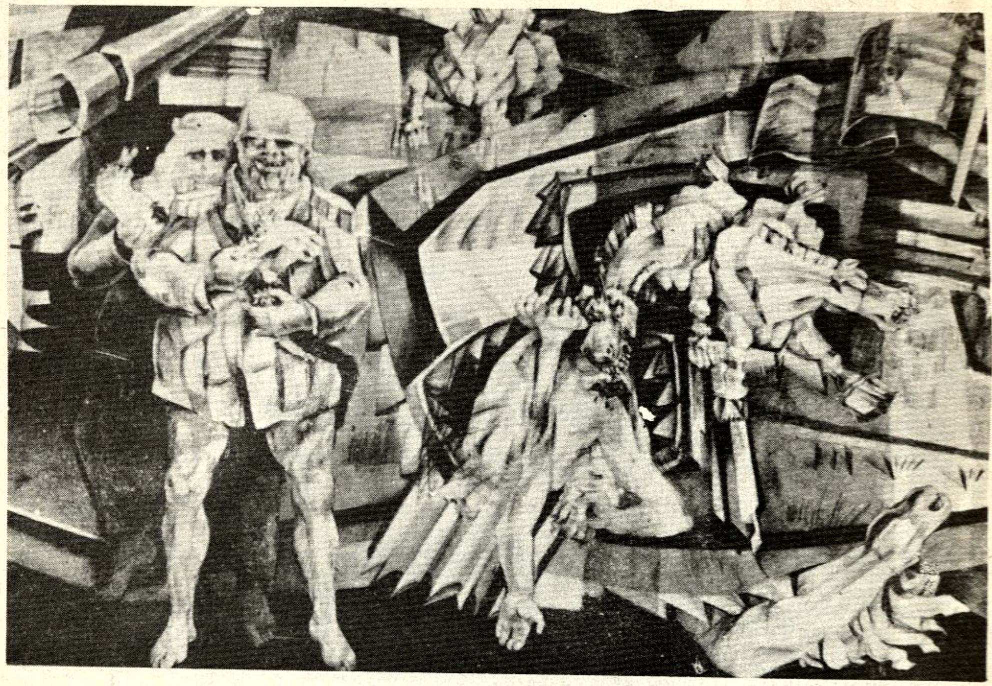
بالاتجاه الاستراتيجي الى عمق ليس له حدود ، انه العمق العربي .... الغامق الى حد الاظلام ، والرازح فوق ما تبقى من عناصر العمل ، فيما يشبه العبىء المحمول على ذراع المرأة التي تدقق النظر في هجمة اخرى غير مرئية وخارج مساحة اللوحة ، فالمرأة هنا ذات حركات ثلاث ، واحدة مع التصدي واخرى في مقاومة العبىء ، وثالثة في توقع الهجمة القادمة من جهة غير منظورة في المساحة ، منظورة في الفهم ، والادراك لحالة الحصار المتوقعة والحتمية بينما هي تقف على ركام ومخلفات القصف الذي حدث ، ويحدث .. حول اطفالها الاربعة ، الذين يتوزعون الادوار في هذه المعركة غير المتكافئة ، في حالة هي مزيج من الشعر والسياسة والوقائع .. فهم ، وبرغم انهم على سطح اللوحة ، الا انهم يتشكلون في جو يوحي بالملجأ .. الاول من اليسار يتصدى « باللا » ، بحركة حاسمة من يده ، والاخر يمشي على ضوء مصباح الكاز ، بينما اخته تصد ، بكفيها ، الريح حتى لا ينطفىء المصباح .. اما الرابع فيرفع فوق ابهامه الحمامة ، التي ترفرف مذعورة ، من هول ما يحدث ..

واذا ما لاحظنا ان التبسيط في الاشكال الانسانية يواجه التعقيد والبشاعة في الة الحرب الفاشية ، والتشريح الناجح في شكل الحصان ، أدركنا صيغة العلاقة بين عناصر اللوحة ، كما هي رؤية الفنان .. ذلك هو فهم التناقض بين قوى الثورة والقوى المضادة لها .. حيث يجيء الحصان ، هنا ، ليمثل مضمون الصلابة في جبهة الثورة .. فنفهم ان مواجهة صلابة الفولاذ المشكلة في تكوينات هندسية قاسية تذكر بهندسيات الماس . لا يواجهه الا صلابة الارادة والكبرياء ، اللتين يعبر عنهما هذا الشموخ البادي في عنق الحصان ، ذي العين الانسانية الحزينة ، ولكن الغاضبة والثورية ، في ذات الوقت .

ثانيا : التنفيذ

هذه اللوحة تقرأ بنظرة شاملة واحدة ، قبل الدخول في تفاصيلها الكثيرة والمتعددة العناصر ، وفيها تكتمل صورة الة الحرب الفاشية في مدى وضوح رؤية المشاهد كما انها تأتي هذه المرة ، بعناصرها المكملة ومهماتها ، انها الة قاسية التكوين بفولاذها القاسي ، الذي يبلغ حضوره الذروة ، في مجموعة الخيول المضادة ـ وهذه اضافة الفنان (١) ـ التي تشن هجمتها الشرسة على العالم الذي يحيط به العمل ، شرسة ، وراقصة على الجثث التي تنهرس ببطء

(١) سيكون موضوع الدراسة القادمة .



داخل مسننات الرحى ، او تحتها ، كما يحدث عادة ، في المجازر المعاصرة تحت جنازير الدبابات ، التي تنفذ برنامج آكلي لحوم البشر البدو والمتحضرين ، الممثلة بشكلين لرجلين ، أحدهما اعور يرتدي الملابس الملكية الفاشية في نصفه العلوي ، بينما نصفه الاسفل عار في حالة الفضيحة المتحدية او الصفيقة ، والثاني بعقاله المقصب وبشداشته السوداء .. وقد كان من الممكن ان نرى التطابق الكامل بينهما وبين الة الحرب الفاشية ، لولا بعض الاسقاط الكاريكاتيري على ملامح الرجل البدوي النفطي الاخر ، واذا ما دققنا النظر لاكتشفنا الصورة الحقيقية للعلم الامريكي المرفوع على الالة ، في تكوين صفيحي منقوش ، ولاكتشفنا ، أيضا ، مصدر الة الحرب الفاشية هذه .

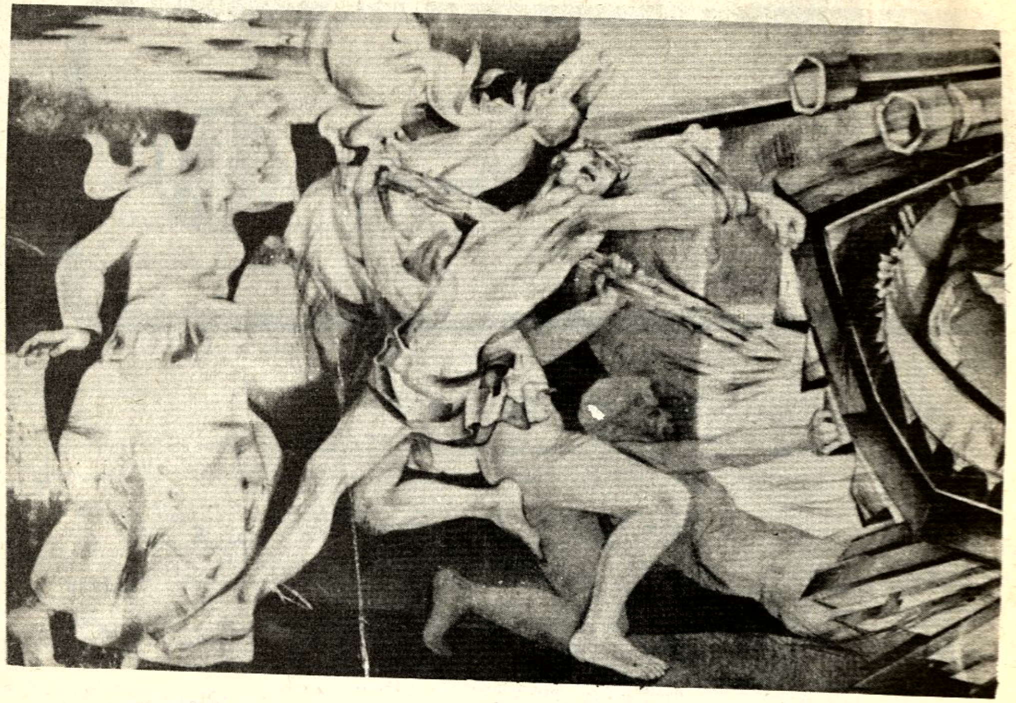
والحصان في هذه اللوحة مهروس تحت المسنن ، لكنه هنا ، ايضا لا يتخلى عن صرخته او كبريائه .. كما انه ليس من السهل القضاء عليه ، ان جسده بصلابة المسننات ، وان صرخته تنطلق ، دائما ويذكرنا آكلة لحوم البشر في هذا العمل ، بما كتبه المراسلون الصحفيون عن موائد الملك حسين ، في قصر الحمر اثناء المذبحة ، وبان ما يعبر عنه هذا العمل

ليس نظريا ، وليس اسطوريا ، ولكنه واقعي أكثر مما ينبغي ، حسب مصطلحات القاموس البرجوازي المهذب · اذ ان هذه البشاعة المكثفة ، والمركزة في كتلتي اللوحة الاساسيتين ، الالة والقوى المضادة ·· هي ما حدث وما يحدث ، عادة ، في المجازر·· أما في يسار اللوحة ، فهناك الة فاشية أخرى في العمل ، وفي الاحتياط معا ·· انها تدور وتدور ولكن مهماتها غير واضحة هنا ، فلها مهمة في الجزء الثالث ، من الايلولية الحدث ـ المجزرة ـ والبطولة ، التي لا تنسى ، والمهمات المطروحة التي لا يجوز اغفالها ·· ان عبد لكي يمارس القطع السينمائي ، بين الجزء الاول والثاني ، لا ليتيح لنا التأمل ، ولكن لان المساحة لا تساعده ، بالرغم من ضخامتها ، واتساعها فالمجزرة والبطولة ؟ اكبر من المساحة التي يستحيل ان يختزل احداثها هكذا ، لذا فهو ، وبسبب من هذه المعضلة ، يحاول ان يشكل في التفاصيل ، مراوحا في المسافة بين التجريد والواقعية ، والسوريالية ، والتعبيرية ، في عمل واحد شامل ومتكامل ·· لماذا فعل ذلك ؟·· سؤال مشروع ·· والاجابة عليه تتلخص في ان عبد لكي فنان شجاع وجرىء، لم يقع اسير مدرسة ، ولكنه تصدى للمهمة ، مستوعبا تراث الفن التشكيلي المعاصر كله ·· وبدون ذلك رأى من غير الممكن ان يركز فهمه لما حدث ويحدث الا بهذا العمل المركب الذي يتطابق ، في مجاله ، مع القصيدة الحديثة المركبة ، التي تقول كل شيء واعدة بما بعدها ··

ثالثا : الامل

الامل عند عبد لكي ليس وهما او حلم يقظة ، انه ، في الواقع مواصلة التحدي ، بالوسائل ذاتها ، وبالعناصر ذاتها ولكن بالاضافات الضرورية أيضا وفي ظروف الهزيمة التي اعقبت ايلول ، حيث يكتمل شكل الالة الفاشية هنا في يمين اللوحة ، حيث نرى اليد المطحونة مجذوبة الى عمق المسننات، والاصابع الطفلة والناضجة وهي تطحن، وتبدو دلالة على المنهجية الوحشية ، التي تستهدف الاصابع القادرة على ضغط الزناد ·· ان معايشة عبد لكي للمأساة البطولة ، والخارجين منهما اعطته مزيدا من الوثائق والمسجلات ، كما اعطته ، بالقدر نفسه ، رؤية واضحة لما يمكن ان يكون عليه التصدي للهجمة الرجعية الفاشية الزاحفة ··

انه هنا ايضا ، يؤكد على الانسان ، فها هو تحت المسننات والجنازير ، ولكنه يقاوم ، وها هو يشرع قلمه المصنوع من جذوع الشجر ، ويقاوم ، وها هو ، ايضا ، وبالرغم من قيوده ، يقاوم ·· انه يقاوم بالمراة ، وبالاطفال وبالشمس ، وبالحمامة الصغيرة ، التي اصبحت ، في هذا الجزء ، اشبه بطائرة ، كما انه يقاوم بذات الارادة الصلبة ، الحصان ذي العرف القاسي والذي لم يكف عن اطلاق صرخته في



ذات العمق الاستراتيجي · ان العمل هنا يزخر بالقدرة على ممارسة الحياة بكل صورها الشاقة ·· فحركة الاجساد ، متعاكسة ولكنها منسجمة في اتجاهها الرئيسي ، انها ليست زخرفية ، من حيث الشكل ، ولكنها ذات اتجاه واحد من حيث المضمون والفعل ، وهذا هو المهم ·

بقي ان نقول ان الخط الذي ينتظم الثلاثية ، هو خط التصدي والقتال ، في كل حالات المذبحة ـ البطولة المستمرة ، وهذا هو قانون الثورة ، الهزيمة نعم ·· حدثت ، ولكن القتال والمقاومة واستمرار الثورة هو الذي ما زال يحدث ولكن هذه اهمية ما اراد ان يقوله يوسف ، وقد قاله بقوة وصدق ، ووصل الى الناس لقد كان معرضه جماهيريا وسجل عددا هائلا من الزوار ، وتنقل في اكثر من منطقة من مناطق القطر العربي السوري ··

راينر كريندل

- مقابلة اجراها قيس الزبيدي -

راينر كريندل (١٩٢٨) كاتب مسرحي وناقد · عضو رئاسة اتحاد الكتاب في جمهورية المانيا الديمقراطية · كتب مسرحيته « جرش » ذات يوم في ايلول ، عام ١٩٧٤ والتي صدرت عن فرع اتحاد الكتاب الفلسطينيين بدمشق عام ١٩٧٦ ·

مسرحياته :

خيال الفتاة ١٩٦١

اولاده ١٩٦٣

مرافعة من اجل الباحثين ١٩٦٦

رحلة اليس فنكر لاين الغريبة ١٩٦٧

المتمرد الخائن ١٩٦٨

صادفت فتاة ١٩٦٩

متى ياتي انسان اكثر اخلاصا ١٩٧١

جرش ذات يوم في ايلول ١٩٧٤

ليلة بحلول وسط ١٩٧٥

الصيف الرابع عشر ١٩٧٦

الجمهرة المتوحشة ١٩٧٧ (تعرض قريبا في روستوك)

الوصول الطويل لاليس فنكر لاين (يعمل عليها حاليا)

● من انت ؟

● عمري خمسون عاما · ولدت في وسط المانيا عام ١٩٢٨ ، في الحرب العالمية الثانية · كان والدي موظفا اداريا ارسل الى بولونيا المحتلة · وشاهدت كصبي كيف يضطهد الالمان الشعب البولوني · وفي مثل هذه الظروف تشكل وعيي العام وتشكل عندي الوعي الجنيني السياسي · وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت اعقد الصلة بين ما شاهدته من مظاهر الاضطهاد والقتل في بولونيا بين معارفي وهو ما ولد عندي وعيي السياسي · وكانت هذه الفترة بمثابة المعنى الاساسي للفنان في · وقد كتبت قصائد وقصص عديدة حول العلاقات بين الالمان والبولونيين حتى في مسرحياتي اللاحقة · في البداية ثبتت حكايات وانطباعات وقصصا حول هذه العلاقات مثلا : (لقاء جديد) و (ذكريات للحاضر) ١٩٥٦ اضافة الى روايات قصيرة ونوفيلات عن الشباب للشباب القراء · وانا اعتبر ما كتبته رديئا ولم اعد احبه · واذا ما قيمت هذه الاعمال فبوسعي ان اقول ان مضمونها جيد لكنها تفتقر الى القيمة الادبية الفنية · كان جيلنا صادقا في تلك الفترة وقد حاول الحديث عن اي موضوع بالارتباط المباشر مع السياسة ، والموقف السياسي · وبودي ان اقول انه لم يطلب احد منا القيام بذلك ، انما نحن اردناه · كنا قد قرأنا قليلا وكانت اعمالنا تمتلىء بالسياسة الكثيرة ، مع قليل من الادب · وعلينا الا نخجل من هذا ، ونفهمه كمرحلة مررنا بها وعشناها ونضجنا اكثر ·

بدأت بالنقد المسرحي مبكرا من عام ١٩٥٦ في صحف عديدة مثل « العالم الشاب » و « الحقيقة » و « المانيا الجديدة » ، التي ما زلت اكتب فيها النقد المسرحي حتى الآن ·

● هل اصدرت كتابا في النقد المسرحي :

● في الحقيقة لا يعنيني ان اجمع ما كتبته من مقالات (يومية) في كتاب فانا لست باحثا او عالما · النقد المسرحي يعنيني فقط لاني اعتبره مثل مناقشة حيوية اساهم بها عند عرض المسرحية فقط وليس لهذه المناقشة قيمة بعدئذ · وقد جرب الناقد المسرحي المعروف (ارنست شوماخر) اصدار كتاب لنقده المسرحي الذي كان ينشره في صحافة برلين واسم كتابه (النقد البرليني) وهذا الكتاب في رأيي هو مجرد ارشفة لتلك المقالات الصحافية وقد تكون له قيمة توثيقية لا اكثر · فحينما يكتب المرء نقدا كثيرا يكتب سريعا وبصيغة صحافية · لهذا لا يحمل مثل هذا النقد اية ادبية تؤهله للصدور في كتاب مستقل · واعتقد ان مثل هذا العمل غير ذي اهمية ·

● كيف ذهبت الى المسرح ؟

● سحرني المسرح دائما · والمسرح عندنا له تقاليد عميقة وراسخة ، له دوره الكبير واهميته · كما ان عندنا هواة كثيرين وقد بدأت بالكتابة لبعض الهواة وكان

موضوع كتاباتي العلاقة بين الالمان والبولونيين · وقد قرأ رجل مسرحي مهم في برلين مسرحيتي (خيال فتاة) واعجب بها وساعد على تقديمها في **مسرح غوركي** · كان ذلك عام ١٩٦١ وبعدها جاءت مسرحية بعد اخرى وحتى الآن كتبت ١٢ مسرحية اضافة الى ٤ تمثيليات وسهرات للتلفزيون اثنتان منها كتبا للتلفزيون بصيغة مسرحية واثنتان كتبتا خصيصا للتلفزيون كاعمال سينمائية ونجح منهما (رومانس لنهاية الاسبوع) ١٩٧٢ بفضل مخرج موهوب **كريستيان شتاينكة** ·

● **هل ستنصرف للكتابة الى التلفزيون ايضا ؟**

● كتبت للتلفزيون حقيقة من اجل الحصول على نقود لان الكتابة للمسرح لا تجلب مالا كثيرا ·

● **كيف ؟**

● ان النظام السائد عندنا في المسرح مايزال هو نفسه الرأسمالي القديم أي ان المؤلف يتقاضى ١٠ ٪ من المدخول وهذا لا يعمل شيئا لان البطاقات المسرحية عندنا رخيصة وتوجد تخفيضات كبيرة للطلاب والجنودكما ان مسرحياتنا تقدم ضمن البرنامج العام باحسن الاحوال مرتين في الشهر · من هنا نرى المدخول المالي المحدود للمؤلف · لكن توجد ايضا حالات حظ فقد حصلت على مبلغ ٨٠ الف مارك خلال خمس سنوات لمسرحية كتبتها في عشرة ايام وهي مسرحية (صادفت فتاة) لان هذه المسرحية قدمت في ١٨ مسرحا المانيا كما قدمت في تلفزيون المانيا الغربية ايضا ·

● **هل تكتب عادة بسرعة ؟**

● ان ذاكرتي قوية وانا اكتب ملاحظات كثيرة وارميها واحتفظ بالمهم منها في ذاكرتي فقط · وحينما ياتي الوقت اجلس واكتب دفعة واحدة ·

هذا يعني التفكير الطويل بالموضوع ثم كتابته بسرعة نسبيا · هذه طريقتي عموما · وتوجد طبعا حالات تاخذ مظاهر اخرى معقدة · مثلا مسرحية « ليلة بحلول وسط » استمرت الكتابة فيها من عام ١٩٧٢ الى ١٩٧٤ وهي من اهم ما كتبت لكن ليس من افضل ما كتبت · في هذا المثال كان نوع البنية الدرامية معقدا ، كذلك كان الموضوع الفني نفسه معقدا وهو موضوع لم يحسم اجتماعيا عندنا · على هذا لم استطع لا الاستحواذ على البنية الدرامية ، ولا على عمق الموضوع المعالج دراميا ·

● **ما هو موضوع هذه المسرحية ؟**

● التناقض بين المثال والواقع · الموضوع معاصر · علاقات انسانية لناس عديدين · والبطل صحافي يعرف امورا عديدة معقدة في الداخل والخارج · لكنه لا يكتب كل ما يعرفه ، ليس لان احدا يمنعه ، بل لانه يعتقد ان كتابة كل شيء امر لا معنى له ·

بريشت يقول بوسع المسرحية الجيدة ان تسرد في جملة واحدة · لكني لا استطيع ذلك · المهم ان الصحافي يراقب نفسه جيدا ليس بدافع الخوف انما بدافع الذكاء والنظرة الثاقبة · وتنعكس مواقفه على حياته الخاصة ·· مع زوجته وعلى علاقاته مع الاخريات · يوجد عنده نوعان من الحلول الوسط · الاولى ناتجة عن الجبن والانتهازية والثانية ناتجة عن الضرورة التي لا يمكن تفاديها · لان ضرب الرأس بالحائط يكسره · والحرية ولا شك هي فهم الضرورة · انا لا احاول ان احكم على هذه الشخصية ولا اوجه الاطراء اليها · انما احاول ان افهمها · المسرحية ترجع الى الماضي لتعيد صياغة نقاوته ومثله في الحاضر انها لا تعود الى الماضي لتنام فيه ·

● **ما هو عملك الحالي ؟**

● عملي الاخير هو عملي الذي اكتبه الآن · ان مسرحيتي (رحلة اليس فنكر لاين الغربية) التي كتبتها عام ١٩٦٧ والتي اوقفت بعد عرضها وقتئذ بسبب من ضغط بولوني ، اعيد عرضها في التلفزيون حيث كانت قد سجلت على مسرح **كارل ماركس** · المسرحية جيدة ، وهي بمثابة **رحلة اوديسية** ويمكن ارجاعها الى **المسرح البريشتي** · ولاذكر وقتها ان الناقد **شوماخر** كتب : اخيرا ضبطت مع **كريندل** ! المهم انني في مسرحيتي الحالية ابتدىء مع الشخصية من حيث انتهيت البطل يريد ان يكون جيدا ولا يمكنه ذلك ويضطر الى ان يغير الجبهات في كل الاماكن وكل الاحزاب · انه يريد ان يكون تقدميا وشيوعيا لانه يعيش في المانيا الدمقراطية · وانه يريد ان يحول المستقبل الجميل الى واقع مثلما يقرأ في الصحف انه يريد المستقبل الآن وحالا · لكن توجد مشاكل جديدة · عقبات جديدة · فالناس عقبة بسبب دوافع عديدة والبيرقراطيون يعرقلون والتكنوقراطيون يعملون بطرقهم الخاصة · البطل يقوم

برحلة اوديسية جديدةوهو يغير المدنوالمعاملوالناس وانااسير معهولا اجد له فردوسا · فالمسرح يطرح أسئلة ولا يقدم اجـوبة · الى اين يسير كل شيء في جمهورية المانيا الديمقراطية · لا اعرف · اعرف فقط ان لا افقد هـذه الجمهورية · قطب الرحى بين الواقع والمثال ولان بطلي عفوي فهو يتعامل وما يزال مع المشاكل الكبيرة بعفوية ايضا · المسرحية تعتمد وسيلة انتقادية في رؤية الواقع الجديد ·

● هل كتبت كثيرا عن فلسطين ؟

● ما عدا « جرش » لم اكتب الا بعض المشاهد والصـور القليلة ذات العلاقـة بفلسطين والتي ضمنتها بعض اعمالي المسرحية ، مجرد هوامش انسانية لا اكثر ·

● ما هو انفعالك الكبير ؟

● نماذجي تفهم الواقع رغم انها لا تنجح في تفسيره · وهي تعاني من مشاكل في حقل التوتر بين الذات والمجتمع · ويهمني طبعا الحاضر في كل ما اكتب · حتى عندما التفت الى الماضي يهمني الحاضر ، اعني اني احاول ذلك ·

● هل تاثرت ببريشت ؟

● لا يمكن لاحد في المسرح ان يمر مرورا عابرا ببريشت · لكن طريقته في الكتابة لا تتفق مع طبيعتي · مثلا الاسلوب العلمي الواضح في طريقـة تفكيره الذي يفجره بشاعرية كبيرة هو امر لا اقدر عليه · لكننا تعلمنا منه بوعي وبدون وعي ليس فقط من مسرحياته انما ايضا من نظريته ومن ملاحظاته المسرحية · لكن السؤال الجديد هـو كيف كان سيكتب بريشت الآن ؟ اي في مجتمع اشتراكي حيث توجد مشاكل حلت · ان تلاميذه مثل بيتر هاكس وهاينس ميللر وهيلموت بايرل يكتبون بطريقـة مختلفة الآن · اعني في مجال البنية الدرامية · ولو انه لا توجد حتى الآن دراسات نظرية تبين الى اي مدى ابتعدوا عن طريقته او طوروا هذه الطريقة ·

● لماذا « جرش » غير ملحمية ؟

● لاني لم اعرف المادة كفاية · اذا اردت ان ابين : لا تجـوز الثورة اذا لم تكن الظروف ناضجة ! فان هذه المقولة عامة ولكي احدوها ، اعينها اكثر لاصيغها دراميا علي ان اعرف كفاية · صحيح ان التسييس يتم بالعلاقة مع البنية الملحمية وبالعلاقة مع ايجاد صيغة مسرحية فنية متقدمة · لكن بالنسبة لجرش لم يكن الامر ممكنا ، لاني لـم اكن على معرفة كافية بالظروف التي احاطت بالثورة الفلسطينية ·

● هل ما تزال الجدانوفية حية في الواقعية الاشتراكية ؟

● الجدانوفية لا تهم سوى كبار النظريين العجائز · والجيل الجديد من الكتاب لا يعرف شيئا عن جدانوفية الواقعية الاشتراكيـة · وانا شخصيا لم اهتم للامـر · والجدانوفية انطوت في ضمير الغيب ولا يعرفها احد اليـوم · واثبت ادب الـدول الاشتراكية في الخمس عشرة سنة الاخيرة ان الجدانوفية خرافة انقضت ·

● كيف تفهم الواقعية الاشتراكية ؟

● افهمها كموقف ماركسي ذاتي للكاتب من عمله · فانـا شخصيا مرتبط بتجاربي واكتب عن هذه التجارب من سنوات · ولست عضوا في الحزب من باب الصدفة · انما بدافع التناقضات الموجودة · فانا اخص واريد ان اخص المجتمـع الاشتراكي وانطلق ككاتب من هذا الموقع ، موقع الجهد في التغيير الاشتراكي للواقع · المجتمع الاشتراكي بالنسبة لي هو المجتمع الوحيد الذي اقبله · من هنا يبدأ عندي الموضوع الذي اكتب ، وانتقاء المواد التي اعالج · لكن علي ان ارى بشكل مختلف ومتنوع · لا اريد ان اجرح الواقع ولا اريد ان اكتب عما هو غير موجود لدوافع اشتراكية مسبقة · هذا امر غيـر مقبول · نحن نستطيع ان نقدم الواقع بطـرق عديدة مختلفة · كشيء مثلا معطى غير قابل للتغيير · وهنا نعود الى بريشت وهذا ما تعلمته منه توجد فرصة دائمة للتغيير · توجد دائما امكانية التغيير رغم انه يبدو ظاهريا ان هذه الامكانية مفقودة · تستطيع ان تسال كتابا اخرين ، كلهم لا يؤمنون بالواقعية الاشتراكية كدين او كعقيدة ،وهم يكتبون حسبما يعتقدون وينطلقون من ان العالم قابل للتغيير ·

● ما رايك بما كتبت ؟

● عندي نقطة ضعف لابسن · وانا انطلق فيما اكتب مـن التقاليد السياسية في المسرح الالماني بشكل خاص عند فردريك وولف حيث القضية السياسية هي المهمة ، وهذا يظهر عندي صعوبات · فشخصياتي تتصرف حسب توجيهات المؤلف وليس بحريتها الشخصية ·

الفولكلور الفلسطيني في المراجع الاجنبية

نمر سرحان

ما هي الاهداف التي اغرت الكتاب الاجانب للكتابة عن فولكلور فلسطين وملامح الحياة الشعبية اليومية للاراضي المقدسة في الناصرة والقدس · ولماذا وجدنا كل ذلك الفيض الهائل (١) من الدراسات عن الثقافة المحلية ، التاريخ ، الاثار والوصف الطبوغرافي · وفوق ذلك من هم اولئك الكتاب الذين كتبوا في ذلك المجال · وما الذي لفت انتباههم وشد اهتمامهم ·

هناك الكتاب الذين اهتموا بالجغرافيا المقدسة ، ومنهم اولئك الحجاج ابتداء من **الامبراطورة هيلينا** ، وعبورا بحجاج العصور الوسطى الوافدين الى الاراضي المقدسة ـ فلسطين · وفي كتابة هذه الطبقة من الكتاب نجد تركيزا واضحا على كل ما هو خرافي وغريب (٢) ، لكن ما تم انجازه على مستوى الانجاز التاريخي الجغرافي والفلسفي كان قليلا ·

وبعد ذلك ، وفي القرن السابع عشر ، ظهرت فئة الكتاب الرحالة ، والذين قاموا برحلاتهم لاغراض تتفاوت بين المغامرة والبحث عن التحقيق العلمي · ومن ابرز هؤلاء واكثرهم شهرة **الامبراطور نابليون** ، الذي ارسى دعائم كل المحاولات التالية للوصف الشامل لفلسطين · (٣)

(١) انظر كشفا ببليوغرافيا بجزء كبير من تلك الابحاث الواردة في كتابي : «**احياء التراث الشعبي**» · دار فيلادلفيا للنشر ، عمان ١٩٧٤ ·

(2) See: *Introduction to Picturesque Palestine*. Edited by: Colonel Sir Charles W. Wilson.

(٣) المرجع السابق

والفئة الثالثة هم الكتاب الادباء من امثال **شاتوبريان** ، تلك الفئة كانت اول من وصف تلك التلال الغامضة وراء نهر الاردن ، ثم انضم للفئة الادبية فئة أهتمت بالدقة العملية ، من امثال الرحالة الاميركي **دكتور روبنسون** ، والذي اعطى جغرافية فلسطين اسلوبا يستحق اهتماما خاصا ، بطريقة النظرة الطبوغرافية ، وفي هذه المرحلة كان هناك بعض التوافق بين اسلوب التحقيق العلمي والوصف الادبي ، كما اعتمدت اعمال هؤلاء الكتاب على توسيع افاق البحث ، بحيث يشمل مصر ، على اعتبار انها ذات صلة بفكرة انطلاق ما سمي بشعب الله المختار ، وفي بلاد العرب (شبه الجزيرة العربية) وفي فلسطين ، التي تمثل ذكريات الحروب الصليبية وامراء السراسين (٤) · وفي مثل تلك الاعمال كان هناك تركيز على اخبار ابناء اسرائيل ، الذين خرجوا من مصر الى سيناء ·

وسوف نرى ان فكرة التمهيد للهجمة الصهيونية على فلسطين كانت تظهر ، بصورة او باخرى ، في كثير من اعمال الكتاب الذين اهتموا بفولكلور الاراضي المقدسة · ولا بد ، ايضا ، من ايراد كلمة حول مفهوم فلسطين عند دارسي الفولكلور هؤلاء · وباختصار ، فانهم يرون ان فلسطين هي كل الاراضي التي مر بها اليهود ، او طمعوا بها · لقد رآها **دالمان** بانها فلسطين الشرقية (الاردن) ، والغربية ، وضم اليها مرجعيون ، في جنوب لبنان ، اما الارض التي كتب عنها المبشر **ثومبسون** في كتابه (**الارض والكتاب**) ، فهي التي تبدأ من بيروت الى غزة والحدود المصرية (٥) · ويمكن القول انهم يحملون فكرة واضحة عن سبب مجيئهم الى هذه البلاد ، وهو التمهيد للاستيطان الصهيوني في فلسطين ، باعطائه مبررات ثقافية ودينية ·

شيء آخر جذب اهتمام هؤلاء الكتاب الى فلسطين وهو ذلك الترابط بين الجغرافيا والتاريخ في هذه البلاد ، فهناك ذلك الغور السحيق الانخفاض والذي هو اكثر انخفاضا من اية بقعة اخرى في العالم ،مع ما يتصل بذلك من اخبار المدن التي خسف الله بها الارض · وهناك ، ايضا ، العيون والينابيع الخرافية ، التي حيكت حولها الاساطير والحكايات التي تعكس تاريخها الخرافي ، والمعتقدات التي نمت حولها ، وكذلك بقايا الابنية القديمة والمدن والمواقع التاريخية ، في القدس وقيسارية وبعلبك ، مع كل ما تحمله تلك البقايا من دلالات تاريخية ، اسرفوا في تحليلها وايجاد ما يربطها بتاريخ (شعب الله المختار) ·

لقد سيسوا الدراسات الفولكلورية ، واستغلوا ذلك ، ووظفوه في سبيل طرد شعب

(4) *Saracen Princes.*

(5) W. Thomson, *The Land and the Book.* London, 1881.

فلسطين العربي من ارضه ، وعندما ناتي اليوم لندرس الماكولات الشعبية العربية الفلسطينية ، بهدف ابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية وابراز حقوق شعبنا في وطنه ، نسمع من يقول بانكم تسيسون هذا العمل الثقافي ، كأن التسييس للفولكلور هو حكر على مجهودات اغتصاب اراضي الشعوب ، وليس للدفاع عن حقوقها الوطنية ٠

ناتي الآن للفولكلوريين الذين كتبوا عن فولكلور فلسطين ابتداء من اواخر القرن الثامن عشر ، وبعد ذلك ، ونحن نميز فيهم عدة فئات ، من حيث طبيعة اهتمامهم بالحياة الشعبية الفلسطينية ٠

الفئة الاولى ـ زوار الصدفة :

ونحن نسميهم زوار الصدفة ، لانهم التقوا ، صدفة بالدراسات الفولكلورية ، وكان مجيئهم الى فلسطين بهدف آخر ، غير دراسة الفولكلور ، من هذه الفئة العالم الاثري الفنلندي **ابلي ساريزالو** ، الذي جاء الى الجليل ليشارك باعمال بعثة اثرية ٠ وهكذا ، **التقى ساريزالو** ، صدفة ، بسكان ذوي ثقافة طريفة واغان ذات لحن جميل ، فاخذ يتعلم اللهجة المحلية ، ويجمع نصوص الاغاني الشعبية الخاصة بالدروز ٠ ونشر **ساريزالو** اعماله في مجموعة من الاشعار الشعبية سماها (**الاغاني الشعبية للدروز**) ، ولا تحمل هذه المجموعة دراسة علمية ، كما انها لا تتضمن دراسة للبناء والاشكال الفنية للاغاني ، فالرجل ليس باحثا في مجال الفولكلور ، بل هو مجرد هاو ، افرغ في مجموعته خلاصة ما جمع ـ وعلى الرغم من ان المجموعة ذات وهج وأهمية خاصتين فانها لا تخلو من الاخطاء التي يقع فيها الباحثون الاجانب ، الذين يتصدون لمثل هذه الاعمال ٠ (٦)

ومن زوار الصدفة الطبيب **سكرمجور** ، الذي عمل ضمن بعثة تبشيرية في الناصرة ، ونشر كتابه ، عام ١٩١٣ ، والذي يزدحم بوصف دقيق للحياة اليومية للسكان ، وعلى الاخص ظروف العمل ، والمعيشة ، وتكاليفها اليومية ٠ وقد وصف هذا الطبيب الناصرة وصفا جميلا ، وكرس مساحة كافية من كتابه للتحدث عن الحرف والحرفيين ٠ ولم ينس ان يتحدث عن تفاصيل تبدو اليوم جميلة وعذبة ، مثل الحديث عن اسعار الحاجيات قبل الحرب العالمية الاولى ، واكلات ذلك العصر (٧) ٠

ومن زوار الصدفة الآنسة **ماري اليزا روجرز** ، والتي جاءت من لندن لزيارة اخاها ، **المستر روجرز** ، قنصل بريطانيا في حيفا ٠ واذا انت قرأت كتاب الآنسة

(6) Aapeli Saarisalo: *Songs of the Douzes*, Helsinki, 1932.

(7) ScrimGore, *Nazzareth of To-day*, London, 1913.

روجرز ، وجدتها تتحدث عن كل شيء ، تقريبا ، تصادفه ، ابتداء من ساعة نزولها من السفينة في ميناء يافا ، وحتى عودتها ٠ ويبدو ان شقيقها قد اعد لها برنامجا لزيارة فلسطين ككل ، فنرى مساحات واسعة خصصت لوصف الحياة في القدس ، حيفا ، شفا عمرو ، وغيرها ٠ وقد اهتمت **الآنسة روجرز** بحياة المرأة العربية الفلسطينية ، فاعطتنا صورة جيدة عن اهتمامات المرأة في الزي ، والاكل ، وسوى ذلك ولم تكن هذه الامور لتتأتى للكتاب الرجال الذين لم تكن تعطى لهم الفرصة لمراقبة حياة المرأة عن كثب ٠ وانا اعتبر **كتاب الآنسة روجرز** (والذي اسمته **الحياة المنزلية في فلسطين**) مرجعا جيدا عن عالم المرأة في الوسط الشعبي الفلسطيني (٨) ٠

ولا بد من التأكيد هنا ان طبيعة فلسطين كانت ، وما زالت ، جذابة ، سواء من الناحية الجغرافية او البشرية ، ولذلك وجدنا الكثيرين من زوار الصدفة ، وقد وجدوا انفسهم مغرمين بطرافة حياة العامة من سكان فلسطين ، فكتبوا ، بأسهاب ، دون ان يكونوا ، في الاصل ، متخصصين في الدراسات الفولكلورية ٠ من الامثلة الاخرى الجيدة على ما نقول ما فعله **هانوور** ، وكذلك **فيليب بالدنسبرجر** ٠ لقد عاش الاول فترة طويلة جدا من حياته في فلسطين ، بينما ولد الثاني في فلسطين ، وعاش فيها فترة طويلة جدا ٠ واذا كان **هانوور** قد اغرم بالقصص الشعبية ، وعلى الاخص ما كان له صلة بالدين ، فان **فيليب بالدنسبرجر** قد دون الكثير من الملاحظات عن كل شيء تقريبا ، من حياة عامة الناس ٠ (٩)

ان هناك امرا واحدا ينتظم اعمال زوار الصدفة هؤلاء ، هو انهم التقوا بالفولكلور الفلسطيني صدفة ، فكتبوا ملاحظات عن موضوعات منتقاة ، ولم يستطيعوا في كتبهم ان يضعوا الحد الفاصل بين ما هو مادة فولكلورية من جهة ، وبين ما هو تاريخ ، اجتماع دين رسمي ، جغرافيا الخ ، من جهة أخرى ٠ ولذلك رأينا مؤلفاتهم وقد جاءت اشبه بالمذكرات ومجموعات الملاحظات والنصوص ٠ (١٠)

الفئة الثانية ـ الباحثون :

هذه الفئة من الدارسين جاءت الى فلسطين ، وبذهنها القيام بانجاز عملي ، مع

(8) Mary Eliza Rogers; *Domestic Life in Palestine*. 2nd Edition. London, 1863.

(9) E. J. Hanauer; *Folklore of the Holy Land*, London 1935.

(١٠) من هذه الفئة ايضا : **ليتمان** ، انظر :
(10) Littman, Enno; *Modern Arabic Tales*, Legden, 1905.
(مجموعة نصوص حكايات) ٠

الاصرار على المحافظة على الامانة ، والرصانة ، والدقة العلمية · من هذه الفئة ، وتقف في طليعتها ، الباحثة الفلندية **الدكتورة هيلما جرانكفيست** · لقد جاءت هيلما الى فلسطين لدراسة موضوع المرأة في عهد التوراة ، ولكنها سرعان ما اقتنعت بأن هناك موضوعا اكثر اهمية وطرافة ، وهو موضوع المرأة العربية الفلسطينية في الوسط الشعبي المعاصر ·

من الناحية العلمية البحتة ، يمكن القول بأن مؤلفات **هيلما** اعتمدت المنهج الوظيفي في دراسة الفولكلور الفلسطيني ، اي استقصاء وظيفة المادة العلمية في توضيح الطبيعة الثقافية والاجتماعية والنفسية للشعب العربي الفلسطيني · ويقضي هذا المنهج باستخدام اسلوب الملاحظة ، وطرح الاسئلة الدقيقة لكل مناحي الحياة الاجتماعية ، وهكذا فان هيلما قد قامت بخدمة رائعة في مجال الدراسات الفولكلورية الفلسطينية ، لانها قدمت للباحث المعاصر :

١ ـ **مادة علمية غزيرة ودقيقة** ، فمن حيث الغزارة درست **هيلما** كل ما يتصل بدورة الحياة اليومية ـ الولادة وتقاليدها ، وكذلك تربية الاطفال في الوسط الشعبي ، وكل ما يتصل بذلك من طب شعبي ، ونحوه · كما درست كل ما يتصل بالزواج : تقاليده ، اغانيه ، طقوسه ، الحياة الزوجية ، تعدد الزوجات ، **المطلقة** ، **الارملة** ، الزوج المتسري الحب ، وكافة التقاليد الاجتماعية من خلال الزواج · وجاءت دراستها عن الزواج في جزأين مليئين بالوثائق والمرويات ، المسندة لرواة عاشت معهم في ارطاس ، بيت لحم ، الخضر ، رام الله ، التعامرة ، ونابلس · والاهم من ذلك كله ان اغاني الزواج ، وما اكثرها ، قد دونت بأسلوب الكتابة الصوتية ، فضلا عن ترجمتها الى الانجليزية · وهكذا ، وصلت الينا ، بفضل **هيلما** ، الاغنية الشعبية الفلسطينية ، بدقتها ونكهتها الاصيلة ، وكاننا نسمعها الآن من افواه الرواة ·

٢ ـ **شهادة علمية** لا يرقى اليها الشك بأن الشعب العربي الفلسطيني هو المالك الحقيقي لمأثوراته الشعبية ، سيما وان الباحثة المحترمة قد سجلت ونشرت معظم ابحاثها في وقت كانت فلسطين ما زالت ذات اغلبية عربية ساحقة ـ واذا عرفنا ان **هيلما** نشرت ابحاثها بلغة عالمية ، هي الانجلزية امكننا ان نقدر مدى اهمية هذه الباحثة ، كشهادة قوية في وجه محاولات الاحتلال الصهيوني ، لتبني وتزييف الفولكلور العربي الفلسطيني ، وانتحاله ، والتي يهدف منها الى اثبات ملكيته للارض التي اغتصبها ·

هناك مثال آخر جيد ، على هذه الفئة ، الا وهو الاستاذ الالماني **جوستاف دالمان** ، والذي قام بأبحاثه الميدانية ابتداء من اذار ١٨٩٩ الى حزيران ١٩٠٠ · ونشر اعماله

في دراسات ، ابرزها كتابه ذي الثمانية اجزاء : **العمل والعادات في فلسطين** ، وكتابه **ديوان الشعر الشعبي الفلسطيني** · (١١)

انني لا ادعي بانني قد قرأت كل ما جاء في الكتاب الاول ، بسبب ضعف معرفتي بالالمانية ، لكنه يضم تفاصيل نادرة ، دقيقة ، طريفة ، ووفيرة عن الحياة اليومية على مدار العام : الاكل ، السكنى ، الحيوان ، النبات ، الفصول ، الحرف ، الخ · وهو كتاب جدير بأن يترجم ، وينشر بالعربية والانجليزية ، كوثيقة شعبية عظيمة عن ثقافة شعبية وشهادة علمية تصفع ادعاءات العدو · امّا الكتاب الثاني فهو اول وادق عمل نشر عن الشعر الشعبي الفلسطيني ، لا يوازيه عمل آخر على الاطلاق ·

الفئة الثالثة : الكتاب المتحيزون لوجهة النظر المعادية

يجوز لنا ان نضع رجل التبشير ، الذي قضى ثلاثين عاما من حياته في سوريا وفلسطين ، على رأس هذه الفئة المبشر المسمى **ثومسون** ، وضع كتابا اسماه : **الارض والكتاب** · (١٢) صد رهذا الكتاب في ثلاث طبعات منفصلة ، وعلى الرغم من انه يتحدث عن مسح كامل لفلسطين ، الا انه لم يذكر فلسطين بالاسم ، بل سماها ارض الميعاد ، وارض اسرائيل ، وارض انبياء وملوك اسرائيل ··· الخ · واورد أسماء القوى والمواقع الجغرافية باسمها التوراتي واشار للسكان المحليين بابشع الاشارات والاوصاف ، وعندما كان يضطر لذكر اسم عربي لقرية فلسطينية كان يسميها قرية معاصرة · انه لشيء عجيب ان تقرأ عن فلسطين وهي تحمل اوصافا غريبة · انك لتحس بانك تقرأ عن أرض قصد طلاؤها بلون هجين ، غريب ، ووضعت برسم الاستيطان والاستعمار ، في حين ان الارض في ذلك الوقت ، كانت عربية وكذلك سكانها

---

(11) *Arbeit und Sitte in Palastina*

ويشمل الاجزاء التالية

(1,1) *Jahreslauf und Tageslauf.* Herbst und winter.
(1.2) *Fruhling und Sommer.*
(2) *Der Ackerbau.*
(3) *Von der Ernti zum mehl.*
(4) brot, ol, wein.
(5) Webstoff, spinnen, weben, Kleidung.
(6) Zettleben, Milchwirtschaft, Jagel.
(7) Das Flaus.

(١٢) انظر هامش رقم ٥

وعربية فحسب ـ بل ـ ان التحيز لتفوح رائحته من بين ثنايا كل سطرين كتبهما **تومسون** **فعندما** يرى شجرة خروب يأخذ في تعداد الاوصاف والذكريات التي تشدها الى ارض **التوراة** ، وعندما يصادف موقعا اثريا ، يحدثنا عن كل المعلومات التي تربطه باليهود · **واذا** صادف الاعراب (عرب فلسطين) تحدث عنهم كما يتحدث الرحالة المكتشفون عن السكان الاصليين لاميركا واستراليا ·

شيء وحيد وصفه تومسون باعجاب ، هو طبيعة فلسطين الجميلة ، ومظاهر الحياة الاصلية فيها ··· لكن كل ذلك الجمال وكل تلك الطبيعة الخلابة من خصائص (أرض الميعاد) وليست شيئا يمت لفلسطين العربية وشعبها ، الذي وصفه في أكثر من مكان في كتابه ، والذي وصفه بانه مجموعة من (البدو المتوحشين الذين يستهلكون ارض الميعاد بنار الغزو والحروب الاهلية) ·

وعلى الرغم من ان كتاب **تومسون** قد يبدو الان في نظر القارىء ، وكأنه مجرد كتاب دعائي متعصب ، فأن الحقيقة هي غير هذا · ان الباحث المحص يستطيع ان يضبط أعصابه ويغض الطرف عن أكثر من ثلثي المادة المكتوبة بروح عدائية متحيزة ضد حقوق شعبنا ، يمكنه ان يرى صورة فلسطين العربية وكأنها في طبعة تحتية تتخذ مكانها تحت السطور ··· صورة عذراء جميلة كانت نائمة عبر القرون واستيقظت على وقع أقدام خيول الرحالة والمبشرين ، الذين جاؤوا لزيارتها ، ولكنهم يتجاهلونها ويتناسبون اسمها العربي ، وشعبها الاصيل الذي وضعوه برسم الطرد والسحق والتجاهل ·

تبدو صورة فلسطين في كتاب **تومسون** خلف السطور جميلة أخاذة ، وقد جللها النبات الاخضر والندى ، وانتشرت فوق رباها بيوت الشعر كالوشم جميلة وفي كل جنباتها تصدع اصوات ملايين الطيور البرية (١٣) والاف الاجراس المعلقة في رقاب الغنم والابل التي تتسلق المرتفعات ، والابل التي تحمل المؤونة داخلة بوابة يافا :

ع باب يافا حنحنت لجراس

ع باب يافا حنحنت لجراس

مراكب وارخي لها المراسي

---

(١٣) ان الذي يقرأ كتاب **تومسون** لا يمكن ان يستكثر عبارة ملايين الطيور البرية · ان **تومسون** يصف الطيور بانها كانت عبارة عن مجموعة من السحب ، تحجب أشعة الشمس · وفي مكان اخر يقول بان الطيور البرية كانت تحط على بذار الفلاح فتاكله عن أخره بحيث لا تنبت نبتة واحدة ·

يا ما احلى نومة بنامها

بين لعرى متوسد سنامها

وتردد السهول في مرج ابن عامر والسهل الساحلي اغاني الحصادين :

صبحت انا وعباب الكريم قصاد

واللي تغمر ورانا تفطر الحصاد

ومن بين سطور **تومسون** تشم رائحة كل نبتة برية ، صادفها في فلسطين ، وأجمل هذه النباتات ما وصفه ، بدقة ، على ضفا فالاردن ، وطبرية ، والحولة · انه يجعلك تشم رائحة زهر الدفلى ويجعلك تتحسس البابير ، والسليح ، كما يجعلك تقف ـ وجها لوجه ـ أمام الجاموس ، والخنازير البرية ، والغزلان ، ووحوش البر ، في هيش الغور انه يغريك باللحاق بافواج البط البري في المستنقعات ، ولكن حذار من ان تغوص في تلك المياه الغدارة · انه ينقلك الى منطقة من أجمل مناطق الصيد ، وطبيعة من أجمل ما خلق الله ، ان لم تكن ما خلق على الاطلاق ·

ان حملة التجني على تراث شعبنا وتزييفه وانتحاله بدأت بخلق تفاعل جهنمي بين الادعاء بان فلسطين هي ارض اسرائيل مع المحاولات الحثيثة ذات الطابع العلمي لصبغ الجغرافيا والثقافة بالصبغة التوراتية ، وهذا ما فعلته « **جمعية استكشاف فلسطين** » (١٤) ولنستمع الى **بيسانت** ، الذي يتحدث عن عمل الجمعية فيقول : (كنا نقوم بثورة كاملة في فهم ودراسة التوراة ، كنا نحيي العظام وهي رميم ، كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد **هيرودس** ، كنا نستعيد بلاد **داوود** · كنا نرد الى الخارطة اسماء المدن التي دمرها القائد العظيم **يوشع** ، لقد أعدنا للقدس مجدها وفخامتها ، لقد أعدنا البلاد (فلسطين) للعالم بالخارطة والاسماء والاماكن المذكورة في التوراة ·

وعندما وضعت الاسماء في اماكنها ، أصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش، وزحفها ومن هذه الطرق استفاد الجيش البريطاني في غزو فلسطين ، عام ١٩١٧ ، وكذلك الجيش الصهيوني عام ١٩٤٨ ، ثم عام ١٩٥٦ ، ذلك لان الطرق في أي بلد تظل على حالها عبر القرون ، والتضاريس الطبيعية ، كالجبال والينابيع والانهار ، لا تتغير ·)

هكذا كانوا يقومون بالمسح الجغرافي والثقافي العام ، بهدف التمهيد للغزو · ومن

---

(14) *Palestine Exploration Society.*

هنا تنبع اهمية اطلاع المثقف العربي ، والقارىء بصورة عامة ، على مقدمات الغـزوة الامبريالية الصهيونية لفلسطين · ومن أجل فهم أسباب أعمال الانتحال الاسرائيلـي لثقافة شعبنا ، لا بد من رصد تلك المحاولات المتحيزة ·

الفئة الرابعة : الكتاب العرب الذين نشروا دراساتهم بالانجليزية او لغات اخرى

وبالطبع نحن لا نتحدث عن الطلاب العرب الذين اعدوا دراساتهم الجامعية بلغات اجنبية ، بهدف نيل درجة جامعية ، من امثال الدكتور **عبد اللطيف البرغوثي** والدكتـور **عيسى المصو** (١٥) ، وانما نتحدث عن الاختصاصيين الفلسطينيين ، الذيـن أحسوا بواجبهم نحو حمل ودراسة المأثورات الشعبية الفلسطينية · من أبرز هؤلاء البـاحث الفلسطيني الذائع الصيت الطبيب المقدسي **الدكتور توفيق كنعان** ، الذي يعتبـر ، اذا نظرنا اليه كباحث فلسطيني ، رائد الدراسات الفولكلوريـة الفلسطينية · لقـد نشر **الدكتور كنعان** دراساته بالالمانية والانجليزية ، وهناك كتابان مشهوران له :

الاول : **الخرافة والطب الشعبي** ، هو بالالمانية (١٦)

الثاني : **المزارات الاسلامية في فلسطين** · وهو بالانجليزية (١٧)

كما نشر الدكتور كنعان العديد من المقالات والابحاث بالانكليزية والالمانية ، وهي ــ بحق ــ اضافة قيمة في مجـال الدراسات الفولكلورية الفلسطينية ، ويمكن تلخيص اهمية أعمال **الدكتور توفيق كنعان** في انها تعتمد على خبرة حقيقية ، وعمـل ميدانـي متقن ، قام به **الدكتور كنعان** ، فضلا عن انه كـان يعيش فـوق الثرى الفلسطينـي · وستظل دراسات **الدكتور كنعان** مرجعا ذا قيمة خاصة لكل من يتصدى للموضوع بعده وينطلق **الدكتور كنعان** من الحرص على الحفاظ على الملامح البدائية لفلسطين ، التـي وتختفي بسرعة كبيرة ــ ويقول **الدكتور كنعان في مقدمة كتابه : المزارات الاسلامية في فلسطين :**

(**ولذلك فانه من واجب كل طالب ودارس فلسطيني متخصص في دراسة الفولكلور ان لا يضيع أدنى وقت ، وان ينشط لجمع العـادات والمعتقدات الشعبيـة والملامح الفولكلورية الدارجة في فلسطين**) ·

لقد كتب **توفيق كنعان** دراساته ، بصفته ابنا لهذه البلاد ، ومن هنا نحس بتعاطـف خاص في ثنايا ما يكتب ، وان كان ذلك لا يخرج عن الروح العلمية ، التي تتسم دراسات

(15) Isa Masu, *Religions judging in Bethlehem.*

(16) *Aberglaube und Volksmedizin in Palastina.*

(17) *Mohammaden Saints and Sanctuaries in Palestine.*

هذا الباحث بها ·

هناك نماذج أخرى لهذه الفئة ، مثل **عمر الصالح البرغوثي واسطفان اسطفان** · وتظل دراسات هؤلاء تتسم بالمعرفة الدقيقة للموضوع ، والتفاعل معه ، بشكل يميزهـم عن « الخواجات » الذين كتبوا عن ثقافة هم منبتون عنها ·

في ختام هذه الدراسة أود ان اسجل ، هنا ، بأنني امل في يوم من الايام ان أضـع قائمة ببليوغرافية تكمل ما فعلته في السابق ، بعد ان أكون قد أطلعت على الكثير مـن الاعمال التي لم أطلع عليها بعد ، وعلى الاخص ما كتب بلغات أجهلها · في هذه الحالة يمكن الخروج باستنتاجات افضل ، والالمام بزوايا الصورة بشكل أوسع ·وأظن ان ذلك لن يكون ممكنا الا اذا امكن اكمال المسح المكتبي في جامعات الغرب والشرق ، وهـي مهمة بحاجة الى فريق مؤهل ومتحمس · ويظل هناك دور الجهـات التي لا بـد وان تتحمس لتمويل هذا الطموح الكبير ·

ملف الشعر

تراجيديا على الكمان

د. شوقي العمري

الى ولدي مكسيم ••

كورس :

من غُصنيَ العاري

أضرمتُ أشعاري

في غابة النارِ

...

صوت مكسيم :

قُتلِتَ يا أبي

رَموكَ عارياً على الجليد

جَرّوكَ من ضفائرِ الأزهارِ في عينيكَ ،

بلبلي بكى ،

وفرَّ هارباً على المدَى

وكُنتَ غارقاً في النهرِ

يا أبي

عَيناكَ تلمعان كالمُدَى

مَددتُ قطرتينِ

دَمعتينِ

خيطاً من دمي

الى يديكَ

آهِ •• ـ

كُنتَ غارقاً

هَوَيتَ في الأعماقِ

حامَ فوق الماءِ طائرٌ بلون الدمِ

أحمرٌ ،

كخنجرٍ من قوسِ برتقالةٍ ،

من قلب نجمةٍ ،

من بحركَ البعيد

قُتلِتَ يا أبي

رَموكَ عارياً على الجليد

...   .

...   .

وأسمعُ المياهَ ،

حشرجاتِ الموتِ ، قبضةَ الأنياب

كُنتَ يا أبي ،

وليمةً من الشتاءِ والليمونِ

كرمةً من الأعنابِ

حانةً من الرخامِ والبخور

وَجاءَكَ الصيادُ ، سارق المحارِ

يشربُ النبيذ والعطور

صَرختُ يا أبي

وجَاءَت البحارُ لي

وزلزلت زلزالها الغابات

وإنشقَّ طائرُ الرعودِ عن جناحه المكسور

...   .

...   .

كورس :

وكُنتَ غارقاً

عَيناكَ تشهدانِ لا يموت

سوناتةٌ .. جنيةٌ .. أوتارُها ياقوت

عيناكَ تشهدانِ

هذا النهرُ للغيلانِ

مشنقــةٌ ،

تابوت

...   .

...   .

صوت مكسيم :

وَجئتَ لي

رأيتُ في عينيكَ بندقيةَ المحاربِ القديم

أعطيتني تفاحةً حمراءَ

قبلــةً

قرنفلــه

وهاج في خواطري

لهيب قلبكَ المغزولِ بالصخورِ والبراري

حطمّتني

أوّاهُ يا أبي !

قَتَلتني !

قَتَلتني !

قَتَلتني !

أعطيتني الكمانَ

والتيجـانَ

جئتَ للأشواكِ في دياري

رَمَيتَ عنكَ معطفَ الأحزان

وفجأةً ..

معذرة أبي ..!

حَنوْتَ كالبركان

غَطيّتَ مقلتيَّ في جفنيكَ ،

كُنتُ مثل نهرٍ من طيورِ البحرِ

في نيرانِ قلبكَ المثقوب

وغِبتُ في الطوفانِ

لم أعدْ أرى

منديل ثلجٍ في العروق

كأنني في مهرجانِ الشمسِ

عندما يجيىءُ الحزنُ

قرصُهُ بلابلُ المغيب

... ...

... ...

صوت الشاعر :

حبيبتي يا زهرةَ الفراشِ

جاءَ دوريٌّ صغير

يبكي ، مبللَ الجناحِ عشه المهجور

هَوَى ،

يُحكَى بأن السرَ كامنٌ في أرجلِ الزواحف

تأتي مع المساءِ

تقتفي خطى المرابعِ الخضراءِ ،

والعواصف

تحبلها الشواطيءُ الصخريةُ البيضاءُ ،

والبحـار

تمضي مع الشِبَاكِ

أوغَلَ الصيادُ في الأعماقِ

هاجَ حزنهُ الأخير

حبيبتي يا زهرةَ الفراشِ

جاءَ دوريٌّ صغير

يبكي ، مبللَ الجناحِ عشه المهجور

...   .

...   .

مونولوج :

يموتُ البرقُ

والميناءُ

والمطارُ في ذراعي

على سريرِ حبيَ القديمِ

تلهجُ الضلوعُ

يصطلي بريق طيفكَ الجميلِ في شراعي

في القلب خصلةٌ من جرحكَ العميقِ

يا كناريَ الصغيرَ يا مكسيم

حديقة الفولاذ أينعت

على ضفائرِ الغيوم

...   .

...   .

وذات يومٍ غائمٍ

ملبّدٍ

ومكفهر

مَرّت سحابةٌ

حَزينـةٌ

تَجرّها الطيورُ في تابوت زهر

حسبتها حبيبتي

كانت موشاةً بشالٍ أسودٍ

مطرّزٍ بالدم

نادَيتُها

لوّحتُ بالمنديلِ

خاتمُ العرسِ فوقه

عنقود قلبها

جاءَت اليَّ مثل وردةٍ عاريةٍ مبلّله

ألقَت وشاحها

ذَكرّتها بليلةِ الميلادِ

والأضواءِ

والشجرِ الملونِ

والنغمِ الحزين

نامت معي

في كأسِ ليلِ حبنا الطويل

وفي الصباحِ كان برعمُ الدماءِ

أنهراً على السهول

...   .

...   .

ومثلما جاءَت

مَضَت

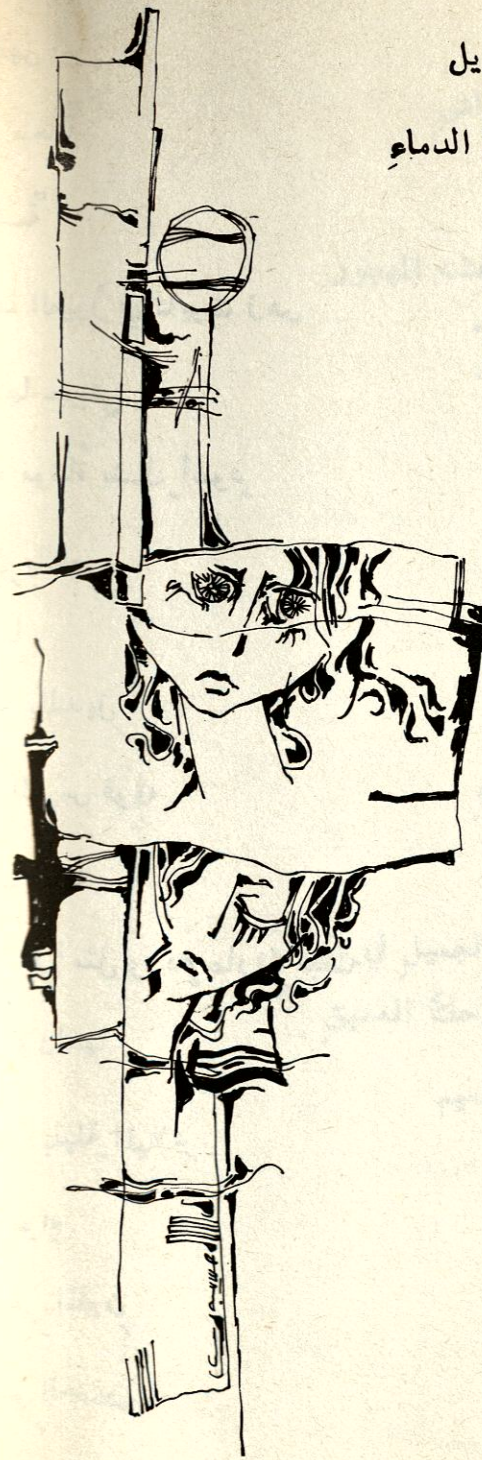
عاريةً مبلّله

حَزينـــةً

على طريقِ الجُلجُله

...   .

...   .



كورس :

من غُصنيَ العاري

أضرمتُ أشعاري

في غابةِ النارِ

...   .

...   .

نفس الكورس :

وعندما تزوجتْ خريطةُ السنونو

وكان الليلُ في قطارِ الثلجِ يمخر العباب

كشمعةِ البلورِ هاجت الشجونُ

واختنقَ الضباب

...   .

...   .

صوت الشاعر :

حبيبتي فراشةٌ ، قميصُ نومٍ أزرقٍ

حديقةُ الأعشابِ

والرمانِ

والعسلِ الشهي

أطعمتُها خميرةَ البرقوقِ

بين الصدرِ عصفورُ النَدى

وكان وجه الساحر الحاوي

في صدفةٍ من شاطئٍ بعيد

يُخبّيءُ الأشواكَ والردى

لمن حبيبتي تدقُ هذه الأجراس ؟

الحارسُ الليليّ ،

والكنائسُ التي يزورها الحُرّاس

مقاعدٌ فارغةٌ

وأوصدَ الخريفُ بابه ،

وحيدةٌ

كتابها الانجيلْ

« بـاخُ »

والشموع

وأغمضت عينين ، فوق الجرحِ فارسٌ

وفي الأهدابِ قبرّه

وَدَعتُهـا

من يومها وزهرتي

تدقُّ كل باب

يُقال أنها تموت في الليالي

عاريةً تنهشها الذئاب

... ...

... ...

قَطَفتُ يا حبيبيَ الصغيرَ زهرةَ البراري

ومن عينيَّ

من دمي

ومن إساري

حَفرتُ في الرياحِ

والأشجارِ

والفضاءْ

إسمكَ الفردوسَ ،

آلةَ الكمانِ ،

آهةَ احتضاري

وَقفتُ فوق الساحة الحمراءْ

صَرَختُ

وابتهلت

طوباكَ يا مكسيمُ يا كناري

... ...

... ...

كورس :

من غُصنيَ العاري

أضرمتُ أشعاري

في غابةِ النارِ

بوخارست ٢٣/ يناير / ١٩٧٨

ماذا تغني العاشقة؟!

احمد دحبور

من ضفائرها تُسحب العاشقه°

رحمــةً ،

رحمــةً ،

ويطوف بها الراجمونَ ،

يد الله فوق الأنام ويحتفلون بأمر من اللهِ ،

ثم يجاء لسيدنا بالغلام المخلَّدِ ،

حتى اذا ما قضى وَطَراً منهُ ــ

ألقى على رأسها حجراً ،

ومضى طاهر الثوب واليدِ ،

(حقل من النفط يمتدُّ بين عباءاته والهدى)

رحمــةً ،

رحمــةً ،

ويمرُّ وزير الهِبَاتِ ،

فيثني على بارىء الكائنات بما هو أهلٌ ،

ويلقي على رأسها حجراً ،

رحمــةً ،

رحمــةً ،

رحمــةً .. ،

ثم يندلق الموتُ ــ

يختلط النفط بالدعَواتِ ،

ولا ضوء في الداجياتِ ،

هي الحكمةُ الظلمةُ الأَمَةُ الموتُ .. ،

والعلم الأَمَريكيُّ ... ،

لم يبق الا .... ،

وتصعد من هوّة الرجم قُبّرةٌ ،

فيفيق على صوتها شاهدان ومقبرةٌ ،

وتطير فيشهدها الخلقُ :

من جرحها البرقُ ،

في صوتها الحقُّ ،

والحزن بين علاماتها الفارقهْ

انها تصدح الآنَ ،

والشجر الآن يُغرى من النسغِ ،

فلنفترضْ جَدَلاً أننا نتأثرْ !!

ولنصغِ :

ماذا تغنّي لنا العاشقهْ ؟

هناك هناكَ ـ

بين السيف والسيّافِ ،

ترقد صُرَّةُ الصرّافِ ،

أوسمةٌ وجمجمةٌ على كتب ممزقةٍ ـ

وأُخرى اغتيل كاتبها قبيل شروعهِ فيها

هناك هناكَ ـ

فاكهةٌ تعذّبُ خمسةَ الأطفالِ ،

بيت المال يرفل بالحلالِ ،

ويشعل النفط المبارك للجواري الصالحات نقود سيدنا ،

فيوقدن الشموع لليلهِ حُباً ،

ويرفع بئرهُ نخباً ،

فتسقط جمرة من عامه الهجريِّ ـ



حيث يموت أربعة من الأطفال حرقاً ،

ثم تسقط جمرةٌ فيشبُّ خامسهم ويطفيها

هناك هنا ـ

دم يغلي

وذاكرة من الفُلِّ

وأرض جَرَّبتْ نارينِ : واحدة تفحّمها ،

وواحدة ستحييها ،

ثم ماذا تغني لنا العاشقهْ

يا لساناً تنصَّلَ منه الكلامُ

هل وراء مذابحنا اللاحقهْ

حجرة أم تزيد الخيامُ ؟

انها تصدح الآن ،

والنفط بين يديْ ساحرٍ ساحرٍ ،

جاء يطلع من ثنية الكمِّ حلوى ،

ومن عروة الزرِّ ناراً ،

ومن طرف الجيب لبنان ،

سلوى يحاولها القصف داراً فداراً ،

وريش الغراب يرابط في وَسَطِ الفئّةِ العربيةِ ،

يا لعذاب الفدائية اليومَ ،

أحلامها في جفون الردى والردى لا ينامُ

هكذا يُخسَف المتنبي ،

ويُحذَف من شرعة المؤمنين الحرامُ

هكـذا ،

ركعة تجفل القدس منها ،

وينشقّ عنها كتاب الصلاةِ ،

فيختلط النفط بالدعوات ولا ضـوء في الداجيـات هي

الحكمة الظلمة الأمَةُ الموتُ والعلم الأمَريكيُّ ،

لم يبقَ الا الذبائحُ ،

أوسمة وفضائحُ ـ

هذا رصيد الحكومةِ ،

ما من جديد سوى الضجة العلنية في الليلة العربيةِ ،

ما من جديد فكل الأرومة محسومةٌ ،

منذ أن أُكل الثور حتى تآكلت الثورة الحارقهْ

ثم ماذا تغني لنا العاشقهْ ؟

لا خوف عليها

الوردة سُمْعَتُها ، والشوكةُ رهنُ يديها

لا خوف عليها في بيروتْ

لا خوف عليها من بيروتْ

ومبيدات الفرح القصوى

لا خوف على سلوى

فعلى مرمى عينيها

ما بين التابو والتابوتْ

أبواب محكمة الاغلاق ، ولكنّ المفتاح لديها

ـ من يضمن لي أنّ المفتاح لديها ؟

ان كان ٠٠ ففيم الصمت اذنْ ؟

ولماذا يندحر اللهب المتشعب في أنحاء القلبِ ،

ويُسحب آخر أرصدة الأحلامِ ،

لماذا مكْسرة الأقلامِ ؟

لماذا يُطلب من بقرات العيد الحاكم تمجيـداً لمآثر لحّام

الحيِّ العربيِّ ؟

فان كان التمجيد يناغم لحّامَ الحيِّ العربيِّ فماذا عن بقرات

العيدِ ؟

لماذا أصلاً تنقلب الأحلام الى بقراتٍ ؟

ثم لماذا لا نتجول في الممنوعِ ،

فنسأل عن أسماء النفط وختمْ الجوعِ ،

وندخل كل القاعات المضروبة بالشمع الرسميِّ الأحمرْ ؟

أو نشعل بئراً واحدة بشرارة موت واحدة فائضة عن

حاجة تل الزعترْ

ولماذا نبتعدُ ؟

الحزن جماعتُنا ،

والعشب مساحتُنا ،

هل الا الحزب ليكتمل العددُ ؟

الأرض بساط اللهِ ،

بساط الله الآن يحاط بجيش الله الأمريكيِّ :

فمن جهةٍ بالنارِ ،

ومن جهة بصلاة العارِ ،

وخلفهما حَكَمٌ عدلٌ

يتساقطُ

عدلاً :

فاستغفرْ

واخترْ أحد الموتينِ ـ

أو ارحلْ

دون وطنْ

ما الفرق اذنْ ؟

ما الفرق اذنْ ؟

ولماذا نبتعدُ ؟

يا أعداء العلم الأمريكيِّ اتحدوا

ثم ماذا تغني لنا العاشقهْ ؟

كل أرض زعافٌ ،

وسلوى تحاولُ ،

يولد مهر فينمو لجامٌ ،

سرير من النفط في غرفة العمليّاتِ ،

سلوى تحاولُ ،

يتسع الجرح في القلب حتى تمرّ الولائمُ ،

قصفٌ ـ

وتسقط منه اللوائح والغشُّ ،

نَزْفٌ ـ

وتسقط منه المدائح والقشُّ ،

حتْفٌ ـ

وتسقط منه العواصم الا الأميرةَ ،

(لا تسقط القدس من قلب حيٍّ فكيف الفدائيُّ ؟)

سلوى تحاولُ ،

والبحر أيضاً زعافٌ

وحدها

تصرخ

الآنَ :

ما حكمة الصمت يا سيدي ؟

كلهم يثقبون المراكب يا سيدي !

والتوازن يختلُّ يا سيدي !!

ها هو القرش ،

وَعْدُ المراكب بالموتِ ،

ما حكمة الصمتِ ؟

هل ضالع أم تخافُ ؟

كلهم يثقبون المراكبَ ،

ها هم : من التلِّ حتى الصلاةِ ،

يمرُّ عليهم وزير الهباتِ فيثني على بارىء الكائنات بما هو أهل ويلقي على رأسها حجراً ثم يذبح من أهلنا نَفَراً .. ،

رحمةً ،

لعنةً ،

لعنةً ،

رحمةً ،

أسأل الله ألاّ يسمَّمَ بالعفو حزني

انه لحمنا ،

وزعونا على وجبتين فما وسعتْنا الصِّحافُ ؟

فلماذا تخافُ

ثم ماذا تغني لنا العاشقهْ ؟

ثم ماذا نغنّي ..

دمشق ١٩٧٨/١/٥

رياح فلسطينية

نبيل ياسين

ومفكراً ، أمضي على خيطٍ من المطرِ الخفيفِ

أمضـي

وآلافَ الشوارع كنت أبصرها ،

تضيقُ وتختفي تحت الرصيفِ .

مـا هـذه ؟

هذي المدينةُ ميْتةٌ ، محروقةٌ ، ملفوفة برمادها

الوردي ، بالصفصافِ ، بالنخل المغبّر ، بالرياحِ

الصفرِ ، بالقطران ، بالجوع المخيفِ .

من هذه ؟

هذه المدينةُ ترتمي في الليل شاردةً ، من الندمان

والفقراء ، شاردةً من المنفىٰ ، الى المنفىٰ ، تعبىء

دمعها ودماءَها في جردلٍ ، وتحتّ خطوتها الى

شفقٍ ، يخشخشُ تحت أرجلها الرماد ، وترتدي

في الفجر أوراق الخريفِ .

ومفكراً أمضي ، فيرتج البكاء ، برأسي الداوي

وأمضي طائشاً في الريح ، أجار بالقصائدَ والشكاوىٰ

أمضي ، كأن شهابَ أيامي تهاوىٰ

أمضي ، وتمضي تحت أرجلي الشوارعُ ،

والبيوتُ مقابرٌ تأوي اليها الناس من كمدٍ

صحراءُ تمسك كفّ صحراءٍ ، وتلتفّان كالماضي

على جسدي

ما لي أرى الشهداء يصطفون للاعدام ثانيةً ،

ولا ينسون أن يستبسلوا ،

أو يهتفوا بحياتنا

اني أرى ليلاً ، كأن نجومه سربٌ من الطلقات

تـدوي ،

وتخرق صمت حقلٍ أخضرٍ ،

فكأن « غزة » مَيْتة" فيه ِ

ماذا سنفعلُ :

هل تؤدي هذه الأيامُ للمنفى ، أم التيه

ماذا سنفعلُ :

والمدينةُ ميْتةٌ لا شيء غير مقابر الشهداء والثكنات

ماذا سنفعلُ :

ليس نملك غير بيتٍ واحدٍ

يتكدس الجرحى على أبوابه •

ومفكراً أمضي وماذا يأمل المطعون من شكواه

ماذا يفعل الشعراء بين حرائقٍ تدوي ،

وماذا يأمل الفقراء حين يطالبون الله •

تشرين الثاني / بغداد

ليلة الماضي

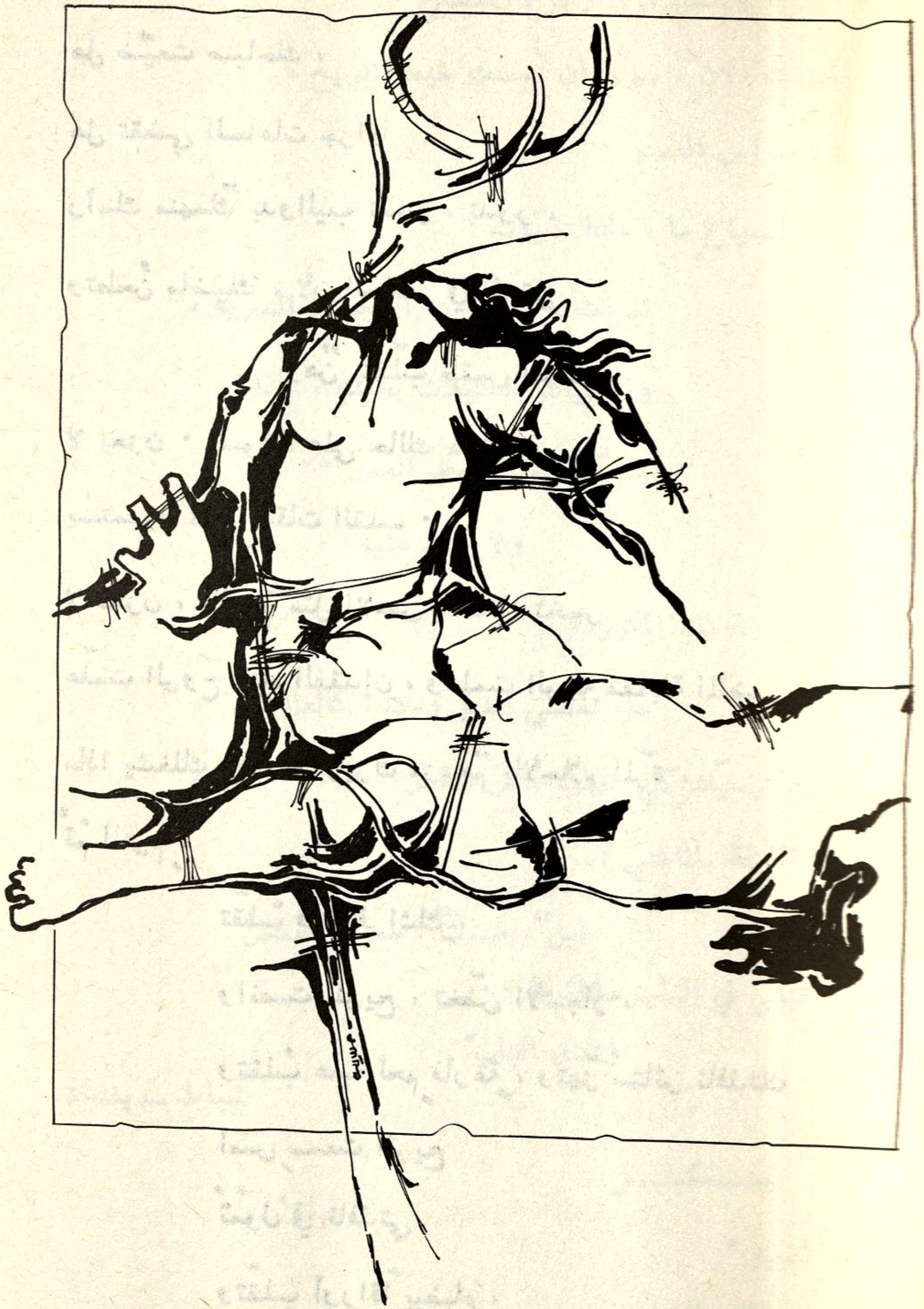
ليلٌ ، صمتٌ ، صوتُ مغنّيةٍ صاخبةٍ في الشاشه

بماذا فكرّتَ ، على ماذا عوّلت ،

الليلة تشبه أمسٍ ، غداً سيكون بهياً في الذكرى •

لن تترك هذا المقعد الأمين تريد كتاباً آخر •

لا تحزن •



سوف يمرّ الليل طويلاً ، وتنامُ لكابوس آخر ،

هل ضيّعت صباحك ،

هل تقضي الساعات جزافا

رأسك منهمكٌ بدواليب تدور ، تدور ،

وتطحنُ ماضيك ، لأن الحاضرَ في الحقلِ

رهنٌ بتقلّب طقس الموسم

لا تحزن . فسواك على حالك هذا .

يستمعون الآن لدقات القلب .

لا تحزن ، فالليلة مثل الأمس ، فماذا تخسر

علّمت الروحَ غناءَ الفقدانِ ، وعلمت الوجه مقابلة الماضي

ماذا يشغلك الآن : سريرك مزدحمٌ بالأحلام المرّةِ ،

قُمْ للنومِ ،

تقلّبْ فوق فراشكِ ،

وانصت للريح ، تخضّ الأشجار ،

وتقلبُ علبة لحمٍ فارغةٍ ، وتهزّ ستائر نافذتك

أمسِ سمعت الريح

تُعْوِلُ في نافذتي

وتقلّب أوراقاً بيضاءَ ،

وتنقرُ فوق زجاج المصباح

ماذا يشغلك الآنَ ، سوى أن تُمسكَ خيط الريحِ ،

وتطردَ وسواس الشعر .

هل تأسى لضياعٍ ما ، ماذا ضيّعت :

الوقتَ ، البهجةَ ، والحجرات السرّيةَ ،

والفتيات المختبلات بحبكِ ، ماذا

ضيّعت سوى خيط العمر ..

ولا بأس عليه .

هل تنأى بمخاوفكِ المكبوتةِ ،

هل تقضي الليل وحيدا كالعادةِ

هل تتركَ كرسيّك كي تجلب كأسَ الخمرْ

ستحتفل الليلة بالماضي :

ليلٌ ، صمتٌ ، صوتُ مصائرَ

تدنو ، تلقي في الباب حقائبها ..

وتدق البابْ

شباط ـ بغداد

تشكيل

ضفافٌ تضيقُ

يدا رجلٍ عالقٍ بالمساء

مخافة ليل طويل

وآدمُ يدفعُ مركبة الأزمنة

لحافّة وادٍ عميق ْ

نَدى شجرٍ يكتم الأغنيات

بريق تلألأ فوق فنار بعيد

يضيّع بين الضباب

مراكبَ جانحةً في الطريق ْ .

أيـــام

يمحو أياماً ، ويؤلف أياماً أخرى

يمحو أغنيةً ، ومرافيء نائيةً ،

ويؤلف أغنيةً ضيقة ، ومرافيء نائيةً أيضاً

ويؤلف ذكرى .

★ ★

سأعطيك الأيام ، لأنظرَ ماذا تفعل

وستعرف أن الأيام

لا تكفي لتذكرّ ماضيك

غزلان الصحراء

علي فوده

« الى رشاد ابو شاور »

ـ ١ ـ

كنتُ أظن بأن النار الأولى قد خمدتْ بين العشب الاخضر والأمطار

كنت أظن بأن لقلبي النائم في صدري

أوقاتاً يفشي فيها الأسرار

كنت أظن بأن العالم قد أصبح قمحاً أو ورداً

كنت أظن وكنتُ ،

ولكنْ عبثاً .. فالنار هي النار

اعصـارٌ يقذفني

يتلقفّني اعصار

مخافة ليل طويل

وآدمُ يدفعُ مركبة الأزمنة

لحافّة وادٍ عميقْ

نَدى شجرٍ يكتم الأغنيات

بريق تلألأ فوق فنار بعيد

يضيّع بين الضباب

مراكبَ جانحةً في الطريقْ .

أيـــام

يمحو أياماً ، ويؤلف أياماً أخرى

يمحو أغنيةً ، ومرافيء نائيةً ،

ويؤلف أغنيةً ضيقةً ، ومرافيء نائيةً أيضاً

ويؤلف ذكرى .

★ ★

سأعطيك الأيام ، لأنظرَ ماذا تفعل

وستعرف أن الأيام

لا تكفي لتذكرّ ماضيك

غزلان الصحراء

علي فوده

« الى رشاد ابو شاور »

— ١ —

كنتُ أظن بأن النار الأولى قد خمدتْ بين العشب الاخضر والأمطار

كنت أظن بأن لقلبي النائم في صدري

أوقاتاً يفشي فيها الأسرار

كنت أظن بأن العالم قد أصبح قمحاً أو ورداً

كنت أظن وكنتُ ،

ولكنْ عبثاً .. فالنار هي النار

اعصارٌ يقذفني

يتلقّفني اعصار

عبثاً ٠٠ ها هو رأسي يتدحرج في هذا الشارع كالأبريق ٠

ها هي تتقاذفه الأرجل في كل طريق

هأنذا كالأرنبة المذعورة ٠٠ عين الصياد تراقبني

(أهربُ ؟ لا أهرب ٠٠

أهرب ؟ لا ٠٠)

آهٍ كم أخشى أن تذبحني سكينٌ صديق

آهٍ لو تدري الأرض الحالمة بأمواج البحر

بأن طعام البحر غريقٌ تلو غريق تلو غريق

آهٍ يا أمي الريفية ٠٠ وحدكِ حين يضيق العالم

وحدكِ أنتِ تلمّين الضيق

وحدك تدرين بأني كل مساء

أُخرج قلبي من بين ضلوعي ، ثم أدرّبه كيف يشنّ الغارات

معذرةً أيتها الوردة ٠٠ اني لا أكره أحداً

لكنْ ماذا أفعل والعسس يجوبون الطرقات ؟!

ماذا أفعل وكلاب الصيد تحوّم حول الدار ؟!

أبواب العالم ليست موصدةً

لكنّ نوافذه تعمرها الأسرار

آه يا قلق الوردة ٠٠ كنت أظن بأن النار الأولى قد خمَدتْ ـ

ما بين العشب الأخضر والأمطار

لكنْ عبثاً ٠٠ فالنار هي النار !

ـ ٢ ـ

العشب في المساء

يدور في الأحياء

يحمل منشوراً وينتشر

والعشب ليس ابريقاً من الفخار حتى ينكسر

وليس رايةً للزيف والنفاق

العشب في المساء

لا يعرفه الا الرفاق

والأصدقاء !

ـ ٣ ـ

هذا العالم مأوى السنبلة الذهبية ـ أعلم هذا

لكني كل مساء

أتساءل : ما معنى أن نبقى فقراء

ما دام المطر الأخضر يهطل في كل بقاع العالم ـ

والعالم مأوايَ ومأوى « سنيوريتا » الغائبة ـ الحاضرة ـ الـ ٠٠

سنيوريتا ؟

سنيوريتا .. يا من كنتِ ببالي كل شهور الصيف الماضي ،

ثم أدرت ليَ الظهر

سنيوريتا ..

في البرد وفي الحر

كنتُ أناديكِ : سنيوريتا .. سنيوريتا .. سنيوريتا

لكنْ عبثاً ..

من يسمع صوت الفقر ؟

من يسمع صوت أبي ذر

غير المحزونين الفقراء

مَنْ .. من يا سنيوريتا الحسناء ؟!

ـ ٤ ـ

تسمعني ريح الشمال

يسمعني النورس والبحر

وغصن البرتقال

تسمعني الصخرة والوردة والينبوع والشلّال

تسمعني النجوم والغيوم في السماء

والطيبّون الودعاء

فكيف لا تسمعني أميرة النساء ؟!

ـ ٥ ـ

هذي الليلة ليست للرقص فقد تعب العصفور الأزرق ـ

قبل سويعات نقَّر أبواب الصحب فما فتحوا ،

فارتدَّ الى العشِّ ..

ولكنْ أين العش ؟ بعيداً كان العشّ

بعيداً كانْ

فانهمري أيتها الأحزان

انهمري .. هأنذا أتوسّد جرحي

ألتفّ بذكرى أمي ،

أبعد عني شبح الأعياء ،

أفتش عن فرس الغرباء

هأنذا أتسكع وحدي وأنادي :

يا طين بلادي

يا برقوق بلادي

يا فرسان بلادي : أفلا تأتون على ظهر الخيل ؟

أفلا تأتون ..

ليسكت هذا الصوت النائح في الليل ؟ ألا تأتون ؟

هذي الليلة ليست للرقص !

ـ ٦ ـ

سئمتُ يا صحاب

سئمت هذه المدينة ـ السراب

سئمت يا صحاب وجهها

سئمت لغوها

ولهوها

وشمسها

وظلّها

هأنذا منزعة كأسي بألوان العذاب

هأنذا موصدة أبوابي

وليس خلفها سوى البومة والغراب

فلتفتحوا الأبواب يا صحاب

فلتفتحوا الأبواب ان ما جئتكم ذات مساء

ومن دمي تنزف أنهار الدماء !

ـ ٧ ـ

أعرفها ..

من كل دروب العتمة كانت تأتيني

سئمتها .. سئمتها ..

أهرب منها فتحاصرني

تهرب مني فأحاصرها

أعرفها ..

كنتُ اذا ما اصطدمَتْ عينانا تبتسمُ

فأبتسم لها

أعرفها ..

كنتُ اذا ما انهمر الليل ، وهلّتْ أحلام اليقظة ـ

أفتح نافذتي ، وأمدّ يدي فأصافحها

ثم أحاور شفتيها ، أفترش ورود الزندين ،

أجوس الأدغال الملتفّة ، أتمدّد فوق الأعشاب بأرض حديقتها

أعرفها ..

أعرف رقم الهاتف ، لون الجدران بغرف النوم ،

وأسماء الخدَم بمنزلها

أعرفها .. تعرفني

فهي تراني .. تعرف أني أتسكع عبر شوارعها

كي أذهلها أو تذهلني

أعرفها ٠٠ تعرفني

ما يشغلها في العتمة يشغلني

لكنا حين يداهمنا النور وتنهمر الأضواء

نصبح أعداء

نتثاءب كسلاً ٠٠ تخلع خاتم خطبتنا السرّية من اصبعها

تقذفه في وجهي ٠٠ تخسرني ، أخسرها

تتذكر ما يقلقها

أتذكر ما يقلقني

أعرف أن لها عالمها

وأنا لي وطني !

ـ ٨ ـ

تعلم أنني ٠٠

ورثتُ منكَ طبع النار

تعلم أنني ٠٠

قرأتُ سورة الثورة للبحار

لكنني الآن محاصرٌ

محاصرٌ يا وطني ، محاصرٌ ٠٠ فمن يفكّ لعنة الحصار ؟

ومن يصدّ هجمة التتّار ؟

يا وطني ٠٠ هأنذا بين يديك

أبكي شحوب ساعديك

أقول : لا عليك

بعد أن رأيتَ في الليل نجوم الظهر

يا وطني المقهور كر

« كرّ وأنت حر » !

ـ ٩ ـ

في المقهى

يختلط الحابل بالنابل ٠٠ تختلط الأصوات

يختلط الأحياء مع الأموات

ها هم صحبي في المقهى

ها هم يلتفّون على طاولة الزهر

وفي خاطرهم بعض الحسناوات

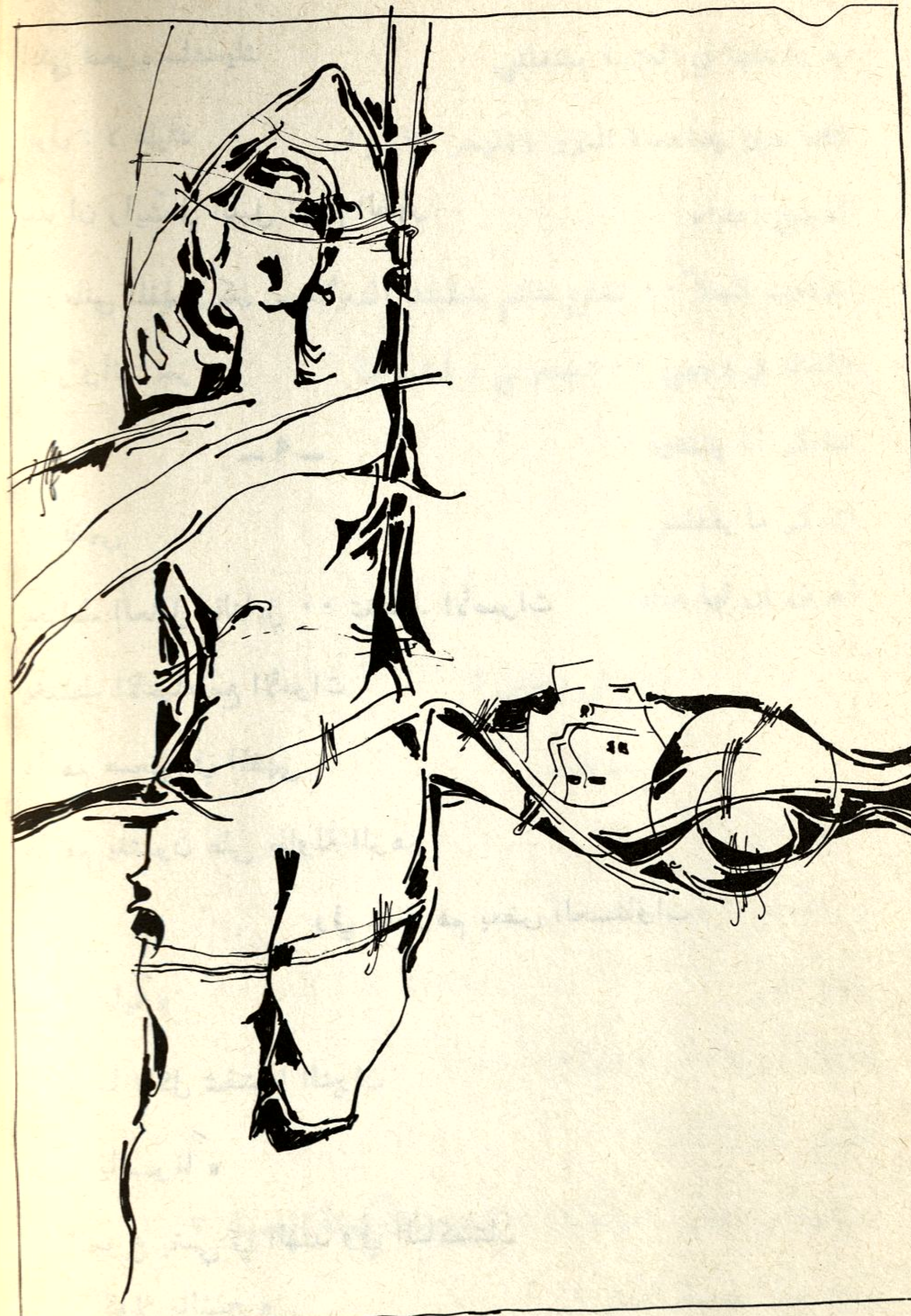
ـ « شاياً »

حيناً تأكل شفتيها النيران

ـ « يانسوناً »

ألجوع يغني في الهند وفي الباكستان

ـ « كولا بالثلج »



أنغولا دمٌ يطلب ثأراً من جند الأمريكان

شاياً .. يانسوناً .. كولا بالثلج

وأنتْ ؟

- أنا ؟ هات النار مع الصودا هاتْ

يشتعل العالم من حول الصحب

وهم يلهون .. يلوكون القاتْ

كوخي هذا العالم ..

بيدي شيدَّتُ الجدران وزيّنتُ العتبَات .

كوخي هذا العالم .. أمي في هانوي ،

دمي في غزة ،

قلبي في بغداد .. فمن سيلمّ شتاتي ؟

من يأتيني الآن بزنبقة الحرية ؟

من غيركمو يا صحبي المنتشرين

في الكرة الأرضية ؟!

- ١٠ -

فنجانٌ قهوةٍ أنا

يشربني الصحاب

وكل من يشرب أو يحلم بالشراب

لكنني في لحظة أصير خنجراً

حين يفضّ العابثون بالوطن

بكارة التراب !

– ١١ –

قطعان الماعز ترتاع من البرّية ـ وأنا أرتاع

مقفرةٌ هذي البرّية منذ بكى الموسم بين يديها في العام الماضي

ثم أرتحل بدون وداع

وَيْ .. قطعان الماعز يا موسمنا

تنتحب على البرسيم الأخضر في سنوات الفرح الأخضر

وَيْ .. قطعان الماعز تندب في « وادي التفاح » (١)

وتشتاق الى أيام الخصْبْ

وَيْ .. كيف نسوق القطعان الى البرّيَّة في هذا الجدب ؟!

أمي يا أمي .. أين حليبكِ ؟ أين خوابيكِ ؟ دواليكِ ؟

اقتربي يا أمي

ابتسمي ، سيري بين المحرومين

قحطٌ هذا العام ، فما حبلَتْ بعد ولا ولدَتْ

أرض الفلاحين

ما أبرقَتْ السنبلة لهذا العام ولا أرعدت الأشجار

فاقتربي ، ابتسمي ، اقتربي ..

قد يسمع شبح الجوع

صوت خطاكِ المبلولة بندى الحزن فينسلّ من البرّية

قد ترعب هذا الخنزير الأسود

بسمتك الوردية

فاقتربي أكثر ، أكثر ..

هاتي صدركِ كي نرتاح قليلاً

انا في هذا الموسم لم نعرف طعم الراحه

أمي يا أمي ..

أمي أيتها الفلاّحه

هل تشرق شمس الفلاحين ؟!

– ١٢ –

شجيرةً .. شجيرةً .. قلّمتُ هذه الأشجار

وريقةً .. وريقةً عاشرتها

من عرَقي معاصر الزيتون في « عكا » ومن دمي « وادي الصّرار » (٢)

أيتها الأنهار

لستُ أميراً زائفاً

ولستُ سيّداً محنّطاً

فلاحةٌ أمي

وفلاحٌ أبي

ومن شراييني الثمار

هذي يدي أرفعها ، أصافح الجبال

عليكما السلام يا « جرزيم »

يا « عيبال » (٣)

ـ ١٣ ـ

أليوم وأمس ٠٠

كان الزاد هو الشعر

وغداً ٠٠ من يدري

قد يصبح نفس الزاد هو الزاد

أمس أتاني الريح بلا ميعاد

حدَّثني عن وطن لم يسمع بعد بأحزان الغابات

حدثني عن بعض الشقراوات

وعن نزوات

لا يعترف بها أي رقيب في بلد « الممنوع »

حدَّثني عن وطن لا يفهم لغة الجوع

وعن أعراس نبتت في قلب الصخر

حدَّثني ٠٠ قال : ارحل

أنج بجلدكَ ، دعكَ من الشعر

شاورتُ الشعر حبيبي

شاورت الشعر ، بكى حتى احمرَّت عيناه

آه ٠٠

أيظل نصيبي الشعر ، الفقر ، القهر ؟

أيظل نصيبي من صحبي الغدر ؟

أأظل هنا أتسكع من هذا القبر الى ذاك القبر ؟

أأظل أنا والشعر وحيدين هنا في هذا البيتْ ؟

ثم بكَيت

بكيت بكيتْ

معذرة يا شعر

معذرة يا كل قصيدة حب قيلت في زمني

معذرة يا كل قصيدة جوع أكتبها صبحاً

ومساءً تلعنني

معذرة ٠٠ أنتِ تعيشين مع الدمّ هنا ٠٠ في بدَني

معذرة ٠٠

ولنشرب نخب الشعر الأخضر يا وطني

ـ ١٤ ـ

تكذب لو غنيّتَ تلك الوردة المسالمه

تكذب لو غنيت للجياع والأغراب

ألف ملحمه

تكذب يا مسيلمه

فالشعراء ـ الشعراء

تبتهج الوردة ان حكوا

وينتشي المساء

والشعراء ـ الشعراء

زنبقة الأرض وصوت الفقراء

وأنت يا مسيلمة ؟!

ـ ١٥ ـ

قبل أسابيع

صادفني ٠٠ رفع القبّعة البالية الزرقاء

كان العشب اليابس في شفتيه ٠ وقفنا

مدّ يداً ومددتُ يداً ، ثم تصافحنا

مرتبطا كان ، وفي عينيه غيوم وشتاء

قلت له : ما آخر أنباء الشرق الأوسط

قال : اسأل سوء التغذية عن الأنباء

اسأل هذا السلّ النائم في بدني

أشعلني ٠٠

في لحظات أشعلني يا وطني

مكدوداً كان العامل يا عيني ٠٠ مقهوراً كانْ

يا عيني ٠٠ الغدر هو المسؤول عن التعب الموروث ـ

أم البئر الأولى من نفط الأحزان ؟!

غرفته كانت يا وطني

ضيقة الأركان

لكنْ مشرعةً ٠٠ يعرفها الصحب ، الريح ، التبغ ، الشاي الأسود ،

والعمال المكدودون

غرفته كانت ملجأ حبٍ

يعرفها العشاق الصوفيون

والغرباء ، السجناء ، المضطهدون

كان أميراً للبؤس ، ولكنّ السلّ المنحدر من الزنزانة ـ

لم يمهله طويلاً ٠٠ فاجأه ذات مساء

فبكى البؤساء

يا عيني ٠٠

حين مضى ، ما شيّعه الا العمال الفقراء

والرمل وأكياس الاسمنت وينبوع الماء !

ـ ١٦ ـ

أواه يا رفيق !

ـ ١٧ ـ

منذ الأمس ٠٠

الثلج صديقي غاب ٠٠ اغتالته الشمس

ما ودّعني حين مضى

ما ودّعني ٠٠ يا وحشة أيامي القادمة ـ صديقي غاب

غاب وخلاّني وحدي أتسكع مع قمر الأغراب

لستُ حزيناً ٠٠

لكنك يا ثلج نديمي كنتَ ٠٠ أبي كنت وأمي

فلمن بعدك أشكو هميّ ؟

قافلة الغرباء ارتحلت ، والشجر العاري لا يعرف ـ

كيف يجفف دمع الغرباء

يا ثلجي الغائب ٠٠ من يصنع لي صحن حساء ؟

من بعدكَ يعطي اللون الأبيض للفقراء ؟

أذكر ذات مساء

أذكر يا ثلج بأنا كنا نتجاذب أطراف حديثٍ ـ

عن سيدة تدعى « عمّان »

قلتَ : بأن جمال السيدة غريب"

قلتُ : ونحن غريبان

قلتَ : الفرو على كتفيها يغري

قلتُ : ولكني عريان

قلتَ : القهوة تقطر من شفتيها

قلتُ : ومن شفتينا الأحزان

وشهقنا ألماً ٠٠ فرحاً ٠٠ ثم مضينا

نشرب كأساً ٠ لا أذكر تلك الليلة هل كان العالم معنا

أم كان علينا

ما أذكره الآن أيا ثلجي الغائب أنّا

بعد دقائق خدّي نام على خدّك ثم بكينا

وبكينا

وبكينا

ـ ١٨ ـ

« عمّان يا عمان يا عمان »

وانتحرتْ من البكاء مقلتان !

ـ ١٩ ـ

طال غيابي وحنيني
يوماً ما ٠٠

حين أمدّ يدي لـ « الزوّمر (٤) » ليصافحني

قد لا يعرفني

قد يتساءل عن اسمي

عن وطني الأول ، أحزاني الأولى

قد يتساءل عن أمي ، عن ثدي أرضعني

قد أهتف يوماً : زومر يا زومر ٠٠ أولا تذكرني ؟

أوينسى هذا الماء الرقراق ،

وهذا العشب الأخضر من حولك ـ وجهي الطيني

زومر يا زومر طال غيابي وحنيني

لكنّ حصاكَ الأشقر يعلم أني كنتُ ولا زلتُ

فلسطيني

ـ ٢٠ ـ

مشرداً ٠٠ مشرداً ٠٠ مشرداً

أسير عبر الطرقات

أنهبها

ألعنها :

أكنتَ عبداً يا أبي أم سيّدا ؟

مشرداً ٠٠ مشرداً

لكنني لستُ محايدا

هأنذا أحلم بالوردة والرغيف والمدى

والوطن الضائع والتراب

أحلم بالوديان والهضاب

هأنذا أحلمُ ٠٠ « فليستقظ الحطّاب »

« فليستيقظ الحطاب » (٥)

ـ ٢١ ـ

معـذرة ٠٠

لولاكم ما كنت لأنبش هذا الجرح

فأنا لستُ هنا كي أندب نفسي

لكني باسم الحب اليابس في أعينكم

باسم الأطفال الغرباء ، الفقراء ، السجناء

باسم الشعراء

باسم الجرح الأخضر في هذا العالم

جئتُ لأنثر أحزان الغزلان هنا ·· بين يديكم

باسمكمو ·· أفتح هذي النار عليكم

مندوباً عنكم جئت لأنبش كل ملفات القهر

جئتُ أمدّ يدي ، أتطاول ··

أتطاول كي أرضعكم ثدي الحرية

منذ سنين ··

أوراقي كانت مطويّة

لكن مناشير العشب السريّة

أخذت تنتشر هنا وهناك

على الأرض العربية

الريح الشرقية ··

الريح هي البادئة بتنفيذ العملية

الريح هي الحاملة لحزن الغابات

انتشري ·· انتشري في كل الطرقات

انتشري ·· حتى يورق هذا الجرح —

فتكبر في صدري الأحزان

وتشب النار ، فأهتف باسم المقهورين

بكل الأوطان

باسم الانسان — الانسان

المجد لنا نحن المقهورين

المجد لنا في كل زمان ومكان !

عمان ١٩٧٥

الحواشي

(١) (٢) (٣) : مناطق في فلسطين المحتلة

(٤) : واد صغير في فلسطين

(٥) : اشارة الى قصيدة بابلوينرودا عن ابراهام لنكولن .

الذي لاينتهي

حافظ عليان

الى الشهيد الفلسطيني محمود صالح الذي اغتيل في باريس ...

وكان البنفسج لا ينتهي

وأغانيه لا تنتهي

والعصافير لا تنتهي

والعرى الأمميه

ومحمود يا كل طفل سيولد ...

محمود يا كل حقل سيزهر ...

محمود يا كل قتل سيقتل ...

محمود يا كل باريس مات ،

فذاكرة الموت كانت قويه

ومحمود قال لنا كل شيء ،

وما قال شيئاً عن الموت ،

بين القواعد واللجنة المركزيه ،

بلاغان للقادمين من الزمن المستحيل ...

الى زمن كامن في شظيه

فللموت حق علينا ،

فقد ظل صاحبنا في المطارات ...

صاحبنا في المحطات ...

صاحبنا في الرحيل ...

وصاحبنا في الدخول ...

وفي كل زنزانة عربيه

وفي كل زنزانة يسأل الموت عنا

الى أين باريس تأخذ محمود منا ؟

وقد كان ملء القصائد ،

ملء المهمات ،

ملء الندى والرعود

ومحمود كان ...

سفير العصير الذي ينزف الآنَ ...

من برتقالات يافا

وباريس تشرب نخب الشهيدْ

ومحمود كان ...

رسول الحقول التي ترحل الآنَ ...

عن برتقالات يافا .

وباريس تأخذ جلد الشهيدْ

لتكتب ملصقها الاحتجاجي وتمضي

الى حفلة السنة المقبلهْ

الصقر لا يقبل التعزية

I

أنا الصقر ألعنْ كل الذين يقولونَ :

ان الهزيمه رغوهْ

وألعنُ كل الذين يقولونَ :

للخيل كبوه

وألعنُ كل الذين يحبون أن تستريحي

وأن تأخذ البندقيه غفوهْ

أنا الصقرُ ألعن كل الذين يقولونَ :

لا بد أن أتقن اللغة الأجنبيهْ

لكي أفهم الآن سر التحوّل في الأغنياتِ

وسر التحركِ في الساحة العربيهْ

II

أنا الصقر ما زال في يدي الآنَ ...

ما زال في دمي الآنَ ...

نار جراحي

أقول لكل الجهاتِ ، بكل اللغاتْ

أعيد الى الله جنتهُ ...

كي يموّلني بالسلاحِ ...

أنا الصقر لا أقبل التعزياتْ

III

أنا الصقر أشهد أن البلاد التي لم أجدها

ستأتي ولا ريب فيها

وأعشقها كالثمالهْ

أنا الصقر أشهد أن الحروب التي لم أخضها

ستأتي ولا ريب فيها

وأربحها لا محالهْ

العبور

عمر رشراش

يعبر الشـارع

في صوتك

والأزهار تسجدْ

لنبيٍّ هاربٍ

في الصحو

من كلِّ العيونِ السودِ

والحزنِ المؤبّدْ

لمـاذا

تعجز الأزهارُ

عن ذبحي ٠٠٠؟

لمـاذا

تعجز الصحراءُ

عن قتلي ٠٠٠؟

لمـاذا

تسقط الأمطارُ

من صوتي ٠٠٠؟

لمـاذا

تنبع الأشجارُ

من صمتي ٠٠٠؟

وأنت حمامتي البيضاء

كيف قتلتِ

وراء نافذتي ٠٠٠؟

وأنــت

شراعيَ المرفوع

بين الله والموتِ

لمـاذا

يسرق التفاح

رائحتي

من البيتِ ٠٠٠؟

كنت لا أرتشف النورَ

مع القهوةِ

كيلا يتمردْ

ساعد المنجـل

يـا أمي

وأُبعدْ ٠٠٠ عن خيام الشامِ ٠٠

والسيفِ الفدائيِّ ،

المجـردْ

٠٠٠٠٠٠٠٠٠

سيفـي

على شفتـيَّ

يـا وطنـي

اذا ما اغتالني

صوتـي

سيفـي

رهين يديَّ



يـا وطنـي

اذا ما خانني

بيتـي

٠٠٠٠٠٠٠٠٠

لم تنم عيناي

يـا حيف

ولـم أبـكِ

لماذا جئتني الآن

من الحلمِ ٠٠٠؟

تعـالي

نشرب القهوة والنورَ

مـع البحـر

الذي يمتـد

من حزني

الى الشرق

لألياف الشجر

وعلى ذاكرة الساعة

يأتيك قمـر

زارعـا

ميلادك الشرقي

في جنسية الأرض

وفي رحم البنادق

والشجـر

....

وعلى ذاكرة الوردِ

نجوم تنفجـرْ

ويدي تجتـاحُ

أنصابَ الأساطيرِ

يدي تجتـاحُ

أسوارَ بلادِ الشامِ

والمنفـىٰ

أنـا

أحييتُ موتاكمْ

فلن يخرجَ ربٌّ

من حجر

وعلى ذاكرة الزيتون

تاريخ الرعود

ولماذا ـ بالدم المحروقِ ـ

زوّرتم

ولادات الجنودْ

(وعصا موسى)

لماذا أصبحتْ

صنارةً للصيدِ ..؟

ما بين الحدودْ ..؟

ولماذا تشرقُ الشمسُ ..؟

على بيضِ الأفاعي والورودْ

وعلى ذاكرة النهرِ

(بساطيرُ السلاطين)

(وآثـار الهنودْ)

....

وحـدوا النـورَ

مـع النـارِ

مـع المـاءِ

لكي أخرجَ

من هذا الغبارْ

نجمـةً

تلمع في الشرقِ

وأجتاح النهـارْ

وحـدوا

هجرة تاريخي

من الأرضِ

الى البرقِ

لأبواب الفنادقْ

وحدوني

بالدّمِ المحروقِ

والحلمِ الذي

يصبحُ في الأرضِ

خنـادقْ

وأنـا هاجرتُ

من ميلادكِ الشرقيّ

للنارِ التي تزهرُ

في جنسيةِ الصخرِ

فلسطيناً وأطفالاً **أبابيلَ**

وطلقاتٌ زنابقْ

وحـدوا

أشلاءَ قتلانـا

بأيام السنـهْ

وحـدوا

أشلاء قتلانـا

بألقابِ الشهورْ

انني استبدلتُ

تاريخَ النبوآتِ

بتاريـخ العبـورْ

الجزائر : الصحراء : ١٩٧٣

أبحث فيك عن المواسم

ليلى السايح

كم هي محتملة وبعيدة

هذي الفاكهة الشمسية

هذا الواقف بين الريح والصدى

هذا الذاهب في الريح والصدى

يتابعنا التوهج ..

قاسية هذي البساتين البحرية

والطرق الساحلية

وغابات الدمع المنسية

★ ★

هذا الراحل يعشق أن يمهّد فينا أسفاره

يتوحد في النسيان ولا يعود

هذا الراحل يتألق في مملكة منسية .

في الألف الرابع قبل الميلاد

يعود مع الأمطار ولا أراه

يعود مع الأعشاب ولا أراه

★ ★

يتابعنا الوهج المتموج ..

كالماء يداخلنا ..

من أين دخلت الى قلبي أيها المتـوج

بالليالي الثقيلة .

من أغراك بهذا الصمت وأغراني بالبوح

وفتت أيامي في الطرق المسلوبة ؟

أغراني بالوقت الذاهب

والوقت الآتي ،

والوقت الواقف بين الريح والصدى ؟

★ ★

هذا الراحل في غابات السحر

يطوقنا بالحب ..

ويرحل عنا ··
يتركنا في مملكة نجهلها
طفلين يتابعنا الوهج المتموج ·
من أغراك بهذا الصمت ··
وأدخل أيامك في قلبي ؟

★ ★

لهذا الذاهب في عرس الأيام
لهذا المتوحد في طرقات النفي
لهذا الوثني المغمور بضوء الشمس الخضراء
أقــول :
لتأخذني أعيادك طفلة
تتألق بين الساحل والبحر
لتأخذني وطنا للظل المائل
أغنية في ليل يبتعد الآن ··
يقترب الآن ··
لهذا الذاهب في عرس الأيام ،
أقــول :
كم هي قاسية هذي البساتين البحرية
والطرق الساحلية
وغابات الدمع المنسية ··

★ ★



ـ ٢ ـ

كان الجسد المغمور بظل الروح يغني ·

للموج القادم ··
للحزن المملوء نجوما ·
ما قلت سوى اني اشتاق لمن يحمل عني
عبء الزمن النائم ··
عبء الزمن الناضج في أغصان الروح ·
وددت لو انتبهت كل الشطآن لحبي ،
كل الأجراس المغمورة في مملكة الماء ·
وددت لو ان أغاني العشاق المطمورة
تستيقظ في جسدي ،
تأتيك باكليل النرجس والحنون ،
وصمت البحر الشاهق في الأعماق ،

★ ★

تقــول :
هو الحب له حزن الشجر البري ،
وطعم الأنهار المسكونة بممالك كل الأطفال ،
تقــول :
هو النور البادىء والمعيد لكوكبنا الشارد ·
● من أعطاك رموز الجسد المغمور بظل الروح ،
وأعطاني أسرار التكوين ؟

★ ★

● ما قلت سوى أني أحترق الآن ،
فطوقني ليل فضي
شمس خضراء ··

وأغراني بالرحلة في المملكة الزرقاء ،

★ ★

أيعرفنا هذا العالم ؟

أم نحن المنسيون المنفيون

في وطن نوقظه ··

يوقظنا ؟

تنفتح الآن نوافذنا للموج القادم

في ذاكرة الفورات الأولى ،

وتعرش تحت الأهداب النشوى

والأجراس ··

وتتسع الدهشة !

كان الجسد ـ الطفل يصعد أغنية الموج ،

الذاهب في الأعماق

المتغلغل في الأعماق ··

الساكن في الأعماق

★ ★

ـ ٣ ـ

ذلك الضائعُ بين الدروب المغلقة ،

ذلك المغلقُ بين الموجة والموجة ،

ذلك الذاهبُ في عرس الأرضِ ،

ذلك الكوكب الشارد ··

كان حبي

★ ★

تمنيتك نهراً يسكن بين ضفاف القلب ،

أسأله عن أقمارنا الخضراء ·

تمنيتك نهراً تغرقُ في سفنك الورقية ،

الشموع ····

النجموم ···

وتضيع ضفافُك ···

★ ★

هل صوتك يوقظني ،

أم ايقاع الدم الهازج في العمر الضائع ؟

أم غابة الياسمين المسكونة بالقبلات الوحشية ،

أم غمغمات الطفلة النائمة في جسدي ؟

يا وطني المسكون بآلاف الأقمار الذهبية

أين تخبىء مواسم اللوز المزهرة

مرة بعد مرة ؟

أنا الباحثةُ فيك عن المواسم ،

يقودني اليكَ دمي في النصف الأول ،

من ليل ذي شمسٍ خضراء ·

توقظني الغربةُ عند غابة السحر والغموض ،

أمدُّ يدي ، فألمس أسرارَ التكوين ،

وحفيف الأعشاب البرية !

يصعدُ نصفُ القلب من أعماق البئر المسحورِ

يدقُّ جدار الأيام على النصف الثاني ·

تنفتح الأعشابُ ··· الأوراق ··

الأشجارُ ... الممرات ..

تأخذني الى أعماقها ..

أتحوَّل طيرا ..

- تقرأ في كتابِ دمي

تغمرك رموزُ الجسد العاشق .

- أتلعثمُ .. لا أكاد أعي ..

- الزمن الغارق في الغربةِ ،

والجسد الذاهب في كل الجهاتِ ..

أتوزع .. بعضي لا يعرف بعضي ..

★ ★

يا وطني الهادىء في جسدي ،

أكثرُ بعداً وصفاءً من نجمة الصباح ،

تتوّجني رغبتك بأكليل النار ،

ترهقني أحلامك .

انني أستيقظُ من حلمي بك ،

متوّجة بجراح القبلات ..

فاصعد من أعماقِ الأرض ،

وبي عطش الأرضِ

اليكَ

١٩٧٧/٦/٤

ملف القصة

رائحة الغرباء

رشاد ابوشاور

رفع غطاء الصندوق · تسربت الى انفه رائحة مدهشة ، مزيج من التوابل ، والبهارات ، والحناء ، فتراجع الى الوراء ، بعد أن عب نفسا عميقا · فتح الكوة ، وتطلع · الظلام ، وظلال الاشجار ، والنجوم الخافتة الضوء ، والصمت · الجيران يغرقون في نوم ثقيل ·

رفع ضوء المصباح الكازي ، فرأى وجهها المتغضن الشمعي · مد أصابعه الراعشة الى جبينها · لامست سلاميات اصابعه أصول شعر المحنى (كانت تضمخه بالحناء أيام زمان) · خرج صوته خشنا بطيئا ·

ـ ابنك العنيد لم يأت بعد · طالت غيبته · وانتظارنا طال · وانا رجل عجوز متعب ·

باغته مواء حاد آت من الكوة · اقفل غطاء الصندوق ، فأخرج الارتطام صوتا مدويا · تمالك نفسه ·

ـ بس · بس ·

اغلق الكوة ، بعد أن استرق السمع · رفع غطاء الصندوق · خاطبها ·

ـ اعذريني · هكذا احيا بعدك ، قلق ، وترقب ، وانتظار ·

ابنك العنيد قال لن أطيل الغياب · لكن سنوات مضت وما عاد ·

تصوري · اخبرني بعض اهالي قريتنا انهم رأوه يجتاز الحدود · معقول ؟

وبعض الشباب الذين سافروا الى المانيا وعادوا قالوا بأنهم رأوه هناك · ومحمد ابن مختار قريتنا قال أنه سمع عنه في السعودية ·

شيء لا يصدق · ايمكن أن يكون قد ذهب الى كل تلك الامكنة ؟

جلس · اسند رأسه على الصندوق · همس لها ·

ـ رائحتك باتت تهددنا · الجيران يتساءلون ، من أين تأتيهم الرائحة · الكلاب تأتي احيانا ، وتظل تنبح ، وتدور حول البيت · الشرطة مروا امس من هنا ، وتوقفوا

طويلا خلف البيت · الشيخ موسى ، اعلن في خطبة الجامع بأن الرائحة تهدد بانتشار الطاعون ، وانها انذار الهي ·

اخذ ينقر بأصابعه الجافة على خشب الصندوق ·

ـ أنا تلفت تماما · عشت على الذكريات زمنا طويلا · ولكنني ما عدت اتذكر شيئا · أنا الان كومة عظام متآكلة ، لا استطيع العودة ، ولا استطيع الانتظار ·

ليس لك الا ابنك العنيد ، سامحك الله يا أم غسان ، لقد حملتني هما · انهم يرفضون دفنك في مقابرهم · الشيخ موسى اعلن : لا · لن ندفن الغرباء في مقابرنا · ابو الفهد قال : ولكنهم لحمنا ، ودمنا يا شيخ موسى · هم يعيشون بيننا ، فلماذا لا يدفنون في مقابرنا ·

قال الشيخ موسى : ومن قال لك بأننا نريدهم أن يعيشوا بيننا ؟

انهم يحملون البلاء معهم حيثما حلوا ، ورحلوا · الفوضى ، والخراب ، والحروب بسببهم · ينفصل الابن عن أبيه بسببهم · لا يجب أن ننغص على موتانا رقادهم ·

نقر على خشب الصندوق · اطلق تنهدة عميقة ·

ـ أوصيتني أن احفظ جثتك في صندوق العرس ، حتى عودة أبنك العنيد · هم لا يريدون دفنك ، وانت تريدين العودة وانا انتظر ، وابنك غائب ·

لو طردوني من البيت فالى أين ارحل ؟ بلاد الله واسعة ، ولكن ليس علينا نحن الطريق الى هناك طويل ، وصعب ، ومليء بالمخاطر ·

تريدين أن أدفنك مع اهلك ؟ حسن ، ولكن يا ليت يكون هذا بمقدوري ، اموت عشر ميتات قبل الوصول الى هناك · يا لها من رحلة يا ابنة العم ·

نهض · احضر صرر الكمون ، والحناء ، والزعتر ، مزج بعض ما فيها ، وجعل يرش المزيج على جسدها الضئيل ، المتيبس ·

ـ آخ يا ابنة العم · اهذا جسدك ؟ اهذان ذراعاك الجميلان ؟

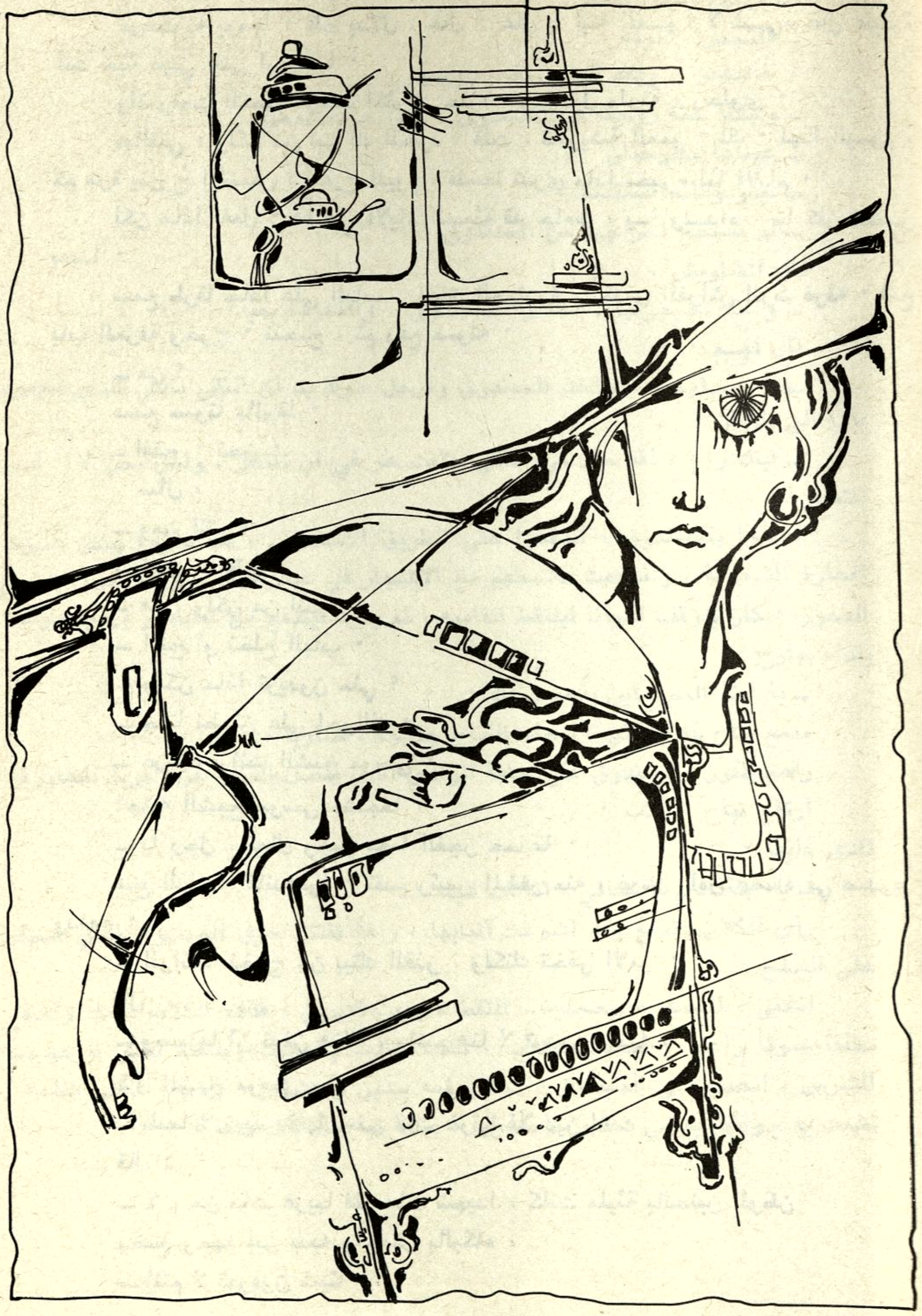
ايه يا ابنة العم · ما زالت رنة زغاريدك في اذني · يا للأيام الحلوة · اتذكرين كيف كنت اخاف من الافاعي حتى ولو كانت ميتة ؟ اني لا أنسى كيف امسكت بالافعى من ذيلها ، ولوحت بها في الهواء ، ثم لحقتني ، وانا اركض امامك ، وانت تلاحقينني ضاحكة · ايه · ورحنا بعيدا بين اعواد الذرة · و ·· آه ، يا ابنة العم ، راحت رائحة عرانيس الذرة الناضجة · رائحة الارض أيام الحصاد ، رائحتك القرنفلية ·

اغلق الصندوق · تشمم رائحته (آه ، يا لها من رائحة ، اي خشب باهر الرائحة !) يا له من صندوق بديع · صنعه ذلك النجار الخليلي من خشب البلوط · قضى أياما وهو يزينه ، ويلونه ، واذ فرغ من صنعه قال : انظر ، انه عروس · وعندما دخلت به القرية ، داخت رؤوس الصبايا ، وانفتلت عيون الشباب ·

سألوني : بكم اشتريته ؟

ـ عشر جنيهات فلسطينية ، اي والله ·

قالوا :



ـ مجنون · هذا المبلغ يساوي رجلا ·

فرحت به يومها · قلت بدلال : غال · غال يا ابنة العم ؟ لا شيء غال عليك ، انت حبة عيني التي ارى بها ·

واذ رفعت الغطاء فرحت اكثر · حناء ، ومناديل ملونة ، وحلوى ·

سألتني : ولكن من أين لك النقود ؟ قلت : تحويشة العمر · لك · لهذا اليوم ، كم مرة يتزوج الانسان ؟ لنفرح اليوم ، فلسنا ندري ماذا تخبىء لنا الايام ·

لكن ماذا نفعل ؟ ها هي الايام السيئة قد جاءت ، يا ولداه ، ما كان الشر بعيدا ·

سمع طرقا حادا على الباب · اغلق الصندوق · كدس الفراش الرث فوقه · فتح باب الغرفة وخرج · تنحنح ، ثم رفع صوته ·

ـ من ؟

سمع صوتا مألوفا ·

ـ افتح · نحن ·

سأل ،

ـ ومن انتم ؟

ـ نحن · افتح

ـ هه ، ولكن من انتم ؟

ـ افتح أو نخلع الباب ·

ـ ولكن ماذا تريدون مني ؟

ـ جئنا نطمئن على احوالك ·

ـ عرفتك ، أنت الشيخ موسى ·

أجابه الشيخ موسى مشجعا ،

ـ يا رجل ، تعال وصل معنا الفجر جماعة ·

فتح الباب ، فاندفعوا · تقدم رئيس المخفر منه ، غرس رأس عصاه في صدره ودفعه ·

ـ الرائحة تخرج من بيتك القذر ، ولكنك تخفي الامر ·

قال :

ـ وصيتها أن تدفن هناك ، وأنتم هنا لا تودون دفنها ،

قال الشيخ موسى ،

ـ طبعا لا نريد دفنها ، من مات غريبا فلا دين له ·

قال :

ـ لا ، من مات غريبا فقد مات شهيدا ، كانت مليئة بالحنين للوطن

وضع وجهه بين يديه واجهش بالبكاء ،

ـ انتم لا تعرفون شيئا ،

اشار لهم رئيس المخفر ،

ـ اقتحموا الغرفة ·

فاندفعوا ، وبعد قليل ارتفع صياحهم ·

ـ وجدنا جثة زوجته في الصندوق · انها جافة كحطبة ·

ـ عيناها مفتوحتان ·

ـ تبدو وكأنما ستتكلم ·

ـ لم نستطع اخراجها من الصندوق ·

قال الشاويش ،

ـ ولماذا تخرجونها ، احملوا الصندوق ، واقذفوها بعيدا ،

قال لهم ·

ـ لا · سأرحل · سآخذ الصندوق وارحل ، ولا بد أن التقي بابني الذي سيعود بأمه الى الوطن ·

ـ ابنك راح ، لقد مات في المنفى ، أنت حر في ان تنتظر ، ولكن نحن لا · لن ننتظر ·

خرجوا بالصندوق ، اندفعوا على الطريق الاسفلتي ، ثم تواروا بين بيوت الحارة الشمالية ، واندغمت ملامحهم مع الاشجار في غبش الفجر · لحق بهم العجوز · كان يتوقف احيانا ليلتقط انفاسه ، ثم يعود ليندفع من جديد أو يرفع صوته بنداء جارح ،

ـ يا ابنة العم ، أين يذهبون بك ·

سمع نباح كلاب كثيرة ، جاء النباح جارحا ، ضاريا ،

رآهم يلقون بالصندوق على حافة الوادي الذي يفصل القرية عن القرية المجاورة ·

ارتفع نباح الكلاب ·

نادى عليها ·

ـ يا ابنة العم لا تخافي ، أنا آت اليك ·

رأى الكلاب تندفع وقد اشرعت أنيابها ، رآها تقتتل حول الصندوق الذي استقر على السفح ·

انحنى ، للبحث عن حجارة ، التقط حجرين كبيرين ، قذف الكلاب بهما ، واندفع مطلقا صوتا راعدا ، ابتعدت الكلاب ، لكنها عادت وتجمعت وطفقت تطلق نباحها الشرس ، انحنى على الصندوق ، أخذ يرفعه بيدين راعشتين · وضعه على كتفه ، تشبث به ، واخذ يمشي بحذر ، وصعوبة ، بينما نباح الكلاب يلاحقه ·

اقصوصتان ـ زين العابدين الحسيني

الفراق

غص صوته ، ففقد مسحة الحنان ·

ـ « ·· ها نحن ·· »

غضت نظراتها ، واهتزت شفتاها هزة باهتة ،

ـ « كان حبنا انتظارا ·· »

بدات اصابعه تعبث ببعضها البعض ،

ـ « احس بارتباك حقيقي

ابتسمت في حزن ،

ـ « مثل اول مرة · »

ـ « عندما امتلكتك ··· فقدتك

لمست رأسه بحنان بالغ ،

ـ « انت نـــادم ؟ »

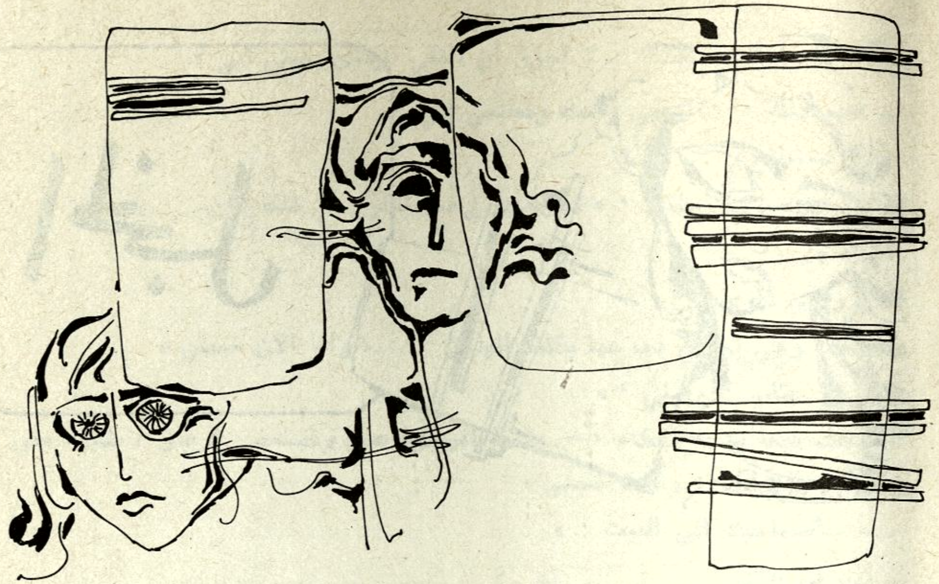
رحلت عيناه بعيدا « كانت جميلة كالانتصار »

لم تتبين كلماته حين قال ،

ـ « ما اشد دمامة الهزيمة »

سار بتمهل نحو النافذة الوحيدة ، راح يتطلع من خلال الزجاج المغبش ·

وكان وميض البرق جميلا ، وقاسيا في آن واحد ··



رغب ان يستنشق رائحة الامطار ، فتح النافذة ، اندفعت موجة من الريح المفعم بالرذاذ · وبدا انه يستمتع بلسعة البرودة على وجهه · اتاه صوتها مليئا بالدهشة ·

ـ « ماذا تفعل ؟

كان شعره قد ابتل تماما وانسابت الخطوط المائية على وجهه وعلى عنقــه ، فبدا وجهه كوجه طفل عابث « احب الامطار · »

استدارت عيناها ··

ـ « احب صوتها ايضا ، والريح تعبث بالاشجار ، تعريها تعريها ·· ثم تنساب بنعومة وقسوة » والحاح ، بين الاغصان فتحدث ذلك الصفير الخرافي في الليالـي الموغلة في الشتاء ··· اي الفصول تحبين ؟ ·· »

ـ « الـــربيع »

ـ « هل يحتلك الربيع مثلما يفعل بي الشتاء ؟ »

واصلت دهشتها

ـ « احس بالبرد ، لماذا لا تغلق النافذة ·

حدق فيها في سكون ،

نهض ، فتحولت نظرة الدهشة في العينين الى غلالة كثيفة من الدموع وهي تتابعه وهو يمضي دون ان يوليها ظهره ، يخرج من الباب ، لا يغلقه خلفه ، يتلاشى تماما في العتمة ·



الخجل

كانت هناك بعض الخدوش التي ما تزال ندية الدم حول عنقها ، وثمة بقع داكنه اللون حول الشفتين ·

تجاهلت رغبته الملتهفة لعناقها ، فانحرفت قليلا عنه وتجاوزته الى الغرفة · « هو يعرف »

وقفت في منتصف الغرفة · رفعت عينيها لتمنع انهمار الدموع في حين بقي هو يتأملها في ارتباك ·

« ·· ماذا يقولون عادة عندما يحدث مثل هذا ؟ »

كان من الواضح انّه يخشى لمسها تلك اللحظة ·

طال الصمت · وكان صمتا بشعا ·

سمرت نظراتها في السقف في حين راح صدرها يعلو ويهبط · تحطم الصمت الزجاجي حين قال « حبيبتي » ·

اقترب منهـا امطرت شفتاه الحنان على قلبها · « حبيبتي » لمس ذراعها برقة ، فارتعشت · همس : « اجلسي هنا ·· » اطاعت · خفضت عينيها · فيما ظل صدرها يعلو ويهبط ·

كان صوته مفعما بالبكاء حين قال : « تطلعي الي »

تسارعت انفاسها · ادرك انها على حافة البكاء ·

قالت في نهنهة طفولية · « جئت اليك اولا »

اجاب في همس · « اعرف » ·

ـ ·· لم اذهب للبيت ·· لا اجرؤ ان تلتقي عيناي بعيني ابي »

ـ افهم ذلك ··· ارفعي راسك وتطلعي الي ·

ـ لا استطيع ·

قالت في صوت مختنق · « لم اخجل وهم يفعلون بي ذلك ·· لم اخجل

كان رعبي اقوى · »

اشاحت وهي تمسح دموعها بكلتا اليدين ··· « وانا الان خجلى »

قال في عتاب · « مني ؟ »

واصلت فيما يشبه البكاء · « عندما افرجوا عني وتسلمني الرفاق ، طلبوا مني ان اروي لهم ما حدث · وكنت خجلى »

ـ « ساصطحبك الى البيت · »

ـ اود ان ابكي ·

كان جسدها يختلج ببكاء عنيف لم يشهد له مثيل من قبل ، ولم يشأ ان يوقف ذلك ·

عادت تقول : « كان رعبي اقوى » ·

ـ اعرف ·

ـ لم اقاوم

ـ افهم ذلك ·

قالت وهي تنشج · « لم يتيحوا لي فرصة كيما اخجل · »

ـ ···

ـ اصغر الثلاثة ، راح يسخر مني باصبعه ·

ـ كفـى

ـ والاخر ، بصق في فمي ·

ـ ···

ـ لم يكن بمقدوري ان ابكي ، كانوا يفعلون ذلك امام بعضهم البعض ·

ـ ···

ـ ···

ـ ···

وفيما كانا يسيران نحو البيت ، حاول ان يمسك يدها ، غير انها سحبت يدهـا من يده في حين تحول لون وجهها الى لون وردي رائع ·

ظلال البتولا... «١»

ربعي المدهون

« الى الصديق يعقوب قوجمان »

« هل كان يجب ان ترحل يا « سلام » ؟. هل كان ينبغي عليك السفر لتستقر هناك في فلسطين ، وتحمل على كتفيك اسمك الجديد ـ مواطن اسرائيلي ـ ؟ وابنتك ليئا طالبة السنة الاولى طب في جامعة موسكو ، هل صحيح أنك ستتركها تعيش هنا ، وهل صحيح ايضا انك لن تحملها تحت ابطك كما فعلت مع امها منذ سنوات طويلة ، عندما قررتما مغادرة بغداد ، فتعلقت بذراعك كمن يستجذبك من احتمالات المستقبل ؟ حدثتها فغضبت . نامت تحت ابطك وذراعك يحتضنها ، وكلماتك ترسم لها صورة بيتكم الجديد في حيفا . منذ متى امتلكتم بيتا في حيفا ؟ هل تذكر ذلك ؟ فكر في الامر اذن !

في المستشفى

لان صديقي الفلسطيني الجالس الى يميني همس في اذني :

ـ الرجل القابع الى يسارك يهودي :

انصت باهتمام

ولانه تابع قوله بهمسات مرتعشة :

ـ اسرائيلي ، واصله من العراق وهو يقيم الان في فلسطين المحتلة !

تساءلت باهتمام ايضا :

ـ أمتاكد ؟!

ـ لقد جاء للعلاج كما ترى .

ـ اسالك عن ما ذكرته منذ لحظات :

رمقني بنظرة واثقة ، وزم شفتيه واطلق كلمة « ولو » كصفير حاد طويل ممطوط هكذا ولـــ.............و !

قلت : اذا سيكون بيننا حديث طويل .

نهض صاحبي وقد بدا عليه القلق ، ثم اسرع يبتعد ، فخلا المكان عن يميني . التفت الى الرجل الجالس الى يساري وكررت ما قلته سابقا دون ان امكنه من سماع ذلك في بادىء الامر : سيكون بيننا حديث طويل .

★ ★ ★

اشعة الشمس تتغربل من بين اوراق البتولا المتناثرة فوق رؤوسنا تغطي سقف

المر في انحناءات حنونة ، وتلتقي الفروع والاغصان في عناق لطيف ، فتتوزع اشعة ما بعد الظهيرة فوق اجسادنا كأشرطة ممزقة بين شرائح النور والظل . خطواته مرنة ، متماسكة واقدامه اخذت تدوس الحصى المتناثرة على الطريق دون ان تهتز قامته .. ظل يتابع الحصى بعينيه ، ويداعبها بقدميه لفترة زمنية اجتزنا خلالها نصف المر الطويل ولم نقل شيئا وفجأة ، التفت نحوي وتساءل :

ـ ولماذا نرحل ؟! ومن سيبقى هناك ، هل حاولت ان تتصور ذلك ؟!

فكـرت !

وفكـر !

وبين لحظات تفكيرنا مر سنجاب صغير ورمقنا بعينيه البراقتين وهو يقفز سريعا الى الجهة الاخرى من المر . عدت اتطلع في وجه سلام فألفيته يغط في ذكرى قديمة: الرابعة عشر . الوقت صيف . بغداد تلملم عرقها عن وجوه الناس والارصفة والشوارع والازقة والحيطان الملتهبة من شدة الحرارة ، وفي جيبي استقرت بضع وريقات خبأتها عن الاعين طويلا كي اتمكن من ايصالها بسلام ، في تلك اللحظات خلت الاوراق سخنت واقتربت من لحظات نزف عرقها ، فخفت على حروف الكلمات الكثيرة الهامة التي جئت انقلها من الذوبان ، مددت يدي سريعا لتلامس الاوراق المستقرة في جيبي فألفيتها جافة فاطمأنيت ، وحثثت الخطى باتجاه هدفي المحدد ...

الرابعة عشر ، الوقت صيفا وبغداد تنزف العرق عـن جبينها الممتد كشريط يحاذي دجلة ... « سلام يا سلام ! سلام يا ولدي انت لا زلت صغيرا ، اما كفانا اخوك ؟! ومن قبله ابوك ايضا ، وانا العجوز التي بعثت بكم الواحد تلو الاخر من حضنها الى مقر الحزب ! وها أنت الان تعدو خلفه ، منذ صغرك وانت تعدو ، تركض في الطرقات ، تحمل الرسائل من بيت الى بيت ، من مجموعة رفاق الى اخرى ، وتلهث كي تلحق بالسن الذي يمنحك حق العضوية ، لم امنعك مرة واحدة ، لكنك الوحيد بيننا الذي لم يعرف سجون بغداد ، ولا زلت صغيرا على تحمل عذاباتها ، انها اكبر من سنك بكثير ، انها قاسية يا سلام . احذر يا ولدي احذر ... » وبكت العجوز ... بكت في ذلك الصباح كما لم تبك من قبل ، وخيل الي ان حبات الدمع النازفة من عينيها اكبر حبات شاهدتها في حياتي ، كانت ككرات نارية تلسعني وربما تلسع العجوز التي تحترق في داخلها واخر ابنائها يغادر البيت ، قالت وهي تمسح دموعها :

ـ ومع ذلك اريدك معهم . اذهب يا ولدي ، وخرجت مسرعا .

وصمت .

عاد السنجاب يقطع عرض المر عائدا من حيث اتى ، هذه المرة قفز من بين ساقي سلام الذي يرفع رأسه نحو الشمس المغربلة من خلال أوراق البتولا المتناثرة ثم عاد يلتفت الي ويقول :

ـ كنت في الرابعة عشر ، عندما جاءني احد الاصدقاء ليخبرني :

امك دخلت السجن يا سلام ، بعد خروجك من البيت بدقائق ، جاءوا .. اقتحموا البيت كبلوا يديها ودفعوها الى عربة كانت تنتظر قريبا من بيتكم ومضوا . صمت هبط علي الخبر الساخن مثلجا وكأن مشاعري تناثرت في اتجاهات مختلفة ولم اعد اتمكن من تجميعها لاحس بوطأة المأساة وفجأة انتابني ضحك طفولي ممزوج بكبرياء طبيعية ، قلت لصديقي الذي نقل الخبر :

ـ سنقترح عليهم تخصيص جناح للعائلة ، فربما لحقت بهم في السجن عما قـــريب .

* * *

الاوراق تستقر في جيبي بهدوء ، لكني تخيلتها وقد بدات تلهث ، فتستحثني على ايصالها سريعا . احث الخطى مجددا ، انظر خلفي . ثمة شرطيان لم اشاهدهما من قبل يحتلان زاوية الشارع عند بدايته التي خلفتها ورائي منذ لحظات ، رعشة خفيفة ما سرت في جسدي ، ثم ما لبثت ان تحولت الى ارتعاشات قوية شملت كل خلاياه النازفة عرقا . « سلام يا ولدي ، عذابات السجن اكبر من سنك بكثير » . اركض اركض اركض اركض . وفجأة توقفت تطلعت حولي . ثلاثة بيوت وينتهي الامر واتخلص من الرسائل بطريقة رائعة . الشرطيان لم يتركا لي فرصة اجتياز المسافة المتبقية فقررت ان اتصرف بسرعة ، تفزت الجدار المجاور الواقع الى يميني، والقيت بجسدي في باحة البيت الذي بدا لي خاليا من سكانه ، « هذا رائع » وبسرعة البرق اخرجت احتياطاتي . الاوراق ــ الرسائل ، وعلبة كبريت احتفظت بها للطوارىء . اشعلت عود ثقاب وقربت الرسائل منه ، فارتفعت ألسنة اللهب الصغيرة في زواياها وعندما امتدت لتشملها قذفت بها من زاوية مقابلة لي . ووقفت ، ذراعي الى جانبي وقامتي النحيلة تنتصب باعتزاز وانا اشاهد الكلمات تحترق دون ان يتمكن منها الشرطيان . ونمت على شفتي ابتسامة انتصار لكنها لم تكبر ، اذ حانت مني التفاتة الى اعلى فوقع بصري على الشرطيين يحدقان في بغضب ، بندقيتاهما تحدقان في ايضا من خلال فوهتين شرهتين راغبتين في تمزيق جسدي بالرصاص . رفعت يدي . استسلمت كما يقال . لكني انتصرت ؟ اذ ان الرسائل لم تستسلم فقد اصبحت رمادا . شد احدهما وثاقي بحبل قصير اخرجه من جيب سرواله ، وكأنه كان يحتفظ به احتياطا كعلبة الكبريت التي احتطت بها من عبث الشرطة وملاحقاتهم ، ومنذ ذلك اليوم التحقت بالعائلة في السجن .

ــ اتعرف

اضاف وهو يضع كفه على كتفي ومضى يقول بعد توقف قصير :

ــ عند ذلك انتابني ضحك مفاجيء وانا اتذكر ما قلته لصديقي الذي اخبرني باعتقال والدتي فقد اخذوا باقتراحي وخصصوا لنا سجنا ... لكل العائلة ، لكن والدتي توفيت بعد يومين لا اكثر وعلمت انها دفنت في مقبرة ما .

ومعا توقفنا ، نظرنا سويا نحو بركة الاسماك عند نهاية المر ثم انكفانا عائدين نعبر المر مجددا .

* * *

واصلت حكومة نوري السعيد تنفيذ قراراتها بابعاد بضعة الاف اخرى من يهود العراق الى خارج البلاد . هكذا قالت الصحف في حينها « الى خارج البلاد » !

المكان : سجن عسكري

الزمان : عام ١٩٤٧

الموضوع : ستون سجينا شيوعيا يلتقون لصياغة عريضة بمطالب محددة ، وشروط محددة ايضا ، بينهم عدد من العراقيين يهودي الديانة . وقع الجميع العريضة دو نتردد ، ولم يدققوا كثيرا في الشروط ، فقد صاغوها بأنفسهم :

« نلتحق بفصائل الجيش العراقي التي تقاتل في فلسطين ... اذا متنا فقد تخلصنا من السجن ، اما من يعود منا فسيعود محتفظا برقم زنزانته وسيسارع اليها دون ازعاج » .

النتيجة : حدق الضابط الملكي في الورقة المستريحة على مكتبه ، وعندما انتهى من قراءتها رفعها بين اصابعه ، وظل ينظر اليها للحظات قبل ان يرشقها بصقاته وعندما بللها البصاق تماما مزقها وطلب من جندي يقف امامه تنظيف المكان وغادر

الغرفة بعصبية .

قال سلام : وواصلت حكومة نوري السعيد تنفيذ قراراتها ، وابعدت بضعة الاف من اليهود في البدء ابعد الشيوعيون الى خارج البلاد كما قالت الصحف والاذاعة، الى خارج البلاد ... !

* * *

بغداد في حضن المساء تتلالأ بين ذراعي دجلة ، وابو النواس يحتضن العشاق والاصدقاء والسياسيين من الوان مختلفة ، وباعة الفول السوداني ، والبقلا ، واللبلبة ، والسمك المسقوف بروائحه المحببة الممتزجة بروائح المياه الدجلوية العزيزة على قلوب البغداديين ، وكل من اقام او مر بالنهر الكبير ، والمقاهي المكتظة ، وعرق « ابو كلبشة » يأسر شاربيه ويصادق الجميع فتعلو اغنيات السهارى وفرقعات الاصابع تصنع ايقاعات فريدة يجيدها العراقيون .

وانهيت كلماتي بالقول : هكذا هي بغداد ، عندما شاهدتها اخر مرة ساهرة في حضن الشاطىء الدجلوي .

قال معلقا : كما عهدتها لم تتغير تلك العروس ابدا . في التاسعة عشر من عمري اجبرت على طلاقها ، وظلت هي تمارس زفافها مع السهارى كل ليلة ، غادرتها ولم اعد لحضنها الدافىء .

« ولماذا لم تعد يا سلام ، هل يتوجب عليك البقاء في « اسرائيل » ، هل تصر على السفر الى هناك ، لماذا لا تريد العودة وفي ذهنك ترتاح بغداد العروس ، وابنتك ليئا ، طالبة السنة الاولى طب بجامعة موسكو ، هل صحيح انك ستغادر دونها ، وتتركها تعيش بقية حياتها هنا ؟ هل صحيح انك لن تحملها كما فعلت مع امها رفقة منذ سنوات طويلة ، عندما غادرتما بغداد ، فتعلقت بذراعك كمن يستنجد بك من احتمالات المستقبل ؟ حدثتها فغفت على كلماتك ، ونام رأسها تحت ابطك ، وذراعك يلفها ، وانفاسك تفتح الطريق امامها نحو بيتكم الجديد في حيفا ...

واصل سلام قوله : منذ ان التحقت بالحزب الشيوعي « الاسرائيلي » وعلى الاصح واصلت انتمائي الذي قطعه قرار حكومة نوري السعيد بترحيلي بالقوة من بغداد ، وانا احيا بطريقة اخرى تختلف عن حياة الكثيرين .

نظرت في عينيه مباشرة ، فأسرع يضع كفه اليسرى على كتفي الايمن :

ــ اصبح واجبا علي ان اعود . ليئا ابنتي لن تعود ، لن اسميها مرة اخرى « مواطنة اسرائيلية » ، وعلى كل حال كانت وكنا من الدرجة الثالثة وربما العاشرة احيانا . اما ولدي موسى فسيأتي في العام القادم وسأودعه كأنما للمرة الاخيرة، لا اريده ان يرجع الى «اسرائيل» ولداي سيظلان بعيدا ، اما انا فكما اخبرتك فهناك ما ينتظرني !

* * *

اليوم الاخير لسلام في المستشفى . الشمس كعادتها تعلو رؤوسنا وتصلنا اشعتها متقطعة كأشرطة ممزقة ، كلحظات لقائنا الاخير . مد يده يتحسس جيبه ، وما لبث ان اخرج حاملة مفاتيح صغيرة ، رفعها بين اصابعه امام عينيه وقال :

ــ ابعثها معك .. للذكرى .

واضاف :

ــ انظر ما بداخلها ــ زهرة حمراء بين فلقتي زجاج اغلقتا عليها بأحكام ، انها احدى الزهور البرية الطيبة التي تنبت في ارضكم ...

وصمت قليلا قبل ان يضيف :

ــ هي ارضكم على كل حال ، لكنني مضطر للعودة .. اعتقد انك تفهمني !

★ ★ ★

اشعة الشمس تتغربل من بين اوراق البتولا المتناثرة فوق راسي ، تغطي سقف الممر وانحناءات الفروع على الجانبين تدفع الاشجار الباسقة لعناق لطيف... خطواته مرنة ، متماسكة لكن الحصى المتناثرة على التراب لم تحظ هذا اليوم بمداعبة اقدام سلام ، فقد رحل منذ بضعة اسابيع ووحدي اصبحت اعبر الممر عدة مـرات في اليوم انتهى الى مشاهدة الاسماك تتقافز في الهواء وتعود وتغطس في البركة التي ينتهي عندها الممر ، ثم اعكف عائدا من حيث اتيت . هذا الصباح كان غير عادي فثمة قلق ما منعني من مطالعة اخبار الصحف سريعا كالعادة ، ومع انتصاف النهار ولا زلت اعبر الممر قررت الجلوس على مقعد قريب وتصفح الجريدة ، كانت دافئة بين يدي قبل ان التقط احد اخبارها الهامة :

... حيفا هادئة ليلا ، غافية في حضن المتوسط ، وصباحا تستيقظ نشطة، لكن سكانها سرعان ما يغادرون بيوتهم وقد انقسموا الى فئات اجتماعية وطبقات واحزاب مختلفة . بعضهم يتجه صوب المصنع ، وبعضهم صوب الوزارات ، وبعضهم صوب الحدود لقتل عربي يصدفه او خطط قتله من قبل ، بعضهم يمارس هواية الحاكـم العسكري في مدينة ما بالضفة الغربية اذ تستهويه ملاحقة عمال وطلاب ونساء وشيوخ واطفال تظاهروا من اجل مطالب قومية وطبقية ايضا ، ويكتب في مفكرته :

بلغ عدد من اعتقلتهم اليوم ... كذا
بلغ عدد من جرحوا بهراوتي ... كذا
بلغ عدد من شتمتهم اليوم ... كذا
بلغ عدد من سرقتهم اليوم ... كذا

ويغلق المفكرة ليفتحها في اليوم التالي ويكتب مجددا ... ويمضي بقية سكان المدينة ، الذين في المعامل اغلبهم يمارس مهنة الشرطي عندما يلتقي بعامل عربي لكن بعضهم يتفرغ احيانا لملاحقة مومس عند اقتراب المساء او حتى عند الظهيرة . بعضهم كسول ، وبعضهم يواصل تهديد الدول المجاورة ، وبعضهم يصدر بتصريحات متواصلة ... وبعضهم وبعضهم وبعضهم ... لكن سلام يصحو مع المدينة نشطا . هـذا الصباح ، نهض كعادته ، تناول فنجان قهوة بالحليب وحمل حقيبته الجلدية ، وقبل ان يغلق الباب خلفه نظر الى زوجته رفقة ، وكانت تمسحه كله بنظرات حنونة .

قال بلكنة عراقية لم تمحها السنون : فيمن الله * عيني رفقة .

ردت بذات اللكنة التي لم تمحها السنون : فيمن الله عيني ابو موسى ومضى .

الشارع المحايد استقبله كما يستقبل كل الناس ، فمضى يعبره بخطوات واثقة، متوازنة ، مرنة ، متماسكة باتجاه مقر الحزب ، حيث يمارس اعماله .

وفجـاة :

سيارة مجنونة سحقت عجلاتها في اسفلت الطريق فاحدثت صريرا قاسيـا . قفز رجل في الهواء بضعة امتار ، وبعيدا استقرت حقيبته الجلدية بعد ان افـرغت كل ما بها من اوراق تناثرت وغطت مساحة كبيرة من الطريق .

---

* فتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها قالت لصديقتها التي تسير الى جانبها : يستحق ذلك ، فقد خالف انظمة السير !
* شرطي المرور صفر بقوة ، ثم قذف صفارته بعيدا عندما تذكر ملامح الرجل واخذ يخبط كفيه ببعضهما البعض وهو يردد : هذا سيعطل السير .. اللعنة عليه ، اللعنة عليه !

* سائق السيارة اليهودي الديانة ، العراقي الاصل ترجل ، وضع كفيه يحتضن خاصرتيه ، وشارك شرطي المرور ملاحظته واخذ يلعن الرجل قبل مماته وبعد مماتـه .
* شاب فلسطيني كان يعدو خلف سلام سبقته السيارة المجنونة اليه وحالت دون لقائهما ، كان يتأبط صحيفة « الاتحاد » ، توقف الى جانب الجثة ، اسقط دمعتين امتزجتا بدم صديقه ثم غطى جثته بالصحيفة وانطلق يعدو باتجاه مقر الحزب .
* الصحافة والاذاعة والتلفزيون اوردت جميعها في باب الاخبار الاجتماعية :

وفاة سلام مزراحي في حادث سيارة ، وشددوا على قولهم في حادث سيارة لكن صديقه الفلسطيني راقب المشهد وعرف تفاصيل الحادث .

اغلقت الصحيفة وفكرت : ليئا وموسى سيظلان في موسكو .

بيروت ٧ نوفمبر ١٩٧٧

* بالعامية العراقية والاصل : في امان الله

عن محاسن والحياة والموت في السفر

براء الخطيب

ــ الحياة ــ

الحياة ــ في كتاب الغرق ــ ماء .

ــ الموت ــ

الموت ــ في كتاب السفر ــ ماء .

ــ عرض ــ

تعود السفن وانت ولا تعود (البحر قتيل ينزف الماء من جبينه) والبحر كانت أعماقه المظلمة تطرد عفونة الاجساد النتنة وغيمة واطئة تمر بالقلب ــ الان قــرب سطح البحر ــ وتصبح اقرب من رجفة القلب ، والنوارس عالقة بين السماء وبين سطح البحر لا يقر لها قرار تدفع الثمن المعلوم وها هي السفن تعود وأنت لا تعود ويكون الموت ــ في كتاب السفر ــ ماء تغسل فيه الاجساد (عند رسو المراكــب في الموانىء الغريبة) فتعود كما كانت قبل النجاسة ، وكما كانت تعود : رماد الحياة . الحياة ماء والموت ماء وتصبح انث الحي وانت الميت فقل لو كان البحر مدادا لنفد البحر لو كان البحر مدادا قبل ان تنفد تلك الكلمات .

ــ تطويــر

ما حدث في البحــر :

بعينه ــ البللورية ــ اليمنى غمز ملك البحر القادر للشمس فاختفت خلف سواد السحاب ، وبعينه ــ العوراء ــ اليسرى غمز للأمواج فانفلتت من محبسها البعيد وراحت تضرب سفن سليمان الحكيم ، فلا الناضورجية رأوا الصخور التــي ترتطم بها سفنهم في كل مكان ولا ملاحو الدفة استطاعوا التحكم في دفاتهم ، فامتلأت اخنان المراكب بالماء فغرق منهم من غرق ، حتــى اذا صارت الشمس الى الحوت في الاستواء الربيعي أرسى الحكيم بسفنه وجنده واسراه الى جزيرة خالية من كل أنس وجن ــ لكنها كانت مليئة بالنوارس . وكانت النوارس لا تعد ولا تحصــى وقد عششت على خرائب المساكن وعلى قمم الاشجار : تحجب الشمس عن الجزيرة عندما تطير وتصم الاذان عندما تقعقع . استدعى سليمان كاتبه ــ الذي احضر له عرش بلقيس ــ « آصف » ، وكذلك استدعى اهل الخبرة والعلم وأولئك الذين يكشفون الغيب ويتعاملون بالنجوم ، وسألهم عن النوارس فلم يجبه احد . وكان الهدهد ــ ذلك اللئيم ــ يبتسم في سخرية فلمحه سليمان ــ فزعق فيه :

ــ « لماذا تضحك أيها الغبي ؟ » .

رفرفت السخرية ــ من الحكيم ــ داخل قلب الهدهد وقال :

ــ « يا نبي الله علمت ان ابنة صيدون بين أسراك يا مولاي ، وهي تعرف سر النوارس » .

ــ « ويل لك » اذا كنت تمزح مثل مزحتك السخيفة يوم دعوتني وعساكــري للعشاء ، وصدت ــ أنت ــ جرادة رميتها في البحر ، اتذكر ما قلته يومئذ ايها اللعين؟ ردد ما قلته ايها النتن » .

قال الهدهد :

ــ « قلت يا مولاي ــ « كلوا ، يا نبي الله من فاته اللحم نال من المرق » أنا لا اهزأ هذه المرة ، ابنة صيدون تعرف سر النوارس » .

قال الحكيم :

ــ « اذن هيا أيها الرسول وآتني بأبنة الساحر صيدون لنسمع حكايتها » .

ما يحدث على الشــاطىء :

وللبحر ــ قبل طلوع الشمس ــ رائحة ، ومحاسن تحمل بين القميص وبين لحم الجسد حجابا : تعويذة الغجرية حتى يعود الغائب ، آه ، وما بين لحم الجسد والثوب مملية الانوثة والخطر ــ ثديين يكمن الحجاب بينهما (العينان بئرا حزن ليلتي السواد ، والرموش حبال للغرقى) ومن القلب كانت تنغرس سكين الخديعة .

لملمت محاسن شعرها المتطاير واحكمت العصابة السوداء على رأسها ورفعت الثوب ــ الاسود ــ حتى ركبتيها وسوت لها مكانا فوق رمال الشاطىء واجتاحهــا احساس بالنشوة عندما لامس الرمل فخذيها ، فاستسلمت لتلك النشوة البارده ، وشخصت بعينيها تجاه الشرق ــ خلف مرسى الصيادين ــ منتظرة شروق الشمس .

من البعيد ومن بين بخار الماء والضباب ــ جاءتها صورته : الاب الذي زوجها الغائب اتراه قتل ؟ أم تراه هناك ــ هناك ــ خلف ذلك البحر الوسيع ؟ مات الاب بعد ان أنجبت من القتيل ــ او الغائب ــ ولدين (السحاب ــ المفتون بالرحيل ــ يسرع من الغرب الى الشرق ويغدو الفضاء أرضا واسعة المدى) مــدت محاسن اصبعها السبابة واخذت تعبث بالرمل ، داهمها وجه الغجرية :

ــ « وشوشي الودع يا صبية » .

وتتناول الودع ــ « انا يا ودع وحيدة ، وحيدة يا ودع وقد مات الاب ورحل ــ قتل او غاب ــ الزوج الولد الاكبر قتل في الحرب بيننا وبينهم ، ولم ينته عدونا فوق ظهر الارض ، فها هو الولد الثاني ينام ــ في الخندق ــ على الحدود . فأعده لي يا ودع ودلني اين الزوج وهل يعود ؟ » .

قالت ــ يومها ــ الغجرية : « كبدي عليك يا ابنتي تحبلين نطفتين من صلب قتيل ، نطفة تكون ذكرا ، آه ، يقول الودع ان النطفة الاخرى ذكر ايضا يا ابنتــي يقتل الاول يا زهراء وحيدا بين اصدقائه ، ويرتوي من دمه حاكم ظالم » .

قاطعتها محاسن :

ــ « لقد قتل يا امرأة ، قتل في النكسة وهو يرقد الان ، ربما في التل الكبير ، او ربما يكون في مقابر الشهداء الذين يدفنون بلا غسل او حلق شعر العانة ، الثاني

يا امراة الثاني ، تولي لي عن الثاني » .

قالت الغجرية :

— « كبدي عليك يا زهراء ، الثاني ؟ يا ويل قلبك الصغير ، هل تلدينهم للحروب والقتل ؟ أتلك لعنة ؟ » .

قالت — يومها — محاسن :

— « كانت امي تدعو لي صباح مساء والاب مات وهو عني راض » .

فحت الغجرية :

— « يموت الثاني يا امراة ميتة الفقراء في الحروب : تفصل الراس عن الجسد، ويموت — يا زهراء — دون رشفة ماء » .

ويغيب وجه الغجرية في الرمل وبين الدمع المتساقط من عيون محاسن وتسمع دقات الباب ، ومره اخرى تعود لها تلك الدقات : نذير الشؤم ، وتسمع الصوت المشئوم — كما سمعته يومها . يومها قال لها — رفيق ولدها الثاني — الجندي :

— « انفجر اللغم يا خالتي وغطى الدم وجوهنا فانقض علينا الاعداء وغرقت في بركة من الدماء . وحينما حاولت النهوض لم استطع ، لان ساقي اليمنى كانت على بعد خطوات مني ، هه ، لا تبكي لقد ركبوا لي — في المستشفى — هذه الساق الخشبية بمسامير من البلاتين الغالية الثمن ، اما هو ، ابنك ، فقد رأيته وانا اقاوم الاغماء : كانت راسه قد فصلت عن الجسد ، وكان اليهودي — هناك — يغرس السوتكي بين اسنانه ، آه ، كنا قد وقعنا في الكمين رغم ان قائدنا كان يحمل على كتفه النسر والنجوم ، آه ، وقعنا في الكمين قبل ان نقاوم ، وهزمنا دون أن يسمح لنا بالحرب» .

ويغيب صوت الجندي — رفيق ولدها — ويطغى صوت الموج على صوته ولم تعد تسمع سوى صوت الرياح والامواج .

ما قاله الهدهد لابنة صيدون :

— «لم يعد سليمان يملك صبرا ، سر الجزيرة والنوارس قد ملك عليه قلبه ، ونحن نخاف ان طال عليه الامر من غضبته ، فعندئذ يا ابنة صيدون لا الرحمة ولا الشفقة تردعه فمقابل السر تشترطين انت عليه أن يعتق ابناء قومك . فاذا رفض فعليك باغرائه بالمال ، فسلمي له مفاتيح كنوز ابيك . واذا غرض عليك الزواج فاقبليه رغم مساوئه وسوء سيرته ، ليس لك الخيار فهكذا يتعامل الملوك ، فوعودهم ليست ذات وثاق ، وغدرهم متوقع : مرة يبرره الشيوخ بالحكمة ، ومرة بحسن السياسة. فاذا رفضت ايتها الجميلة فليس هناك الا ان يبعثك سليمان ، ومعك ابناء قومك الى كهف العناكب عند عين العقاب الى الشرق من مملكة سبأ ، تجمع فيه ، وتنسج حول المحكومين خيوطا متينة من نسيجها تسل قدرتهم فتتغذى عليهم . فهم لا يموتون لينالوا راحة الابدية ، ولا العناكب تكف عن قطع وقضم لحم اجسادهم ، فلا تغتري ايتها الجميلة بنبوة الحكيم . لقد قد قلبه من الصخر ، وامتلك الجان وكبار السحرة ، واستعبد الناس والطيور ، هذا دون رقيب او محاسب ، ذات مرة حاولنا — انا وابناء جنسي — الهرب الى غابة كثيفة ، فسير لنا عاصفة اقتلعت الغابة من جذورها، واسود تالسماء من الحريق ، واستطال منقاري من هول الصدمة ، ونتف ريشي وهزل جسمي ، وحملني مارد عاري في قفص من حديد الى قصر سليمان ، مولاي سليمان الذي بكى — عندما رآني — وتأسف بخبثه ودهائه ، ووضعني في مكان بارز قرب عرشه ، وامر طبيبه الخاص ان يعالجني كل يوم ، وكأنه يواسيني ، ولكنه في الحقيقة كان يعرضني — الخبيث — عبرة لمن يعصى امره . وعندما تحسنت حالتي ونبت ريشي سألني ان كنت اريد العيش في الغابة فقلت له : « اية غابة يا مولاي ؟ ان الغابات والبحار لم تعد تحمي الضعفاء بعد الان » . آه ، لكن تلك حكاية اخرى ،

هيا بنا يا ابنة صيدون سوف ازينك بالحرير المزركش والجواهر الثمينة ، واعطرك بالمسك والعنبر ، وما يليق بابنة ملك ساحر جميلة ورقيقة . وسوف اصطحبك الى سليمان الحكيم . هيا بنا فسوف أضع على رأسك تاجا مرصعا بياقوتة حمراء .

وما قاله الهدهد لسليمان :

— « جئتك يا نبي الله بغزالة المروج ، اجمل نساء الزمان ، الجوهرة المقدسة التى صيغت من نور الايمان ، وتشربت من تسابيح العبادة ، النظرة الى عينيها تزيل الكدر ، واللمسة من يدها تنسي الانسان ذكر ربه ، شعرها عشب الخلود في وادي السعادة لو عرفت رياح الشرق مجلسها لغيرت مسراها لاجل ان تلمس شفتيها ، هأنا يا مولاي اركع تحت قدميها ، لاجمع قطرات الخجل والدلال التي تساقطت كحبات عقد انفرطت من جيد ربة الحسن والجمال ، اقتربي يا ابنة صيدون وبوحي بسر النوارس لسليمان الحكيم » .

— « على ان يعتق مولاي كل ابناء شعب ابي » .

— قال سليمان :

— « موافق والهدهد شاهد على ما اقول » .

لملك العصافير — الذي يجاوره على غصن واحد — قال الهدهد :

— « لم يجد سليمان اقوى مني شاهدا ، ترى متى كان العبيد شهود حق على اسيادهم ؟ سوف تجهز — الليلة — يا ملك العصافير الفين من رعاياك : الفا تقليه في شحم خنزير تعده عشاء لمولانا والفا تسلقه في ماء من نيل ارض مصر مزة في ليلة المضاجعة الملكية » .

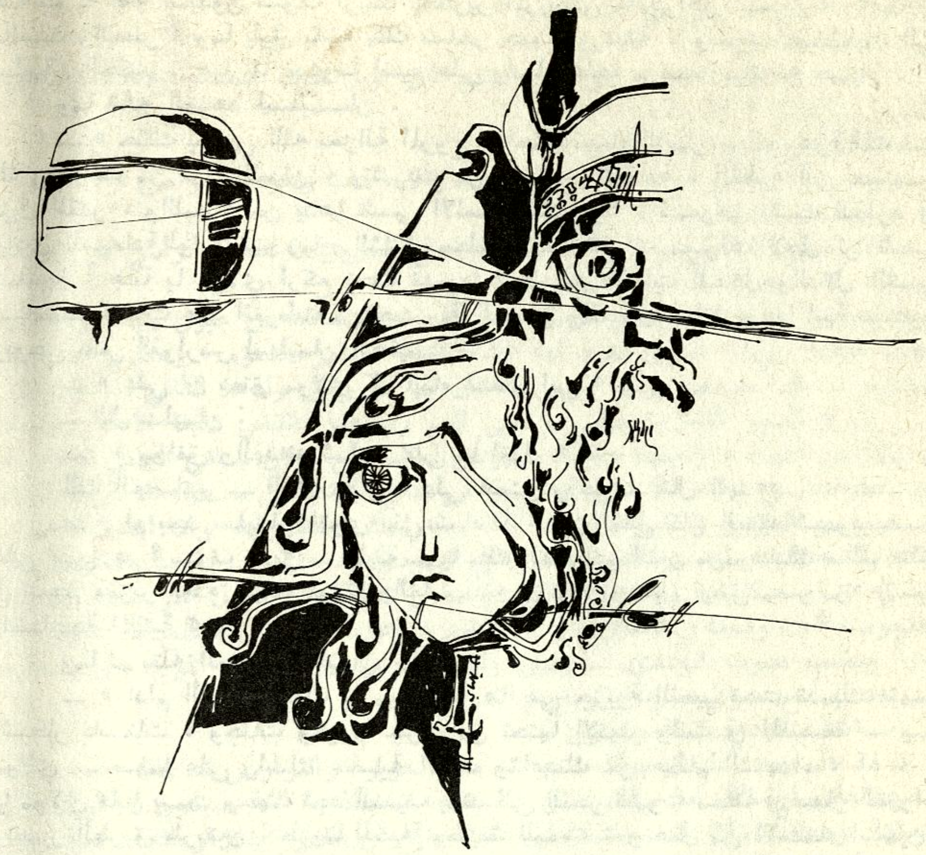
وما لم يقله الهدهد لسليمان :

— « أدام الله سلطانك يا مولاي ، ها هي جزيرة النعيم تحت قدميك فيها اشجار باسقات ، وجنات وكروم تجري من تحتها الانهار وانت في المنتصف — يا مولاي — صنما على راسك عصابة الموت وقاعدتك من عظام الشهداء ، آه ، اه يا مولاي فأين يممت وجهك تجد السيف يرتد الى النحر فتموت معلقا في بحار الفقراء، وتصير الطريق طريقين : طريقا للحياة وطريقا للموت ، وتحمل من الاسماء اسمين : اسما للحياة واسما للموت ، ويكون الزمان زمانين : زمنا لغروب الشمس وزمنا لشروق الشمس ويكون الوطن وطنين : وطنا للفقراء ووطنا للسماسرة والخصيان بينهما يولد جنينان : جنين للقهر وجنين للخلاص » .

— تطوير نهائي —

ما قالته ابنة صيدون لسليمان :

— « ادام الله سلطانك ، كانت هذه الجزيرة في قديم الزمان تدعى جزيرة النعيم . وكانت فيها اشجار باسقات وجنات وكروم تجري من تحتها الانهار . وكان في وسط الجزيرة صنم على قاعدة من مرمر ملون اما هو — الصنم — يا مولاي فكان من الحجر الاسود ، وعلى راسه اكبر جوهرة في زمانه . وكان هذا الصنم معبودا من الناس ، كل الناس الا امراة واحدة كانت تضرب بها الامثال في العقل والعفة تدعى « ترتيلة الزمان » لم تسجد لهذا الصنم ، وكانت تؤمن ان الآلهة — يا مولاي — تسكن روح الانسان ونفسه وضميره . وكان زوجها الاسد الغالب وهذا هو اسمه : عريض المنكبين قويم الخلق ، اصيل النسب شهما . وكان لهما ولدان اجمل من البدر لحظة تمامه. مرت ايام وايام واهل جزيرةالنعيم ينعمون بالهدوء والاسلام، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، كلهم سواسية ، حتى جاء ذات يوم حاكم — يا مولاي — فرق بين الناس ، وجعل فيهم الكبير وفيهم الصغير ، فيهم الغني وفيهم الفقير فيهم من يسكن في القصر ، وفيهم من لا يجد المأوى ، فعم القحط الشديد على عامة الناس ،



فراح الكثير من الفقراء ضحية الجوع وفتك الامراض ، ومن تبقى قبع في داره منتظرا، رحمة السماء . وكعهدنا بالسماء طالت رحمتها فلم يبق في الجزيرة كلب او قطة الا واكلها القوم ، او اطعموها صغارهم ، فنادى زوجها « الاسد الغالب » في الاسواق ان اقتلوا مستغليكم ، وانتزعوا منهم حقوقكم ، فتجمع الفقراء وقتلوا حاكمهم ، وولوا عليهم الاسد الغالب ، الا ان المستغلين القدامى — انصار الحاكم القتيل — كانوا اسرع منه ، فدسوا له من قتله ، قتل الاسد الغالب فدفنته شيعته في بيت ترتيلة الزمان ، لان الفقراء كانوا ينبشون القبور ويأكلون الموتى . بعدها — يا مولاي — قتل الولد الاكبر وقال انصار الوالي الجديد — المستغلون القدامى — انـــه مات ميتة ربه — وقال قائل : ن الوالي دس له السم في العسل ، فتندرت العامة قائلة ان لله جنودا من العسل . وبعد موت — او قتل — الولد الاكبر هب الاصغر للثأر ، فقتل في اخبار كثيرة ليس هذا مكانها ، واصبحت ترتيلة الزمان وحيدة ، وحيدة ، وكان يجاورها يتيمان يكادان يموتان من الجوع ، فخرجت تسأل جارا يهوديا لها ، فادخلها الدار ، واراها ما عنده من سمن وعسل ، وخبز وسألها ان تطاوعه فيطعمهـــا واليتيمين ، الا انها ابت وذات يوم عصر الجوع اليتيمين فجاءها اليهودي اللئيم يتوسل يبغي الوصال ، فأخذ يغري ترتيلة الزمان فقط مقابل ان ينام معها مرة واحدة ، فأبت ،

لكن الايام طالت كرحمة السماء وجاءها اليهود قائلا : « اذا كنت مصرة فاني اكتفي ان اراك عارية مرة واحدة ، مقابل كل وجبة طعام لك ولليتيمين » . فوافقت ، وذهبت لتطعم اليتيمين من طعام اليهودي الذي صعد الى كوة من اعلى غرفتها ، ونادى بها ان تنفذ وعدها ، وعندما سمعت نداءه تصبب جسدها خجلا ، وارتعش ندما ، وقامت تنزع عن نفسها الستر والصون ، فكانت كلما تعرى جزء من جسدها انتزعه الله من مكانه فيتفجر الدم — يا مولاي — شلالا قاني اللون : سقط الذراعان ثم النهدان ، ثم الفخذان وغطى الدم الغرفة واليهودي المتلذذ يقهقه ، فسمع الرب قهقهته فمسخه في الحال نورسا ، وتكاثرت النوارس حتى ملأت الجزيرة . (وها هو البحر تطرد اعماقه المظلمة عفونة الاجساد النتنة ، وغيمة واطئة تصبح الان قرب سطح البحر ، وها هي النوارس يا مولاي عالقة ، السماء وبين سطـــح البحر لا يقر لها قرار تدفع الثمن المعلوم) .

تلك هي النوارس وتلك هي حكاية النوارس ، فهل تنفذ وعدك يا مولاي ، وتعتق قومي كما اشترطنا » .

تكملة لما يحدث على الشاطىء :

كان الهواء يرتعش بزعيق ممزق وصراخ ابح الاصوات تصرخ كلها معا . وكان ميتم الاطفال ومرمل النساء مستلقيا ومستريحا من هيجانه المسائي ، فطوى الريس جابر : ريس المستورة جابر يدفع بطرف المذراة الى الماء ، ومثبتا الطرف الاخر في كتفه ، فتندفع المستورة الى الامام في رفق بمحاذاة الشاطىء .

رأت محاسن الفلوكة تسير بمحاذاة الشاطىء والريس جابر يقف في منتصفها مستعدا لالقاء الشبك ، فناداها صباها ، وغنى في داخلها ذلك الصوت خالي البال :

« حلوا المراكب مع المغرب وفاتوني
ع الشط واقف بلا مركب وفاتوني
ساعتها انا قلبي شهق
يشهد عليه الشفق .. »

وها هي تسمع صوت طفل — كان لها — قتل في النكسة :

— « عم يا مراكبي ، امي ولدت ولد تسميه ايه ؟ »

انحرف جابر بالمستورة تجاه الشاطىء حتى وصل الى البر فألقى بالمرساة ، وبقفزة واحدة كان امامها . اخذ بيدها واوقفها قائلا :

— « ايه يا نواحة ؟ من مات مات ومن راح قد يعود » .

داهمها وجه الولد الاكبر ولم يلبث ان تداخل فيه وجه الولد الاصغر دعكت عينيها براحتها فرأت وجه زوجها ولف الدم الجميع ، الدم الاحمر احمر يلف الارض والبحر والفضاء فصرخت من هول ما رأت وارادت الانفلات من يد جابر التي اطبقت على يدها ، تشبث جابر بيدها وراح يمسح على شعرها الاسود قائلا :

— « اللهم الطف بعبادك ، اللطف يا رب اللطف ، يا خفي الالطاف نجنا مما نخـــاف » .

اراحت رأسها فوق صدره وراحت ترتجف : « ضمني يا حبيبي ، يا ابا القتيلين ضمني ، يا قمر الارض ضمني ، هل حال ما بيننا الماء ؟ وها هو دمع عيوني فلن يرد الدمع من غابوا ، من يعيد الميتين ؟ لا انا ولا انت يا حبيبي نملك ان نعيدهما الى رحمي ماء ، اغسل شفتيك في عنقي واقتسم معي رغيف الفقر فضمني يا حبيبي ضمنـــي » .

كانت الشمس قد بدأت اشعتها في اختراق الضباب فجذبت الاشعة الصيادين

من مكامنهم ، تجمع بعض الصيادين حول ذلك المنظر : محاسن المجنونة تحتضن الريس جابر الذي راح يمسح على شعرها وبعض الدموع المتجمده تكاد تنفلت من عينيه ، ورأت محاسن ذلك المنظر : بعض الفضوليين من الناس الذين هم السنتهم مبارد في اعراض الناس قد راحوا يتجسسون عليها هي وزوجها ، لكنها لن تخجل من احتضان رجلها حتى تحت اشعة عيونهم التي تقلق الحجر ، فهمست :

ــ « ضمني يا رجل ضمني ، انهم بعض الذباب » .

احس ريس المستورة بحرج موقفه عندما انفلتت ضحكة ساخرة من فم الولد خميس قشطة ، وداهمتها لحظة النشوة في ليلة السفر : « يدك على ظهري يا رجل تحسس تلك الفقرات فقرة فقرة ، ويصبح صدري بين صدرك وبين يديك وها هما الحلمتان تتحسسان الشعيرات في صدرك ، في الصباح تسافر تحملك المراكب الى مدن العالم المقفلة الابوا ب، وتكون سمائي بعدك دون طيور ، ويكون الموت في بيتنا اليفا كالقط يا خوفا يسكن احشائي يا رعدة ادم في رحمي ، وتكون الذكرى ــ ذكراك ــ ملحا لطعامي وخيطا لخياطة اثواب الطفلين » .

سمعت الرجل ــ وهو يحاول الانفلات من ذراعيها ــ يقول :

ــ « ليس امام الناس يا محاسن ، ليس امام الناس يا ابنتي » .

صرخــت :

ــ « انت زوجي وانا زوجتك وسوف اخلع لك ثيابي كيوم عرسنا ، سوف اخلع لك ثيابــي » .

شقت الثوب من الامام ، فانقضت اشعة الشمس المتربصة على ثدييها اللذين برزا في تحد للجميع ، تراجع الريس جابر وهو يتمتم :

ــ « لا حول ولا قوة الا بالله » .

عادت محاسن تصرخ :

ــ « انت اذن لست هو ؟ انه لم يكن يخاف الناس ، كان يضاجعني والشباك مفتوحا ، وتحت اشعة القمر . وكان يعرف أن بعضهم يراقبنا من فوق اسطــح المنازل المجاورة ، كان يضاجعني في الليلة ثلاث مرات ، هل تخاف ؟ فما بالك لو خلعت كل ملابسي كيوم ولدتني امي ، كان يضاجعني ثلاث مرات يا غجر ، وسوف اريكم ما كنت امتعه به » .

اكملت تشق ثوبها حتى الذيل ، ونزعت قميصها ، وراحت تقفز في الهواء قفزات غير منتظمة ، عارضة جسدها المشدود ــ رغم سنها ــ على الجميع ، تقيأ ريس المستورة ــ بلا سبب ــ واتكأ مستندا الى سور الكورنيش ، فجأة هبطت عليهــا شبكة من تلك الشباك التى كان زوجها يجيد غزلها ، فحاولت التملص منها ، لكن الولد (خميس قشطة) كان قد احكم لفها جيدا ، فراحت تصرخ :

ــ « كلكم كلاب ، ليس فيكم رجل واحد » .

استسلمت للبكاء ، ومن بين الدمع المتساقط رأت وجه الغائب فهمست :

« تعود السفن وانت لا تعود » .

والبحر قتيل ينزف الماء من جبينه ، الحياة ماء ، الموت ماء تغسل فيه الاجساد (عند رسو المراكب في الموانىء الغريبة حيث نسوة اللذة يبعن للبحارة والمسافــرين المكان والزمان والجسد) فتعود كما كانت قبل النجاسة وكما كانت تعود رماد الحياة.

ــ استرجاع ــ

وللبحر ــ يا مولاي ــ قبل طلوع الشمس رائحة ، ومحاسن تحمل بين القميص وبين لحم الجسد ــ مملكة الانوثة والخطر ــ ثديين يكمن الحجاب بينهما والعينان ــ

يا مولاي ــ بئرا حزن ليلتي السواد والرموش حبال للغرقى ، غزالة المروج ، اجمل نساء الزمان ، الجوهرة المقدسة التي صيغت من نور الايمان وتشربت من تسابيح العبادة ، النظرة الى عينيها تزيل الكدر ، واللمسة من يدها تنسي الانسان ذكر ربه ، شعرها عشب الخلود في وادي السعادة لو عرفت رياح الشرق ــ يا مولاي ــ مجلسها لغيرت مسراها لاجل ان تلمس شفتيها ، هأنا ــ يا مولاي ــ أركع تحت قدميها لاجمع قطرات الخجل والدلال التي تساقطت كحبات عقد انفرطت من جيد ربة الحســن والجمال : ترتيلة الزمان ، الزهراء ، رفيقة الحسيب القويم الخلق الاسد الغالب يا مولاي ، القتيل ، ابا القتيلين زعيم الفقرأء يا مولاي ونحن الفقراء انتظرنا رحمة السماء . وكعهدها بنا طالت رحمتها فلماذا الحزن يا محاسن ؟ من مات مات ومن سافر قد يعود ، فضمني يا حبيبي يا ابا القتيلين ضمني ، كانت في رحمــي منك نطفتان ، وفي الصباح تسافر فضمني يا قمر الارض ، هل حال ما بيننا الماء ؟ ضمني يا رجل انهم بعض الذباب ، اه ، تعود السفن وانت لا تعود ، في الصباح تسافــر تحملك المراكب الى مدن العالم المقفلة الابواب . وتكون سمائي بعدك دون طيور ، ويكون الموت في بيتنا أليفا كالقط ، يا خوفا يسكن احشائي يا رعدة آدم في رحمي . وتكون ذكراك ملحا لطعامي وخيطا لخياطة اثواب الطفلين في ليالي الشتاء ، الحياة ماء ، الموت ماء . كان البحر قتيلا ينزف الماء من جنبيه ، ولم يجد سليمان اقــوى من الهدهد شاهدا ، فترى متى كان العبيد شهود حق على اسيادهم ؟ فالليلة تجهز يا ملك العصافير الفين من رعاياك : الفا تقليه في شحم خنزير والفا مسلوقا في ماء من نيل ارض مصر في ليلة المضاجعة الملكية ، فالرعايا دائما طعام الملوك والانبيــاء ، ويغيب الدمع من عيني ترتيلة الزمان محاسن ، ويدهمها وجه الفجرية ، ويمــوت الاول ويموت الثاني، فكبدي عليك يا ابنتي تحبلين نطفتين من صلب قتيل ، يقتل الاول يا زهراء وحيدا وبين أصدقائه ويرتوي من دمه حاكم ظالم ، كبدي عليك يا زهراء : يموت الثاني يا امرأة ميتة الفقراء في الحروب ، يا ويل قلبك الصغير ، هل تلدينهم للحروب والقتل ؟ يموت الثاني يا زهراء دون رشفة الماء الاخيرة ويصرخ جندي فقد ساقه في النكسة : « كنا قد وقعنا في الكمين رغم ان قائدنا كان يحمل علــى كتفه النسر والنجوم . آه ، وقعنا في الكمين قبل ان نقاوم وهزمنا دون ان يسمح لنا بالحرب، اه ، انا يا ودع وحيدة ، وحيدة يا ودع » .

ــ اللحن الختامي ــ

الهدهد يقول ما لم يقله لسليمان :

أدام الله سلطانك يا مولاي ، ها هي جزيرة النعيم تحت قدميك فيها اشجار باسقات ، وجنات وكروم تجري من تحتها الانهار ، وانت في المنتصف صنما على رأسك عصابة الموت وقاعدتك من عظام الشهداء اه ، اه يا مولاي فأين يممت وجهك تجد السيف يرتد الى النحر فتموت معلقا في بحار الفقراء وتصير الطريق طريقين : طريقا للحياة وطريقا للموت ، وتحمل من الاسماء اسمين : اسما للحياة واسما للموت ويكون الزمان زمانين : زمنا لغروب الشمس وزمنا لشروق الشمس ، ويكون الوطن وطنين : وطنا للسماسرة والخصيان ووطنا للفقراء بينهما يولد جنينان : جنين للقهر وجنين للثورة اه يا مولاي .... الحياة ماء ، الموت ماء ، فقل لو كان البحر مداداً فتلك حكايتي فعن محاسن والحياة والموت والسفر احكى

فؤاد نصّار ـ الرجل والقضية

سلسلة الثقافة للشعب ، الكتاب الثاني ، منشورات صلاح الدين ، القدس ، تشرين الاول ١٩٧٧

كيف يحدث أننا لا نعرف الكثير عن حياة هذا الرجل الغني عن التعريف ؟ ··

فؤاد نصار ، هو فعلا ذلك الرجل الغني عن التعريف · فمن لا يعرف المناضل الذي قارع الانتداب البريطاني منذ كان فتى ، والذي ثار مع الثوار ضد الغزاة الصهاينة ؟ من لا يعرف المناضل الصلب الذي ظل أمينا عاما **للحزب الشيوعي الاردني** ، منذ تأسيسه في أيار عام ١٩٥١ وحتى الساعة الواحدة وخمسين دقيقة من فجر يوم الخميس ٣٠ ـ ٩ ـ ١٩٧٦ ؟ من لا يعرف الرجل الذي قضى ثلثي سنوات عمره ، الاثنتين والستين ، يرسف في الاغلال في سجون الانتداب البريطاني والرجعية والاضطهاد ، أو منفيا يستميت في النضال لتحقيق العودة الى الوطن ، له ولجميع أبناء شعبه المشردين ؟

من لا يعرف الثائر في جبال الخليل ، فارس الجواد الابيض ؟

من لا يعرف هذا الشيوعي الصلب والاممي الصادق ؟

قليلون هم الذين لا يعرفونه · ولكنهم ، أيضا ، قليلون الذين يعرفون تفاصيل حياته · ذلك أن **فؤاد نصار** ـ شأن كل المناضلين الكبار ـ كان لا يرى في سيرة حياته أمرا استثنائيا ، ولم يكن يتحدث ـ الا قليلا ـ عن تفاصيلها · لكنها حياة تستحق ان تسبر وتستخلص منها الدروس ، ليتسلح بها رجال اليوم وأجيال المستقبل ، عدة تعينهم في خوض هذا الصراع الحاسم ، ضد كل الاعداء ، لتحقيق امال الشعب الفلسطيني وطموحاته المشروعة ·

ذلك هو الرجل ·· وتلك هي القضية ·

وسلسلة « **الثقافة للشعب** » ـ التي تصدر منشوراتها السياسية والثقافية باشراف المناضل **بشير البرغوثي** ـ حين تقدم حياة المناضل الكبير **فؤاد نصار** في هذا الكتاب ، بمناسبة مرور عام على وفاته ، انما تقدم مساهمة قيمة في سبيل انتصار هذه القضية· وهي ، من أجل تحقيق هذه المهمة الصعبة ، تتقصى حياة المناضل في ذاكرة رفاقه وقلوبهم · هؤلاء الذين عرفوه عن قرب أكثر من غيرهم · ومن أقدر على هذه المهمة الجليلة من رفاق **ابي خالد** ، أولئك الذين عاشوا معه الاحداث الخطيرة التي تلاحقت على أرض وطننا الحبيب ، والذين شاركوه مهمة النضال المشرف في سبيل هذه القضية ؟ من أقدر من **الدكتور اميل توما وبشير البرغوثي وغسان حرب واميل حبيبي** ، على الاضطلاع بهذه المهمة ؟ لقد اعادوا حياة القائد الى الجماهير « لتكون نبراسا ينير الطريق وأمثلة تحتذى » · ومع ذلك فهم ، منذ البداية ، يعلنون أن المهمة « ليست باليسيرة،

فتراث الرجل « غني لدرجة كبيرة ، وقد تراكم على امتداد أكثر من أربعة عقود ونصف قضاها في النضال من أجل تحرر شعبه السياسي والاجتماعي · ولا شك أن جمع كل تراثه واصدار دراسة أو أكثر عن تاريخ حياته مسألة جد هامة ، ولكنها تكاد تكون مستعصية » ·

حقيقة انها مهمة تكاد تكون مستعصية، ليس لذلك السبب فحسب بل أيضا لان **فؤاد نصار** كان « انسانا مليئا بالعواطف ، يحب ويكره ، ويتألم ، حتى العظم ، ويضحك حتى القهقهة · تحركه وتحكم تصرفاته وعلاقاته مع الاخرين أنبل المشاعر الانسانية · ونرجو أن نستميح القارىء عذرا لعدم تمكننا من الاشارة الى ذلك البعد الانساني في حياته »·

وفيما عدا ذلك فقد أفلح الكتاب في « الحديث عن بعض معالم الطريق الذي سار عليه **فؤاد نصار** وعلى بعض جوانب نضاله » ·

يقع الكتاب في قسمين رئيسيين :

الاول منهما يشمل خمس وحدات كرست للحديث عن حياة **فؤاد نصار** ، ومحاولة تسليط الضوء على مواقفه النضالية المرموقة ، واظهار مدى الارتباط بينها وبين المسيرة النضالية لشعبنا الفلسطيني وحركة التحرر العربية بشكل عام ·

والثاني ملحق يبرز مدى التقدير الجماهيري الذي حظي به القائد ، من خلال رصد ردود الفعل على وفاته ·

الدكتور اميل توما ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الوطن المحتل ، هذا المناضل المتمرس ، والذي عرف **فؤاد نصار** عن كثب ، استطاع بقدرته التأريخية المعروفة ، وبتقديره الصادق لنضال هذا القائد ، أن ينقل القارىء الى صفوف المناضلين الذين شاركهم أبو خالد النضال ضد الانتداب البريطاني وضد سياسة الاحتراب العنصري التي كان الاستعمار يغذيها ·

لقد عرف **اميل توما** مواطن القوة لدى القائد الفذ · ذلك القائد الذي « **أدرك أهداف الصهيونية المتلاحمة مع الامبريالية في ذلك العهد** » · وليس هذا فحسب فهو « لم ينزلق كما انزلق اخرون في هوة استبدال مكافحة الامبريالية البريطانية بالاحتراب العنصري »· وهو حين شهر بندقيته وحارب بشجاعة قوات الاحتلال ، خلال ثورة عام ١٩٣٦ في جبال الخليل ، كان مثال المناضل والمحارب الطاهر النظيف ، الذي لم ينحرف لتصفية خلافات شخصية أو حزبية ·

في الصفحات القليلة التي اودعها **اميل** توما كل حبه واخلاصه لنضال وثورة الشعب الفلسطيني يبرز ـ وهو الخبير بحركة التطور الاجتماعي ـ « دور الجناح اليساري في الحركة القومية العربية الفلسطينية » حيث « احتل **فؤاد نصار** (أبو خالد) . مكانا مرموقا في الصدارة »· كما يبرز ، بشكل جلي ، أثر معاناة القائد الثورية ، التي أسهمت في بلورة توجهه نحو الشيوعية · فلقد كان لسنوات النفي التي قضاها في العراق والتقائه عددا كبيرا من القادة الوطنيين والتقدميين أثرا كبيرا على انخراطه بنشاط جم في **عصبة التحرر الوطني** ، واتخاذه ، خلال برهة قصيرة ، مكانا في قيادة العصبة » ·

ويشيد **الدكتور اميل توما** بدور **فؤاد نصار** الحاسم في انعقاد « **مؤتمر العمال العرب** » في ١٩ اب ١٩٤٥ ، حيث اجتمع ممثلو (٢٠) الف عامل عربي من جميع انحاء فلسطين « وقرروا تأليف **مؤتمر العمال العرب** ، ليكون أداة كفاح ثوري وأساس وحدة عمالية ديموقراطية » ·

فؤاد نصار لم يعمل منعزلا عن الجماهير من برج عاجي · في تلك السنوات الصعبة كنت تجده مع كل حدث ، مع كل خطوة نضال مع كل انتفاضة · هكذا كان عام ١٩٤٦ عندما انفجر الاضراب التاريخي الذي شارك فيه الموظفون والعمال العرب ، والذي استمر عشرة أيام ·

فؤاد نصار كان يرى « **المعركة النقابية جزء لا يتجزأ من المعركة الوطنية من اجل التحرر القومي** » · وهذا يفسر اهتمامه الجاد بتنظيم الحركة النقابية على أسس ديموقراطية ·

لقد كان مجال النضال عند **فؤاد نصار رحبا** · أنه النضال المثابر ضد الاستعمار والامبريالية **بشكل عام** · النضال من أجل تصحيح مسار الحركة القومية العربية وتوحيد صفوف القوى الوطنية · وفي سبيل قيام « جبهة وطنية حقيقية تقف في وجه محاولات الاستعمار التي تؤيدها العناصر المهادنة في العالم العربي » ·

واذا فشلت جهود عصبة التحرر الوطني في « تقويم اعوجاج الجناح المسيطر على الحركة القومية العربية الفلسطينية بقيادة المفتي **الحاج امين الحسيني** ، وممثله في فلسطين **جمال الحسيني** ، رئيس الحزب العربي ، الذي ألف **اللجنة العربية العليا** فانه لم يفشل في المساهمة الفعالة ببناء **الجبهة الوطنية** من ممثلي **عصبة التحرر الوطني** واحزاب **الاستقلال والدفاع والاصلاح ومؤتمري الشباب والعمال والكتلة الوطنية** · هذه الجبهة لعبت دورا هاما في تحديد أهداف النضال الوطني ، ولقيت استجابة كبيرة ، رغم الهجوم الذي شنته **اللجنة العربية العليا** ، بقيادة**جمال الحسيني** ، التي تشكلت في حزيران عام ١٩٤٦ ، ضد « اليسار » ،المتمثل في هذه **الجبهة الوطنية** ، متهما هذا «اليسار» بانه ينادي بالوحدة بين العرب واليهود ، مما يتنافى مع **الميثاق الوطني** ·

وهنا تجلت جراة **فؤاد نصار** في التصدي لهذا الهجوم الرجعي ، مظهرا ، من خلال محاضراته وكتاباته « أن العصبة تفتخر بسياستها الجريئة ، ولا تسمح بتشويه نضالها · وهي تنادي بضرورة النضال ضد الاستعمار والصهيونية » · ولقد اكد **فؤاد نصار** على أن التحالف مع القوى المناضلة ضد الاستعمار والصهيونية والتفريق بين الصهيونية والجماهير اليهودية ليسا خرقا **للميثاق الوطني** ·

ومن مواقف القائد الفذة ، التي يبرزها اميل توما ، موقفه في مناهضة الارهاب والاحتراب العنصري ، الذي بلغ عام ١٩٤٧ حدا خطيرا بين العرب واليهود · فجاء **مؤتمر عصبة التحرر** ، الذي عقد في يافا في حزيران ١٩٤٧ ، والذي انتخب **فؤاد نصار** عضوا في سكرتيرية اللجنة المركزية ، جاء ببرنامج العصبة الذي دعا الى **تصفية الانتداب البريطاني واقامة دولة فلسطينية ديموقراطية مستقلة** ، وحذر الجماهير اليهودية » من الهوة السحيقة التي تجرها اليها القيادة الصهيونية والمتآمرة مع الاستعمار الاميركي والبريطاني الذي يريد أن يجعل من هذه الجماهير وسيلة لضرب الحركة الوطنية التحررية في العالم العربي والى اغراق فلسطين في بحر من الصراع العنصري » ·

ويؤكد **اميل توما** على **المواقف الوطنية بعيدة النظر للقائد ابو خالد** · ففي ايلول ١٩٤٧ أسهم بشكل رئيسي في تنظيم **المؤتمر الثالث** الذي نظمه **مؤتمر العمال العرب في** فلسطين ، **تحت شعار المطالبة بالجلاء والاستقلال التام** · وحذر من الخطر الحقيقي المتمثل في محاولة تقسيم البلاد متخذا من سياسة الاستعمار في الهند درسا يجب الاستفادة منه · ورغم ذلك فقد أيد **فؤاد نصار** ورفاقه قرار التقسيم ، الذي صدر عن الامم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، **لا على** اعتبار انه **الحل الامثل** انما باعتباره **الحل الضروري في** تلك اللحظات التاريخية لانه **يصفي الانتداب** البريطاني ويمنح الشعب **الفلسطيني حق اقامة دولته المستقلة وحق تقرير المصير** · وقد أظهرت الاحداث التالية صحة هذا التوجه · **فلقد** تآزرت **قوى** الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية **للوقوف في وجه التحقيق العملي لهذا القرار**، بالشكل الذي أقرته الامم المتحدة · **فهيأت** اقامة الدولة الصهيونية ، وحالت دون **تحقيق** الدولة الفلسطينية ، وسهلت اغتصابها من قبل

ملك شرقي الاردن · كما شنت هذه الانظمة **هجمة** شرسة ضد الشيوعية ، رغبة منها في **التغطية على مواقفها المتخاذلة** ، وانتقاما من **الشيوعيين** الذين أسهموا ، بشكل رئيسي ، في **فضح** المؤامرة ·

وفي خضم هذه الاحداث المأساوية التي عصفت بالشعب الفلسطيني ومزقته ، تمزقت **عصبة التحرر** بين الجزء الذي اغتصبته الصهيونية (اسرائيل) وبين قطاع غزة والضفة الغربية · وفي الضفة قاد **فؤاد نصار** نضالا شاقا نجح ، من خلاله ، في اعادة بناء العصبة كتنظيم سياسي رائد · وهكذا ففي بداية عام ١٩٤٩ كانت أولى **نشرات « المقاومة الشعبية » تدعو الى احباط مؤامرة الضم والى قيام الدولة الفلسطينية المستقلة** ، حيث استمرت في نضالها حتى خريف عام ١٩٥١ ، حيث نشأت ظروف جديدة اقتضت انبثاق **الحزب الشيوعي الاردني** ، الذي ظل **فؤاد نصار** أمينا عاما له حتى وفاته ·

وفي نفس هذا القسم ، أيضا ، يكتب **بشير البرغوثي** ، تحت عنوان » ارادة لا تقهر على طريق مجيد » ، عن **فؤاد نصار** ، في الفترة التالية للتقسيم · فيتحدث باسهاب ، حديث العارف بتفاصيل نضال **فؤاد نصار** في مواجهة الصهيونية والامبريالية والفئات البرجوازية · ويظهر مدى الصدق الماركسي لديه في التعامل مع الجماهير ،رغم الصعوبة في تفهم هذه الجماهير للطرح الماركسي ضمن واقع التشتت الذي كان الشعب الفلسطيني يعيشه ، والذي كان يشكل عاملا ضاغطا باتجاه المطالبة بحلول سريعة **مما ادى الى انتعاش الفئات** البرجوازية التي كانت تجزل في طروح تمني الشعب بحلول سريعة لا يمكن تحقيقها ·

ونتيجة لهذا الواقع ولمواقف الشيوعيين الجريئة ، التي اعتمدت أساسا لها توعية الجماهير ـ لانها « لا تستطيع أن تتحول الى قوة ثورية فاعلة ان لم تدرك حقيقة وضعها وسبل تحسين هذا الوضع » ـ كما يقول **فؤاد نصار** ـ نتيجة لذلك تعرض الشيوعيون الى اضطهاد كبير · وقد عانى **فؤاد نصار** كثيرا من ذلك الاضطهاد ·

ان اهتمام **بشير البرغوثي** ببعض خصال **فؤاد نصار** له ما يبرره · فعمله على تثقيف نفسه ، وبذله جهدا كبيرا واتباعه نظاما قاسيا من أجل ذلك ، مكنه من تكوين معرفته الواسعة بالماركسية ومنهجها الديالكتيكي ، مما أكسبه قدرة متقدمة على التحليل العلمي الصحيح · **وعصبة التحرر الوطني** كانت في ذلك الوقت ، في أمس الحاجة الى هذا التحليل العلمي الدقيق ·

من هنا ندرك أهمية الموقف الذي اتخذه **فؤاد نصار** ، والذي دفع العصبة التى تبني شعار الدولة الفلسطينية المستقلة ، بموجب قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ ومطالبتها باسترجاع الاراضي التي احتلتها اسرائيل خارج الحدود التي رسمها القرار · وكذلك موقف العصبة في معارضة محاولات النظام الاردني لضم الاجزاء المتبقية من فلسطين الى شرقي الاردن الذي تمثل في مقاطعة انتخابات ١٩٥٠ ومعارضة « **مؤتمر اريحا** » وتنظيم المظاهرات في نابلس سنة ١٩٥٠ ضد ضم الضفة الغربية التي استشهد فيها العامل الشيوعي **روحي زيد الكيلاني** ·

في اطار هذه الاحداث يبرز **بشير البرغوثي** قدرات **فؤاد نصار** القيادية التي أدت الى اختياره عام ١٩٥١ أمينا عاما **للحزب الشيوعي الاردني** ·

ويخصص **بشير البرغوثي** للاضطهاد الذي تعرض له **فؤاد نصار** ، ولصموده البطولي في وجه هذا الاضطهاد ، جزءا هاما من كتابته · فأشار الى اعتقاله وسجنه وظروف محاكمته الصورية التي اثارت استنكارا وسخطا شديدين في الاوساط الوطنية ، المحلية والعربية والدولية · ويركز أكثر ما يكون على ظروف معتقل **(الجفر)** الصحراوي ، فيقدم صورة عن هذا المعتقل تدل على مدى القمع والاضطهاد الذي تعرض له المناضلون في ظل النظام الاردني

الاردني من ناحية ، وارادة الصمود والانتصار التي تمثلت في تحويل هذا المعتقل الرهيب الى مدرسة نضالية تخرج منها اكثر المناضلين وعيا وصلابة . وتبرز في المعتقل قدرات جديدة للقائد ، ويكشف النقاب عن خصال غاية في السمو .

ويكشف البرغوثي كيف أصبح نمو « مجتمع » المعتقل مقياسا لتنامي الروح الوطنية ولدى تسعير هجمة النظام ضد هذا المد ففي السنوات ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ظهرت احزاب وطنية جديدة ، كالحزب الوطني الاشتراكي وحزب البعث العربي الاشتراكي ، وفي ١٩٥٤ تشكلت « الجبهة الوطنية » في الاردن . وخوفا من طغيان الحركة الوطنية لجأ النظام الى القمع الوحشي ، وتركز هذا القمع بشكل رئيسي ضد الشيوعيين . ومع ذلك قاد الشيوعيون كل الاعمال التحريضية ضد « حلف بغداد » ، وأشهرها المظاهرة الصدامية في اب ١٩٥٥ .

وبعد طرد « جلوب » القائد البريطاني للجيش الاردني عام ١٩٥٦ ، وما تبعه من نهوض وطني ، خرج فؤاد نصار من «انجفر» بعد محاولات فاشلة لابقائه . واغلق معتقل الجفر ، ولكن لفترة قصيرة ، اذ عاد « ليستقبل » المناضلين بعد ستة شهور .

كما يخصص بشير البرغوثي جزءا مهما من كتابته لابراز دور فؤاد نصار « كمناضل مثابر ضد الانتهازية » ، اذ انه كشف عن بداية الانحراف اليميني الذي قاده فهمي السلفيتي . وجلى حقائق هامة تبرز نضال فؤاد نصار ضد هذا التيار الخطر . وقد اعتمد الكاتب ، أساسا لذلك ، الكراس الذي كتبه الفقيد بنفسه « حول القضية الفلسطينية والحركة الفلسطينية وموقف الزمرة المنشقة منهما » ، كما اعتمد على كتابات فهمي السلفيتي نفسه ، في فترات متفاوتة تبرز « تطور » التحليلات التي قدمها حول سياسة حكام الاردن . كما يربط بين هذه المواقف اليمينية والمواقف اللاحقة التي اظهرت معارضة واضحة للحركة الوطنية الفلسطينية والمقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي . وقد عبر فؤاد نصار عن معارضة لهذا الاتجاه ، في تقاريره الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني ، واهمها تقريره المنشور في أواخر اب ١٩٦٨ . وقد علق فؤاد نصار على انشقاق هذه الزمرة الذي جاء بعد مجازر ايلول ١٩٧٠ بقوله « ان الانتهازيين في كل زمان ومكان هم هم ، يهربون من النضال ، وعندما تصاب الحركة الثورية بنكسة يشهرون عليها اسلحتهم الحاقدة ، ليزرعوا في صفوفها البلبلة واليأس » .

ويلخص بشير البرغوثي جوهر الخلاف بين الحزب الشيوعي الاردني وزمرة المنشقين ، فيما يتعلق بالموقف من الثورة الفلسطينية ، بمقتطف من كراس فؤاد نصار « حول القضية الفلسطينية .. » المذكور : « ان امكانية لجم عدوانية اسرائيل بالوسائل السياسية لا ينفي الاحتمال الاخر ، أي اضطرار الشعوب العربية الى أن تلجأ ، في ظروف معينة ، الى استخدام السلاح ، ما دامت الاوساط الحاكمة الاميركية تلعب ورقة الحروب المحلية - كما جاء في وثيقة الاحزاب الشيوعية والعمالية - وما دام حكام اسرائيل لا يكفون عن الاعتداء والتوسع والقيام بدور المركز الامامي للامبريالية العالمية في منطقة الشرق الاوسط » . ويضيف « هذا هو جوهر الخلاف بين الحزب الشيوعي الاردني وزمرة المنشقين . انه خلاف الماركسية اللينينية والزمرة الانتهازية الكوزموبوليتية (اي اللاوطنية) » .

كما انه نشر ، في كانون الثاني عام ١٩٥٦ مقالا بعنوان « طريق التحرر التام والديمقراطية والتقدم الاجتماعي » ، يتعرض فيه للنهج الاقتصادي للنظام الاردني ، وأظهر كيف أنه يعزز تبعية البلاد للامبريالية .

كما أظهر الآثار السلبية لسلوك الطريق الرأسمالي على المسائل الاقتصادية والسياسية ، وما يؤديه من توسيع للقاعدة

الاجتماعية للاستعمار الجديد . وهو ما عجز المنشقون عن استيعابه ، مما دفعهم الى الاعتقاد بأن حالة الرخاء التي ظهرت بالاستناد الى نظام الانفاق الاستهلاكي ، هي ظاهرة تقدمية ، فأخذوا يتقربون من النظام وأصبحوا شركاء في سياسة الاستعمار الجديد .

ان بشير البرغوثي قد قدم ، من خلال كتابات فؤاد نصار ، صورة في غاية الوضوح عن النضال الدؤوب له ضد التيار الانتهازي ، الذي تم اجتثاثه من الحزب الشيوعي الاردني على قاعدة هذا النضال .

ويخصص الكاتب جانبا عظيم الأهمية من كتابات فؤاد نصار عن القضية الفلسطينية والعلاقة مع الثورة الفلسطينية . فيبرز المواقف المبدئية للحزب الشيوعي الاردني في تضامنه مع منظمة التحرير واشتراكه في مقاومة الهجمة الرجعية أثناء معارك أيلول ويسفه الهجوم الذي قاده المنشقون على الحزب (الذي « تذيل - حسب تعبيرهم - لحركة المقاومة الفلسطينية) . بينما يقول فؤاد نصار « ان الاحتلال الاسرائيلي ، وظهور حركة المقاومة قد طرحا ، من جديد وبقوة أعظم ، القضية الفلسطينية على المسرح العربي وعلى الرأي العام العالمي والمجتمع الدولي » . ويقول عن الحركة الوطنية للشعب الفلسطيني أنها « بعثت الشعب العربي الفلسطيني ، واحيت كيانه وأبرزت شخصيته ، وعكست إرادته وتصميمه على استرداد حقوقه » .

لقد رأى فؤاد نصار أساسا هاما من أسس نضال الشعب العربي الفلسطيني في سبيل استرداد حقوقه وهو ضرورة تلاحم هذا النضال مع حركة التحرر العربية والعالمية : « ان حل القضية الفلسطينية ، والنضال لأجل استرداد حقوق الشعب العربي الفلسطيني ، لا يمكن ان يتما بمعزل عن حركة التحرر العربية والحركة الثورية العالمية ، وغير ذلك يؤدي ، عن قصد او غير قصد ، الى وضع القضية الفلسطينية في معارضة هاتين الحركتين » .

ويظهر الكاتب من خلال مؤلف فؤاد نصار هذا ، مدى تلاحم الصهيونية والامبريالية بدءا من العلاقة الانكلو - صهيونية ، حتى العلاقة الصهيونية الاميركية بشكل عام ، عندما أصبحت اميركا تتزعم صيانة هذه العلاقة . وخلال ذلك يكشف جذور المؤامرة ويتابع تسلسل حلقاتها مستعرضا المواقف الامبريالية المعادية لحقوق الشعب العربي الفلسطيني وحركة التحرر العربية ، والمواقف المبدئية التي يقفها الاتحاد السوفياتي ، والمعسكر الاشتراكي بشكل عام الى جانب القضايا المصيرية للشعب الفلسطيني والشعب العربي بشكل عام وجميع حركات التحرر الوطني في العالم .

وتحت عنوان « فؤاد نصار في المنفى » يكتب غسان حرب عن معنى الوطن عند فؤاد نصار . « كان يرى الحركة الاجتماعية التي تمور بين جنبات هذا الوطن ، مفجرة شتى النضالات والمعارك ضد المستعمرين والمحتلين على مختلف صورهم وأشكالهم وضد المستغلين بشتى أنواعهم . كان يرى في الوطن الناس البسطاء من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين الذين يشيدون عبر شتى التضحيات والآلام ، لبنات المستقبل السعيد المشرق » . من هذا التعلق بالوطن ندرك قسوة النفي على فؤاد نصار . وندرك أيضا ، انخراطه المستمر في العمل النضالي في المنفى لتخفيف وطأة هذا النفي .

يتحدث غسان حرب عن الخروج الاضطراري لفؤاد نصار من الوطن بعد ثورة ١٩٣٦ ، بناء على طلب من قيادة الثورة وعن خروجه عام ١٩٥٧ على اثر الانقلاب الرجعي في الاردن ، بناء على طلب من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني حيث انتقل الى سوريا وأشرف على بناء جبهة وطنية تقود النضال في الاردن في اواخر عام ١٩٥٧ سميت « جبهة التحرر

القومي » ، ضت ممثلين عن الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية · كما يكشف الكاتب عن الدور الكبير الي لعبه **فؤاد نصار** في شرح قضية شعبه لشعوب البلدان التي اقام فيها ، وخاصة الدول الاشتراكية · وقدم صورة واضحة عن نشاطاته السياسية والثقافية ، وعن علاقاته مع الطلبة الذين يدرسون في الخارج وأثار بعض الجوانب التي لم يتطرق لها الكتاب السابقون ، مثل احترامه [illegible] للغير وتواضعه ·

هذه حياة **فؤاد نصار** كما قدمها الرفاق الثلاثة ، والذين أشاروا ، منذ البداية ، أن تقديمها بصورة شبه كاملة هو مهمة ليس من السهل تحقيقها · ولذلك فلقد لجأ الناشر الى أفتتاح القسم الأول من الكتاب تحت عنوان « حياة فؤاد نصار في سطور » لتكون عونا للقارىء على ربط الاجزاء الثلاثة التي قدمها الكتاب ·

أما القسم الثاني من الكتاب أو الملحق فيتضمن « وصفا للحدث الجلل بما رافقه من ردود فعل القوى التقدمية على خسارة القائد الكبير **فؤاد نصار** وبعض رسائل النعي والتعازي وكذلك كلمات التأبين التي ألقيت في احتفالات تأبين المناضل الخالد (**أبي خالد**) »·

وللحقيقة فان ردود الفعل هذه ، تظهر مدى تقدير جماهير الشعب العربي والفلسطيني بشكل خاص لنضال القائد **فؤاد نصار** » وهي في هذا التقدير ، تؤكد مدى وعيها ومعرفتها للقوى التي تعمل ، فعلا وباخلاص ، في سبيل تحقيق كافة حقوق هذه الجماهير · ان خروج جنازة ـ تظاهرة ، طولها ٢ كم ، شاركت فيها الشخصيات الوطنية بالاضافة الى رفاق **فؤاد نصار** ، لهو دليل على التقدير العميق لنضال هذا الرجل ، فبالرغم من الموقف المعادي الذي اتخذه ـ ويتخذه دائما النظام الاردني من الشيوعيين أحياء ، أو امواتا ، الا ان الجماهير ، في تلك اللحظة ، عبرت عن احتقارها ولا مبالاتها تجاه سياسة النظام وقمعه ، في سبيل التعبير عن عميق احترامها للقائد **فؤاد نصار** ·

[illegible] هذا الاحترام والتقدير في [illegible] التي صدرت عن **الحزب الشيوعي الاردني ، والتنظيم الشيوعي الفلسطيني ، والحزب الشيوعي (الاسرائيلي)** التي أشادت بكفاح القائد الراحل · وتجلت كذلك ، برسالة **اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني** التي أشادت بالنضال الدؤوب الذي قاده **فؤاد نصار** ، وأبرزت مواطن قوة أي حزب شيوعي · « قوتنا التي لا تقهر ، هي في وحدتنا المبدئية الفولاذية ، في تمسكنا بالمبادىء اللينينية في التنظيم الحزبي ، في ولائنا الذي لا حد له لقضية الحزب » · والتي اكدت تصميم الحزب على الاستمرار في التصدي « لكل المفاهيم الشوفينية والقومية الضيقة وللميول اللاوطنية الكوزموبوليتية ، التي تجسدت في زمرة السلفيتي المنشقة » ·

كما تقدمت الاحزاب الشيوعية بالتعازي **للحزب الشيوعي الاردني** ولعائلة الفقيد · وكذلك مجلة «**قضايا السلم والاشتراكية** » ، وجريدة « **ازفستيا** » ، الناطقة بلسان الحكومة السوفيتية · وكرست جريدة « **الاتحاد** » افتتاحية لوداع رفيق العمر · « وداعا أبا خالد يا رفيق العمر » · مما ورد فيها « ولا بأس ونحن نقف خاشعين ومذهولين أمام ضريحه الأخضر أن نفضي بسر بريء من أسرارنا وهو أن الواحد منا ، حين كان يقيض له السفر الى اوروبا ويعود كان الباقون منا ، أول ما يسألونه : هل التقيت أبا خالد » ·

وكذلك كتب المناضل الشيوعي الكبير والاديب المعروف ، **اميل حبيبي** مقالا في صحيفة «**الاتحاد** » ، تحت عنوان (**فؤاد نصار « ابو خالد » حياة وذكرى عاطرة**) · أشاد فيه بخصال القائد الكبير ، واستعاد مواقفه النضالية الفذة · ويشير **اميل حبيبي** الى الدور الكبير الذي لعبه ،"نشاطا

سياسيا وتثقيفيا ونقابيا ضخما ، **فؤاد نصار** في مدينة الناصرة ، يمكن اعتباره القاعدة الصلبة التي قام عليها بنيان حزبنا الشيوعي في الناصرة ، وفي قرى الناصرة ، فيما بعد · **ويجدر بالرجعية الحاكمة في اسرائيل ، وهي لا تزال تحلم باضعاف حزبنا في منطقة الناصرة ، أن تسترجع هذا التاريخ وأن تدرك أن الشيوعية في الناصرة اصبحت تاريخا وتقليدا وجذورا شعبية ضاربة في اعماق الارض** » ·

ويتضمن الملحق كلمات التأبين التي القيت في الاجتماع التأبيني الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (**الاسرائيلي**) في تل ابيب يوم ٢٨ ـ ١٠ ـ ٧٦ حيث تحدث السكرتير العام لراكاح «**ماير فلنر** » وكثير من القادة الوطنيين والتقدميين في الارض الفلسطينية المحتلة ، من بينهم **كريم خلف** ، رئيس بلدية رام الله ،**ورايق جرجورة** رئيس بلدية الناصرة بالوكالة « **وبشير البرغوتي** ، **والاستاذ حمدي الحسيني** ، **وتوفيق طوبي** سكرتير راكاح ، وغيرهم ·

ومما أورده « **ماير فلنر** » ، في كلمة التأبين ، ما يميز شخصية فؤاد نصار الوطنية الشيوعية « **كان فؤاد نصار وطنيا فلسطينيا ووطنيا أردنيا عظيما ، وقائدا شيوعيا بارزا · وهذا ما يميز شخصيته · فالوطنية والشيوعية صنوان · والشيوعي هو الوطني المخلص لشعبه والمكافح من اجل حريته ومستقبله الاشتراكي** » ·

وتحدث **توفيق طوبي** باسهاب عن نضال القائد وتضحياته ومواقفه الصلبة · وأظهر مدى صداقة **فؤاد نصار للاتحاد** السوفياتي واخلاصه لهذه الصداقة · وأبرز أثره على الحركة الشيوعية والحركة الوطنية التحررية بشكل عام · وأشاد بدوره الحاسم في اللقاء التاريخي بين وفدي الحزبين الشيوعيين الاردني وراكاح ،وصدور بيان مشترك عنهما ·

ويختتم الكتاب بمقتطف من كلمة الأب **سمعان نصار** ، أخو الفقيد ، تشير الى الاعتزاز بنضال **فؤاد نصار** ، واعتزاز اكبر بما خلفه ـ ككل المناضلين ـ من محبة واحترام الجماهير له ·

محمود قدري

جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وانوثة
دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٧

لا أحد ينكر أهمية الأدب في تكريس القيم والمفاهيم ، وغرس حقائق جديدة تخدم الايديولوجية السائدة لكل مرحلة تاريخية · لقد عرفت الانسانية الادب كضرب من ضروب الفن الذي أدركت المجتمعات الانسانية ضرورته في تقدم المجتمع الانساني السيطرة على الطبيعة ، فهو ضرورة وليس متعة او تسلية. فرقص الانسان الاول قبل الصيد كان مقدمة ضرورية للشعور بالقوة ، ورسم الحيوان على الجدران كان وسيلة للتفوق على الحيوان ، والسيطرة عليه ، وعندما ظهرت الطبقات في المجتمع الانساني بدأ الفن يعمل لصالح الطبقة المسيطرة وطبقا لفكرها وايديولوجيتها · فالأديب يكتب اما بهدف ترسيخ مفاهيم معينة وقيم سائدة خدمة للنظام كجزء من الايديولوجيا السائدة ، واما أنه يكتب بهدف التغيير. وفي كلا الحالين فالأدب له اكبر الاثر في نفسية القراء وفي تحقيق الاهداف السياسية والاجتماعية المرجوة ·

وفي هذا الوقت ، الذي تواجه فيه الامة العربية مرحلة تحول مصيرية ، يبرز الدور الاساسي والفاعل للادب العربي في المساهمة في وضع الانسان العربي امام مسؤولياته كانسان فاعل ومؤثر له دوره الكبير في عملية التغيير ، وهذا ياتي من خلال محاربة الأدب للافكار الرجعية والجمود الرجعي والمثل والنماذج الرجعية والسلوك البرجوازي والرأسمالي ، ومن خلال العمل على خلق ادب قومي عربي يغترف من التراث كل ما هو ايجابي وعملي وعقلاني ويستبعد منه المتخلف والمشعوذ ، أي ان تكون للادب نظرة نقدية علمية .

والادب الروائي من اكثر انواع الادب تاثيرا في المجتمع ، مجتمعنا العربي ، خاصة وان الكثير من الروايات والقصص تخرج افلاما سينمائية والسينما والتلفزيون من اكثر الوسائل الثقافية انتشارا ، ومن أهم وسائل الاعلام تاثيرا في الجماهير فالرواية تعتبر جزءا من الادب التربوي الموجه .

وانطلاقا من أهمية الادب في تشكيل المفاهيم والقيم الاجتماعية للمجتمع ، وادراكا للدور الخطير للادب في تشكيل وعي الانسان ، يتناول **جورج طرابيشي** في دراسته « شرق وغرب رجولة وانوثة » العلاقات « الحضارية » بين الشرق والغرب من خلال روايات لأدباء عرب ، منطلقا من نقطة هامة جدا في قضية وعي الانسان العربي وهي علاقته بالمرأة ، هذه العلاقة التي تحكمها تراكمات من القيم والمفاهيم الاجتماعية التي تنظر الى المرأة نظرة دونية نتيجة الشروط الاجتماعية التي خضعت لها المرأة منذ آلاف السنين ، مما كان له اكبر الاثر في سلبيتها وتحديد قدراتها ومنع ذكائها من النمو مما اثر في قولبتها في قالب معين .

ينطلق الكاتب من مفهوم الرجولة والانوثة الذي يحكم العلاقات بين الرجل – الشرقي والمرأة ، محللا العلاقات بين الشرق والغرب من خلال الشخصيات الروائية التي اختارها كنماذج ابتداء من « **عصفور من الشرق** » **لتوفيق الحكيم** ، ومرورا بـ « **الحي اللاتيني** » **لسهيل ادريس** ، ووصولا الى « **موسم الهجرة الى الشمال** » **للطيب صالح** ، بالاضافة الى تناوله لقصص وروايات لفؤاد الشائب **وعبد الرحمن منيف ، وعبد السلام العجيلي** . ويؤكد الكاتب أن مفهوم الرجولة والانوثة يغدو « مفهوما موجها لا للعلاقات بين الرجل والمرأة فحسب ، بل أيضا للعلاقات بين الانسان – الشرقي – والعالم (ص ٥) .

تحت عنوان **«تجنيس العلاقات الحضارية»** يقول المؤلف في مقدمة الدراسة "أن في عملية « المثاقفة » بافتراضها وجود طرفين موجب وسالب ، فاعل ومنفعل تطرح نفسها على الفور عملية ذات حدين مذكر ومؤنث ، ولكن نظرا الى أن الثقافة الحديثة – نظير القديمة – هي في الأساس والجوهر ثقافة ذكور ، فان « المثاقفة » لا توقظ في الطرف المتلقي احساسا بالدونية المؤنثة بقدر ما تبعث فيه شعورا مرهقا بالخصاء الفكري والعنة الثقافية ، وتحت هذا الاحساس الذي لا يطاق ذله يلوذ مثقف المستعمرة أو المستعمرة السابقة أول ما يلوذ بماضيه الحضاري الذي يفترض فيه أنه ينم هو الاخر عن رجولة"(ص ١١)

في رواية « **عصفور من الشرق** » **لتوفيق الحكيم** الصادرة عام ١٩٣٨ · يخف طابع التحدي والعنف والحقد الدفين الذي يميز العلاقات بين المستعمر (بفتح الميم الاخيرة) والمستعمر سابقا ، فتطرح الرواية علاقة المثقف الشرقي بالثقافة الفرنسية ولأن مصر عاشت فترة تحت الاحتلال الانجليزي ونظرا لان فرنسا كان مرورها الكولونيالي بمصر قصير الامد ، فان طبيعة العلاقة بين المثقف الشرقي الآتي من مصر وبين العاصمة باريس يجعل الرمزية الجنسية تفقد الكثير من حدتها وعنفها وتوترها ، وهذا واضح في رواية **توفيق الحكيم** هذه التي هي أول رواية عربية تعالج موضوع العلاقات بين الشرق والغرب · « **محسن** » بطل رواية

« **عصفور من الشرق** » يشعر بثقة كبيرة برجولته الى حد الغرور ، وحتى نفهم نفسية « **محسن** » علينا ان نتعرف الى عالم **توفيق الحكيم** مبدع شخصية محسن هذه ، ذلك ان **محسن** ما هو الا امتداد لشخصية **توفيق الحكيم** نفسه ، وحتى نفهمها فهما كاملا علينا أن نعرف رأي **توفيق الحكيم** في الحياة ، والفن والعلاقة بينهما ، وفي الفنان وعلاقته بالحياة والمرأة ، لتوفيق الحكيم نظرة ثنائية الى العالم · وهذه الثنائية تحكم نظرته الى الحياة والفن بشكل عام ، هذه الثنائية التي تجعل منه شخصية مزدوجة تنعكس ازدواجيتها على مفهومه للامور · مما يجعله يعيش في عالمين متناقضين ، عالم المطلق ، المجرد ، وعالم الواقع المادي أو – الحيواني – كما يسميه ·

ثم ان الحياة في نظره قدر مكتوب على البشر ، وهو فنان « أراد » له القدر ان يكون كذلك ، وليس هو الذي اختار ان يكون فنانا ، وبما أن المسالة مسالة قدر فانه يرى أن قدره وضعه فوق مستوى البشر ، مما جعله يبتعد عن الشرط البشري ويتعالى عليه ، فهو يرى أن الفنان نبي اراد له القدر أن يضع على منكبيه رداء « العبقرية والخلق » ، ولذلك فهو ليس في منزلة البشر الآدميين المرتبطين بالواقع ، بالطين · فالموهبة الفنية تجعل من الفنان ذلك النبي الذي يتعالى ويسمو على الحياة · هذا التعارض بين الحياة والفن في نظر **توفيق الحكيم** جعل منه نبيا يتعالى على الحياة والواقع ، فالفن سمو للاعلى والحياة انحطاط للاسفل ، والفنان الحق في نظره هو الذي يتعالى على أمور الحياة ويسمو عليها بقتله المشاعر التي يشعر بها بقية البشر ، وتغلبه عليها ، فالفنان على هذا الاساس لا يشعر بأي ارتباط بينه وبين البشر ، فهو متجرد من كل المشاعر وهو بالتالي ليس انسانا لان المشاعر الانسانية ما هي الا « وحل البشر » الذي لا يجب على الفنان أن ينزل اليها من علوه الشاهق في عالم الفن ، عالم المطلق والتجرد ·

هذه النظرة الثنائية للحياة والفن بالاضافة الى ثنائية الرجولة والانوثة التي تحكم نظرته للمرأة ، والتي تفسر لنا عداوته للمرأة ايضا ، هذه الثنائية تبدو حتى في نظرته للرجولة ، فهو يفرق بين الرجولة والذكورة ويجعلها على طرفي نقيض فالرجولة مكتفية بذاتها مرتدة الى ذاتها ، لا تستمد دليلها من غير ذاتها ... « **محسن** » هو من اولئك الرجال الذين لا تطيب لهم السكنى الا في داخل انفسهم .. والذكورة ضرب من الحيوانية ، لانها أسيرة الواقع والمادة ، أي أسيرة الغريزة » (ص ٢١) .

والمرأة التي ينشدها الرجل في نظر توفيق الحكيم ، يجب أن تكون بدورها من طراز خاص : أمرأة عليا ، ولانه لا وجود لهذه المرأة العليا ، المجردة ، البعيدة عن شرط الحياة ، فانه يخترعها اختراعا بخياله جاعلا اياها فوق مستوى البشر ، ولذلك ما أن يتمكن محسن من اقتطاف القبلات من معبودته حتى يبدأ الانحدار على السفح الاخر من القمة ، وحتى يستيقظ محسن من خيالاته « يقول له صديقه الفرنسي بابتسامة فيها شيء من التشفي والشماتة : – ارأيت أنها فتاة ككل الفتيات ؟ .. عاملة كآلاف العاملات ؟ تلك التي اسكنتها قصر من قصور ألف ليلة وليلة ؟ ... فأمسى الفتى احساس من يهوي الى الارض ، وكان قيم الاشياء في نظره قد تضاءلت ، وكان الحياة نفسها قد تجردت من غطائها ، فبدت كتمثال مصبوب من السخف ... وشعر اليوم بماذا يملؤه »(ص ٢٦).

وهكذا ما أن تتكشف حقيقة « **سوزي ديبون** » المرأة الفرنسية التي احبها **محسن** وما ان يكتشف **محسن** انها امراة عادية ، وليست مجردة ، ينهار تماما ، فهو لا يتصور امرأة لها ارتباط بالواقع الا ان تكون : «شقراء لاهية ، عابثة مادية ، انانية ،لا تعرف غير حياة الواقع ، ولا تحب الحياة الا في الواقع » ! .

تلك هي اتهامات وجهها محسن الى المرأة تكشف لنا حقيقته، أو بالاحرى حقيقة توفيق الحكيم في نظرته للمرأة · هذه النظرة التي تحكم علاقته بباريس أو بالمرأة «سوزي ديبون»، فتوفيق الحكيم يقيم علاقة مساواة بين « سوزي ديبون » واوروبا أو بين « سوزي ديبون » والغرب، فأوروبا مثل « سوزي ديبون » شقراء، جميلة، رشيقة ذكية ـ لكنها خفيفة، أنانية لا يعنيها الا نفسها واستعباد غيرها » (ص ٢٦) · وهو يصر اصرارا عجيبا في رواية « عصفور من الشرق » على وصف أوروبا في كل مرة يأتي ذكرها بأنها فتاة شقراء فهي « بنت آسيا وافريقيا اللتين ارتبطتا بالزواج في طور من أطوار التاريخ، وانتجتا مولودا جديدا، هذه الفتاة الشقراء التي تسمى اوروبا، وهي فوق ذلك بنت عاقة وناكرة للجميل : ان هذه الفتاة ترى المجد كله في شيء واحد أن تضع الاصفاد في أرجل البشر، وبدأت اول ما بدأت بأبويها افريقيا وآسيا ··· انكرتهما وحبستهما ·· وانطلقت في الحياة لا يحدها حد ولا يقوم لها شيء » (ص ٢٨) ·

وفي هذه الرواية يعطي توفيق الحكيم كلا من الانوثة والرجولة معنى خاصا، فالانوثة مادة وواقعية، والرجولة روح ومثالية، وهكذا فالمرأة واقع، وحياء، ومادة، والرجل سمو وارتفاع روح ومثالية · وهكذا فان العلاقات « الحضارية » بين الشرق والغرب من خلال « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم تبدو واضحة في هجاء الغرب بتأنيثه، ووصفه بأنه انثى شقراء أو فتاة شقراء يقول الكاتب « ان الصراع الازلي الابدي بين الشرق والغرب هو عينه الصراع الازلي ـ الابدي بين الرجولة والانوثة، وكذلك بين المثالية والواقع في نظر توفيق الحكيم » (ص ٢٩)

ثم يتناول الكاتب مجموعة فؤاد الشائب القصصية « تاريخ جرح » التي تحوي قصتين « من وحي باريس » وهما : « أحلام بولاند » و « الشرق شرق » حيث تتخذ القصتان ـ كما في « عصفور من الشرق » · ـ علاقة الرجل بالمرأة، مفهوم الرجولة والانوثة، اطارا لعلاقة الشرق بالغرب، الا أن الزاوية التي تتناول فيه « عصفور من الشرق » باريس تختلف عن الزاوية التي تنظر اليها في باريس قصة « الشرق شرق » ففي رواية توفيق الحكيم تبدو واضحة المعالم الثقافية في باريس، أما في قصة فؤاد الشايب فان باريس تتألق كعاصمة للجنس · « احمد » بطل قصة « الشرق شرق » لا يرى في باريس سوى المرأة «ونظرا الى أن الحرمان « اسمر » اللون فان المرأة التي تسترعي الانتباه اكثر من أي امرأة اخرى هي على الدوام شقراء الشعر، وفي معظم الحالات زرقاء العينين ايضا » ·(ص ٧٠)

ثم يتناول الكاتب رواية « الحي اللاتيني لسهيل ادريس الصادرة عام ١٩٥٤ بالتحليل من خلال تناوله لشخصية بطل هذه الرواية الذي ـ كما يقول جورج طرابيشي ـ يمثل نمطا شبه عام للمثقف الشرقي المغترب ·

ان حرمان الرجل الشرقي الطويل من المرأة في الشرق، يجعله في العاصمة المتروبولية بطل رواية مأزوم، يواجه تحديا مزدوجا على صعيد الثقافة وعلى صعيد الرجولة معا، حيث يكون رد فعله اشهاره لسلاح « الشرف الشرقي » ليندد بالمرأة التي ارتضت « الاستسلام » له، ويتحدث بينه وبين نفسه عن « رغام » و « وحل » و « مادة قذرة » · وتتحكم في أحاسيسه وأفكاره، وتصرفاته ردود الفعل التي تصدر عن اللاشعور وتكشف عنه عندما تتبوأ المرأة الشرقية باسم « الشرف الجنسي » مكانة لا ترقى الى مثلها بتاتا المرأة الغربية ·

وهذا نمط من الشباب العرب الذين يقضون سنوات الدراسة في مدن اوروبية · ويقيمون علاقات مع فتيات اوروبيات، ثم لا يلبثون أن ينبذوا علاقاتهم هذه، ويعودوا بعد انتهاء نهل العلم من الغرب الى الشرق باحثين عن الفتاة الملائمة للزواج، واضعين في الاعتبار « حس الطهارة الشرقية » أساسا لاختيارهم ·

وفي هذا السياق يمضي الكاتب في تحليل نماذج للادب الروائي العربي متناولا قصة لصباح محي الدين بعنوان « بون سان جرمان » حيث بانشو بطل « بون سان جرمان فنان من اميركا الجنوبية، ورغم انه ليس شرقيا، الا انه كالشرقي ابن مجتمع كولونيالي أو شبه كولونيالي وحالته نموذجية في علاقته بالمرأة فهو « الديك الشرقي المحشو بالفيتامينات »(ص ١١٣) ·

أما في قصص « عبد السلام العجيلي » البديعة جماليا ـ كما يقول الكاتب ـ فالعلاقات بين الشرق والغرب أو بين الرجل الشرقي والمرأة الغربية، تختزل الى محض علاقات سياحية · فيتناول الكاتب بالتحليل كلا من : قصة « سالي » من مجموعة « قناديل اشبيلية » وقصة « الحب والنفس » من نفس المجموعة، و « ثلاث رسائل أوروبية » من مجموعة « الخيل والنساء » وقصة « لقاء كل مساء » من نفس المجموعة كذلك · وقصة « الحب قارورة » من مجموعة فارس مدينة القنطرة » الى ان يصل الى قصة « فيفا » من مجموعة « حكاية مجانين » واخيرا قصة « رصيف العذراء السوداء » · ان شخصيات عبد السلام العجيلي هم من الرجال المنتمين بوجه عام للبادية، حيث يتصفون بأخلاق الصحراء، «فالعدو» له كرامته التي ينبغي أن تصان، حيث يكتشف « عباس » بطل قصة « رصيف العذراء السوداء » أنه يحب « ماريالينا » ورغم ان اكتشافه يأتي بعد رحيلها أي بعد فوات الاوان « الا انه يحمل على كل حال نوعا من التعويض والعزاء لا لماريالينا بصفة شخصية وانما لكل انثى خذلت وهزمت في شخصها » ص ١٤٠ ·

ثم ينتقل بنا الكاتب الى رواية « موسم الهجرة الى الشمال » للطيب صالح، حيث يبحث الكاتب في سراديب الرواية المعتمة ويسلك الطرق الضيقة، حاملا ضوءا كاشفا يضيء مختلف الاماكن الخفية وغير الخفية مغيرا وجهتها من الشمال الى الغرب ويصبح عنوان الرواية على هذا الاساس « موسم الهجرة الى الغرب » ونرى « مصطفى سعيد»، بطل الرواية الذي ولد في ١٦ آب ١٨٩٨ أي في اليوم الذي بدأت فيه القوات الانجليزية بقيادة كتشر اجتياحها لدولة السودان، ويصبح مصطفى سعيد « أول سوداني يرسل في بعثة الى الخارج » و « أول سوداني يتزوج انجليزية » بل « أول سوداني يتزوج أوروبية على الاطلاق » (ص ١٤٣) ورغم الضجة التي احدثتها رواية الطيب صالح « موسم الهجرة الى الشمال»، وما قيل فيها وما كتب عنها فان أحدا لم يتناولها من الزاوية التي تناولها بها جورج طرابيشي في تحليله لشخصية مصطفى سعيد ·

واخيرا يتناول الكاتب رواية « الاشجار واغتيال مرزوق « لعبد الرحمن منيف»، حيث بطل الرواية منصور عبد السلام يلتقي بكاترين الطالبة البلجيكية، وكل منهما جاء الى باريس طلبا للعلم، وتقوم بينهما « أول علاقة حب بين شرقي وغربية ، غير محكومة بعداء تاريخي، ولا بمشروع انتقام سري أو سافر، ولا بالرضة الاستعمارية، ولا بعقدة النقص والدونية، ولا بصراع مزعوم بين الروح والمادة، ولا بحرب الجنسين الازلية ولا حتى بالشهوة الغرائبية، فهي من هذا المنظور أول علاقة حب ايجابية بين « ابن البلد » واجنبية ومع ذلك ثمة هوة سحيقة تفصل بين منصور عبد السلام وكاترين، أو بالاحرى بين عالميهما» · (ص ١٨٧)

هذه النماذج من الادب الروائي العربي، التي اختارها الكاتب هنا، انما تمثل جزءا من كل، الجزء المريض السلبي، في تركيبة الجسم الادبي، ليس ادبيا وانما من النقطة التي انطلق منها الكاتب، النقطة التي تمثل جزءا من وعي الانسان العربي · وقد تناول الكاتب هذا الجزء انطلاقا من الادراك الواعي لدور الادب في وضع الانسان العربي امام مسؤولياته، كانسان فاعل ومؤثر في مجتمعه · ولهذا فانه يسلك المسالك الضيقة، باحثا مدققا ومحللا، مسلطا الاضواء على الزوايا الخفية، منتقدا بقسوة بالغة في

كثير من الاحيان . وكما قال الكاتب نفسه فان هذه الدراسة تطرح نفسها على صعيد الوعي اكثر مما تطرح نفسها ، دراسة في الادب . ومن هنا تاتي أهمية هذه الدراسة الجريئة والفريدة التي رغم ان الكاتب تناول بها نماذج أدبية . الا انها جاءت بحثا في خلفية هذا الادب ، ودوره الخطير في تشكيل وعي الانسان العربي . انها قضية وعي ، وللوعي دور خطير في احداث الثورة الاجتماعية الشاملة لمجتمعنا العربي .

رئيفة شبلاق

المؤلفات السوفيانية حول اسرائيل والصهيونية

يبقى موضوع دولة اسرائيل في علم التاريخ السوفياتي قليل البحث ، وخاصة ما يتعلق بالمؤلفات الموسعة في هذا الميدان ، وأول مؤلف ظهر هو :

١ ـ **«دولة اسرائيل»** : خصائص التطور الاقتصادي كدولة ، ويبقى هذا الكتاب المحاولة الوحيدة من نوعها التي تشرح بشمول عن دولة اسرائيل ، وتعطي خصائص نمو هذه الدولة .

من بين المؤلفات السوفياتية التي تتابع البحث في هذا المضمار وتبين تاريخ اسرائيل السياسي كتاب :

٢ ـ **«دولة اسرائيل ، اوضاعها ـ سياستها»** ايفانوف ، شينس ، موسكو ١٩٥٨ .

ولهذين الكاتبين يعود الفضل في الشرح عن اسرائيل في التاريخ السوفياتي . واهمية هذا الكتاب هي في تقييمه لجوهر دولة اسرائيل والكشف عن نظام اسرائيل الاجتماعي الاستغلالي القائم على الملكية الخاصة ، واهم محتوياته فضح السياسة الخارجية العدوانية للقادة الاسرائيليين الصهاينة ، وفي الكتاب تحليل للاحداث التي سبقت وتلت العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ، (انجلترا ـ فرنسا ـ اسرائيل) ضد مصر .

ومن المؤلفات الاولية في هذا الميدان :

٣ ـ **« اسرائيل »** ، اندرييف ، موسكو ١٩٦٢ .

وقيمته ليست ، فقط ، في محتوياته الحقيقية وانما ، أيضا ، في نقده التحليلي لبعض الموضوعات ، وعلى الاخص « اشتراكية الكيبوتز والهستدروت » ، جوهر النظام الصهيوني المتسلط في اسرائيل . والمؤلف يحتوي على استنتاجات مدعمة بانطباعات شخصية للكاتب نفسه . وفي الكتاب فصل عن محاكمة ايخمان .

والمؤلفات السوفياتية حول « الصهيونية العالمية » تبقى قليلة ، ولا يوجد اعمال موسعة وشاملة ، ولكن بالرغم من ذلك تعطي صورة عن اتجاهها وعلميتها ، بما في ذلك من نقد تحليلي .

٤ ـ **« في كواليس السياسة الاسرائيلية»** ليونيدوف ، موسكو ١٩٥٩ .

هذا الكتاب يحلل ويشرح نتائج العمل المشترك على مسرح السياسة الصهيونية العالمية واسرائيل في الفترة ٥٦ ـ ١٩٥٨ ، في الكتاب يبحث المؤلف في العامل الاجتماعي الاقتصادي الذي يقف وراء فعالية الاوساط الصهيونية العالمية في تكوين وانشاء الرأسمال المصدر لاسرائيل . اهم موضوع هو الكشف عن حقيقة الرأسمال الصهيوني (ص ٥) في اسرائيل ، تقييم الدور السياسي للوكالة اليهودية كمركز للتجمعات اليهودية البرجوازية القومية ، واظهار دور ممثلي العائلات المالية الضخمة والتي تسيطر في اسرائيل .

هذا وقد ظهر في الفترة الاخيرة مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع تبحث عن اسرائيل كدولة وتحلل عقيدة وسياسة ونشاط الصهيونية العالمية ومن هذه المؤلفات :

٥ ـ **« مصدر الازمة الخطيرة »** . لاديكين موسكو ١٩٧٣ .

وفيه يكرس الكاتب شرح تاريخ اسرائيل ـ مراحل الازمة العربية الاسرائيلية والتي تقف وراءها السياسة الرجعية والخطرة للصهيونية العالمية ، ادعاءات الصهاينة التي يبررون فيها اهدافهم ومراميهم التوسعية والعدوانية ويفضح أسطورة (الحقوق التاريخية) لليهود في فلسطين ، احياء دولة اليهود القديمة (اسرائيل) في اسرائيل ، أي على ارض فلسطين وحدودها التاريخية وتجميع اليهود المشتتين في ارض الاجداد .

٦ ـ **« طريق للسلام في الشرق الاوسط »** ديمتربيف ولاديكين ، موسكو ١٩٧٤ .

وفيه يتابع ما جاء في الكتاب السابق من موضوعات ، ولكن هناك موضوعات جديدة يتطرق اليها المؤلفان ، ومنها أسباب التوتر الدائم في العلاقات بين العرب واسرائيل ، وخاصة في القسم الثاني ، عندما يشير الكاتب الى ولادة اسرائيل كدولة عدوانية وعن خروج اسرائيل من اطار الصهيونية في الطريق لنشر الديمقراطية في البلاد ، والذي يؤدي الى خروجها من الازمة الدائمة في الشرق الاوسط .

أهمية الكتاب ترجع الى أنه لاول مرة يعطي تحليلا للفترة الحالية للمشكلة الفلسطينية وهناك قسم كبير مخصص لذلك والقسم قائم على الموضوعات التالية :

حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير ـ تأسيس المقاومة الفلسطينية وقاعدتها الشعبية ـ الثورة العربية الوطنية التحررية في العالم العربي ـ الوحدة العربية كعامل رئيسي في مواجهة العدوان الاسرائيلي .

في الكتابين الاخيرين شرح مفصل للحرب السياسية والدبلوماسية للاتحاد السوفياتي من أجل تسوية في الشرق الاوسط ، بما فيها الفترة التي عقد فيها مؤتمر جنيف سنة ١٩٧٣ ، والذي تم الاتفاق فيها على فصل القوات كخطوة في طريق حل المشكلة سلميا ، ويعتمد الكتابان على حقائق لم تنشر سابقا .

اضافة الى موضوع اسرائيل كدولة ، بحثت مشاكل العلاقات العربية الاسرائيلية بتوسع أكثر في التاريخ السوفياتي ، ونعني هنا بعض الاعمال التي تتطرق لموضوع معين على أساس تاريخي ومنها :

٧ ـ **« المشكلة الفلسطينية »** . لوتسكي ، موسكو ١٩٤٧ .

وعن دور أمريكا في انشاء اسرائيل نجد مقالة :

أ ـ **« من تاريخ الحكم الانجليزي في فلسطين ١٩ ـ ١٩٣٠ »** . اوسيبفا ، مجلة اسئلة التاريخ ، عدد ١٢ سنة ١٩٤٨ .

وفيه تعرض الكاتبة آثار السياسة الصهيونية الاستعمارية على الشعب العربي الفلسطيني .

٨ ـ **« المشكلة الفلسطينية في الامم المتحدة »** . جينن ، موسكو ١٩٤٨ .

وفيه يعرض تاريخ وأسباب صدور قرارات الامم المتحدة والخاصة بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية سنة ١٩٤٧ .

وعن بداية العلاقات العربية الاسرائيلية ظهرت عدة مؤلفات كرست لتاريخ دول عربية كل على انفراد ولمشاكل المنطقة بوجه عام ففي كتاب :

٩ ـ **« انتهاء الحكم التركي في الشرق العربي »** . لازرف ، موسكو ١٩٦٠ .

وثائق تاريخية ومخطوطات عن تاريخ احتلال فلسطين واتفاق المستعمرين الانجليز

والبرجوازية الصهيونية على احتلال فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

١٠ ـ « **تاريخ الدول العربية الحديث** » . موسكو ١٩٦٧ .

في قسم فلسطين يشرح المؤلف تاريخ التغلغل (التسلل) الصهيوني في فلسطين ومقاومة العرب الفلسطينيين لذلك .

وعن العدوان الثلاثي صدرت عدة كتب منها :

١١ ـ « **الاتحاد السوفياتي ومشكلة قناة السويس ١٩٥٦** » . بروتوبوف ، موسكو

وفيه يشرح الكاتب دور الاتحاد السوفياتي في وقف العدوان .

١٢ ـ « **قناة السويس حق الشعب المصري** » . نيكيتنا ، موسكو ١٩٥٦ .

وفيه تتطرق الكاتبة لموضوعات تختص بالحقوق الدولية المتعلقة بالقناة وحق مصر فيها وضمان امن واستقلال مصر .

وعن العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ صدرت عدة كتب منها :

١٣ ـ « **الشرق العربي في ساعة المحنة** » . ديمتشنكو ، ١٩٦٧ .

١٤ ـ « **بداية العدوان** » . بيلايف وبريماكوف ، موسكو ١٩٦٨ .

١٥ ـ « **عدوان اسرائيل والحقوق الدولية** » . بليشنكو وكودرياتسيف ، موسكو ١٩٧٠ .

وفي هذا الكتاب يكشف الستار عن عمليات اسرائيل الاجرامية في الاراضي المحتلة .

١٦ ـ « **مصر في عهد عبد الناصر** » . بيلايف وبريماكوف ، موسكو ١٩٧٤ .

وفيه يشير المؤلفان الى ان توقيت العدوان جاء في وقت بدأت فيه مصر تسير في طريقها المعادي للامبريالية وفي بداية التطور والنمو والاستقلال الوطني .

هذا وقد نشرت عدة مقالات عن تاريخ اسرائيل وفلسطين ومنها :

ب ـ « **فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية ، تاسيس دولة اسرائيل وسياستها الخارجية** » .
نيكيتنا ، موسكو ٤٨ ـ ١٩٥١ .

ج ـ « **العلاقات الدولية في الشرق الاوسط والادنى بعد الحرب العالمية الثانية** » .
نيكيتنا ، الاكاديمية العلمية ، موسكو ١٩٧٤ .

د ـ « **اطروحة ـ العدوان الاسرائيلي ضد الدول العربية ١٩٦٧** » . كولوبوف ، مدينة غوركي ٧٥ .

١٧ ـ « **المشكلة الفلسطينية** » .
كيسيلوف . ملاحظة : قد ترجمت اهم ما ورد فيه .

وعن الصهيونية العالمية صدرت في الفترة الاخيرة عدة مؤلفات منها :

١٨ ـ « **احذروا الصهيونية** » . ايفانوف ـ موسكو ١٩٧٢ .

١٩ ـ « **الصهيونية ، عقيدة وتجربة** » موسكو ١٩٧٣ .

والكتاب عبارة عن مقالات تحلل الصهيونية كعقيدة وتجربة وتبرز نموها مع الدوائر الامبريالية في امريكا وتشير الى خط العقيدة هذه كعدو للشيوعية وفي هذه المؤلفات تعرية وفضح وتكذيب لادعاءات الصهيونية ، كشف اهدافهم واتصالهم الوثيق بالامبريالية .

٢٠ ـ « **الصهيونية عدو الشيوعية** » .
بلشاكوف ، موسكو ١٩٧٢ .

وفيه يفضح اعمال ونشاط الصهيونية الموجه ضد الشيوعية والمعادي للاتحاد السوفياتي وعلاقة ذلك باشتداد الحرب بين المعسكرين الاشتراكي والراسمالي وهناك ايضا اشارة الى علاقة فرع المنظمة الصهيونية العالمية ـ نيويورك ، مع الدوائر الامبريالية في حربها المسعورة ضد الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية وعن اتحاد الدوائر المالية للطرفين ونشاطهم الموحد .

٢١ ـ « **الفاشية تحت النجمة الزرقاء** » .
يفسييف ، موسكو ١٩٧١ .

وفيه يكشف الستار عن الصهيونية كوجه من اوجه الفاشية ويظهر تعاونهم ودعمهم المادي للدوائر الرجعية والامبريالية .

٢٢ ـ « **الصهيونية في النظام المعادي للشيوعية** » . يفسييف ، موسكو ١٩٧٥ .

في هذا الكتاب تحليل جدي للاسس السياسية العقائدية للصهيونية المعاصرة وسيرها في روح الفاشية ويرينا وحدة افكار ومبادىء الصهيونيين والفاشيين والتقاءهم معا في حربهم ضد السوفياتية .

٢٣ ـ « **سياسة الصهيونية الاجرامية والحقوق الدولية** » . مود جوريان ، موسكو ١٩٧٣ .

يضع المؤلف هنا نصب عينيه فضح جوهر الصهيونية الرجعي وتناقضاته وكذلك سياسة الصهيونية الاجرامية ضد الدول الاشتراكية (القسم الثاني) وفي نفس الوقت يشرح المؤلف تعارض استبداد الصهيونية وتسلطها مع ربيبتها اسرائيل وتعارض ذلك ايضا مع مبادىء استقلال الدول وعدم التدخل في شؤونها الخارجية .

وعن الديانة اليهودية وارتباطها بالصهيونية صدرت عدة كتب ، منها :

٢٤ ـ « **الحسيدية والصهيونية** » . كييف، ١٩٧٣ . للمؤلف ميجوفيتشه

والكتاب عن بعض المذاهب الرجعية في الديانة اليهودية وفضح بصماتها عليها .

٢٥ ـ « **الديانة اليهودية المعاصرة والصهيونية** » . مايتسكي ووركيشينوف ـ ١٩٦٤ .

٢٦ ـ « **الديانة الهيودية والصهيونية** » . كيتشكو ، اوكراينا ـ ١٩٦٨ .

٢٧ ـ « **نقد الصهيونية ـ ضرب من المعاداة للشيوعية** » . برنشفاين ، كييف ـ ١٩٧١ .

وفي الاعمال هذه يكشف الستار عن ارتباط الصهيونية مع الديانة اليهودية ووحدة الهدف ، ويرجعون ذلك الى نشاتهما البرجوازية العنصرية (الاقليمية) ، وتنتاز المؤلفات السوفياتية حول الديانة اليهودية بانها على اساس علمي ، تبحث في انتقال المعتقدات الدينية الجامدة في الديانة اليهودية الى العقيدة السياسية للصهيونية وتعطي تفسيرا ، ايضا ، في تحويل الديانة هذه الى ديانة عدائية تحقق اهدافها المرسومة بعنف .

٢٨ ـ « **الثورة المضادة الزاحفة** » .
بيجون ، مينسك ـ ١٩٧٤ .

وفيه يشير الكاتب الى اتصال الصهيونية والديانة اليهودية ، ويؤكد بان الديانة اليهودية متطرفة ورجعية ، ويستند في ذلك على شوفينية وعنصرية القوانين الاجتماعية والتشريعات غير العادلة التي شرعتها على اليهود من الدين الواحد ، ومما هو جدير بالذكر ملاحظات الكاتب عن علم الاخلاق في الديانة اليهودية واهدافه في السيطرة على العالم وعدائه لكل ما هو غير يهودي والذي لعب دورا ضارا في تاريخ اليهود (ص ٤٨ـ ٤٩) وفي الكتاب تحليل جوهري لبرجوازية وعنصرية الصهيونية المعاصرة ولوسائل نشاط الصهيونية العالمية ضد الشيوعية .

٢٩ ـ « **القومية العدوانية ـ عقيدة وسياسة الامبريالية** » . مالاشكو ، مينسك ـ ١٩٧١ .

والكتاب عن تاريخ الصهيونية في روسيا ، وفيه يشرح الكاتب نضال الحزب

اللينيني ضد المنظمات الصهيونية وخاصة في فترة التحضير للثورة في روسيا .

٣٠ _ **« مزاعم الصهيونية »** . جولدنبرغ، كيشينوف _ ١٩٧٢ .

في هذا الكتاب فضح لنشاط الصهيونيين في بسارابي في الحرب العالمية الثانية .

صدرت كتب كثيرة تفضح الصهيونية منها :

٣١ _ **القومية المجنونة »** . سيمينوك ، مينسك _ ١٩٧٦ .

٣٢ _ **« نقد الصهيونية _ الوجه المعادي للشيوعية »** . برنشتاين ، كييف _ ١٩٧١ .

٣٣ _ **الصهيونية والتمييز العنصري »** . سكولاتوف ، كييف _ ١٩٧٥ .

٣٤ _ **الصهيونية سلاح الرجعية »** . برودسكي وسولمايتر ، لفوف _ ١٩٧٦ .

٣٥ _ **« من تخدم اخلاقيات الديانة اليهودية »** . فائين ، اودسا _ ١٩٧٦ .

٣٦ _ **« الصهيونية الغربية »** . نيس ، سيمفروبل _ ١٩٧٦ .

وعن الموضوع « الصهيونية » صدرت عدة مؤلفات هي في الحقيقة عن مجموعة مقالات ومنها :

٣٧ _ **« جوهر الصهيونية الرجعي »** . موسكو _ ١٩٧٠ .

٣٨ _ **« محاربة الشيوعية السوفياتية وظيفة الصهاينة »** . موسكو ١٩٧١ .

٣٩ _ **« العنصرية عقيدة الامبريالية ، عدو التقدم الاجتماعي »** . موسكو ١٩٧٣ .

ونشير هنا الى الكتاب الاخير لاهمية وتنوع موضوعاته في الصهيونية من عدة أوجه ، ففي مقالة براغينسكي _ نقد لينين للصهيونية ، ومقالة ديبورين _ تكشف الطبيعة الطبقية للصهيونية ومولد تشابه الصهيونية مع الفاشية وعن علاقات الرأسمالية العالمية مقالة نيكيتنا ، وعن نشاط الصهيونية ضد التحرر الوطني والاجتماعي للشعوب العربية مقالة ليبديف ، وعن دور اسرائيل والصهيونية التخريبي في احداث تشيكوسلوفاكيا في الستينات مقالة _ الدين اليهودي في خدمة السياسة الصهيونية للكاتب البولندي جرودزينه ؛ ومقالة الكاتب التشيكي تشنشون _ الصهيونية والعقائد التخريبية في تشيكوسلوفاكيا .

والى جانب ذلك هناك كتب لمؤلفين من الدول الاشتراكية ترجمت للروسية منها :

٤٠ _ **« اسرائيل والمانيا الغربية »** . فاليخنوفسكي ، بولندا _ ١٩٧١ .

٤١ _ **« الصهيونية واللاسامية »** . كولار ، تشيكوسلوفاكيا _ ١٩٧١ .

وكتاب كولار هذا يفضح نشاط الصهيونية العالمية الخطر وفرعها اسرائيل .

كتاب يهود // الشعب الفلسطيني

ترجمة وتعليق الياس مرقص ، بيروت ، دار الحقيقة ١٩٧٧

من اهم الكتب التي توضع بين أيدي المثقف العربي للاطلاع على أراء مجموعة من الكتاب والمفكرين اليهود ، حول قضايا اساسية تمس القضية الفلسطينية ، اللاسامية ، الصهيونية اليهودية العنصرية ، المضادة للعرب . ومحاكمة الغرب

اما الكتاب فهم **ليفين** ، مدير مجلة Tsedek وهي كلمة عبرية تعني « عدالة » . **جيزيل بلوخ** ، مناضلة في *M.R.A.P.* **« الحركة ضد العرقية واللاسامية من اجل السلام »** . **بيار بيرحان** ، محرر الطبعة الالمانية لـ *Tsedek* وعنوانها **« صدق ، يهود يخاطبون يهود »** .

رودنسون ، **معروف بكتاباته المعادية** للصهيونية ، ثم جماعة من اليهود الفلسطينيين أرادت المحافظة على سريتها ، بعضهم دخل السجون الاسرائيلية ، وهم الان يزاولون نشاطهم سرا .

اما *M.R.A.A.* ، **الحركة المضادة للعرقية المعادية للعرب** فسنتعرف عليها من خلال اطروحاتها .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الموضوعات طرحت بمجلة فرنسية فصلية اسمها «هيرتيم» .

ثمة نقطة مشتركة ، جمعت محرري هذه الكتابات ، وهي الامانة الفكرية التي دفعتهم لطرح هذه لموضوعات نختلف معهم في بعض الاطروحات ، ولكن يبقى الخط العام _ موضوع القضية _ هو ما نتفق حوله .

ان مجموعة الافكار المطروحة في هذا الكتاب قد تكون متقدمة على كثير من الاطروحات السائدة عند بعض المنظمات الفلسطينية ، وسنحاول التركيز على الاطروحات التي تعني بالمسالة الفلسطينية .

لمحة تاريخية موجزة عن النزاع :

تحت هذا العنوان تقول **« جماعة من اليهود الفلسطينيين المناهضين للصهيونية »** . ان كل الناس « يعالجون » المعضلة الفلسطينية ، ولكن صوت الذين تخصهم القضية في الخط الاول ساكت دوما . ان السكوت المفروض على العرب الفلسطينيين الذين يقطنون « دولة اسرائيل » ، لما قبل ٥ حزيران ، ١٩٦٧ ، يعلل بسهولة . فحين ظهر بينهم تيار وطني قومي تحت اسم **« الارض»** ، يعبر عن بعض المطالب المتواضعة جدا ، قمع على الفور ، وسجن رؤساؤه .

اللينيني ضد المنظمات الصهيونية وخاصة في فترة التحضير للثورة في روسيا .

٣٠ _ « **مزاعم الصهيونية** » جولدنبرغ، كيشينوف _ ١٩٧٢ .

في هذا الكتاب فضح لنشاط الصهيونيين في بسارابي في الحرب العالمية الثانية .

صدرت كتب كثيرة تفضح الصهيونية منها :

٣١ _ « **القومية المجنونة** » . سيمينوك ، مينسك _ ١٩٧٦ .

٢٢ _ « **نقد الصهيونية _ الوجه المعادي للشيوعية** » . برنشتاين ، كييف _ ١٩٧١ .

٣٣ _ « **الصهيونية والتمييز العنصري** » . سكولاتوف ، كييف _ ١٩٧٥ .

٣٤ _ « **الصهيونية سلاح الرجعية** » . برودسكي وسولمايتر ، لغوف _ ١٩٧٦ .

٣٥ _ « **من تخدم اخلاقيات الديانة اليهودية** » . فائين ، اودسا _ ١٩٧٦ .

٣٦ _ « **الصهيونية الغربية** » . نيس ، سيمفروبل _ ١٩٧٦ .

وعن الموضوع « الصهيونية » صدرت عدة مؤلفات هي في الحقيقة عن مجموعة مقالات ومنها :

٣٧ _ « **جوهر الصهيونية الرجعي** » . موسكو _ ١٩٧٠ .

٣٨ _ « **محاربة الشيوعية السوفياتية وظيفة الصهاينة** » . موسكو ١٩٧١ .

٣٩ _ « **العنصرية عقيدة الامبريالية ، عدو التقدم الاجتماعي** » . موسكو ١٩٧٣ .

ونشير هنا الى الكتاب الاخير لاهمية وتنوع موضوعاته في الصهيونية من عدة أوجه ، ففي مقالة براغينسكي _ نقد لينين للصهيونية ، ومقالة ديبورين _ تكشف الطبيعة الطبقية للصهيونية ومولد تشابه الصهيونية مع الفاشية وعن علاقات الراسمالية العالمية مقالة نيكيتنا ، وعن نشاط الصهيونية ضد التحرر الوطني والاجتماعي للشعوب العربية مقالة ليبديف ، وعن دور اسرائيل والصهيونية التخريبي في احداث تشيكوسلوفاكيا في الستينات مقالة _ الدين اليهودي في خدمة السياسة الصهيونية للكاتب البولندي جرودزينه ، ومقالة الكاتب التشيكي تشنشون _ الصهيونية والعقائد التخريبية في تشيكوسلوفاكيا .

والى جانب ذلك هناك كتب لمؤلفين من الدول الاشتراكية ترجمت للروسية منها :

٤٠ _ « **اسرائيل والمانيا الغربية** » . فاليخنوفسكي ، بولندا _ ١٩٧١ .

٤١ _ « **الصهيونية واللاسامية** » . كولار ، تشيكوسلوفاكيا _ ١٩٧١ .

وكتاب كولار هذا يفضح نشاط الصهيونية العالمية الخطر وفرعها اسرائيل .

كتاب يهود // الشعب الفلسطيني

ترجمة وتعليق الياس مرقص ، بيروت ، دار الحقيقة ١٩٧٧

من أهم الكتب التي توضع بين أيدي المثقف العربي للاطلاع على أراء مجموعة من الكتاب والمفكرين اليهود ، حول قضايا اساسية تمس القضية الفلسطينية ، اللاسامية ، الصهيونية اليهودية العنصرية ، المضادة للعرب . ومحاكمة الغرب

اما الكتاب فهم **ليفين** ، مدير مجلة Tsedek وهي كلمة عبرية تعني « **عدالة** » . **جيزيل بلوخ** ، مناضلة في *M.R.A.P.* « **الحركة ضد العرقية واللاسامية من اجل السلام** » . **بيار بيرحان** ، محرر الطبعة الالمانية لـ *Tsedek* وعنوانها « **صدق ، يهود يخاطبون يهود** » .

رودنسون ، **معروف بكتاباته المعادية** للصهيونية ، ثم جماعة من اليهود الفلسطينيين أرادت المحافظة على سريتها ، بعضهم دخل السجون الاسرائيلية ، وهم الان يزاولون نشاطهم سرا .

اما *M.R.A.A.* ، **الحركة المضادة للعرقية المعادية للعرب** فسنتعرف عليها من خلال اطروحاتها .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الموضوعات طرحت بمجلة فرنسية فصلية اسمها «هيرتيم» .

ثمة نقطة مشتركة ، جمعت محرري هذه الكتابات ، وهي الامانة الفكرية التي دفعتهم لطرح هذه لموضوعات نختلف معهم في بعض الاطروحات ، ولكن يبقى الخط العام _ موضوع القضية _ هو ما نتفق حوله .

ان مجموعة الافكار المطروحة في هذا الكتاب قد تكون متقدمة على كثير من الاطروحات السائدة عند بعض المنظمات الفلسطينية ، وسنحاول التركيز على الاطروحات التي تعني بالمسالة الفلسطينية .

لمحة تاريخية موجزة عن النزاع :

تحت هذا العنوان تقول « **جماعة من اليهود الفلسطينيين المناهضين للصهيونية** » .

ان كل الناس « يعالجون » المعضلة الفلسطينية ، ولكن صوت الذين تخصهم القضية في الخط الاول ساكت دوما . ان السكوت المفروض على العرب الفلسطينيين الذين يقطنون « دولة اسرائيل » ، لما قبل ٥ حزيران ، ١٩٦٧ ، يعلل بسهولة . فحين ظهر بينهم تيار وطني قومي تحت اسم « الارض» ، يعبر عن بعض المطالب المتواضعة جدا ، قمع على الفور ، وسجن رؤساؤه .

أن يمجد الناس مضطهديهم ، هذا مسموح به دوما ··· في البرلمان الاسرائيلي يوجد بضعة نواب عرب ، انتخبوا بعناية جماعات صهيونية متنوعة ـ وذلك الحد الاقصى ـ ولكن هناك · أيضا يهود فلسطينيون يشعرون أنهم قريبون ، تماما ، من العرب الفلسطينيين ويرون فيهم أخوانا مضطهدين معذبين · عددهم ليس كبيرا ، ولكنهم ، مع ذلك ، موجودون ، ولا يستطيعون الافصاح عن رأيهم بحرية · لهم صلات مع العالم اليهودي خارج « اسرائيل » ، ولهم أراء مختلفة « وطنيون ، اشتراكيون ، شيوعيون ، مستقلون ، ليبراليون ، دينيون » ، وهم موزعين في العالم كافة · ولكن يوحدهم الواجب الانساني ، واجب · أن يكونوا ناطقين بلسان المحكوم عليهم بالسكوت ـ الذين ولدوا في فلسطين والذين لم تطأ قدمهم يوما تراب فلسطين ، يرغبون أن يتخذوا موقفا ، وهذا هو رأيهم من التطورات ، منذ بداية الصهيونية حتى أيامنا هذه ·

ويتابع المقال فيما عدا بعض الاستثناءات المؤسفة النادرة ، لم يكن اليهود معذبين في البلدان العربية أو الاسلامية ، مثال يؤكد ذلك هو الامبراطورية العثمانية ، التي حمت اليهود عدة قرون ضامنة لهم كل الحقوق الدينية ، والمدنية ، الوطنية والقومية : (بناء بعض الاحياء اليهودية في المدن المقدسة الاربعة عند اليهود ، القدس ، الخليل ، صفد طبريا) ·

هذه الحالة تغيرت مع ظهور العامل الصهيوني ، او قبل الصهيوني ، حركة « **عشاق صهيون** » ، هذه الحركة سبقتها موجة هجرة ، ذات حجم لا بأس به ، من يهود مراكشيين أتقياء ، سرعان ما تمثلوا بسكان البلد الاخرين ، لكن « **عشاق صهيون**» حركة مختلفة ، اذ جاءوا بشعور قومي ما · تبعتها هجرة من روسيا ، وبدأوا بتشكيل المستعمرات ، والاهتمام بالزراعة ،واستخدام اليد العاملة العربية ، ولم يشكلوا استفزازا للسكان الاصليين ·

لكن الهجرة الثانية كانت تضم عناصر من طراز جديد ، معظمهم فارين من ثورة ١٩٠٥ في روسيا ، يهود شباب من أصل برجوازي صغير ، بشكل خاص ، متعاطفون مع المنظمات الثورية ، أو منتمون الى الجماعة الصهيونية ـ الاشتراكية · كانوا يفكرون بأن يجدوا في فلسطين ارضا صالحة لتحقيق احلامهم في حل المسألة اليهودية ، وفي الثورة الاجتماعية ·

منهم من خاب ظنهم وعادوا الى روسيا ، ولكن الاكثرية كانت تبقى وتفكر بخلق بروليتاريا في فلسطين ، وكانوا يزاحمون العمال العرب وكثيرا ما حصلت بينهم صدامات ·

شراء الاراضي وتصريح بلفور :

كانت الحركة الصهيونية توسع مداها ، خصوصا بمساعدة « **الصندوق القومي اليهودي** » الذي كان يرمي الى خلق طبقة عاملة زراعية يهودية ، يحرم تشغيل غير اليهود ، وتأسيس تعاونيات زراعية ·

وكانت بالتالي ، مسألة الدفاع عن الحياة والاملاك اليهودية مطروحة ، **فأنشئت** المنظمة شبه العسكرية نصف السرية « **هاشومير** » (الحرس ، سلف الهاغاناه)، ثم أصدرت السلطات التركية قوانين ، للحد من الهجرة ، ولكنها لم تطبق· وكانت حركة القومية العربية لم تتجذر بعد في فلسطين ، وبقيت حالة التوتر حتى الحرب العالمية الاولى ومنذ ذلك الزمن ، كان « **اليشوف** » (السكن اليهودي في فلسطين) مشروطا بصعود اللاسامية في أوروبا الشرقية · وكانت الهجرة الاولى والثانية تأتي من أوروبا الشرقية ، نتيجة المجازر الضارية فيها ، ومع ذلك لم يأت الى فلسطين سوى عدد ضئيل من تيار الهجرة الهائل الذي كان يصب في اميركا · التغير الذي حصل ، فيما بعد ، كان مرده الحوادث المأساوية الهتلرية ، وأغلاق كل أبواب الهجرة التقليدية ·

ان تشكيل وحدات المتطوعين اليهود المحاربة الى جانب الحلفاء ، وخصوصا **بيان بلفور** ، خلقا في نهاية الحرب العالمية

الاولى ، وضعا جديدا تماما ـ هذا البيان الصادر في تناقض صارخ مع الوعود المعطاة للعرب ، بخلق دولة عربية كبيرة ، تشمل كل الاقاليم الموجودة تحت السيطرة التركية ، وأسباب هذه الازدواجية من جانب بريطانيا كان : ١ ـ ضرورة التواجد على مقربة من قناة السويس ، ذات الاهمية القصوى ، أنذاك ··

٢ ـ الحصول على الدعم النشيط ، من جانب ملايين اليهود الاميركيين لقضية الحلفاء ·

٣ ـ تجنب الخطر الكامن في قيام دولة عربية قوية وموحدة ·

٤ ـ ايجاد ثقل مواز لنفوذ اليهود من روسيا القيصرية ·

اشتراكية مزعومة عنصرية :

كان نتيجة الاضطهادات الفظيعة لليهود ، ١٩١٧ ـ ١٩٢٠ ، هجرة عشرات الالوف من اليهود الى فلسطين ، مما سبب عددا لا يحصى من الانتفاضات العربية ضد السلطات البريطانية وضد « **اليشوف** » ·

ان « **الهستدروت** » ، التي تأسست عام ١٩٢٠ زاعمة انها اتحاد عام لشغل وناسبة نفسها الى الاشتراكية ، كانت تنظم طرد العمال العرب ، بشكل منهجي دائم ، من مكان عملهم ، وكانت بمساعدة البوليس البريطاني « **والهاغانا**» تنزع ملكية الفلاحين العرب الفقراء ، وبعد كل ذلك اذيعت في العالم خرافات عن « الواحات الاشتراكية الزاهرة » وعن المنافع التي تغدقها الصهيونية على الشعب العربي · « ان كميات الاسلحة الهائلة غير القانونية التي كانت تصل الى « **الهاغاناه** » ، كانت الشرارة التي اطلقت ثورة عام ١٩٣٦ · كل عربي فلسطيني كان مرغما على التساؤل : هل علي ان أسلم بيتي ، وأن أصير بدوري ، تائها اذا كان اليهود المضطهدون يبحثون عن ملجأ ؟؟ ·

وجاء قرار **بلفور** الشهير · تبعه تخلي بريطانيا عن انتدابها لفلسطين ، ونال قرار التقسيم اغلبية الثلثين ، بموافقة روسيا وأمريكا ، ومن المعروف أن سياسة الحكومة السوفياتية والاممية الشيوعية كانت مناهضة للصهيونية ، وكان برنامج **الحزب الشيوعي الفلسطيني** ، أنذاك ، يعلن النضال في سبيل التحرر القومي للجماهير العربية ، وادخالها في اطار **فيدراسيون** عربي كبير ،مع حكم ذاتي للسكان اليهود في فلسطين ، ورغم التغيرات العميقة التي وسمت **الحزب الشيوعي في روسيا وفي فلسطين** ، ظلت هذه السياسة مطبقة ، حتى في ظل **ستالين** ، الى لحظة العدوان النازي ضد روسيا · اذ تطور الموقف نحو دعم «**اليشوف** » **والتخلي** عن مبدأ حق تقرير المصير الى ان كان الاعتراف القانوني بدولة اسرائيل « من قبل روسيا واميركا ·

يقول الكتاب اليهود · « حماة الصهيونية الروس مدربوهم العسكريون وارسال الاسلحة التشكيية · · ذلك ساهم بقوة في الانتصار الصهيوني ، وخلق قضية اللاجئين وتعتبر هذه التفاصيل ذات أهمية رئيسية من اجل فهم الحوادث التي جرت في العشرين سنة الاخيرة » ·

هنا لا بد لنا من التوقف وذكر الحقائق التالية :

١ ـ ان الاتحاد السوفياتي اعترف بدولة اسرائيل » ولكنه لم يحمها · وان هذا الموقف الخاطىء أمر لا يمكن تجاوزه ·

٢ ـ ان تشكيل الكيان الصهيوني تم بدعم امبريالي ، وان ترسانة السلاح الصهيونية جاءت من الدول الامبريالية

٣ ـ ان الاتحاد السوفياتي وقف ، وبشكل متواصل ، منذ عام ١٩٤٨ مع حركة التحرر العربية ، ودعم كافة الثورات والانتفاضات التي حصلت ضد الانظمة الرجعية والاحلاف الاستعمارية ، وقدم السلاح للدول العربية التي طلبت منه ذلك ، ووقف موقفا حازما ، من العدوان الثلاثي ١٩٥٦ ، وتدخل ، فعليا في حرب تشرين ضد الاعتداء الصهيوني ·

يقول الكتاب اليهود المناهضين للصهيونية « منذ العدوان الانجليزي ـ الفرنسي ـ الاسرائيلي ، عام ١٩٥٦ ، اختارت الديبلوماسية الروسية العالم العربي

(موضوعا) لصداقتها ـ مواصلة السياسة القديمة ـ القيصرية حيال الشرق الاوسط · آن الاوان لكي تتخلص شتى حركات التحرر القومي والاجتماعي العربية من شتى انواع (المحسنين الخيرين) ، ان الشعوب العربية لن تتحرر الا بتوحدها وبتغييرها جذريا بنيتها الاجتماعية ، الامر الذي سيتيح لها أن تستثمر لصالحها الثروات الطائلة الكامنة في أرضها » ·

لا شك ان تغيير البنية الاجتماعية لحركة التحرر العربي أمر ضروري ، كذلك وحدتها ولكن نعت تحالفاتها بالدول الاشتراكية بأنه احسان فهذا خطأ فادح · ان على حركة التحرر العربية أن تنسج أمتن العلاقات مع الدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي ، وان لا تنغلق على ذاتها · وان الخلاف بين حركة التحرر العربية والاتحاد السوفيتي يجب نقده بروح رفاقية ، وان تعاظم النضال الوطني لحركة التحرر العربية سيفرض على الاعداء ، قبل الاصدقاء اعادة النظر في مواقفها السياسية ، وان الشعوب المناضلة هي التي تفرض حقها في تقرير المصير ، وان الاتحاد السوفياتي يعتبر حركات التحرر العربية احتياطي ثوري لثورة اكتوبر العظيمة والثورة الاشتراكية العالمية· وتنهي جماعة اليهود الفلسطينيين هذه اللمحة التاريخية بالنداء التالي :

« نحن يهودا فلسطينيين ويهودا من الشتات ، نشجب الصهيونية ، مصيبة الشعب العربي ، مصيبة الشعب اليهودي · مصيبة قادرة على تسبيب كارثة على نطاق العالم ، نعلن أننا متضامنون مع طموح الشعوب العربية الى تحررها وتوحدها في اتحاد كبير ، فيه ستجد الجماعة اليهودية ، مع حكم ذاتي تام ، مكانها اللائق واذ ترتكز بين أمور اخرى ، على النداء الموجه ، منذ ١٩ ـ ٥ ـ ١٩٥٧ ، من قبل الامين العام لجامعة الدول العربية **عبد الخالق حسونة** ، الى سلطات دولة اسرائيل ، النداء الداعي الى قبول قرار هيئة الامم المتحدة تاريخ ٢٩ ـ ١١ ـ ١٩٤٧ · كخطوة اولى من أجل

حل عادل للمعضلة الفلسطينية ، نحن مقتنعون بأنه بعد تصفية الصهيونية فان الفيدراسيون العربي الكبير ما أن يقام ، فانه سيقبل في حضنه يهود فلسطين أعضاء في هذا الاتحاد مشاركين مساوين وسيعيش عصر اسبانيا المجيد ، أخاء الشعبين الساميين ·

« نتوجه الى قادة كل البلاد العربية بنداء مهيب ، طالبين ان يحملوا مسؤولياتهم ، وأن يصادقوا على اقتراحاتنا المخرج الوحيد من البلبلة الحاضرة ·

« (١) هو قرار التقسيم (قرار انشاء دولية عربية ويهودية) ، والذي تجاوزته اسرائيل ، اقيلميا بالحرب الاسرائيلية العربية ، ١٩٤٨ ·

« نطلب منهم عدا ذلك ـ تجنبا لكل اختلاط ـ ان يتنصلوا من الذين يحرضون على مجازر ضد السكان اليهود ، وان يشجبوا كل ما من شأنه ان يؤول ، ولو بصورة غير مباشرة كدعاية بغض لليهود ·قد نوصف بأننا خياليون طوباويون ، سيقال اننا بعيدون عن الواقع ، لعل صوتنا حاليا صوت في الصحراء ولكنه اقتناعنا العميق ان المستقبل سيؤيدنا » ·

لا شك ان هذا النداء يعبر عن طموح الكثير من الوطنيين العرب ، ولكن الارتكاز الى قرار التقسيم يتنافى تماما مع حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على أرضه ، واعطاء حكم ذاتي لليهود ، ضمن اطار الوطن العربي الموحد المطروح في بداية النداء كذلك لا يمكن أن يتخيل أحد ان النداء الموجه الى قادة الاقطار العربية يمكن أن يجدي شيئا · لان هؤلاء القادة كان لهم الدور الكبير في انشاء وتوطيد دولة (اسرائيل) سواء من كان منهم أيام النكبة (١٩٤٨) ، او من تبعهم فيما بعد · من خلال ضربهم لقوى الثورة العربية وتعبيراتها التنظيمية ·

وثيقة عن التميز العنصري بين اليهود في اسرائيل : جان بوبيرو ، مدير مجلة هيريتم ، نشر تحقيقا اجراه في اسرائيل ، سنة ١٩٥٩ ، وقدمه ، آنذاك ، في اطار تقرير بعنوان « صداقة فرنسا واسرائيل » ، **يقول جان بوبيرو** ، : حين كنت طالبا ، ثانويا ، ذهبت منفردا الى « اسرائيل » قراري بزيارة هذا البلد كان أتيا من مطالعات حديثة كانت قد كشفت لي مدى « فظاعة » اللاسامية الغربية ، من جهة ، ومن جهة اخرى من تقارير متحمسة كتبها شباب كانوا يرددون ان هذه الدولة توفق بين « الاشتراكية والحرية » كنت متلقيا لموضوعات الدعاية الصهيونية ، اعتقد مثلا أن عرب فلسطين رحلوا ، عام ١٩٤٨ بناء على أمر حكومات البلاد العربية · كنت معجبا بعمل « الرواد » ·· الخ · واثناء اقامتي انفجرت اضطرابات ليهود اسرائيلين سفارديم (اليهود الشرقيين) ، والقيت حجارة على رجال الشرطة » ويقول في هامش « كنت اناضل في سبيل استقلال الجزائر ، ولكني لم اكن اشك في شرعية دولة اسرائيل ان أهمية التيارات الاسرائيلية الناسبة ذاتها الى الماركسية واعلان الشيوعيين المصريين الداعي الى الصلح مع اسرائيل ، ساهما في تضليلي » ويقول ايضا : « وضوحا ، كان بودي أن احرر تقريرا محض ايجابي » حيال اسرائيل · ولكنني ، بدافع الصدق ، لم أكن أستطيع أن اطمس الجمل التي سمعتها ، والتي خلقت في صدمة » · ويضيف ج · ب الخلاف بين اليهود السفارديم من جهة ، واليهود الاشكناز (الاوروبيين) أسياد السلطة · ويطرح مجموعة من الامثلة تدعم ذلك ثم يبين الى أي درجة تفضي الصهيونية في النهاية الى لا سامية معكوسة والى تدخيل للنازية ، وعنصريتها البيولوجية والثقافية ·

السلام اليهودي :

ترد مجلة هيرتيم بقلم بينيه اتجر على اطروحات السلام اليهودي بالقول « نفهم أن اسرائيل ترغب في السلام وتحتاج اليه · ان اسرائيل جزء من الاقتصاد الرأسمالي وفي هذا القدر تشارك في هذا « النهب للعالم الثالث » في النطاق العالمي · ان الصراع بين اسرائيل والبلدان العربية هو احدى النقاط الساخنة في الصراع بين الامم البروليتارية والامم الناهبة · يمكن ان يحلل بوصفه فصلا من صراع الطبقات ، في المستوى الدولي ، كل تعاون طبقي ، ايا كان الاسم الجديد الذي سيدعى به لن يكون سوى تصويف مخترع ، لابقاء سيطرة الطبقة المهيمنة ، اي سيطرة الامبريالي الغربي · السلام بين الناهب والمنهوب لا يمكن ان يكون سوى اكذوبة اخترعها المستغلون · لا يمكن ان يكون هناك سلام بين الامبريالية والثورة ·

تعريف بالحركة ضد العرقية المناهضة للعرب ، حسب ما جاء في بيانهم ·

ان الحركة ضد العرقية المناهضة للعرب تؤكد ان العرقية هي نتاج بيئة اجتماعية ، أكثر منها بعدا للانسان ، اذ يعتبرون أن العرقية لوثة للانسانية · ان ح · ع · م · ع تناضل ضد كل العنصريات ، وتعتبر نضالها ضد العنصرية المناهضة للعربي نموذج نضال مناهض للعنصرية ·

أنها مصممة على النضال ضد المسؤولين الحقيقيين عن العنصرية ، لذا ، فهي تناضل ضد الدول الرأسمالية او شبه الاشتراكية هذه الحركة تدرج نضالها في : النضال ضد الامبريالية والرأسمالية والاستعمار ، وتجد نفسها متناقضة مع كل الذين يناضلون ضد هذه الاشكال لاستغلال الانسان من قبل الانسان ·

وتناضل ضد الصهيونية ، وهى ايديولوجيا عرقية وخالقة عرقية بارادتها الاستعمارية والامبريالية ، وتجد الحركة نفسها متضامنة مع النضال الثوري والشعبي للشعب الفلسطيني ، لان نضاله نضال مناهضين للامبريالية والعرقية ·

نمو المقاومة الفلسطينية ـ جيزيل بلوك

تحت هذا العنوان يقول **جيزيل بلوك** انه فى مستوى خياراتنا السياسية حققنا في عام واحد مسيرة كبيرة · **يجب القول ان نمو المقاومة الفلسطينية قد اتاح لنا الكلام عن النزاع بصورة اوضح بكثير ·**

كانت القضية أن تتجاوز المسألة اليهودية فيما كان السؤال الرئيسي هو ·· ماذا سيحل بيهود اسرائيل ؟ !

ثم يجيب على تساؤله :

بهذا الصدد اعتقد ان بعضهم سيبقون كفلسطينيين يهود · افكر ، بشكل خاص ، باعضاء المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية (**ماتزبن**) أو باليهود السفارديم ، الذين ، في سياق سياسي اخر ، يمكن ان يشعروا انفسهم متضامنين مع العرب ·

بعض الاخرين ، ليسوا في فلسطين الا لان اسرائيل دولة يهودية · سيعودون الى بلدان شتى ، منها فرنسا ، بالنسبة لبعض الراشدين سيكون في الامر بعض الصعوبة ، أما الاولاد فيستكيفون ، على الارجح بسهولة رغم الايديولوجيا التي علموهم اياها · ، الاعتزاز بالهوية الاسرائيلية ··· الخ)· سيكون علينا عندئذ ، اذا توصلنا الى استبعاد الحل الباطل الذي تأتي به الصهيونية ، ان نواصل النضال ضد مختلف أشكال العنصرية ، وكره الاجنبى واللاسامية أحداها · كي يستطيع اليهود في بلدانهم المختلفة ان يعيشوا كيهود · اي كبشر مثل الاخرين ·

ثم يناقش **جان بوبيرو** · الحضارة الغربية ودينية اللسان · ويفضح مواقف كثير من مدعى الديمقراطية والاشتراكية ، يقول · « بالعبرية » (فلسطين) فكانت تكتب وتقال (اسرائيل) وبالعبرية (اسرائيل) تقرأ (فلسطين) ، وان كانت الكلمتان تزعمان الحديث عن نفس الارض ، فان كلا منهما تعنى بلدا مختلفا ، مناقضا · فى الصهيونية الفرنسية ، الاستعمارية كلمة فلسطين ومشتقاتها موجودة ولكنها تسمي بلدا اختفى ، تحتفظ به الاطالس التاريخية وحدها أحيانا يؤدي استعمال متجاوز لنقل معنى الكلمة الى قرينتها العربية : (اللاجئون الفلسطينيون) أو (الاراضي المحتلة من فلسطين) « فلسطين ، عندئذ ، لا تعني سوى جزء من فلسطين : الضفة الغربية وغزة ·

في الغرب يسمح للمرء أن يقدم تحفظات على سياسة حكومة الدولة العبرية ولكنه في النتيجة يجب ان يطالب بتطبيق قرار مجلس الامن · وانه ليس ضد وجود « اسرائيل » والحال ان الوجود يخلق الجوهر والعكس بالعكس البنى اي « الدولة اليهودية » تيوقراطية وعرقية » ان كبار المثقفين الفرنسيين الذين نجحوا في جعلنا نعتقد ابان حرب الجزائر انهم يصلحون بضع كلمات من اللغة العربية هم الان في أفضل الاحوال لا ينطقون (**سارتر · ل · شفارتس**) لئن كان من الواجب ، التمييز بين هؤلاء وبين القابلين بالدولة الاسرائيلية فمن المهم لكي نولد تضامنا صغيرا نحو الشعب الفلسطيني ان نكافح السياسيين المقلصين ·

ان الصهيونية انجبت « قواعد لغوية » · حقيقية وهي تسهم بشكل جوهري في بسط وانماء وادامة قوالب عنصرية مضادة للعرب فحين تحمل الكلمات معنى سلبيا كريها ، اليهود الصهيونيون يعلمون جيدا كيف يشطبونها من قاموسهم · وهكذا كان عنوان مؤسساتهم ، وكانت نصوصهم الرسمية وجرائدهم وكراساتهم تستخدم (العائلة السيمانطيقية لكلمة « Colonialisme » (كولونيالية « استعمار ») ، كوصف لمشروعهم ، أو في الحديث عن الحالة المقامة في فلسطين للصهيونيين مؤسسات قوية ، تعطي وزنا لكلامهم ، وهم يعلمون كيف يثيرون معارضين مزعومين · كي يقضوا بشكل افضل على المعارضين الحقيقيين · والغرب يصدقهم في الوقت نفسه الذي يعترف بلسان احدى مؤسساته الاكثر وقارا ـ **هيئة الامم المتحدة** ـ بأن اسرائيل تكذب عليه وتركب له قرونا · بالفعل نجد اسرائيل مع جنوبي افريقيا ، التى ادانتها هيئة الامم والجنزال السويدي هورك ، رئيس اركان بعثة الامم المتحدة ، خلال ٤ سنوات كتب انه « بحياته كلها لم يتخيل ان الحقيقة يمكن أن تشوه بمثل هذه الكلبية ، وهذه الكفاءة » وكان يتكلم عن الاعلام الاسرائيلي

أن يكون المرء ضد كل حركات العنف وكل النزاعات العنصرية غباء ، يجب أن نبدأ القول ان **الفلسطينيين لهم ، حاليا الحق في** أن يظهروا معادين لليهود تماما كما حركة « **السلطة السوداء** » لها الحق في ان تظهر للبيض ايديولوجيا عرقية ، وهذا هو الموقف الناضج تجاه هذه المسألة ، فاذا كان **روتشيلد** يضطهد الشغيلة بوصفه رأسماليا ففي فلسطين ، **ايبان** ، **الون** ، **بيجن** ، والاسرائيلي المتوسط يسحقون ويجرعون الفلسطينيين باسم يهوديتهم ذاتها ·

يقول **بيربيرو** · ان قراءة الصحف والتجميد الفاشستي لليهودية « حق التوراة » وما تذيعه المدرسة والجيش واجهزة الحزب والمؤسسات اليهودية الدولية ، في اسرائيل وخارجها ، مع موافقة وتأييد الغالبية العظمى من الحاخامات يعزز هذا الاضطهاد·

وتحت عنوان **الفك المستحيل لبناء المنظومة الايديولوجية الغربية** يتابع بيربيرو ، ان الصهيونية وقد افرزها الغرب ، مرتبطة تماما بحقله الايديولوجي ، ومن السذاجة الاعتقاد انه يمكن ان يكون المرء مناهضا لاسرائيل ، أو أن يقوم بحملة تضامن مع الفلسطينيين دون ان يفك في الوقت نفسه مجمل القيم الغربية ، فك بناء ذهنية (تشمل النظرية والايديولوجيا) هي ذهنيتنا · ان وجود اسرائيل يرغمنا ان نتذكر دوما الى اية درجة الفاشستية هي النتاج الطبيعي والمنطقي للديمقراطية الغربية في حالة الازمة ·

الهروب مستحيل · للفلسطينيين حق خوض الكفاح المسلح الشعارات لا تكفي ·· سينتصر الفلسطينيون · كان بامكاننا ان نقول ذلك بشكل مجرد · ولكننا نغير النغم لنعلن : **علينا سينتصر الفلسطينيون** ·

حوار مع مكسيم رونسون :

حوار هيرتيم مع **رودنسون** يتناول مسائل عديدة ، ايديولوجية وسياسية : قضية فلسطين ٢ ـ مسألة المستعمرات ٣ ـ وضع وموقف اليهود السفارديم في « اسرائيل » ، والمقاومة وموقفها من يهود اسرائيل ··

وفي مقطع يبدو **رودنسون معولا** من اجل الثورة على الفلاحين الفقراء المسحوقين · وعلى البلدان العربية التي فيها غالبية فلاحية مسحوقة ، العراق ، مصر ، سوريا ، ثم في مقطع آخر يتحدث عن انحياز الفلاحين للرجعية في عدد من الثورات والحالات ·

حول « امكانية حرب على الطريقة الفيتنامية » يقول رودنسون : الفلسطينيون بحربهم الغوارية ، ربما سيطلقون حربا على الطريقة الفيتنامية ، تخشاها البلدان العربية · انهم يعزلون أنفسهم ، يشكلون جماعة صلبة وطاهرة وبقدر ما يفعلون ذلك يخاف الاخرون ··· هم يخيفون الطبقات ذوات الامتياز بالطبع ، وحتى الطبقات ذات الامتياز الصغير جدا · ولكن ايضا · يجب ان نقول ، حتى هذه الجماهير حين تدرك ان النزاع يمكن ان يتحول الى حرب على الطريقة الفيتنامية الحماس ليس كبيرا

وعلى سؤال اخر يقول رودنسون · الحركة القومية العربية بدأت بين الاقطاعيين وشيئا فشيئا كسبت البرجوازيين الكبار ثم صغار البرجوازيين هنا لا بد من التوقف مرة اخرى وتأكيد ما يلي :

١ ـ ان الحرب الشعبية التي خاضتها الجماهير العربية الفلسطينية اكدت فعالية هذا الاسلوب ، ومن الواضح ان اسرائيل عجزت عن قهر حرب العصابات العربية الفلسطينية ، ولولا تآمر الانظمة العربية على الثورة لما وصلت الى الحالة التي عليها الان ، حيث ان ثورة ١٩٣٦ قد توقفت بقرار عربي كذلك ثورة ١٩٤٨ اجهضتها الانظمة العربية من خلال احتوائها · والمقاومة الحالية تعاني محاولات عربية عديدة لتدجينها واسقاطها ·

٢ ـ ان جبهة العدو جبهة واسعة لاتتناسب مع قدرته البشرية والعسكرية على المدى الاستراتيجي · واذا تم شن حرب العصابات على طول هذه الجبهة داخل فلسطين المحتلة فان ذلك سوف يرغمه على تشتيت قواته وسيساعد على اخلال التوازن لصالح الثورة ·

٣ ـ ان ثورات الشعب الفلسطيني لم تهدأ لحظة واحدة خلال ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨ ـ ٥٦ ـ ٦٥ ولحد الان ·

٤ ـ ان التكوين الطبقي لقيادة الثورة الفلسطينية وبرامجها البرجوازية الصغيرة هي السبب في عدم قدرتها على لف اوسع الجماهير حولها · وردا على سؤال مجلة

هيرتيم حول الاستناد الى الالهام الاشتراكي لنفي الطابع الاستعماري للييشوف يقول رودنسون : كثيرا ما قيل توجد تيارات يمكن ان لا تعمل الا لخير الفلسطينيين · ان اقوالا كهذه تنتسب الى ايديولوجيا ماركسية مبتذلة ، تفترض انه من اللحظة الاولى التي يكون فيها شعب من الشعوب اشتراكيا – اذا كان ذلك حقا – سيكون له مع كل البلدان الاخرى ، الشعوب الاخرى ، موقفا حميما ، الخ ، – هذا تكذبه تماما كل الوقائع الممكنة وهو في مستوى المحاكمة بلا مبرر · الاشتراكية بنية داخلية لمجتمع من المجتمعات · حتى اذا كانت هذه البنية مساواتية ، مثالية · فان ذلك لا يحكم سلفا في شيء على العلاقة التي سيزاولها هذا المجتمع مع اقطار اخرى فضلا عن ذلك · في مستوى الصهيونية ، المسالة لم تكن دولة اشتراكية بل ميولا اشتراكية عند الناس · هؤلاء الناس كانوا يريدون مشاركة في السلطة · في توزع الثروات ولكن باي حال لا شيء يسمح لنا بالقول انه لم يكن عندهم مرام امبريالية ازاء الجار ·

هنا لا بد من القول ان الذي دفع بهذه الميول الاشتراكية التي يتحدث عنها **رودنسون** لم تكن الرغبة في اقامة مجتمع اشتراكي · ذلك ان الطبيعة الرجعية للدولة اليهودية بعيدة بعد السماء عن الارض عن الاشتراكية انما الذي دفعها الى اللجوء للاخذ بالحياة التعاونية والجماعية هي الحاجات العملية التي املتها ظروف الهجرة يقول رودنسون : كان الصهاينة الاشتراكيون اكثر شؤما بكثير على العرب مما كان اليمين الصهيوني ، اليمين كان راسماليا ·حين كانت شركة راسمالية تشتري اراضي في فلسطين كانت تحتفظ بفلاحين عرب لزراعتها · الاشتراكيون والماركسيون وصلوا وقاموا بنضال كامل ضد شعار « العمل اليهودي » الشغيلة يهود ، وان هجرة ١٩٠٥ كانت في قسمها الاكبر مؤلفة من اشتراكيين وقد نظمت حتى عام ١٩٣٠ اضرابات تحت هذا الشعار شعار « العمل اليهودي » ·

هنا لا بد من التمييز في كلام رودنسون بين الصهاينة الاشتراكيين ، وبين الماركسيين الثوريين اليهود · فالصهاينة الاشتراكيون كانوا ينادون بضرورة ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، ويرفعون شعار العمل اليهودي ، بينما الماركسيين المثلين بالحركات الشيوعية الفلسطينية قد اعلنوا مرارا عن رغبتهم في النضال والتعاون مع سكان فلسطين العرب المقهورين ضد الامبريالية والصهيونية ·

٢ – ادانة الاممية الشيوعية (الكومنترن) الصهيونية كونها مشروعا استعماريا قائما بذاته واداة في خدمة الاستعمار البريطاني يستخدمها لقمع العرب ·

ان موقف الشيوعيين اليهود من « الاشتراكيين الصهاينة » كان « ان يقاوم الحزب عن طريق العمل في صفوف الشغيلة اليهود وان يواصل النضال ضد « الصهيونية البروليتارية » ، وان نشاط الحزب يجب ان يهدف الى خلق اتحاد بين جميع الاحزاب الشيوعية في الشرق من اجل مقاتلة الامبريالية البريطانية والصهيونية » ·

بيان الكومنترن ١٩٢٩ ·

وفي مؤتمر الحزب الشيوعي الفلسطيني في كانون اول ١٩٢٨ جاء في الوثائق التي طرحت خلاله ما يلي : ان وطن اليهودي هو حيث يولد · وان فلسطين هي للعرب ·· وواجبنا ان نناضل بجانبهم وان نحرض شعوب العالم ضد الخطر الصهيوني ·

وجاء في بيان **الكومنترن** « الدعوة الى ضرورة تكوين حكومة عمال وفلاحين والحاجة الى وحدة كل البلاد العربية لتشكيل جمهورية مستقلة لعمال والفلاحين »· ثم يجيب رودنسون على سؤال هيرتيم حول موقف السفارديم في الدولة الصهيونية حيال العرب الفلسطيين فيقول : حتى الان سلوكهم هو سلوك « الابيض الصغير » ، لانهم هم الذين « تصادموا » ، او « تقابضوا » ، اكثر مع العرب ، انهم مقسومون · من جهة هم الاكثر « تحمسا او ثورانا » ، في مناهضة العربي · من جهة اخرى روي لي انهم يزورون

بطيب خاطر القرى العربية المحتلة حيث يشعرون انفسهم نوعا ما في بيتهم : نفس العادات نفس الطعام ، امكانية تكلم العربية وهذا شيء هام جدا · وهم حانقين على الاشكنازيم الذين يبقونهم في مرتبة مواطنين من الدرجة الثانية · قبل حرب الستة ايام ١٩٦٧ ، كانت الصراعات الداخلية فاتكة ، وكان يمكن ملاحظة اتجاه الى التفكك · الحرب ، وانطباع الخطر ، اعادا تماسك الاجماع القومي » ·

لا ارى ان **رودنسون** مصيب في هذه النقطة الاخيرة ، اذ ان الصراعات داخل الدولة الصهيونية تحتدم خلال نمو ونهوض الثورة الفلسطينية وظهرت حالات انقسام سياسية متعددة على امتداد السنوات التي سبقت اعلان قيام الكيان الصهيوني ·· وبعد عام ١٩٦٧ ظهرت حركات مناهضة للكيان الصهيوني والفهود السود · حركة ماتزبن ·· حزب العمال الشيوعي الثوري وغيرها ·

ان الجماهير اليهودية لن يكون موقفها حتى النهاية مع السلطة الصهيونية الحاكمة الان في فلسطين هناك العديد من الاعتبارات الموضوعية التي تجعل تفاعل الجماهير اليهودية مع الثورة الفلسطينية والثورة العربية بشكل عام تفاعلا محدودا · ولكن هذه الاعتبارات عرضة للتغيير · وانها زائله · ولا شك ان تغيرها وزوالها مرهون **بنمو نوعي** للحركة الفلسطينية والعربية ، ياتي في طليعة الاعتبارات التي تمنع بروز حالات تاييد جماهيرية واسعة في صفوف اليهود هو الطبيعة الخاصة للمجتمع الذي اقامته الصهيونية في فلسطين · ان هذا المجتمع يتميز بمجموعة من الخصائص تبرز طبيعته الاستعمارية وهذه الطبيعة هي التي تلعب دورا حاسما في تحديد موقف الجماهير اليهودية · وان الدعم الاقتصادي الواسع الذي تلقاه اسرائيل من الامبريالية والحركة الصهيونية العالمية قد خلق أوضاعا اقتصادية انعكست على كل تركيب المجتمع الذي اقيم في فلسطين ١٩٤٨ · لقد استفادت الجماهير اليهودية ، وبنسب متفاوتة من العملية الاستعمارية التي لا تزال قائمة في فلسطين ·

وهذه الافادة تلعب دورا حاسما في تعطيل امكانية نمو وتبلور حالة مؤيدة للثورة الفلسطينية بين الجماهير اليهودية باعتبار أن اسرائيل ليست بلدا تصب فيه المساعدات الخارجية في الجيوب الخاصة لبعض المحظوظين · بل هي بلد تقوم فيه هذه المساعدات بدعم البنيان الاجتماعي القائم ككل · لذلك فالطبقة العاملة الاسرائيلية مشاركة بصورة مباشرة وغير مباشرة في الاستفادة من المد الخارجي بالموارد والرساميل ·

كذلك فان موقف الجماهير اليهودية المتحفظ اتجاه الثورة الفلسطينية يعود الى أن الثورة الفلسطينية لم تقدم حتى الان اي مشروع تفصيلي لحل ثوري للنزاع العربي الصهيوني ·

اليهودية وتحرير فلسطين عمانويل ليفين

يقول **ليفين** انه ، في نهاية الحرب العالمية الثانية ، كنا نتصور ان الصهيونية ستجعلنا نبني عالما جديدا ، عالما يستجيب لتطلعاتنا اليهودية ، ونقدنا للعالم الغربي الذي فيه نختنق ··· ولكني لم البث ان ادركت ان ما سيحصل هو العكس تماما ··· فهمت انه لكي يكون المرء صهيونيا يجب ان يكون قد تفرغ من جوهره اليهودي · الصهيونية عبادة دولة توتاليتارية انها شكل من الجرمانية ، بل من النازية ···

الرأي العام اليهودي صار اكثر فاكثر صهيونية مع سير نمو اسرائيل · كل من انتصارات هذه الدولة ولد حماسا داخل اليهودية الرسمية ·

« وضع دولة اسرائيل ذاته لا يمكن ان يكون موضع سؤال » ·· ذلك يستدعي حجج لاهوتية ولكنها تبدو لي زائفة وباطلة · « وعد يهب فلسطين لليهود » ·

يقول ليفين : يجب فورا ان نلاحظ انه وعد بأرض وليس بدولة ··· ومطلقا بدون اي تدخل بشري اضطهادي وحربي ··· من المستحيل اللعب على مستويات متعددة وتبرير دولة يهودية في فلسطين بتراثنا اليهودي ·· قادة اليهودية الرسمية ينتمون الى الطبقة الرأسمالية والبرجوازية واذا ما أصدر حاخام

افكارا تذهب ضد مصالح هذه الطبقة عندئذ يستعبد · وهذا ما حصل لي · الحاخامات المناهضون للصهيونية « **سفر ديات هارابانيم**» يعتبرون أن مفهوم القومية غريب تماما عن التراث اليهودي يقول احد الحاخامات · ان الديانة اليهودية تدعو للعودة الفردية · العودة الجماعية محرمة على اي شكل في نظر حاخام ساتمار ـ الصهيونيون كفوا عن كونهم يهودا ـ ثم يتابع ليفين · اليهودية العالمية والاسرائيلية هي أولا الطائفة اليهودية في الولايات المتحدة الامة الاكثر امبريالية وعدوانية ، التي تزاول اعمال قتل جماعي لشعوب فقيرة · كل يهودي هو أمريكي » هذا هو عارنا الولايات المتحدة ، قتلة الفيتناميين والزنوج هم ضامنوا حياة اسرائيل : نحن امة عاهرة ؟ ·· نحن براجزه اناس مثقفون· متمدنون ، مع ذلك لا نساوي اكثر من قحاب · بينما في التاريخ ، حياتنا كانت تابعة فقط لتعلقنا بالتوراة · اليوم التوراة لم تعد تحوي سوى وصية واحدة ، ان لا تكون صهيونيا · وكلما ازداد الاسرائيليون قتلا واضطهادا وتهجيرا للفلسطينيين العرب، بعدت ارض فلسطين عن ان تكون أرضهم وفي يوم أو اخر سيجبرون على مغادرتها ، هذا أكيد · فلسطين ستحرر يوما · هي موضوعيا عربية · والتعايش بين الاسرائيليين والعرب لم يعد ممكنا · ···

ان اليهود الاوروبيين ، الاغنياء هم الذين خلقوا الصهيونية · لا اليهود الفلسطينيون الذين لم يكونوا يعيشون الا من اجل دراسة التوراة · ولم يكن عندهم بتاتا فيه خلق دولة يهودية ·· يجب ان نحقق تحولا في افكارنا ، انقلابا سياسيا وثوريا من صهيونيين واسرائيليين مع الامبرياليين الاميركان يجب ان نتحول الى فلسطينيين مع مناهضي الامبريالية في العالم اجمع ، مع العرب بشكل خاص ، الذين يعانون اقوى ضغط من قوى الاضطهاد والاستغلال · الذين هم طليعة القتال من أجل الحرية والكرامة الانسانية لنصرخ في الشوارع ، في الكنائس اليهودية وفي الاجتماعات الصهيونية : **نحن جميعا عرب فلسطينيون** ولنعد الى صدورنا النجمة الصفراء لزمن الاحتلال ، واضعين عليها تحت كلمة يهودي = فلسطينيون ·

ثم يناقش ليفين مقاطع من سفر التكوين ويصل الى النتيجة التالية : ثمة انقلاب جدلي يحصل بين اليهود والعرب الفلسطينوين الفلسطينيون العرب لهم مصير اليهود في التاريخ فهم يعبرون عن امالهم بهذه الجملة (العام القادم في اورشليم) بما انهم يحملون مصير اليهود ، أفلا يكون الوعد لهم ؟ · وعد ارض فلسطين جرى لاسرائيل · ولكن من هي اسرائيل ؟ ربما الشعب الفلسطيني ، بل يقينا الشعب الفلسطيني ، في الكتاب المقدس « حجة الفقير هي دائما الافضل »·

رفض هبة الله :

يتابع ليفين : اذا برهن لي أن حيازة أرض فلسطين مبررة حسب معنى الكتاب · أو ان رجالا ملهمين نالوا بالوحي الامر بالاستيلاء على فلسطين بقوة السلاح · فان موقفي لن يتغير · من اللحظة التي فيها فلسطيني واحد يضطهد او ينقل ، فان واجبي هو مخالفة هذا الامر الالهي ومعارضة تأويل للكتاب كهذا ، حتى لو كان التأويل صحيح · أجيب الله : « لا أريد وعدك أرفض عطاءك · لا استطيع الا ان ارد عرض أرض تؤخذ على دم الفلسطينيين · »

وعلى كل ثوري أن يرى جيدا ان دمار الدولة الصهيونية هو اقصر طريق للثورة العالمية · الدولة الصهيونية هي القلعة الرأسمالية والامبريالية ذات القدرة الاكبر على المقاومة ··· الشعب الفلسطيني ذو طابع خريستي (مسيحي) انه يتعذب من اجل خطايا العالم · الله يتجسد فيه ، الله معه · وسينتصر على الصهيونية والامبريالية بمساعدة كل ثوريي العالم ·

اضبارة « لوموند » :

جريدة « لوموند » من أهم صحف العالم ويقال اعظم وأفضل صحف العالم · هذا صحيح ، صحف العالم ليست جيدة · عنوانها « لوموند » اي « العالم » وهي تغطي العالم خارج فرنسا ·

« لوموند » لها مزية اخرى بالنسبة لنا :

اهتمامها كبير جدا بالعالم العربي ·

نقد « لوموند » مهمة حيوية ، أخذتها على عاتقها مجلة « هيرتيم » وحققتها في عددها الثاني آب ١٩٦٩ بنجاح كبير ، · وفي اضبارة « **لوموند** » كما انشأتها (**هيرتيم**) تحتل قضية فلسطين وما حولها مكان الصدارة باختصار ما هو خط جريدة « لوموند » الرسمية ؟ وما هو أسلوب عملها ؟

١ ـ « **لوموند** » جريدة برجوازية استعمارية ، موضوعية معتدلة منفتحة الخ ··

٢ ـ « **لوموند** » قومية فرنسية وأوروبية ضد أمريكا وضد السوفييت ·

٣ ـ لا تهمها الصين ، الشرق الاقصى، امريكا اللاتينية ولقد عارضت الحلف الاطلسي واعادة تسليح المانيا ولكن يهمها العالم العربي والافريقي ، يهمها اي « لها مصلحة في » ·

٤ ـ « **لوموند** » لا تكذب ، اي تكذب في المناسبات الكبرى بطريقة جيدة ، احدى هذه المناسبات ، أهمها الايام التي سبقت حرب الستة ايام · مرحلة اكمال عملية الجر الشرق اوسطية · انجاز المؤامرة الامريكية ـ الاسرائيلية ، والعملية السيكولوجية المرافقة في فرنسا وأوروبا ·

اعتقد ان **هيرتيم** قبضت على المسائل بشكل ممتاز · وعلينا ان نعطي صورة حية عن عمل **هيرتيم** العظيم ، عن اضبارة « **لوموند** » نظره سريعة للتعلم·

الاضبارة تشكل قاموس أبجدي مسلسل مضامين جدية ، نصوص · شواهد مع تعليقات ومطابقات تحت كلمات وعناوين في شكل لاذع مقاتل ·

(ص ـ ٧ ـ ٩) تحت كلمة لا سامية صهيونية : مقال طويل بتاريخ ١٥ أيار ١٩٤٨ بعنوان « بعث الدولة اليهودية » مع نقد مواز ، تفنيد تفصيلي للاسطورة اليهودية المسيحية ـ الغربية ـ الصهيونية التي حلت محل التاريخ ·

(ص ٢٦) تحت كلمة » بريد القراء » رسالة من قارىء غاضب على هيرتيم وعلى مقال جان بوميبرو الذي قال فيه : في العبرية « فلسطين « تقال وتكتب اسرائيل » وبالعربية « اسرائيل » تقرأ « فلسطين » ·· الخ ··

(ص ٣٣) تحت كلمة فاشستي ، نص افتتاحية « **لوموند** » بعد تأميم قناة السويس وعنوانها السلام المستحيل تقول في خاتمتها « خلال مدة قصيرة ، وباجراءات قوية يجب على باريس ولندن ، حتى اذا ترددت واشنطن بالالتزام ان توجها ضربة الايقاف التي لا غنى عنها ، اتركوا عبد الناصر يفعل اليوم بلا عقاب ، وغدا سيصنع القانون في الجزائر وبغداد ، بينما الخبراء سيبرهنون كما برهنوا لتوهم بصدد هتلر ، على ان نظامه في عشبة الانهيار » ·

(ص ٤٧) نقرأ عن لبنان سنة ١٩٦٧ حتى نهاية ايار ١٩٦٧ لوموند قاومت بنجاح متفاوتة التسميم الصهيوني الذي يسيطر على الصحافة الفرنسية وبالمقابل اعتبارا من ٣٠ ايار اخذت لوموند بهذا التسميم الذي كان يرمي الى تحويل نزاع مضايق نيران الى نزاع بقاء للدولة الاسرائيلية ضد عدوان مزعوم عسكري عربي تبريرا بشكل مسبق لحرب « وقائية » من جانب اسرائيل ·

وهناك عدد لا يحصى من الشواهد التي تقدمها هيرتيم عن صوقية جريدةلوموند· وفي بلادنا ، حتى الان لم يقم احد بعمل هيرتيم · لم يقبض احد على جريدة عربية من سنة كذا حتى يومنا هذا ·· ان الدروس التي نتعلمها من عمل هيرتيم كثيرة وثمة مبدأ لا بد من تثبيته في ضوء هذا العمل ، هو مبدأ الذاكرة · ان تذكر ما قالته الجهة المعنية قبل عشرين سنة ، مطابقته مع اقوالها التالية ، ومع الراهن في تواصله وامتلائه طريق الى معرفة حقه · ان شعبا فقد ذاكرته، شعب فقد روحه · وبالتالي فقد مستقبله ومصيره · تبقى كلمة اخيرة مستحيل ان يفقد شعب ذاكرته · ولكن ثمة دائما مؤامرة على ذاكرة الشعب ، على وعي الشعب ،على روح الانسان ·

هدى حموده

مجلة الكاتب الفلسطيني

وجميع الكتب الصادرة عن الاتحاد العام
للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تطلب من موزعها في لبنان :

دار الكاتب — بيروت

بيروت — خندق الغميق — شارع الشدياق
ملك عسيران — تلفون ٢٩٢٨٧١

كتب صادرة عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

١. **حول كتابات الشهيد كمال عدوان** — منير شفيق
٢. **الشهيد باسل الكبيسي** — د. أسعد عبد الرحمن
٣. **الشهيد غسان كنفاني** — د. احسان عباس ، فضل النقيب ، الياس خوري
٤. **دفاعا عن الجملةالاعتراضية** (شعر) — حافظ عليـان
٥. **دموع السقف الحجري** (قصص قصيرة) — وديع اسمندر
٦. **نقش على الانامل** (شعر) — عبد الرحمن غنيم
٧. **وشاهرا سلاسلي أجيء** (شعر) — خالد ابو خالد
٨. **شهادات للجرح المقاتل** (شعر) — صخـر
٩. **أقبل الزمن المستحيل** (شعر) — ممدوح عدوان
١٠. **نحو حل بروليتاري ثوري للصـراع العربي الصهيوني** — هدى حموده
١١. **حركة القوميين العرب** — باسل الكبيسي
١٢. **الشعر الفلسطيني المقاتل** — نزيه ابو نضال
١٣. **الخيول تموت في ميادينها** — مؤيد البحش
١٤. **الظروف الاقليمية في الوطن العربي** — عوني فرسـخ
١٥. **ملاحظات متفرج** — علي اسحق
١٦. **شهادات على جدران زنزانة** — غازي الخليلي
٢٢. **الثورة الفلسطينية وتطور المسـألة** — وهب رومية
١٨. **الملاجىء والتحصينات** — العميد محمد ابراهيم الشاعر
١٩. **جرش ذات يوم في أيلول** — راينر كرينـدل ، ترجمـة فيصل الياسري
٢٠. **المرأة الفيتنـامية** — ترجمة شادية الحلو

٢١. **حرب الشعب في عمان** — علي فياض
٢٢. **الثورة الفلسطينية وتطور المسألة في لبنان** — فرحان صالح
٢٣. **الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨ — ١٩٧٠** — عبد القادر ياسين وصادق سعد
٢٤. **قراءة في صحيفة الصباح** (قصص) — فضل شرورو
٢٥. **قراءة في دفتر الرعد** (شعر) — عصام ترشحاني
٢٦. **موال للارض والثورة** (قصص) — حكم بلعاوي
٢٧. **طيور المنافي** (شعر) — د. شوقي العمري
٢٨. **ذكريات عن معركة ايلول** — جهاد حتر
٢٩. **الآتي من المسافات** (رواية) — سلوى البنا
٣٠. **احمد الزعتر** (قصيدة) — محمود درويش
٣١. **مهر البراري** (قصص قصيرة) — رشاد أبو شاور
٣٢. **قراءة في عذابات تل الزعتر** (شعر) — شريف الربيعي
٣٣. **العائلة والقرابة عند الفلسطينيين في الكويت** — باسم سرحان
٣٤. **وشاح من العشب لامهات القتلى** (شعر) — نزيه ابو عفش
٣٥. **حبيبتي ميليشيا** (رواية) — توفيق فياض
٣٦. **الطريق الى القيروان** — فايز قنديل
٣٧. **ذكريات عن الشهيد كمال ناصر** — مجموعة مقالات
٣٨. **بالدم نكتب لفلسطين** — كراس عن شهداء الاتحاد
٣٩. **ونزل القرية غريب** (رواية) — احمد عمر شاهين
٤٠. **رسالة الى غزه** (شعر) — علي هاشم رشيد
٤١. **تضاريس من الذاكرة** (شعر) — علي الخليلي
٤٢. **بغير هذا جئت** (شعر) — أحمد دحبور

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع دار العودة ببيروت

٤٣. **الثورة الزراعية في الجزائر** — سهيل الخالدي
٤٤. **بيت الجنون** — توفيق فياض
٤٥. **تجربة الجبهة الوطنية في بلغاريا** — فلاديمير بونيف
٤٦. **البكاء على صدر الحبيب** (رواية) — رشاد أبو شاور
٤٧. **فلسطين في الشمس** (شعر) — مريد البرغوتي
٤٨. **ديوان عبد الرحيم محمود** (شعر) — قدم له د. كامل السوافيري

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع الاعلام الموحد الفلسطيني

٤٩. **فتح الميلاد والمسيرة** — الشهيد كمال عدوان
٥٠. **الشهداء الثلاثة** — مجموعة مقالات
٥١. **الشهيد محمد يوسف النجار** — مقالات ومقابلات

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع دار الطليعة ببيروت

٥٢. **الصهيونية نظرية وممارسة** — مجموعة من الكتاب السوفيات
٥٣. **دراسات في الاقتصاد والاجتماع لبندلي جوزي** — جمع وتقديم ناجي علوش وجلال السيد

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع المؤسسة العربية — بيروت

٥٤. **الادب والمعركة** — وثائق المؤتمر الاول للاتحاد

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع دار القدس — بيروت

٥٥. **المجموعة ٧٧٨** (رواية) — توفيق فياض

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع دار الآداب — بيروت

٥٦. **نجران تحت الصفر** (رواية) — يحيى يخلف
٥٧. **الحداد يليق بحيفا** (شعر) — محمد القيسي

مطبوعات الاتحاد بالاشتراك مع دار ٦ تشرين

٥٨. **اغنيات للفدائيين** (شعر) — ابو الصادق
٥٩. **نشيد البندقية والرجل** (شعر) — محمد حسيب القاضي

مطبوعات الاتحاد بالتعاون مع وزارة الاعلام في بغداد

٦٠. **خميس يموت اولا** (قصص) — علي زين العابدين الحسيني
٦١. **بيت أخضر ذو سقف قرميدي** (قصص) — رشاد أبو شاور
٦٢. **فصول الهجرة الاربع** (شعر) — حسيب القاضي
٦٣. **الضراب في الراس** (قصص) — نواف أبو الهيجاء
٦٤. **المهرة** (قصص) — يحيى يخلف
٦٥. **عن الدموع والفرح الآتي** (شعر) — مي صايغ
٦٦. **المنفى يا حبيبتي** (قصص) — فاروق وادي
٦٧. **الفيضان** (قصص) — حيدر حيدر
٦٨. **عزف منفرد على قماش الخيمة** (قصص) — وليد رباح
٦٩. **زنوج وبدو وفلاحون** (قصص) — غلب هلسا
٧٠. **العجوز** (رواية) — افنان القاسم

بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية — بيروت

٧١. **الصحافة العربية في فلسطين** — يوسف الخوري

توزع مطبوعاتنا في دار الكاتب — بيروت ، الخندق الغميق ، شارع الشدياق ، ت : ٢٩٢٨٧١ ، ٢٩٢٨٧٢ .

وفي مقر الامانة العامة للاتحاد ، قرب جامعة بيروت العربية ، ص ب ٣٠٧٥ ت : ٣١٦٠٣١ .